الجمعية التاريخية

حمص - سورية

مجلة

البحث التاريخي



المدير المسؤول
محمد عبد الصمد الشاطر
رئيس التحرير
اسعد الحسين

مجلة

البحث التاريخي

تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص

هيئة التحرير
الياس مقدسي
عبد الحفيظ شما
عبد الكريم قبجي
منذر حمودي

العدد رقم (١) ٩ رمضان ١٣٩٧ الموافق ٢٧/٨/١٩٧٧

في هذا العدد

جميع المراسلات والحوالات ترسل باسم المدير المسؤول الى العنوان التالي :
حمص — الجمعية التاريخية — شارع عبد الحميد الدروبي

الافتتاحية

لاشك أن معظم الناس على اختلاف درجاتهم وأذواقهم متفقون في الميل الى دراسة التاريخ وتفهم أسراره وخفاياه ، ولكن ثمة هاجساً ظل يقلق بال الجميع ، وثمة أسئلة ظلت تطرح نفسها على مدى الأيام : أين مافيمة هذه المعلومات وما مدى صحتها ؟ وما هو تأثير السلطة وذوي الأهواء الأخرى في انحراف التاريخ عامة ؟ . لاريب أن هذه التساؤلات صحيحة بالنسبة لأي تاريخ يعتمد على سرد الحوادث ونقلها دون تدقيق أو تمحيص ، ولكن التاريخ الذي يخضع الحوادث والأخبار للنقد والتجريح فيشك بالخبر الى أن تتأكد له صحته ويبتعد ما أمكن عن أخبار ذوي الأهواء والأغراض ، مثل هذا التاريخ الذي يضع نصب عينيه القواعد التاريخية الثابتة (ادرس المؤرخ قبل أن تدرس التاريخ ، شك المؤرخ رائد حكمته ، إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ معها ..) لايقال عنه « لايمكن أن يصدق » كما أشار الى ذلك ديكارت معتبراً أن حوادث التاريخ لم تقع بالشكل الذي وصفها به .

بعض حوادث التاريخ يمكن أن يكون هذا شأنها ، ولكن التاريخ الذي طبقت في كتابته القواعد الآنفة الذكر تخرج بعيداً عن هذه الدائرة دائرة ديكارت .

نقول ذلك ونحن نقوم بوضع العدد الأول من مجلة **البحث التاريخي** بين يدي القراء في الوطن العربي ، صدر بعد لأي وطول انتظار . قد لايبلغ في اخراجه ومادته المستوى الأرفع الذي تهدف اليه ، ولكنه بداية مشجعة للسير في الطريق الذي ألمعنا اليه آنفا ، وهو دراسة التاريخ العربي دراسة واعية بعيدة عن العواطف والنقل المرتجل لحوادث اذا ماوزنت بموازين التاريخ الحقيقية كان نصيبها الاهمال ، وهذه مسؤلية كبرى ينبغي أن تتصدى لها كافة الأقلام الواعية والمختصة في القطر العربي السوري بل في الوطن العربي قاطبة .

نأمل للأقلام التي أحجمت عن المساهمة في عددنا هذا بعد طول انتظار أن تنطلق لتأخذ دورها في أعداد مقبلة . فمجلتنا ليست إقليمية متقوقعة ، فرحتنا الكبرى بزوال كل حدود بين الأشقاء وبوحدة عربية شاملة تزيد العرب منعة وقوة .

ختاماً نشكر كل من ساهم وآزر في عملنا هذا ، وأخص بالذكر السيد وزير الاعلام الاستاذ **أحمد اسكندر أحمد** لمساعدته المادية القيمة التي قدمها للجمعية التاريخية في سبيل إصدار هذا العدد .

نعمل بإذن الله وعونه ، وسنحاول سد ثغرات في هذا المجال ، بدلت وشوهت الكثير من تاريخنا العربي المشرق .

والله الموفق .

المدير المسؤول

محمد الشاطر

فلسفة أرنولد توينبي التاريخية ـ مضمونها وصلاتها

للاستاذ: سهيل عثمان

جميل أن يعيش الانسان عمر أرنولد توينبي، فهو قد ولد عام ١٨٨٩ ومات في أواخر عام ١٩٧٥، والأجمل من ذلك أن يستطيع الانسان الاستفادة من عمره استفادة توينبي منه، فهو قد أتم دراسته في جامعة أكسفورد وعلم بها وأتقن اللغتين اليونانية القديمة واللاتينية حتى قال الشعر بها، ثم تعلم اللغة الفرنسية والألمانية والايطالية واليونانية الحديثة وألم بالعربية والتركية، كل هذا فضلا عن لغته الانكليزية. واذا كان توسعه الراسخ في التاريخ الأوربي القديم وتاريخ بيزنطة فهو قد اطلع على التاريخ الحديث وترأس دار شاتام لمسح الشؤون الدولية عدة سنوات، كما اطلع على تاريخ شعوب الشرق الأقصى والشرق الأوسط. وكانت له جولات في الأرض ومحاضرات على مستوى مسكوني. وقد عمل في مؤتمرات الصلح بين الدول الكبرى بحيث اصبح عارفا بكيفية اجراء الصفقات والمساومات وبحيث أصبح يرثي لحال المؤرخين الذين يتناولون الأمور من ظاهرها. وقد نشر كتبا عديدة ترجم بعضها الى اللغة العربية، ولعل أبرز كتبه هو (دراسة للتاريخ) الذي جاء في اثني عشر مجلدا، وقد لخصه (سمرفيلد) وترجم ملخصه الى العربية، كما لخصه توينبي نفسه بعد ذلك، ومن الكتب المعربة له كتاب (العالم والغرب) وكتاب (الحضارة في الميزان) وسلاسل من محاضراته ومقالاته نشرت على شكل مجموعات.

ويعتبر توينبي من رواد إنصاف العرب وبشكل خاص في القضية الفلسطينية على العكس من موقف اكثر معاصريه الغربيين.

منهج توينبي :

يتبنى توينبي منهجاً ثلاثياً، فهو يرى أن عمله يقوم، أولا: على التحقيق التاريخي للحوادث وهو عمل المؤرخ، وثانياً: على استخلاص القوانين العامة للتطور التاريخي مما يقرب جهده من اسلوب العالم، ويقوم عمله ثالثاً على التصوير وهو من

عمـــل الفنان .

ان توينبي يستفيد من الواقع والعقل والخيال ، واذا كان مهتماً بالتأكد من صحة شواهده الكثيرة تاريخياً فهو أيضاً يلجأ الى تأويل القصص الديني والأساطير والحكايات الشعبية . ويستفيد من التراث الأدبي مثـل رواية (آغا ممنون) لأسخيلوس ورواية فاوست لغوته وشعر شسلّي . وله تفاعلات ايجابية وسلبية مع آراء العـديد من الفلاسفة مثـل برغسون وماركس وفخته وهيغل وابن خلدون واشبنغلر .. وتقـوم طريقته في عرض آرائه على ذكر رأيه متبوعا بجملة من الشواهد والأدلة ، ولا يخلو أسلوبه من أناقـة وميل الى الجاذبية الأدبية حتى أنه يبـــدع أحيانا بعض العبارات القابلة للسير على الألسنة كما سوف نرى . ولا ينسى أن يفند الآراء المخالفة لرأيه .

الحضارة وحدة الدراسة :

اذا أردنا أن ندرس الانسان بعد دخوله العصور التاريخية فان أصغر وحـدة تمتلك التكامل الكافي لاقامة الدراسة عليها هي الحضـارة . ان الشعب والدولة والأمـة والقطر تعجز كل واحدة منها عن أن تكون أساساً للبحث ، لأن البحـث الذي يقوم على كل منها سيكون مبتوراً .

ان فهم المجتمع الانكليزي المعاصر لايتم من خلال دراسة التاريـخ الانكليزي وحده فلا بد من النظر الى المجتمع الانكليزي من خلال الحضارة المسيحية الغربيـة وما فيها من زواج وحداني ومن نظرة خاصة الى المرأة والى العائلة والى العـــلاقات بين البشر .

وليست الحضارات كثيرة جداً عند توينبي فالحضارات الأساسـية تمامـاً لاتتجاوز تسع عشرة حضارة ، وإذا أضفنا بعض الفروع الرئيسية بلغت إحدى وعشرين وقد تبلغ ثلاثاً وعشرين ، وإذا أضفنا الحضارات المتعطلة بلغ المجموع ثماني وعشـــرين حضارة . والحضارات عند توينبي أجيال : فالجيل الأول من الحضارات الذي يسـميه بالحضارات الأصيلة بدأ بالسومرية ثم المصرية ثم المينوية ثم الهندية والصينية القديمتين . وقد انقرض هذا الجيل لتحل محله حضارات الجيل الثاني كالهيلينية (وهي اليونانية والرومانية معاً) والسورية والبابلية والفارسية .. وينقرض الجيل الثاني لتملأ فراغه حضارات الجيـــل الثالث كالاسلامية والمسيحية . وقد انتجت القارة الأمريكية قبل غزو الحضارة الغربية لها أربع حضارات كالمكسيكية والبيروفية . وان أغلب الحضارات قـــد انقرضت ولم يبق من الحضارات المتطورة الا خمس : هي الحضارة المسيحية الغربية والحضارة المسيحية

الشـــرقية والحضارة الاسلامية والحضارة الهندية الهندوسية والحضارة الصينيـــة أو البوذية الماهايانية .

وأما الحضارات المتعطلة فلم يزل على قيد الحياة منها : حضارة البدو والبولينـــيزيين والاسكيمو ، وان أوشكت الأوليتان على الانقراض . ولكل حضارة انتاجها المعنـــوي والمادي ، ولكل حضارة سماتها المميزة : فالحضارة الهيلينية يغلب عليها حب الجمال ، ويغلب حب التنظيمات والآليات على الحضارة الغربيه ، كما يسيطر الاتجاه الروحي على الحضارة الهندية. وتتقدم البشرية من خلال الحضارات فكأنها عجلات تدور فتسير عربـة الانسان الى الأمام ، فصاحبنا لا يعتقد أن التاريخ يراوح في مكانه ، ولا يعتقد بدورات متشابهة تمـاما بل يعتقد بالتقدم من خلال دورات متشابهة في خطوطها العريضـة .. ولكل حضارة خط حياة تسير عليه ، اذ تنشأ وتصمد ثم تذبل وتنتهي . ويجمل توينبي مراحل الحضارة ثلاثاً : أولاها النشأة والارتقاء ،وثانيتها الانهيار أو الذبول ، وثالثتها الانحلال أو الانتهاء .

نشأة الحضارة بالتحدي والاستجابة :

الحضارة مسبوقة بمجتمعات بدائية . فكيف انتفضت بعض هذه المجتمعات وأنشأت الحضارات ؟ يرفض توينبي تعليل العرقيين القائلين : بان بعض السلالات متفوقة في تكوينها الدماغي أو البيولوجي تفوقا أتاح لهـا تطوير الانسان ونقله الى المرحلة الحضارية . ان جميع الجماجم في نظر توينبي قابلة لانتاج الحضارة وكذلك جميع الألوان فقد أنتجها البيض والصفر والحمر ، واذا لم ينتجها أصحاب الجلد الأسود قديما فلاشيء يمنـــع من انتاجهم لهـا اذا تحققت الشروط ، وليست العرقية في القديم والحديث الا ثمرة التفوق المؤقت أو نتيجة وهم ذلك التفوق والغرور .

ويرفض صاحبنا تعليل نشأة الحضارة بالبيئة وحدها ، فبعض البيئات الجغرافيـــة أنتجت الحضارات وبعضها لم ينتجها ، وما كل حضارات البيئات المتشابهة بمتشابهة .

وفي الحقيقة فان توينبي عدو التفسيرات الآلية التي تستغني عن عقل الانسان وارادته ، فالتقدم البيولوجي شيء آلي يمكن الحديث عنه أثناء انتقال النوع الانساني من انسان نياندرتال الى الانسان العارف الحالي أثناء العصر الحجري القديم ، ولكن لا يمكن التحدث عنه في المراحـل الحديثة التي نشأت فيها الحضارات ، ولا ننس أن التقـدم البيولوجي للنوع الانساني قـــد توقف تقريبا وبقي التقدم القائم على الانتاج الفكري والاجتماعي . وان التعليل بالبيئة الجغرافية وحدها هو أيضا تعليل آلي ولذلك يرفضه توينبي.

واذا أردنا تفسير نشأة الحضارة حقـا فان توينبي يعيدنا الى الفرق بين المجتمع المتحضر

والمجتمع البدائي ، فمها قلصنا الفروق بينهما فان فرقا جوهريا لابد أن يبقى وهو (أن المجتمع المتحضر يواجه المشكلات التي تتحداه بحلول لها وهذه الحلول تثير مشكلات جديدة يواجهها المجتمع المتحضر بحلول جديدة ، وهكذا تتابع سلاسل التحديات والاستجابات طالما ظلت الحضارة قائمة . على حين يقتصر المجتمع البدائي على مواجهة مشكلات ثابتة بحلول ثابتة أيضاً فهو ، يراوح في مكانه . وهكذا يصل صاحبنا الى سر الحضارة وهو التحدي والاستجابة .

ففي الألف الرابع قبل الميلاد طرحت البيئة الجغرافية تحديا معينا على بعض الجماعات البشرية ، وهو جفاف السهل الافراسي الواقع بين افريقيا وآسيا نتيجة إيغال الجموديات في الانسحاب . وارتبكت هذه الجماعات وتشتت اجتهاداتها فقد ترك بعضها موطنه الأصلي ليتابع أسلوب حياته القديم فظل بدائيا يعيش على الصيد وجمع الثمار ، وقبع بعضها في مكانه مستسلما للجفاف فانقرض ، وغير بعضها مكان اقامته وأسلوب حياته معاً فماش وأنتج الحضارة . وهنا يبرز السومريون الذين تحولوا الى منطقة مابين النهرين وأقاموا زراعة الري الدائم وأنتجوا حضارتهم ودولتهم ، ثم لحق بهم المصريون القدماء الذين أنشأوا أيضا حضارة ودولة ، وأما المينويون فلم يبقوا على اليابسة بل انطلقوا الى البحر فأنتجوا الحضارة المينوية الكريتية البحرية .

وهكذا يتابع صاحبنا بحثه في بقية الحضارات الاصيلة أو حضارات الجيل الأول ، ليؤكد أن التحدي الأول الذي استجاب له الانسان باقامة الحضارات الأولى كان تحديا جغرافيا بيئيا . ولا ينفي صاحبنا وجود تحد بشري ، الا انه يراه غير أكيد . وأما دور التحدي البشري فيظهر أثره جلياً في انشاء حضارات الجيل الثاني كالهيلينية والجيل الثالث كالمسيحية والاسلامية ، فان تحدي المينويين المتقدمين للجماعات اليونانية هو الذي أدى الى قيام الحضارة الهيلينية . والاحتكاك الذي وقع بين الحضارة الهيلينية في أواخر أيامها وبين المجتمع السوري الذي كانت حضارته قد انهارت هو الذي أدى الى نشوء الحضارة المسيحية ثم الحضارة الاسلامية .

ويتخذ توينبي من التحدي مثيراً عاما للافراد والمجتمعات ، فيذكرنا ببراعة المضطهدين وذوي العاهات ونشاط الأقليات ، وبالانتصارات التي تلت الهزائم ، وتفوق مناطق الحدود التي تواجه الضغط الخارجي ، وبالتطورات الاقتصادية التي حصلت على يد ابناء البيئات الجافة والصعبة .

والتحدي المثالي عنده هو التحدي المتوسط سواء أكان بيئياً أم بشريا : لأن

التحدي الخفيف أو فقدان التحدي يبقي المجتمع راضياً بما وجد نفسه عليه فلا يتطلع الى تغيير وتقدم كآكلي اللوتس في الأوديسة. واذا كان التحدي قاسياً جداً فان الانسان ينسحق تحت وطأته، مثل اليونان الفناريين الذين كانوا يصعدون مع صعود الدولة العثمانية واعتمادها على مهاراتهم، فلما حاولوا السيطرة عليها صراحة وثاروا عليها دهمتهم بقوة لاقبل لهم بها فانتهى حلمهم الكبير.

واذا كانت التحديات متفاوتة التأثير فان الاستجابات أيضا متفاوتة القيمة، اذ أن منها مايؤدي الى نشوء حضارة قابلة للتطور والحياة السوية، ومنها مايؤدي الى نشوء الحضارات العقيمة والمتعطلة التي سوف نفرد لها فقرة خاصة. ومن الاستجابات مايفشل فشلا تاما أو نسبياً ومنها ماينجح. وان تباين الاستجابات يتبع تباين التحديات من ناحية، ومختلف الظروف التي يجري فيها التفاعل من جهة أخرى، كما يتبع وجود أقلية متفوقة قادرة على الابداع في المجتمع أو عدم وجود هذه القوة. فالاستجابة ابداع، والابداع من طبيعة فردية، وان المبتكرات التي تصدر عن الهيئات واللجان هي أيضاً فردية لأن الابتكار يقوم به فرد أو أفراد معدودون ثم يناقشهم الباقون حوله ويتبنونه. واذا ماواجهت المجتمع التحديات فليس جميع أبنائه قادرين على المعاناة الملهمة بل تحمل ذلك العبء أقلية من بينهم تؤهلها لذلك مواهبها واهتماماتها وامكانياتها بحسب الموقف.

ومن العوامل التي تساعد هذه الأقلية على الابداع انعزالها فترة ثم عودتها الى الجماعة. فالعزلة المؤقتة تعرفها الأساطير حين تتحدث عن برسفون ابنة زوس كبير الآلهة اليونانية من ديمترا وهي تمثل القمح الذي تغيب بذرته مختفية مدة في التراب لتخرج بالخير الى الناس، كما يعرفها التاريخ الديني مثل غيبة السيد المسيح في الصحراء قبل انطلاقته العظيمة، ومثل هجرة محمد ﷺ من موطنه الاصلي واعتزاله قبل ذلك في الغار، كما أن الوحي كما صوره ابن خلدون يمثل صعوداً مؤقتاً الى المستوى الملائكي ثم عودة الى المستوى الانساني.

وتدل اسطورة الكهف الافلاطونية أن الاعتزال والعودة معترف بها في الفلسفة، لأن الأسير الذي يناشد زملاءه التحول عن أماكنهم والتطلع الى شمس الحقيقة يتركهم أول الأمر ثم يعود اليهم. وان تغيير البيئة أو الهجرة بشكل عام عامل محفز للابداع واتباع الابداع، لان الجماعة اذا ظلت قابعة في مكانها حافظت على تقاليدها وأساليبها، فلم يحسن قادتها الابداع ولم تحسن هي التقبل، وأما اذا ارتحلت فان الأحمال المادية والمعنوية تخف،

وخير الارتحال ما كان عبر البحر ، فيقطع الصلة تماما بالضغوط الاصلية ويرمي الأثقال بالبحر الواسع ، وتشبه الصحراء البحر في هذه المهام .

والابداع الحق هو الذي يطلق شرارة تشبه الدفقة الحيوية عند برغسون يهتز بها كيان المجتمع وينتقل من حال الجمود الى حال التغيير المتتابع ، حيث تأخذ الحلول والمشكلات بعضها بركاب بعض ، وتسير الحضارة الى الأمام . وينتقل أثر الابداع : اما عن طريق التمثل الداخلي للمريدين القلة ، واما عن طريق المحاكاة الآلية من قبل الاكثرية. ومع انتقال أثر الابداع وتقبل الحلول الجديدة تنتشر الحضارة .

امارات تقدم الحضارة :

يحسب بعض الباحثين أن الامتداد الجغرافي هو المؤشر الدال على تقدم الحضارة. ولكن توينبي يرفض هذا المؤشر ، بل يرى أن امتداد الحضارة جغرافياً كثيراً مايقترن بهبوطها وضعف توقدها بدلاً من أن يقترن بصعودها . وله على ذلك أدلة من تاريخ الحضارة الهيلينية والحضارة المسيحية الغربية وسواهما .. وقد راجت عند المؤرخين فكرة قياس تقدم الحضارة بمدى تقدمها التقني ، حتى أن العصور الأساسية سميت باسماء تقنية مثل العصر الحجري والبرونزي ثم الحديدي ثم عصر البخار والكهرباء والذرة ، وان الأدوات ومايتعلق بالتقنيات واضحة ذات ملامح محددة ولذلك يتمكن الباحثون من رصدها بسهوله فيحسبون أنها ضالتهم مع أن التقدم التقني ليس قرينة كافية دائماً على صعود الحضارة ، فانتقال البشر في العصور السحيقة من انسان نياندرتال الى الانسان الحالي تم بدون تقدم تقني ، وقد كان انسان العصر الحجري القديم أرقى حضاريا من انسان العصر الحجري الحديث الذي سبقه تقنياً ، ودليل توينبي على أفضلية انسان العصر الحجري القديم هو أنه فنان رسام فهو مرهف متقدم اذا قيس بخليفته ، وحين تقدمت الفنون العسكرية في عهد جستنيان لم يقترن هذا التقدم الا باضمحلال الحضارة الهيلينية ، وكثيراً ماانتجت الحضارة الآئلة للزوال بعض التقنيات فورثتها عنها الحضارات الوليدة الصاعدة التي لاتملك ذلك المستوى التقني المتفوق ، ثم ماقولنا بالتقنيات الحربية الحديثة التي أوشكت أن تدمر الانسان ؟.

فما هي علامة التقدم الحضاري اذن ؟ انها نمو القدرة على تقرير المصير ، انها قدرة الانسان ممثلاً في جماعة متعاونة على مواجهة البيئة واخضاعها لأهدافه . عند تقدم الحضارة يصبح كل شيء أكثر أثيرية : فالطبيعة مطواع والآلات مرهفة تكاد تشف عن

روح الانسان سيدها ، وكلما ارتفعت الحضارة قلت المشكلات الكونية وتفرغ الانسان للمشكلات الاجتماعية والمعنوية ، وكأن تقدم الحضارة نوع من تأنيس الكوني والحاقه بالانساني . ومادامت الحضارة في صعود فان القلة المبدعة تنتج الحلول والأكثرية تتبعها معجبة .

مرحلة انهيار الحضارة

بعد فترة الصعود تقع الحضارة في مستنقع الركود وجفاف معين الابداع التي يسميها توينبي مرحلة الانهيار . ولا تعني هذه المرحلة انتهاء الحضارة واقعيا وزوالها من عالم الوجود ، وانما تعني جمودها وتوقفها ثم انحدارها .

ويرفض توينبي التفسير البيولوجي لانهيار الحضارة وأنه نتيجة انحطاط دم العرق المنتج لها أو اختلاطه ، كما يرفض تعليله بتشيخ الأرض التي تقوم عليها الحضارة ونضوب خيراتها لأن الأرض دائما بخيلة على المهملين الجامدين سخية على المبدعين النشيطين . والتعليل الذي يضعه صاحبنا لانهيار الحضارات هو تقاعس القلة المبدعة عن الابداع واتكالها على حلولها السابقة مع أن المواقف تتغير والمشكلات تتجدد . وهكذا تجابه الحضارة المشكلات الجديدة بالحلول الجاهزة مسبقا والتي لم تخلق لها ، ويطلب من الخمر الجديدة على حد قوله أن تنصب في الزقاق القديمة ، وتحمل الوسائل أكثر من طاقاتها .

وتستطيع عين المؤرخ أن تلمح ذلك حين تجمد القوانين والتشريعات فلا تساير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والطبقية المستجدة ، وحين تجمد الفنون العسكرية فتواجه الأعداء المتنوعين بوسيلة واحدة لاتتغير بتغير الظروف ، وحين يبدو على المجتمع ـ وبشكل خاص فئاته العليا ـ الانبهار بما قدمت سابقا والتمسك بما تم الوصول اليه بحيث يغلق باب التجديد . وعندئذ لاتنظر الأكثرية الى القيادات على انها أقلية مبدعة تتبع اعجابا بها وثقة بقدراتها وخصبها بل تعتبرها أقلية مسيطرة يجب التخلص منها ، وتلجأ هذه الأقلية الى القوة لتثبيت سلطانها ، وتحصل انشقاقات في المجتمع : منها انشقاقات بين المناطق ومنها انشقاقات بين الطبقات ، وتبرز مشكلة البروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية . أما البروليتاريا الداخلية فهي الجماعات التي تعيش في منطقة حضارة ما وتعاني اضطهاداً أو حرمانا اما بسبب عوامل طبقية أو طائفية أو عنصرية ... وهذه البروليتاريا تغدو مع الأيام عنيدة ذليلة وتتطلع الى التغيير ، وأما

البروليتاريا الخارجية فتعيش خارج حدود حضارة معينة وبشكل قريب منها يسمح لها بالأحتكاك بها فتخافها وتحسدها وتتمنى الحلول محلها . فذا ماأضيف الى كل هذه المتاعب نمو الروح الحربية التي تسعى الى القتال لغير أغراض البقاء ، فان الحضارة تهدر دمها وتستنفد جهودها بنفسها وعلى يد أبنائها ، وقد يصبح حماتها أكلة لها فتبدو عليها أعراض الانتحار ، وتجد أمامها أحد طريقين : فاما الانقراض واما انقاذ يضحي بكثير من القيم الايجابية ، وغالبا ماتحظى الحضارات بهذا الانقاذ .

مرحلة انحلال الحضارة :

ويكون الانقاذ المؤقت بان تقوم حركة قوية تجمع شمل الحضارة ، وتقيم لها دولة عالمية أو دولة شاملة لجميع أجزائها بالقوة ، فتنعم الحضارة بفترة من الهدوء ، وتعيد هذه الحركة النظر في الاوضاع السائدة فتتخذ اجراءات عدة للقضاء على البلبلة والضياع ، اذ توحد الانظمة والمقاييس واساليب الادارة ، وقد تثبت الطقوس الدينية وتستفيد احدى اللغات فتسود محتملة بعض التدني في طبيعتها بسبب ذلك ، وقد تنعم الحضارة بفترة من السلم . وفي هذه المرحلة او في أوائلها على وجه الدقة تبدو على الحضارة امارات الصحة وتستعيد شيئا من ازدهارها ، وينخدع كثيرون فيظنون أن الامور قد وضعت في نصابها مرة اخرى ، وأن الحضارة سوف تستأنف طريق صعودها الا أن هذا التحسن ليس الا صيفا هنديا خداعا يخفي وراءه التحلل التدريجي الذي ينتهي غالبا بزوال الحضارة ، لان جذوة الابداع الحقيقي تكون قد انطفأت وكل ما يجري فانما هو ترميم وترقيع يحور في الظاهر ولا يتناول الجوهر المتعب .

وتتابع عوامل النخر عملها ، فالروح الحربية تستيقظ وتتابع تخريبها ، وهذا ماجرى للحضارة الهيلينية التي بلغت احدى ذراها في عهد صولون ، ثم واجهت التحدي المالتوسي حين لم تعد حاصلاتها تكفي سكانها بالاستعمار واتساع التجارة والحرف ، ثم أخذت تفتك بنفسها بعد أن اتسعت على يد المكدونيين الى أن نعمت بالسلم الرومانية التي هيأها لها أغسطس ، وقد شهر أغسطس السيف وأراده أن يغمد من بعده ، فلم يتحقق حلمه وان أتاحت امبراطوريته للهيلينية عمراً مديداً من بعده ، تحللت فيه على مهلها حيث أنضجت البروليتاريا الداخلية اليهودية ، الديانة الجديدة التي مالبث البرابرة الذين يمثلون البروليتاريا الخارجية أن تقبلوها وقضوا على الحضارة الهيلينية لتحل محلها الحضارة المسيحية . وقد ترفض الحضارة أن تزول بنتيجة مرحلة الانحلال مع أن الزوال هو

الغالب ، وحين تصر على البقاء فانها تبقى متحجرة مجترة لذاتها ، كما جرى للحضارة المصرية القديمة التي كان من حقها أن تزول منذ الألف الثالث قبل الميلاد، ولكن غزو الهيكسوس لها أيقظ في أبنائها الاصرار على التشبث بها فعاشت بعدذلك آلاف السنين وهي متصنعة جامدة .

وخلال مرحلة الانحلال تتبلبل الأنفس فتتقاذفها تيارات متطرفة مثل التيار السلفي الذي يريد أن يعيد الماضي الذهبي في الظروف المستجدة بالطرق القديمة، ومثل نقيضه التيار المستقبلي الذي يدعو الى قطع كل صلة بالماضي وتكوين مستقبل باهر ، وكل من هذين التيارين هارب من الواقع : فالسلفي هارب منه الى الماضي ، والمستقبلي الى المستقبل. وقد تنطلق بعض الانفس وراء دوافعها وغرائزهـا ، على حين تبالغ أخرى في ضبط النفس وقمعها ، وهذان التياران منحرفان عن التوازن الواقعي . وقـد تتقدم الفلسفة محاولة سد الثغرة التي حصلت نتيجة لضعف الدين أو الرابطة الروحية ، ولكنها لا تعطي الافلسفات انتقائية : اما أن تسودها النزعة السلفية أو النزعة المستقبلية . وهكذا تظل الحضارة في تخبطاتها الاخيرة الى أن تنتهي .

حضارات عقيمة وحضارات متعطلة :

حين تتولد الحضارة من التفاعل مع تحد يفوق قدرة المستجيبين : فاما أن تنشأ هذه الحضارة عقيمة ، واما أن تكون متعطلة . والحضارة العقيمة تموت في مهدها بعد أن تعيش فترة وجيزة بالقياس الى العمر الطبيعي للحضارات ، والذي يمتد عند توينبي الى آلاف السنين . ومن المجتمعات العقيمة المجتمع الاسكندنافي الوثني الذي حاول منافسة الحضارة المسيحية وعرف ذروة ازدهاره في ايسلندة ، ولكنه مالبث أن ذاب في الحضارة المسيحية . والحضارة العقيمة الثانية هي الكنيسة المسيحية الكلتية في ايرلنده ، والتي حاولت أن تقيم نظاماً للدين والحياة مستقلاً عن نظام الكنيسه الكاثوليكية ، الا أن هذه مالبثت أن قهرته حضارياً في حوالي القرن العاشر .

وأما الحضارة المتعطلة فانها تعيش مدة طويلة ، ولكنها لا تتقدم خلال حياتها عن الخطوة الأولى التي خطتها عند نشوئها ، فالاستجابة الأولى تأسرها ، وكأن ثقل التحدي الذي واجهته في البداية كان كبيراً بحيث استنفد مجهودها الابداعي فلم تستطع أن تتابع تطوير نفسها وان حافظت على بقائها . ومن المجتمعات المتعطلة مجتمع الاسكيمو والبدو والبولينيزيين والعثمانيين ومجتمع اسبارطة . وليكن مثلنا التوضيحي هو المجتمع

العثماني نظراً لصلته بتاريخنا ، فالمجتمع العثماني فرع على الحضارة الاسـلامية انشأه الاتراك الذين كانوا مقيمين في سلطان أونو ورشحهم التحـدي الذين يواجهونـه أمام العدو ليكونوا أصحاب هذا الفرع الحضاري من دون بقية جيرانهم وأقربائهم الاتراك الآخرين . وقد كان ابداعهم المثمر هو أنهم كونوا لقوتهم مدداً بشرياً دائماً بانشائهم الجيش الانكشاري بغض النظر عن قواعد الاصل مهتمين بالتربية وتأسيس النفوس فلم يعودوا بدوا مفروضين بقوتهم الضيقة على سـكان المناطق المفتوحـة بل أصبحت هذه المناطق تمدهم بالمحاربين عن طريق النظام الذي اتبعوه بدقـة وأكثروا من أجله الترغيب والترهيب وهم في ذلك يشبهون المماليك الا أن نظام الجيش الانكشاري أدق وبهذه الطريقة نجوا من قصر العمر الذي تصاب به الدول البدوية عادة كما وصفهـا ابن خلدون .

وحين فسد الجيش الانكشاري لم يقدم العثمانيون ابداعا جديداً ملائماً يحـل محله وانما قلدوا الدول الأوربية في أنظمة الجيوش الحديثة التي يبـدو أنها لم تناسـب تكوينهم فما لبثوا أن انهاروا .

ومما أسرع بانحلال العثمانيين انتشار مبدأ القوميات بين شعوبها فان هذا المبدأ اذا كان مفيداً لاوربا الغربية التي اتفقت فيها حدود الدول القومية مع حـدود اللغـات فقد كان سـما لمجتمعات أخرى كالسلطنة العثمانية التي كانت تضم مزيجاً معقداً من العنـاصر والطوائف .

الديانات والحضارات :

عبد الانسان في البدء قوى الطبيعة ، وحين انتصر عليها بانشاء الحضارات عبد ذاته بشكل صريح أو مقنع ، ولكن الحضارات القديمة لم تلبث أن وقعت في المتاعب وهبت عليها رياح الفشل فادرك الانسان وجود القوى العليا الحقيقية وظهرت الديانات العالية كاليهودية والمسيحية والاسلام والهندوسية والبوذية .

وفي نشأة حضارات الجيل الثالث لعبت الديانات دوراً تكوينياً أساسياً فان قسما من مضطهدي الحضارة الهيلينيـة أو البروليتاريا الداخليـة فيها افرز الديانة المسيحية فتقبلتها البروليتاريا الخارجية الفرنجية والقوطية وأمثالهـا وسيطرت بها على المناطق الهيلينية بعد أن كانت هذه الحضارة ذاتها قد استسلمت الدين الجديد وانفتحت بلادها للغزاة .

وقد حاول المجتمع السوري أن يرد على التأثيرات الهيلينية والمسيحية رداً يحفظ له تجدده وشخصيته بعد انهيار حضارته الأولى فعجزت النسطورية والمينوفستية وتجديد اليهودية والزرادشتية عن ان تحمل عبء الصمود الى أن ظهر الاسلام وحمله أول ماحمله العرب وهم بروليتاريا داخلية للحضارة السورية كانت مقصاة ، ونجحت هذه الاستجابة فاصبحت الرابطة المحركة لمنطقة الشرق الأوسط ملأت الفراغ الحضاري في كثير من بقاع الشرق .

واذا كانت المسيحية قد بدأت سلمية فان أمراءها مالبثو أن استخدموا كل أنواع القوة .

واذا كان الاسلام بدأ حربياً يخير الناس بين الدين الجديد وبين الجزية - لا بينه وبين الموت - فانه بعد مدة أخذ ينتشر بالطرق السلمية وتقبلته الفئات العليا والدنيا في المجتمعات الشرقية وانصهر فيه كثير من تراث الحضارات السابقة وبشكل خاص التراث السوري .

ويعطي توينبي لهذه البداية الدينية التي انطلقت بها حضارات الجيل الثالث أهمية كبيرة ويتوقف عندها طويلاً حتى يوشك أن يجعل منها قانونا عاماً مع أن الأجيال السابقة من الحضارات لم تبدأ بها .

وعلى كل حال فاذا كانت الديانات تستطيع أن تكون بذور حضارات فهي أيضاً غايتها فغاية الانسان هي السمو والاتصال بالكائنات العليا .

ويعتقد أن الديانات الكبيرة الباقية اليوم هي المسيحية والاسلام والهندوسية والبوذية والماهايانية ، وأن حل أزمة الانسان المعاصر يكمن في قدرة هذه الديانات على التفاهم والتعاون وترك التعصب بحيث تهيىء الجو لقيام حضارة انسانية عامة .

فصاحبنا يقيم تفكيره على قاعدة دينية ويرى أن الالهي لايقل واقعية عن البشرى . الا أن تدينه لايعيق قناعاته الأخرى العلمية والفلسفية فهو يفهم الانسان الأول فهماً يقوم على نظرية التطور مثلاً .

ويحاول توينبي ان ينصف كل ديانة فهو معجب بدعوة المسيحية الى المحبة وبتوحيد الاسلام الذي لاتشوبه شائبة .

الحضارة المسيحية الغربية :

نبدأ الآن باجراء تفحص مستقل لكل من الحضارات الخمس المتطورة الباقية

ـ أي الباقية من بين الحضارات غير المتعطلة ـ وهي الحضارة المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية والاسلامية والهندية الهندوسية والصينية والبوذية .

وقد نشأت الحضارة المسيحية واحدة مالبثت أن انشقت الى فرعين كبيرين هما الفرع الغربي الكاثوليكي والفرع الشرقي الارثوذكسي .

وقد تطورت مراكز الغربية بحسب الضغوط وتنوع الأعداء إذ هي تارة تواجه أعداء من الشرق وأخرى من الشمال وثالثة من الجنوب الغربي ، وقد كان مسلمو الاندلس من أكبر مهدديها فانتهت منهم.وتفوقت على زميلتها الشرقية ونافستها على بعض أرضها . وحين كانت مهددة بالاجتياح اعتمدت على النظام الاقطاعي كحل لمشكلتها الدفاعية ، ولفظته حين تغيرت الظروف التي انسجمت معه ، وقد حررت علاقة الانسان بمجتمعه عن طريق الديموقراطية ، ثم اعتمدت على الصناعة لحل المشكلة الاقتصادية . ولم يعد لها من بروليتاريا خارجية بربرية تنافسها ولكنها تلقى كفاحا من قبل الحضارات الباقية الأخري التي تقف موقف الدفاع عن النفس منها واكبر منافس الآن لها هي الحضارة المسيحية الشرقية ، كما أن مشكلة العمال والمحرومين أدت الى منازعات تشبه المنازعات التي تثيرها البروليتاريا الداخلية ولكن الغربية سارت قدما في حل مشكلة الطبقة العاملة لديها .

واذا كانت حتى الآن هي الحضارة السابقة لسواها فمن المتوقع أن تكون قد وصلت فترة الاضطرابات المصاحبة للانهيار .

ومن أخطائها غرورها حتى كادت أن تنسى أن التاريخ قد عرف سواها .

ومن أخطائها أيضاً الاستعمار الذي بدأ بالزوال .

ومن أخطائها أيضاً منح فلسطين للحركة الصهيونية .

وقد انتقل مركز ثقلها من أوربا الى الولايات المتحدة الأمريكية نظراً لاستغراق الدول الأوربية في الروح الحربية حتى استنفدت قسما كبيراً من مجهوداتها .

الحضارة المسيحية الشرقية :

بعد انشقاق المسيحية تمركزت الحضارة الشرقية حول القسطنطينية وفي بلاد اليونان وفي روسيا ثم خسرت القسطنطينية وبلاد اليونان كمنطقتين مستقلتين على يد العثمانيين فاصبحت روسيا تعد نفسها القيصرية الشرقية وخليفة بيزنطة المسيحية .

وقد كان التطور في الغربية يتم على يد قسم من الشعب وهم البورجوازيون وأما في المسيحية الشرقية فقد كان يتم على يد الحكام الذين يساعدهم المثقفون .

ومنذ البدء أصبحت الدولة هي الأساس والكنيسة مساعدة لها وتابعة عند اللزوم على عكس دور الكنيسة المستقل عن الدولة وأحيانا المتعالي عليها عند الغربيين .

وقد عانت المسيحية الشرقية من خصوم كثيرين من أهمهم الغربيون أنفسهم . وقد ردت هذه الحضارة على تفوق الغرب بان بدأت منذ أيام بطرس الاكبر تستعير تقنيته وما تحتاج اليه هذه التقنية .

وقد أتم الاقتباس لينين وحزبه اذ اقتبس العقيدة الماركسية وهي عقيدة غربية متمردة على الغرب فكيفها مع خصائص الامبراطورية الروسية السابقة وقاد بها النهضة التقنية والعلمية فلم تعد الحضارة الشرقية منافسة للغرب تقنيا فقط بل تنافسه معنويا اذ تلوح للشعوب المستعمرة بالتحرر وتلوح للمحرومين من أبناء الغرب نفسه بالعدالة الاجتماعية .

وان التنافس الاقوى الآن واقع بين الاتحاد السوفيتي كممثل للحضارة المسيحية الشرقية المتجددة وبين الولايات المتحدة ممثلة للحضارة الغربية .

ويعتمد الامريكي على المشروع الفردي والحرية ويظن أنه قد حقق العدالةويعتمد الشرقي على العمل الجماعي والعدالة ويظن انه يحقق الحرية .

والحل عند توينبي بين هذا وذاك فهو الاشتراكية الديموقراطية والمثمرة في آن واحد .

الحضارة الاسلامية :

رأينا كيف انصلقت هذه الحضارة على يد العرب تحمل التوحيد والتسامح الديني وقد استطاع الاسلام أن يملأ الفراغ الحضاري في منطقة الحضارة السورية السابقة ومنطقة الشرق الاوسط بشكل عام كما وصل تأثيره الى الشرق الأقصى وأوربا .

وما لبثت الحضارة الاسلامية أن انشقت كالمسيحية الى فرعين أولهما الفرع الغربي العربي وثانيهما الفرع الشرقي الايراني أو الأعجمي ، وتغلب الفرع الشرقي الذي كان العثمانيون آخر ممثليه ، وقد عرفت هذه الحضارة برسالة ومجداً اعتزت بهما حتى أصبح من الصعب أن تستفيد من الدروس ، فهي من أكثر الحضارات تحفظاً تجاه الاقتباس

من الغرب المتفوق مع انها ليست بعيدة عنه في المكان والذهنية .

وقد جرت محاولات للتغريب فشل بعضها كمحاولة محمد علي في مصر ومحاولة أمان الله خان في أفغانستان ونجحت حتى الآن احدى المحاولات المتطرفة وهي محاولة أتاتورك في تركيا .

ويعد العرب من ابناء الحضارة الاسلامية وقد فقدوا الوحدة التي كان يفرضها العثمانيون باسم الاسلام وهم يتطلعون الى وحدة جديدة خاصة بهم . ومن واجبهم ان يسرعوا بها ليستطيعوا الاستفادة قبل فوات الاوان من موقعهم الجغرافي ومن محصولهم الرئيسي الهام الذي هو النفط ، فضلا عن أنهم يلقون من التحديات مايجعل الوحدة استجابة ناجحة .

ومن اهم التحديات التي يواجهونها التحدي الصهيوني ، فاليهود بقية من الحضارة السورية القديمة أبت أن تذوب في سواها ، وان ظاهرة البقايا من الحضارات المنقرضة ظاهرة معروفة ومن أمثلتها النسطوريون والبارسيون

وقد تنازع اليهود في العصر الحديث تياران يدعو أحدهما الى الانصهار في مختلف البلدان وبخاصة بعد انتهاء الاضطهاد الذي كان يوقعه عليهم الشرقيون ثم الغربيون بينما برىء المسلمون منه ، وأما التيار الثاني فهو الصهيوني الذي يدعو الى اقامة الدولة العبرية في فلسطين وقد تعاون الغرب مع هذا التيار وساعده ساسته على طرد السكان الاصليين وانشاء الدولة الصهيونية على أنقاضهم وكان هؤلاء الساسة يعرفون مايفعلون فيخدعون العرب وينفذون مخططات الصهيونية ، وليس لليهود في فلسطين الا ماشتروه بحق كما يرى توينبي ، فاذا تذكرنا هبات المندوبية البريطانية السافرة والمقنعة المؤسسات الصهيونية وأنواع الضغوط التي كانت تمارسها على الفلاح العربي وتعاون بعض الجهات الأخرى معها أدركنا أن ماشتراه اليهود بحق لايكفي لاقامة مزرعة فضلا عن دولة .

الحضارة الهندية :

نشأت في الهند حضارتان وإن الباقية منها هي الحضارة الهندية الهندوسية التي منحها الأباطرة المغول المسلمون دولتها الشاملة ثم استولى عليها الغرب تماما فقام غاندي يقود نضالا سلميا للتحرر ونبذ التغرب ولكن الحضارة الغربية المتفوقة تزحف على الحضارة الهندية التي يسعى كثير من قادتها الى اتباع النظام الديمقراطي البرلماني الغربي وهو نظام بدأته بريطانيا ، وقد اصبح هذا النظام مهدداً في بلاد الغرب ذاتها

لانه يقوم على مبدأ الدائرة الاقليمية على حين ان الاهمية الفعلية قد أصبحت للقطاعات الاقتصادية فهل تتمكن الهند من الثبات على هذه الطريق أم أن مشكلات الفقر ستوقعها في الطريق الماركسي ؟ .

الحضارة الصينية :

ان الصين عريقة حضارياً وقد علمت البشرية الشيء الكثير وان الحضارة الباقية فيها هي الحضارة القائمة على اساس البوذية وهي أيضاً تواجه زحف الغرب المتفوق عليها وقد اختارت أخيراً أن تتبنى العقيدة الماركسية والتقنية الغربية كالاتحاد السوفيتي وأخذت تصعد في هذا المضمار .

الموقف الحضاري والدولي الراهن :

لاحظنا ان الحضارة الغربية وحدها من بين الحضارات الباقية مازالت في مرحلة الشباب ،وأماالحضارات الاخرى فقد دخلت في مرحلة الانحلال ،وهي تعاني من زحف الحضارة الغربية ،ولكنها تبدأ باقتباس الآلات والبضائع والتجهيزات وترفض مبدئياً قبول المبادىء ، والأنظمة ولكن الادوات تجر المبادىء ، فالزحف قوي!.

ولكن الحضارة الغربية نفسها مهددة أيضاً ،لأن أبناءها يتهربون باستمرار من عقيدتها الأصلية ، حتى يمكن اقول بانها واشرقية حضارتان شبه مسيحيتين أو حضارتان كانتا مسيحيتين .

ولهذا يتطلع توينبي إلى نشوء حضارة انسانية شاملة تستفيد من الخصائص الايجابية لجميع الحضارات الباقية ، وقد يقدم الغرب العلم والصناعةوالأنظمة،ويقدم الشرق السمو الروحي .

وأما الموقف الدولي فهو مرعب بعد ظهور الأسلحة الجديدة ، وتمركزالقوةفي يد الدولتين العظيمتين بشكل يجعل من المحتمل نشوب نزاع مفاجيء ،مدمر .

ويتطلع توينبي إلى نشوء دولة عالمية قائمة على القناعة لا على القوة، ولذلك يوصي بالأمم المتحدة خيراً ،ويطالب بتوجيه التربية توجيهاً يقوم على الاعجاب بخدام الانسانية لابقاتليها ،ويجعل أمله في الشباب القادرين على التحرر من الانقياد والتعصب والمطامع والعداوات المقيتة . وأمله أن تعيش البشرية حياة اشتراكية ،توفق بين حرية الفرد

وضرورات الحياة الاجتماعية . ولكنه في هذه المجالات يبدو موصياً وواعظاً أكثر منه صاحب مخططات علمية . ويقيم أكبر أمله في حل الأزمة الحضارية والدولية الراهنة على تفاهم الديانات الكبرى الباقية .

مقارنات :

يتضح مضمون فلسفة توينبي وأصولها بعقد المقارنات التالية :

١ — توينبي وابن خلدون : يعرف توينبي فيلسوف التاريخ العربي ويستشهد به في عدة مواضع . ويتشابهان في اتساع المعلومات وكثره الشواهد وتتفق فلسفتاهما في اعتقادهما بالدور الثلاثي أو الأجيال الثلاثة للحضارة .

إلا أن ملاحظات ابن خلدون لما حوله جعلته يربط الحضارة بالدولة غالباً، فلكل دولة حضارتها التي تبدأ بعد انتقال جماعة هذه الدولة من الاسلوب البدوي الى الأسلوب الحضري المستقر .

وتظل في ازدهار الى عهد قريب من سقوط الدولة . وعمر كل حضارة بشكل عام قصير عند ابن خلدون لانه يربطه بعمر الدولة كما يتصوره ،وهو غالباً ثلاثة أجيال تمتد على مئة وعشرين سنة بل يقنع أحياناً بمئة سنة ، ومن هنا أيضاً كانت الحضارات عند ابن خلدون كثيرة فكأنها موج البحر الذي يعلو ويهبط . واما الحضارة عند توينبي فليست مقترنة بدولة واحدة بل قد تضم العديد من الدول وبخاصة قبل وصولها الى مرحلة الدول العالمية الاخيرة ، والحضارة عند توينبي أطول عمراً من الحضارات الخلدونية بكثير ،وهي بالتالي اقل عدداً كما رأينا من قبل . ويبدو ان العصر الحديث قد اتاح لتوينبي بيانات عاليه عن الماضي والحاضر لم تتح لابن خلدون ، على ان ابن خلدون لايخلو من اشارات الى حضارات اوسع وأثبت من الحضارات الموجبة التي اكثر من الحديث عنها. ولكن تقصي هذه الفكرة يحتاج الى بحث خاص .

٢ — ويتشابه توينبي مع فيلسوف التاريخ الالماني شبنغلر في اقامة دراسة الانسان على أساس الحضارات ، وفي ان الحضارات حديثة نسبياً ، وأن حياة الحضارة لها مجرى معين . إلا أن توينبي يمقت جبرية شبنغلر ويميل الى الاعتقاد بوجود الحرية الى جانب الحتمية والقوانين العامة .

٣ — ويستفيد توينبي من مفهوم الدفقة الحيوية أو الوثبة الحيوية عند برغسن وهو بشكل عام يسير مع برغسن في تيار واحد هو التيار الروحي الذي يهتم بالدين والسمو الى الالهي ويكره الاقتصار على الآليات والماديات . إلا أن برغسن ينطلق من علم الحياة على حين ينطلق توينبي من علم التاريخ . ثم إن فلسفة برغسن فلسفة عامة ذات نظريات في الوجود والمعرفة والانسان ، واما فلسفة توينبي فتكاد تقتصر على الميدان التاريخي . ويعد بعض الباحثين فلسفة توينبي من أكمل الفلسفات وأكثرها معاصرة لانها تجمع الأبعاد الاربعة للمكان والزمان الى البعد الخامس وهو الحياة الى البعد السادس وهو الروح .

٤ — ويبدو أن توينبي قد استفاد من الماركسية ،فهو يبرز الصراعات الطبقية كنوع هام من أنواع الصراع ويتحدث عن الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية ، ويحتل مفهوم البروليتاريا مكانة خاصة عنده ، واننا لاننسى أن ماركس هو باعث الاهتمام بمفهوم البروليتاريا في الفكر الحديث وان استخدم توينبي هذا المفهوم بمعنى أوسع من المعنى الماركسي . وعلى كل حال فان الجانب الاقتصادي عند توينبي هو أحد الجوانب الرئيسية في حياة الانسان وليس هو بالجانب الأساسي الوحيد، وينتقد بعض الماركسيين توينبي إذ يعدونه فيلسوف مثالياً وصاحب منظومة من الأفكار أنتجها الغرب لمنافسة الماركسية .

كما يكرهون حديثه عن الاقليات المبدعة ويعتبرونه من أنصار نظرية الأفراد الأبطال .

٥ — ولا يخلو فكر توينبي من صلة مع فكر تلميذي فرويد المنشقين عنه وهما الفريد أدلر وكارل يونغ . فقد اهتم توينبي بالتحديات ومحاولة التغلب عليها عند الفرد والجماعة ، وهذا قريب من اهتمام ادلر بمحاولة الانسان التغلب على عوامل نقصه والتعويض عنها بحيث تنشأ العبقرية والابداع عن هذه المحاولة كما قد ينشأ الجنون والعدوان . ويتحدث توينبي عن اللا شعور الفردي الذي اكتشفه فرويد وعن اللاشعور الجمعي للنوع الانساني الذي اكتشفه يونغ ، ويقترح أن يضاف اليها اللاشعور الزمري الذي يعود الى أصل جماعة أو حضارة معينة . وكأن توينبي يريد أن يطرق كل الأبواب وأن يستفيد من تراث العصر باجمعه .

وأخيراً فقد قيل عن الرجل بانه فيلسوف انتقائي ، وقيل عنه إنه شاعر خيالي وقيل أنه يخضع الحوادث لنظرياته بدلاً من أن يخضع نظرياته للحوادث ، وقيل بانه

صاحب فكر يعد قمة في النور والتنوير . وعلى كل حال فقد وجدته من دراستي له جذاباً ومفيداً ويبغي الخير والانصاف ماالستطاع .

حماة في ١١/٦/١٩٧٧

سهيل عثمان

مصادر البحث

١ — موجز دراسة للتاريخ — توينبي — ترجمة : فؤاد شبل

٢ - العالم والغرب — 〃

٣ — الحضارة في الميزان — 〃

٤ — سلسلة محاضرات ارنولد توينبي

٥ مجلة— عالم الفكر — عدد خاص بفلسفة التاريخ العدد الأول لعام ١٩٧٤

٦ — في فلسفة التاريخ — احمد محمود صبحي

٧ — التاريخ وكيف يفسرونه — ويدجري

المميزات الحضارية
لفترة مجهولة من تاريخ سورية

د. مفيد رائف العابد

مدرس تاريخ الاغريق والرومان
بكلية الآداب - جامعة دمشق

يعز على أي باحث محب للتاريخ أن يرى بعض الفترات الحضارية وقد اكتنفها غموض شبه شامل كالغموض الذي يحيط بتاريخ الحقبة الهلنيسية، وقد يزداد تأسفه بصورة أكبر حين يعلم ان هذه الفترة الحضارية تمثل حقبة هامة من تاريخ بلاده.

وقد اكتشفت هذه الحقيقة أثناء وجودي على مقاعد الدرس في جامعة دمشق، وعقدت النية والعزم على أن أركز جهودي لالقاء ما أستطيع من أضواء وإبراز ما أقدر عليه من معلومات تخص تاريخ العصر السلوقي في آسية كجزء من تاريخ بلادي الذي لم يقدم على درسه - فيما اعلم - أي عربي آخر [1] وقد كان لتعييني معيداً بعد التخرج وإيفادي في بعثة دراسية أكبر الأثر في وفائي لوطني ونفسي بما قطعت من وعود سابقة.

ولست أدعي بانني قد اكتشفت وانني سأعرض هنا أو في مكان آخر معظم مايخص تاريخ آسية السلوقية بشكل عام وسورية في العصر الهلنيسي بشكل خاص، فان الدراسات المتفوقة للأساتذة روستوفتزف (Rostovtzeff) وبفان (Bevan) وبوشيه لوكليرك (Bouchē Leclercq) وبيكرمان (Bikerman) وتارن (Tarn) وفيلكن (Wilcken) وجريفيث (Griffith) وولز (Welles) وغيرهم قد

---

[1]) باستثناء الرسالة الجامعية القيمة التي أعدها الأستاذ الدكتور جورج حداد باللغة الانجليزية حول تاريخ مدينة انطاكية في العصرين الهلنيسي والروماني (شيكاجو ١٩٤٩) (الرسالة غير منشورة) والدراسة المبدئية والمختصرة التي خطها قبل وفاته الأستاذ الدكتور أسد رستم والتي نشرتها الجامعة اللبنانية عام (١٩٦٩) في بيروت .

مهدت السبيل لكل دارسي تاريخ العصر الهلنيسي عامة والسلوقي خاصة .

إلا أن هذه الدراسات على جلال قدرها وسمو مكانتها والتي وضع معظمها أو أهمها لهذا البحث في أوائل هذا القرن ، أصبحت غير صالحة للاعتماد عليها بصورة مطلقة لسببين أولهما : ماتجود به الحفائر بين سنة وأخرى من معلومات تغير أو تعدل أو تؤكد بعض فروض واستنتاجات المؤرخين السابقة لتاريخ الحفائر ، وثانيهما : عدم توافر العدد الكافي من المؤرخين الشرقيين لكتابة هذا التاريخ ، فأجدادنا — كما نعلم جميعنا — هم الذين صنعوا هذا التاريخ ، ونحن الأقدر دوما على كتابته .

وتحتم علينا قواعد البحث العلمي السليم ان نحدد - قبل الاستغراق في بحثنا - مدلولات الالفاظ التي سنستعملها درءاً لما يمكن أن يسبب أي لبس أو غموض وبخاصة ان العصر مدار البحث لم يكن في يوم ما موضوعاً لدراسة علمية موسعة بالعربية ، كما لم تكن سورية بمفهومها العام تلك الوحدة الجغرافية التي تماثل مانعرفه عن بلاد الاغريق أو مصر أو فارس .

فالعصر الهلّنيسي (1) هو العصر الذي غطى مكانياً كل أصقاع العالم القديم التي غزاها الاسكندر المقدوني (٣٥٦ — ٣٢٣) ق م (2) من الأدرياتيكي غرباً إلى البنجاب شرقاً ومن البحر الأسود شمالاً حتى الصحراء العربية جنوباً ، وهو العصر الذي تعارف المؤرخون المحدثون على تحديده زمنياً بالقرون الثلاثة السابقة للميلاد ، وبصورة أكثر تحديداً منذ وفاة الاسكندر في عام ٣٢٣ حتى قيام الامبراطورية الرومانية في عهد أغسطس عام ٣١ . ولما كان معظم مؤرخي العصر يتفقون على ان معالم هذا العصر الحضارية قد بدأت قبل وفاة الاسكندر واستمرت الى مابعد عام ٣١ ، فان هذا الاتفاق يوضح لنا ان التحديد الزماني السابق للعصر ليس إلا اصلاح وضعي أضيف الى قائمة المصطلحات التاريخية الأخرى لتمييز عصر اتسم بسمتين أساسيتين أولهما :

---

١) وهو العصر الذي تترجمه بعض مراجعنا خطأ بالعصر الهلّنستي ، ووجه الخطأ في هذه الترجمة أنها تستعمل حرفي (السين والتاء) بدلا من حرف واحد لتفريق هذا العصر عن العصر الهلّيني ، والتسمية المعتمدة يعتمدها معظم كبار مؤرخي العصر من العرب انظر مؤلفات الأستاذين الدكتورين ابراهيم نصحي ومصطفى كمال عبد العليم.

٢) جميع التواريخ الواردة في هذا البحث سابقة للميلاد مالم ينوه صراحة بغير ذلك .

إن أعمال وفتوحات الاسكندر غيرت وجه العالم المعروف آنئذ ، وثانيتها : أنه بعد خضوع العالم الهلنيسي لروما وانقباسه في صـــراعاتها وحروبها الأهلية فترة من الزمن ، نهض هذا العالم من جديد في عهد الامبراطورية الرومانية على قواعد جديدة ذات طابع اغريقي روماني (١) .

ويختلف المؤرخون في تحديد معنى محدد للفظة « العصر الهلنيسي » وفي حين يرى بعض المنصفين انه عصر حضارة جديدة تكونت من عناصر اغريقية وشرقية ، يرى البعض الآخر القائل بتفوق الحضارة الغربية انه عصـــر انتشار الحضارة الاغريقية بين الشرقيين ، ويرى بعض ثالث متحفظ ان العصر لايتعدى كونه استمراراً منقحاً للحضارة الهللينية القديمة بفضل ما أحاط بها من ظروف جديدة . وما من شك في ان جميع هذه الآراء تحتوي على بعض الحقيقة ، لكنها لاتمثل الحقيقة برمتها ، ولا يستقيم العمل بها إذا ماتناولنا معالم العصر وجميع ظواهره . ويمكن القول باختصـار شديد ان لفظة « هلنيسي » ليست أكثر من عنوان مناسب للدلالة على حضارة القرون الثلاثة السابقة للميلاد التي تقسم الى طورين متميزين يتسم أبكرهما بابداع خلاق في معظم علومها الشرقية والاغريقية المشتركة مع تفوق ملحوظ للحضارة الاغريقية ، في حين يتسم الطور الأخـير برد فعل شرقي روحي ومادي ضد هـذه الاصول التي أصابها الاعياء نتيجة لما بذلته من جهود في الطور الباكر (٢) . والآن ماذا عن مميزات هذا العصر الحضارية ؟

مميزات العصر :

ويمتاز العصر الهلنيسي — دون باقي عصور التاريخ التي سبقته — بميزات عديدة أهمها شيوع التعليم وانتشار المدارس والتعليم المختلط وسيادة روح الاخاء إلى جانب تعاظم الثروة بين أيدي قلة من الناس مما أدى إلى اضطرابات اجتماعيـــة متعددة . وقد ساعدت اللغة اليونانية التي سادت معظم أرجاء العالم المعروف وقتئذ على بروز ثقافـــة مشتركة انتشرت في كنفها الآداب والفلسفة ، وعمت فى ظلها حرية الفكر

---

1) W. T arn, Hellenistic Civilization (London 1966) PP. 1FF

2) iBiD

والقول ، وزالت الكراهية القومية باستثناء مابقي منها بين المصريين واليهود (١).

ويبدو ان فكرة العالمية التي تحمس لها الاسكندر أثناء حياته ، وانتشار التعليم من خلال سيادة لغة ثقافية مشتركة قـد ساعدت على بروز مدارس فلسفية دعت باخلاص الى الاخلاق الفاضلة ونبذ الأحقاد وحل الخلافات بالتحكيم بدلاً من الحرب وعلى رأسها المدرسة الرواقية والأبيقورية (٢) . وقد تبنى عدد كبير من ساسة الدويلات الاغريقية مبـدأ التحكيم في منازعاتهم مع جيرانهم وبخـاصة خلال الشطر الأكبر من القرن الثالث ، وبذلك فقد عملوا على تخفيف ويلات الحروب التي كانت أعرافها تبيح عادة للمنتصر أن يقتل رجال العدو ويسبي نساءه وأطفاله . وعلى الرغم من بعض المخالفات التي ارتكبها بعض الساسة للعرف الحربي الذي استنه اسكندر الأكبر ببيـع جميع السكان بدلاً من قتلهم ، فان انتشار « موضـــة » اعـتراف الدويلات الاغريقية بان بعض المدن أو الأماكن « مقدسة » كالمعـابد ولا يجوز أن يعتدي عليها ، والسخط والعداء الذي كان ينصب على منتهك هذه المقدسات من قبل الافراد والدول ينهض دليلاً رائعاً على استيقاظ العواطف الانسانية بدءاً من النصف الثـاني من القرن الثالث (٣) .

ولا شك ان مركز المرأة في العصر الهلينسي قد تأثر بالأدوار التي لعبتها الملكات والأميرات المقدونيات بعد وفاة الاسكندر وتأسيس الممالك السلوقيـــة والبطلمية والانتيجونية (٤) في كل من آسية الغربية ومصر ومقدونية على التوالي . فقد نافست أدوار بعضهن أدوار الملوك في المجالات السياسية والدينية . ومن القصور الملكية امتدت الحرية النسبية الى النساء العاديات واستطاع بعضهن التحرر من قيود التقاليد القديمة والحصول على قدر وافر من التعليم أتاح لهن الفرصة للبروز في مجالات الفلسفة والشعر والفنون (٥) .

---

1) Tarn, op cit , P . 3

٢) لمزيد من المعلومات حول اخلاقيات المدرستين الرواقية والابيقورية ، انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ، وتاريخ الفلسفة الغربية لبرانز ندراسل ترجمة زكي نجيب محمود .

3) Tarn, op cit' PP. 80 ff

٤) نسبة إلى البلاط السلوقي في انطاكية ، والبطلمي في الاسكندرية ، والانتيجوني في مقدونية وهي البلاطات الرئيسية في العصر مدار البحث .

٥) ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة (القاهرة - ١٩٦٦) ج ١ ، ص ٤٠ .

ولعل من أبرز المظاهر الاقتصادية للعصر مدار البحث هو ذلك التفاوت الشاسع في توزيع الثروة بين طبقات المجتمع وما تلاه من تفاوت بين سخاء الاغنياء وقلة الأجور ، وكان الأغنياء في ذلك العصر على أتم الاهبة للتبرع بسخاء في خدمة الدولة والصالح العام في الوقت الذي لم يكونوا فيه على استعداد لدفع أجور مناسبة لفلاحيهم أو عمالهم أو أقنانهم . ولدينا في مصادرنا أمثلة كثيرة على قيام الاغنياء بتلبية حاجات دولهم المادية تبرعاً أو اقراضاً أو تنفيذاً لخدمة عامة كاقامة جسر أو معبد أو تمثال أو رعاية حفل ديني وحتى تجهيز جيش للحرب . وكان من الطبيعي والحالة هذه أن تتفاقم الأزمة الاجتماعية وان تؤدي ـ مدعمة بأفكار المذاهب الرواقية التي نادت بالاخاء والمساواة (١) ـ الى اضطرابات عجلت بنهاية ممالك هذا العصر على أيدي الرومان .

ويحلو لبعض مؤرخينا المعاصرين أن يستخرجوا بعض أوجه الشبه بين العصر الهلنيسي والعصر الحديث أو المعاصر ، ويذهبون الى القول بانه كانت توجد في العصر الهلنيسي الكثرة نفسها من الدول الكبيرة والصغيرة التي سادتها حضارة رفيعة مشتركة ، والتي نشأت فيها أفكار الانسانية والاخاء وتحرير المرأة ، وانتشر فيها التعليم انتشاراً أخرج أفواجاً من انصاف المتعلمين ، ونشأت فيه متاعب اقتصادية قاسية أدت الى المناداة بالأفكار الاشتراكية والشيوعية ، ويستدرك مؤرخونا سابقو الذكر ان مرد الخلاف بين العصرين — رغم كثرة ظواهر التشابه ـ هو ان العالم القديم لم يعرف الآلات ، وكان يعتمد في نشاطه الاقتصادي على العبيد الى حد كبير (٢) .

---

١) نصحي ، المرجع السابق ، ص ٤٠ — ٤١ .

2) Tarn, op cit, PP. 3 ff

الصهيونية

جزء ثالث سيضاف للتوراة اليهودية

رياض زيد

جنس اليهود . . . وعلاقتهم ببني اسرائيل . . . . والعرب

قد يكون صحيحاً ان اسماعيل واسحق كليهما أبناء إبراهيم عليه السلام من نسل سام ولكن في البداية فقط ، أما بعد ذلك فقد ذاب نسل اسحق مع المصريين والكنعانيين والفلسطيتيين والموريين والحثيين وغيرهم ، ثم أخذ الذوبان بعد السبي البابلي حد الانحلال حتى أصبحنا في النهاية ازاء قوم غرباء لاعلاقة لهم البتة باسحق ، وحيث اطلقت عليهم تسمية اليهود نسبة ليهوذا ، أحد أبناء يعقوب ، وهو السبط الذي خرج منه داود واسم المملكة التي كانت أورشليم عاصمة لها ، وسنحاول وبشكل سريع تتبع مسيرة هذا الانحلال عبر التاريخ الطويل بمراحله الثلاث : الخروج ، فالشتات ، ثم التراكم .

١ ــ الخروج : ان الخروج من مصر يمثل نقطة انطلاق في هذا المجال ، فموسى عليه السلام عندما خرج بقبيلة بني اسرائيل من مصر عام ١٣٠٠ ق . م تبعته أعداد كبيرة من المصريين (١) الموحدين ، وخلال التيه انضمت اليه قبائل كثيرة مختلفة الأصول والعروق لتشكل هذه القبائل كافة عبر تزاوجها واختلاطها واتحاد مصيرها الحياتي وتحت قيادة زعيم واحد شعب اسرائيل ، وقد بدأ العملية موسى عليه السلام بنفسه عندما تزوج بابنة زعيم مدين . وقد وصل تعداد هذا الشعب ٦٠٠٫٠٠٠ نسمة بينما نلاحظ أن القبيلة الأم التي دخلت مصر عام ١٦٥٦ ق.م

---

١) لاحظ المؤرخون ان سبط اللاويين لم يكن من الأسباط الاثنى عشر ، وكانوا بطانة موسى ومن ثم رجال الأكليروس اليهود ولا يستبعد فرويد في كتابه موسى والتوحيد أصلهم المصري .

لم يتجاوز عدد افرادها ٧٢ نسمة .

٢ ـ الشتات : آ ـ البابلي : قضى سرجون الثاني البابلي على دولة اسرائيل (السامرة) عام ٧٢١ ق . م ، ونقل سكانها لبابل ، ثم قام بعد ذلك نبوخذ نصر بالقضاء على دولة يهوذا (أورشليم) عام ٥٨٧ ق . م فدمرها وذبح سكانها ونقل ماتبقى من سكانها لبابل بعد ان أحرق المعابد والتوراة . وبعد خمسين سنة وفي العهد الفارسي سمح لهم قورش بالعودة لأورشليم واعادة بنائها ، ولكن بدون أفراد وأبناء الأسرة المالكة القديمة ، أي سمح بتشكيل سلطة كهنوتية (١) يديرها رئيس الكهنة بمعاونة مجلس أعيان من المدنيين والكهنة (سندرين) ، تبقى أورشليم معها ولاية تابعة للدولة الفارسية .

ولهذا السبب لم يتجاوز عدد الذين عادوا لاورشليم أكثر من خمسين الفاً من المشتتين إضافة الى قلة من السكان استطاعت البقاء أثناء الرجوع خلال الحكم البابلي ، وبقيت الاغلبية المطلقة في العراق ، والباقي اتجه قسم منه مع الجيوش الفارسية باتجاه افغانستان وبخارى وسمرقند والقوقاز والخزر وقسم لمنطقة البلقان مع الغزو الفارسي لليونان .

ب ـ الهلليني : بعد هزيمة الفرس على يد الاسكندر المكدوني عام ٣٣١ ق.م ، وبدء العصر الهلليني الذي استمر مع السلوقيين والبطالة ، انتشر اليهود على مسار هذه الجيوش ليشمل مراكز جديدة : الاسكندرية وآسيا الصغرى والبلقان والقرم وكييف الروسية وشرقاً حتى ضفاف الهندوس بالهند ، وقد قام اليهود في نهاية هذا العصر بثورة مكابية عام ١٦٧ ق م وبقيادة تتيا بن يوحنا ومن بعده ابنه يهوذا ، وقد استطاعوا هزيمة السلوقيين وارجاع الدولة والملكية ، ومن أشهر ملوكهم اسكندر جينوس ١٠٣ ـ ٧٦ ق.م ، وعرف بالقسوة والوحشية ، وقد أخضع سكان الجليل العرب (الايطوريون) الى حكمه بعد أن أعمل فيهم السيف وقتل الآلاف ومثل بالنساء والأطفال ، وكذلك بالنسبة للادوميين سكان جنوب فلسطين اجبروا على اعتناق اليهودية بحد السيف .

جـ ـ الروماني : قامت الجيوش الرومانية باحتلال فلسطين وقضت بذلك على الدولة المكابية عام ٦٣ ق.م ولكن اليهود استمروا في عمليات القتل والاضطهاد للسكان

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام ، موريس كروزيه . مجلد ١ صفحة ٢٦٨ .

الأصليين ، مما اضطر السلطان الروماني للتدخل لاعادة النظام ، وباستمرار التعديات اليهودية حدثت المجابهة الرومانية اليهودية .. عام ٦٦م ، وقد قام اليهود بعمل مجازر كبيرة للسكان المحليين وللجند الرومانيين مما اضطر القائد الروماني تيطس عام ٧٠ م الى أن يهاجمهم ، وهكذا سقطت القدس بيده بعد حصار عنيف ، وراحت طعماً للسلب والنهب والحرق والهدم .

إلا أن اليهود عادوا الى الفتك باعدائهم مابين عام ١١٥ - ١١٧ م فقد ذبحوا أعداءهم وأكلوا لحومهم وتمنطقوا بامعائهم ، ونضحوا أجسامهم بدمائهم ، وصنعوا لهم البسة من جلودهم ، ونشروا من الوسط عدداً كبيراً منهم ، وعرضوا جماعات عديدة منهم للسباع والضواري . وبلغ عدد من فتك بهم اليهود خلال هذين العامين اكثر من ٢٢٠٫٠٠٠ نسمة (١) .

وفي عام ١٣٢ م قام اليهود بثورة شاملة في القدس بقيادة شمعون بن كوزيبا (٢) الذي ادعى أنه المسيح المنتظر ، فقام هدريانوس بتجهيز حملة قضى عليهم وذبح منهم اكثر من ٥٨٠٫٠٠٠ نسمة ، عدا الذين قضوا نحبهم حرقاً أو جوعاً ، بعد أن أعمل فيهم الذبح والحرق ... واحرق مدنهم ومعابدهم وتوراتهم وكتبهم . وهكذا انهى وللأبد مصير اليهود في فلسطين ... وتشتت من بقي على قيد الحياة على مسار طويل شمل كل مستعمرات العالم الروماني ... حوض البحر الأبيض المتوسط وحتى المانيا .... عن طريق الرون - الراين - فرانكفورت .

وقد تسرب قسم منهم الى الجزيرة العربية حيث سكنوا المدينة وخيبر ، وأما مابقى في فلسطين فشرذمة قليلة هي السامريين ... الذين تحولوا الى قوقعة قزمية مغلقة في نابلس لاتزيد حالياً عن الاثنين .

٣ - **التراكم** : استمر الشتات اليهودي حتى العصر الاسلامي حيث ازدهرت التجارة ، فتحركت الجاليات اليهودية من مواقعها المتناثرة نحو التراكم في مواقع مراكز اتصال الحضارات ، مستفيدة من التسامح العربي الاسلامي حيالها :

آ - شرقاً في منطقة الخزر حيث اتصال الدولتين الاسلامية والبيزنطية من جهة وأواسط وشرق آسيا من جهة أخرى .

ب - غرباً في الاندلس حيث الاتصال باوربا التي كانت في بداية عصر النهضة .

---

١ - المؤرخ ديون كسيوس

٢ - تاريخ الحضارات العام

جـ ــ عاصمة الخلافة بغداد .

اضافة الى التراكم الذي بدأ يتشكل في فرانكفورت بالمانيا نتيجـــة عوامل سياسية أوربية .

آ ــ منطقة الخزر : شعب الخزر ، تحدر من سلالة تركية مغوليـة ، جاء من سهوب آسيا الصغرى ، واستقر مابين البحر الأسود وبحر الخزر في القرن الخامس الميلادي ، وكانت لغتهم قريبة جداً من اللغة التركية المسماة بالجاجتاي ، وقد اختلطت دماؤهم بدماء شعوب واعراق متعددة مثل الهانز والسابير .

ونظراً لموقعهم الحيوي الذي أشـرنا اليه ، ثابر اليهود خلال مختلف العصور على الهجرة الى هذه المنطقة في العهود الساسانية والبيزنطية ، ثم الاسلامية والبيزنطية ، وكانت لهم دوماً مكانة في بلاط ملك الخزر .

وفي عهد الأمويين ، تقدمت جيوش مروان بن محمد ، فأعلن خاقانهـا الاسلام ، وهكذا عادت الجيوش الاسلامية وهي مطمئنـة الى أن أرض الخزر هي جزء من دار الاسلام . « إلا أن المفاجأة التي كانت في عام ٧٤٠ م حين أعلن بولان ملك الخزر دخوله في اليهودية بعد أن أقنعه احبار اليهود بان اعتناقه لليهودية من شأنه أن يجعل الله من شعوب القبائل الخزرية المغولية شعبه المختار وان اليهود في أنحاء العالم كافة سيكونون السند والدعم لهذه الدولة وتتحول القبائل الخزرية تبعـاً لذلك الى سادة البشرية وأصحاب الحق الشرعي في حكم العالم » .

وقد اكتشف المؤرخون رسائل بين ابن شـبروط الوزر اليهودي لعبد الرحمن الثالث في قرطبة بالاندلس وبين أحد ملوك هذه الدولة واسمه يوسف يصف فيها ابن شبروط سروره بان الله قد حقق حلم الشـعب المختار في الدولة الموعودة التي تجمع شتات شعب إسرائيل .

ورد الملك يوسف برسالة دعاه فيها الى زيارة مملكة الخزر اليهودية ، ورسم له فيها شجرة الأسرة المالكة التي تعود جذورها الى الاجداد الاتراك المغول . . . . فما كان من ابن شبروط إلا ان ردّ عليه برسالة عبر فيها عن خيبة أمله من أن ملوك هذه الدوله ليسوا من القبائل الاثنتي عشرة التي شتتت من كنعان .

وقــد روى المؤرخون ان أحد ملوكهم : اوباديا قد قام باحضار الأحبار والحاخام من بغداد وقرطبة لتعليم أبناء الخزر التوراة والتلمود .

وهكذا تحولت هذه الدولة جملة واحدة الى اليهودية ، تمارس الدور والسلطان السياسي لليهودية في العالم ، حتى انها بدأت بمهاجمة ديار الاسلام وبدعم من الدولة البيزنطية ، واستطاعت ان تهدد في فترة من الفترات العواصم العربية ، ويقول المؤرخ الروسي ارتانانوف في ذلك :

« قام الخزر بخدمة عظيمة للتاريخ الانساني ، فقد نجحوا في سد جبهة القوقاز أمام الهجوم العربي ، ويجب علينا ان نضعهم في مستوى البطولة التي نضع فيها جماعة شارل مارتل في فرنسا » .

واستمرت هذه الدولة ثلاثمائة سنة حتى اجتاحها الفايكنج ، ونشروا فيها الدمار والرعب ، مما اضطر يهودها الى الــنزوح الى مدينة كييف ومنطقـــة القرم بمساعدة البيزنطيين .

ولكن نشوء دولة كييف السلافية الجديدة واعتناق الروس للارثوذكسية واتحاد الكنيسة البيزنطية الروسية ضدهم كانت نتيجته حملات عديدة بدأها أمير كييف عام ٩٦٥ م ثم الامبراطور باسيلوس الثاني عام ١٠١٦ م ، وتلاشى اثر الدولة نهائياً عام ١٠٣٠ م لتشكل الشعوب المغولية التركية لهذه الدولة وبشــكل مرعب ورهيب نطاقاً بشرياً عرف تاريخياً باسم حظيرة اليهود ، غطى جنوب روســيا وشمل جنوب دويلات البلطيق وكل بولندا ثم أقصى شرق المانيا وامتد حتى وصل النمسا والمجر ، وهكذا اتصل اليهود المغول بيهود المانيا (فرانكفورت) ليشــكلوا قطب اليهودية في العالم وثقلها الطاغي أي مازنته ستة ملايين يهودي .

وكانت عملية خلط ومزج استطاع فيها يهود المانيا قيادة هذا القطيع الكبير ، ومن أوضح مظاهر هذه السيادة : اللغة الجديدة (اليديشية) المســتمدة من اللهجة الالمانية العليا واستعاروا لهم اسماً (الاشــكناريم)(١) ليتميزوا عن يهــود الأندلس (السفارديم) .

وقد حدث بعد ذلك في القرن الثاني عشر الميلادي ان حاول سليمان بن دوج الخزري تجميع يهود الخزر ثانية في محاولة زحف للقدس ، بعد أن ضاع وطنهم

---

١ — اليهود انتروبولوجيا ـ جمال حمدان

الاصلي مدعياً أنه اشعيا وان ابنه هو المهدي ، إلا أن محاولته باءت بالفشل فقتل فخلفه إبنه مناحم الذي بدل اسمه إلى (داود بن روى) فوصلت جيوشه الى شمال العراق حيث قتل وأعوانه ، ومنذ ذلك الوقت رفع اليهود في العالم أجمع راية (داود بن روى) التي تحمل النجمة السداسية ، وهذا يعني بأن هذه النجمة هي ليست لداود عليه السلام كما هو معروف .

ب — **الأندلس** : تراكم اليهود فيها نتيجة لازدهار التجارة حتى وصل عددهم إلى مليون نسمة ، وانتشرت إمتداداتهم عبر أقطار أوروبا الغربية وحوض البحر الأبيض المتوسط ، ودول البلقان حتى الأناضول ، وعندما سقطت الأندلس عام ١٤٩٢ م لحقتهم حرب الابادة والاضطهاد ، فشتتوا الى مواقع إمتداداتهم التي أشرنا إليها ، وحملوا معهم لغتهم الاسبانية المحرفة المعروفة (باللادينو) واستعيرت لهم كلمة السفارديم لتمييزهم عن الاشكنازيم الذين تحدثنا عنهم .

وقد أكدت دراسات الأنثروبولوجيا أن السفارديم قبل خروجهم من الأندلس كانوا قد استوعبوا دماء إيبيرية وغربية وبربرية في عروقهم بحيث يمكن وبسهولة ملاحظة الفوارق العرقية من حيث اللون وشكل الرأس ، والأنف وغيره ، مما يجعل الحديث عن نقاوة العنصر وعن السامية بالنسبة لليهود السفارديم وهم وخرافة . . . .

جـ — **بغداد** : تمركز اليهود في عصور إزدهار الاسلام في بغداد ، وانتشرت إمتداداتهم : شرقا ايران وتركستان والهند والصين وغرباً إلى شمال إفريقيا وجنوباً اليمن (١) والحبشة وسمي هؤلاء باليهود الشرقيين ويتكلمون بالعربية إلى جانب إحتفاظهم باللغة العبرية ولا يتجاوز ثقل هذه الدائرة أكثر من مليون نسمة . . .

وكان شأنهم خطيراً في التاريخ العربي والاسلامي فتاريخهم سجل بالمكائد وإثارة النعرات الشعوبية والطائفية . . . . حتى أن بصماتهم واضحة على كل الكوارث التي حاقت بالعرب والمسلمين خلال التاريخ الطويل .

فمنذ الأيام الأولى التي ظهر فيها الرسول العربي محمد عليه السلام واليهود ينصبون له العداء ، ولا يدعون سبيلاً من سبل الكيد له ولرسالته الا سلكوه ، وبالرغم من العهود والمحالفات التي كان وقعها معهم إلا أنهم كانوا يغدرون بمواثيقهم حتى إضطر عليه السلام الى حربهم . . .

---

١ — يهود اليمن والحبشه الأصليين ؟ هم ليسوا من الشتات بل تهودوا بالتحول في العصر السبئي .

وقد كان لهم دور كبير في إشعال الفتنة الأولى في الاسلام، وقتل الخليفة عثمان بن عفان وعلى رأسهم عبد الله بن سبأ، واستمرارهم في ذلك في عهد الخليفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، مما اضطره إلى محاربتهم، ونفي ابن سبأ إلى ساباط المدائن.

التوراة .. .. والصهيونية

أنزلت التوراة على بني إسرائيل عام ١٣٠٠ ق.م (إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور (١)) ولكنهم بوفاة موسى عليه السلام أضاعوها وإرتدوا إلى وثنيتهم، وتجلى ذلك في حرب الابادة والافناء التي مارسوها خلال حروبهم مع الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين، فقد سحقوا وهدموا وأحرقوا كل شيء . . . . حتى الشجر والحيوان،

وفي عهد داود عليه السلام عام ١٠٠٠ ق.م هدم المعابد الوثنية، وبنى للرب معبداً في أورشليم وأمر باحضار تابوت العهد المحفوظة فيه ألواح الشريعة والتوراة، بأسفارها الخمس، إلا أن المفاجأة كانت في ضياع التوراة، فقام الكاهن ابياثار (٢) بكتابة نسخة جديدة محرفة، إلا أن هذه النسخة المحرفة قد انقطع تواترها بعد ذلك لعودة بني إسرائيل إلى الوثنية بعد عهد سليمان عليه السلام، حتى جاء يوشيا بن آمون عام ٦٢١ ق.م، وحاول إعادة قومه إلى التوراة، وبعد ثماني عشرة سنة أحضر له حلقيا الكاهن نسخة أكثر تحريفاً، وبالرغم من عدم اعتمادها رسمياً إلا أنها ضاعت كذلك خلال السبي البابلي عام ٥٨٦ ق.م.

وفي العهد الفارسي عام ٥٣٦ ق.م سمح لليهود بكتابة توراتهم من جديد، فكتبها عزرا مضيفاً إليها أحد عشر كتاباً، تبتدىء من كتاب يوشع بن نون وحتى السفر الثاني لعزرا ويسمى نحميا، إلا أن هذه الكتب جميعاً قد أحرقت مرات عديدة خلال المذابح التي جرت لليهود خلال العهدين الهلايني والروماني. ورد في الباب الأول من الكتاب الأول المقابين هكذا:

---

١ — القرآن الكريم — سورة المائدة — آية ٤٤

٢ — موسى والتوحيد ص ٦٨ لسيغمون فرويد

« لما فتح ملك ملوك الفرنج أورشليم ، أحرق جميع نسخ كتاب العهد العتيق التي حصلت له من أي مكان بعد ما قطعها ، وأمر أن من يوجد عنده نسخة يقتل ، وتعدم تلك النسخة ، وكان تحقيق هذا الأمر في كل شهر » .

وخلال ثلاثمائة سنة أخرى ، قام أحبار اليهود بإعادة كتابة التوراة المعروفة حالياً بالعهد القديم ، مضيفين اليها اثنين وعشرين كتاباً ، كان آخرها ملاخيا لتشكل الجزء الأول من التوراة . وكذلك تسعة كتب تبدىء باستير وآخرها المكابين الثاني لتشكل الجزء الثاني من التوراة [٣] . . . إضافة إلى الشروحات التي أسموها بالتلمود . وقد أتت التوراة الجديدة مليئة بالتناقضات والتحريف والاختلاف ، وحوت مفاهيم وأمور شاذة ، وامتزج فيها مانسب لموسى عليه السلام بحشو غريب استقوه من الديانات الفارسية والبابليه والمصرية . . . حتى اننا لنجد لهذه التوراة نسخاً عديدة يختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيناً وفيما يلي عرض للأصول فيها :

الاله : يهوه :

واحد ولكنه متحول ، يكشف سر المستقبل أما بظهوره للبشر لاسيما في الأحلام ، وإما بواسطة (قُرع) خشبية يسترئيها الكهنة . . . . خاص بهم ، لايهتم بشؤون الشعوب الأخرى ، يخصهم وحدهم بمحبته وعدله وعضده وقدرته الحامية ، مبغضاً جميع أعدائهم . . . . وقد تجلى حيال هؤلاء تحيزه وعنفه وتعطشه للدماء ، وحبذ كل مكيدة وأوصى بكل إبادة ، واستدر كل شفقة لكنه ، مع ذلك يتصارع مع يعقوب عليه السلام فلا يقدر عليه . . . . .

ولنقرأ هذا النص العجيب كما ورد آية ٢٦ / ٣٢ سفر التكوين : «فبقي يعقوب وحده ، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لايقدر عليه ، ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه ، وقال : أطلقني لأنه قد طلع الفجر . فقال : لا أطلقك إن لم تباركني ، فقال له ما اسمك فقال : يعقوب . . . . فقال : لايدعى اسمك فيما بعد يعقوب . . . بل اسرائيل . . . لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . . . . »

---

٣ – إظهار الحق . . رحمه الله الهندي

٤ – تاريخ الحضارة العامة ، كروزيه .

الانبياء :

أثارو الفضائح وأجازوا لنفسهم الجارات بعضاً من نصوص التوراة . . .

إبراهيم عليه السلام : تزوج أخته ساره « انها أختي ، بالحقيقة إبنة أبي » وليست إبنة أمي ، وقد تزوجت بها . ١٢ : ٢٥ : سفر التكوين

دفع بزوجته سارة الى حاكم مصر . . . . لقاء مال. . . . وقافلة من النوق والحمير . . . . سفر التكوين

يعقوب عليه السلام : كانت ولادته « . . خرج ويده قابضة بعقب عيو « توأمه » ٢٦ : ٢٥ : سفر التكوين

لوط عليه السلام : زنى بابنتيه وحملتا بالزنا . . . . ٢٩ سفر التكوين

يهود بن يعقوب عليه السلام : زنا بثامار زوجة أبيه ، وحملت بالزنا منه ، وولدت توأمين . ٣٨ سفر التكوين .

هارون عليه السلام . . . بنى معبداً لا عجل . . . وعبده » ٣٢ سفر الخروج

داود عليه السلام « كان يوصوص من نافذته على النساء . . . » « زنى بامرأة أوريا وحملت بالزنا منه ، فأهلك زوجها بالمكر وأخذها زوجة له . . »

١١ صموئيل الثاني

سليمان : « إرتد آخر عمره وكان يعبد الأصنام . . » سفر الملوك الأول

وهذا بعض . ! . . . .

الحساب :

لم يرد في التوراة الى ما يشير إلى إعتقاد كتبتها بالبعث والحساب . . . بل يلمح القارىء أن القصاص أرضي . . . . ويتجلى بالمصائب . . . . . ينتظرون مجد الله على الأرض . . . باقامة مملكة إسرائيل الخالدة في أورشليم . . . .

اليهود والشعوب الأخرى :

اليهود شعب الله المختار ، وانهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم جبلة خاصة تمتاز على سائر أمم الأرض التي هي بمنزلة البهائم المسخرة لهم لذلك لاحرج في سلبهم

أموالهم بأية وسيلة غيرمشروعة . هم وحدهم نفوسهم مخلوقة من نفس الله ، وان عنصرهم من عنصره ، فهم وحدهم أبناؤه الاطهار جوهراً ، ومنحهم الصورة الخلقية البشرية تكريماً لهم ، وخلق غيرهم من طينة شيطانية أوحيوانية نجسة ، ولم يخلقهم الا لخدمتهم ولم يمنحهم الصورة البشرية الا محاكاة لهم اذ بغير التشابه لايمكن التفاهم .

هذه هي التوراة .... بجزأيها .

أما الصهيونية :

فهي الحركة اليهودية السياسية المعاصرة ، نشأت في القرن الأخير ، وأقامت فلسفتها على التوراة ومركزة على المفاهيم التالية :

١ ـ أبدية العداء للسامية : استغلت العداء والكراهية الموجه لليهود عبرعصور مديدة ، مدعية أن هذا الاضطهاد هو شكل من معاداة السامية ، بينما الحقيقة أن جل اليهود الذين تعرضوا لهذا ، ولاسيما في العصر الحديث هم أحفاد المغول التتريين وأحفاد الجرمان الألمان .... ولاصله لهم اطلاقا بالساميين كما أوضحنا سابقاً .

كما أن الاضطهاد المذكور كان الرد الطبيعي لممارسة الحياتية اليهودية الفردية ، وارتباط الفرد اليهودي بالمال والتجارة والسمسرة والنخاسة والربا والجشع والدعارة والتجسس ، وغير ذلك من الأعمال الطفيلية ... وتجمعهم في داخل أحياء خاصة (جيتوات) ، يمارسون فيها سلوكياتهم المشار اليها وكأنهم (دولة داخل دولة) وهذا هو السبب الأصيل والعميق في كراهية هذه الشعوب والأمم لهم على مدار التاريخ اضافة الى المذابح الرهيبة التي ارتكبوها ضد مختلف الشعوب والأمم .

٢ ـ الجنس اليهودي المتميز ... بأنه (شعب الله المختار) .

٣ ـ الأمة اليهودية العالمية : باعتبار اليهود يحملون (رسالة قومية روحية) خاصة وأن هذه الرسالة هي (ظاهرة ثقافية خارقة ...) تتجلى في التوراة والتلمود العظيمين .

٤ ـ الوحدة اليهودية المنبثقة عن تعاليم التوراة في أن اليهود كلهم أخوة ، وأنه يتوجب عليهم البحث عن السعادة في (بلد الاباء الأولين) .

٥ ـ مضار اندماج اليهود ... ضمن الأمم والحضارات لأن الشعوب الأخرى (نجسة)

٦ ـ الدين اليهودي جوهر الصهيونية ... ومنه نأخذ تعريفها لليهودي التوراتي المتميز (بابن اليهودية) .

٧ ـ أرض الميعاد ... والتمسك (بالعهد) المزعوم .

فأي تناقض بين التوراة المكتوبة بأيدي أحبار اليهود بعد السبي البابلي ....

وبين النصوص الصهيونية المكتوبة بأيدي أحبارهم المثقفين في العصر الحديث ... كلها أسفار لكتاب واحد ، توراتهم / يكتبونها لاسرائيلهم الكبرى ـ على أشلاء العالم .

يقول حاييم نحمن بيانك في حفل افتتاح الجامعة العبرية بالقدس عام ١٩٢٥ م : (إسرائيل والتوراة شيء واحد) هي مركز أسرار الأمة وتطلعاتها المشروعة ، ان اخبار الأيام الاول والثاني ... آخر ما انزل من الكتاب وليست الأخيرة في تاريخ إسرائيل .

سيضاف جزء ثالث ... وربما كان هذا الجزء أهم من الجزئين الأولين .

في الجزء الثالث سوف يبدأ بدون شك (بوعد بلفور) وسيكون بعنوان الصهيونية ... فهل تنتبه هذه الأمة ..؟ .. وتستيقظ !! .

﴿ مصادر البحث ﴾

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ التوراة ـ العهد القديم

٣ ـ تاريخ الحضارات العام / موريس كروزية /

٤ ـ اليهود انترو بولوجيا ـ جمال حمدان

٥ ـ الصهيونية بداية ونهاية ـ أبو مازن

٦ ـ الفكرة الصهيونية ـ النصوص الأساسية ـ مركز الأبحاث الفلسطيني

٧ ـ اظهار الحق ـ رحمة الله الهندي

٨ ـ موسى والتوحيد ـ سيغموند فرويد

٩ ـ الجوهر الرجعي في الصهيونية ـ دار التقدم . موسكو

١٠ ـ القبيلة الثالثة عشرة ـ كوستلر

١١ ـ مجموعة مقالات للأساتذة ابراهيم البعثي ـ اميره الزين . فيما يتعلق بالخزر

١٢ ـ مكائد اليهود في التاريخ ـ الميداني .

موقـع تل الحديدي الأثري

بقـلم

محمد الخولي : محافظ المتحف العربي الاسلامي

أمضيت في حوض الفرات قرابة خمس سنوات ، مثلت خلالها المديرية العامـــة للآثار والمتاحف لدى البعثات الأجنبية ، وتقلبت خلالها على عدة مواقع أثرية ، تعود إلى عصور تاريخية مختلفة ، مما أكسبني الكثير من الخبرة بأساليب التنقيب الأثري المختلفة ، وبطبيعة المنطقة في حوض الفرات ، وبنفوس سكانها وتقاليدهم وشؤون حياتهم والآن بعد أن طوت بحيرة الأسد صفحة من تاريخ المنطقة ، شعرت أنه مفيد أن أسجل ماخبرته عن هذه المنطقة لعله يمثل ظلاً لحياة كانت ثم زالت ، ولتلال ومواقع أثرية ثوت تحت الماء ، وقد وقع اختياري الأول على موقع تل الحديدي .

يقع تل الحديدي على هضبة تمتد حوالي ٣ كم بمصاقبة نهر الفرات الخـالد ، وتبلغ مساحة الخربة التي يمتد عليها حوالي ٤٠، دونماً وترتفع عن سطح البحر حوالي + ٣١٠م ، وأما سطح البحرة فيرتفع الآن إلى + ٣٠٠ م فوق سطح البحر ، يحيط بالموقع سهل رحيب خصيب، تحوطه سلاسل جبلية ، وتشغله مجموعة من القرى بعضها كان على جوانب سرير النهر ، وقد غابت الآن تحت الماء وهي قرى ، الكسرة الطمس ، أبو دارا . والبعض الآخر مبعثر في السهل الشمالي ويمكن استعراضهـا من الشرق إلى الغرب على النحو التالي :

شاش حمدان ، رسم مسطاحة ، جديدة مسطاحة ، رمانـة ، الجيزة ، العطشانة جب الحمام مسطاحة ، جب خميس مسطاحة ، خربة برغوث ، عين الجاموس ، جب حمـــد الشلال ، رسم العبـد ، مسطاحة ، الكسرة ، مزرعـــة الحديدي ، الحديدي (القرية) .

يبعد الموقع عن جسم السد في إتجاه الشمال حوالي ٦٥ كم ، ويتوضع على منعطف من النهر ، يمكنه من الاشراف على مسافة بعيدة في اتجاه مورد النهر ، وعلى مسافة

مماثلة في إتجاه المصب ، كان النهر بالأمس القريب يلج المنطقة من ممر ضيق يساعد على الاتصال بالضفة الأخرى بسهولة ، كما يساعد على التحكم بهذا الطريق المائي التجاري الهام . لاشك أن الضفة الثانية للنهر جعلت منه مهوى لأفئدة أصحاب الفعاليات الاقتصادية في شتى العصور التاريخيـــة ، شأن نظيريه الشهيرين النيل ودجـلة ، لذا كانت الأودية والسهول المحيطة بهـــذه الأنهـار الثـــلاثة محصورة منذ أن دبت أرجل البشر على ظهر هذه الأرض .

شهد نهر الفرات تقلب حضارات عــــديدة منذ العصور الحجرية الأولى ، وتبعتها عصور الحضارات التاريخيـة من سومرية وأكادية وأمورية وبابلية وآشورية وميتانية وحثية . واستمرت تتوالى على جنبات النهر الحضـارة تلو الأخرى حتى العصر العثماني لذا فان ضفتي النهر تحتوي على ثقـافات شعوب توالت على المنطقة منذ ٢٠ الف عام على الأقل ، بالاضافة إلى كنوز هامة مما أغرى البعثات العلمية في بقاع العالم المختلفة أن تنتشر على جنباته من مصبه في جنـــوبي العراق حتى ينابيعه في تركيا ، وتتخير المواقع التي تناسب اختصاصها .

هذا النهر العذب الفرات الخير المعطاء الذي أنبت الحرث والنسل ، كان يهيج ويثور ويطغى ، فيجرف الحياة احياناً برمتها من على ضفافه ويسبب الكوارث والويلات ، فتضيع المحاصيل والدور والحيوان والسكان ، ولكن الثورة الـــتي كبحت الطغيان السياسي والاجتماعي والاقتصادي في هذا البلد ، كان موضوع النهر من بين مواضيعها وآلت على نفسها أن تكبح جماحه ، وأن تمسك بزمامه ، وتحيل العربدة والدمار والخراب الى نعماء وآلاء تفيء على المنطقة والقطر بأسره بالخير والسعادة ، فقررت اقامه سد الطبقة العظيم ، وكان ذلك القرار بمثابة حكم بالسلامة والطمأنية والاستقرار على رقعة كبيرة ، تمتد من مدينة الثورة حتى قشلة يوسف باشا ، كما كان القرار بمثابـــة حكم بالغرق على المواقع الاثرية التي تتوضع على ضفتي النهر على طول المسافة المذكورة التي تتجاوز الـ ٧٠ كم ، وقد ترتب على ذلك اصـدار نداء دولي عن طريق منظمـــة اليونيسكو لانقاذ المواقع الاثرية في منطقة الغمر ، ونظمت حملة دولية للقيام بعملية الانقاذ منذ عام ١٩٦٣ ، وبلغت هذه الحملة ذروتها في عام ١٩٧١ حين بـــدأ العمل الفعلي وقدمت بعثات التنقيب من جهات مختلفة من العالم ، تمثل الجامعات والمعاهـــد العلمية والمتاحف وبعض الانشطة الثقافية والاعلامية المختلفة ، وامتدت هذه البعثات على مايقرب من ٢٣ موقعاً بما في ذلك بعثاتنا الوطنية ، وقد اشتملت هذه البعثات على

جنسيات مختلفة كالانكليزية والاميركية والفرنسية والالمانية والبلجيكية والسويسرية والهولندية والايطالية واليابانية . وموقع الحديدي هو واحد من هذه المواقع .

وقد دل المسح الأثري الذي قام به العالم الأثري الهولندي فالوون لحوض الفرات أن هذا التل يعود الى عصر الحديد . وهذا ما أغرى العالم الأثري الهولندي الدكتور فرانكن الذي يعمل على إصدار دراسة عن فخار المنطقة تكون بمثابة أبجدية فنية لصناعة الفخار من الناحيتين التقنية والتاريخية تغطي جميع العصور التي مرت بالمنطقة ، وقد نجح في تصنيف فخار معظم العصور ماخلا عصر الحديد ، لذا استهواه هذا التل وبدأ باستخراجه في عام ١٩٧٣ وذلك بواسطة أسبار علمية ساعدت على إختراق عصوره المختلفة ، ووجد أن هذا التل كان معموراً منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، والطبقة التي أخذ منها وثائق الألف الخامسة تتوضع فوق آثار للعمران ، ولكن عمق الأسبار ورخاوة التربة وعدم رغبة المنقب في آثار العصور المتوغلة في القدم حال دون الوصول إلى الأرض الحرة . ولسوء حظ المنقب لم يستطع العثور على أية وثيقة تعود إلى عصر الحديد وإنما العصور التي سبقته والعصور التي لحقته حتى العهد المملوكي من العصور الاسلامية .

باشرت البعثة الأمريكية المرخصة رسمياً بالتنقيب في هذا التل أعمالها في عام ١٩٧٤ ، وهذه البعثة تابعة الى متحف ميلووكي وجامعة ميتشغن . قامت بعملية مسح شاملة للتل بجزئيه الشرقي المنخفض المستوي تقريباً ، والغربي المرتفع غير المستوي ، وقد وزعت البعثة جهودها على الجزئين بآن واحد . وبعد انقضاء الموسم الثاني تبين لهم أن الجزء المنخفض كان معموراً من قبل شعوب عصر البرونز الأول (حوالي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد) وأن العمران لايتعدى طبقة واحدة وهي لاتنخفض عن سطح التل بأكثر من ٣٠ سم ، ومن خلال اللقى التي عثر عليها تبين أن السكان كانوا من وسط اجتماعي متقارب يمثل طبقة بسيطة ، ربما كانت الطبقة التي تعمل لصالح سكان التل الأعلى ، وعلى التل الأوطأ هذا عدد من النماذج المختلفة المدافن المبنية تحت الأرض والتي تعود إلى عهود مختلفة ، ونظراً لأهمية المدافن بالنسبة لموضوع التنقيب الأثري وجدت أن أخصها بالحديث في هذا المقال . من هذه المدافن واحد يعود إلى عصر البرونز القديم ، ويدل أسلوب عمرانه أنه يخص أناساً يتمتعون بمستوى إجتماعي لائق . مخطط هذا القبر يتألف من درج

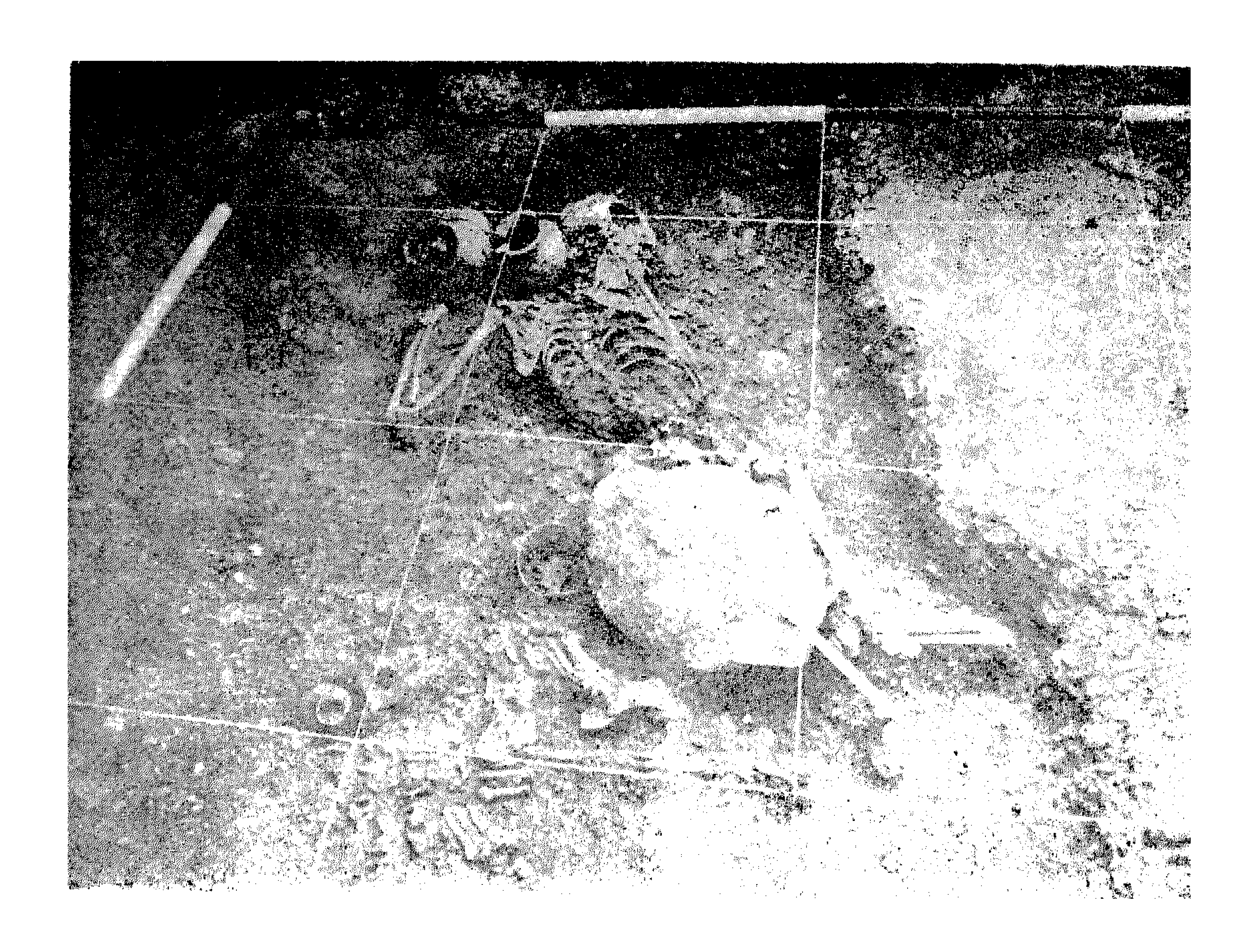


يؤدي إلى ردهة ، تتصل هذه الردهة بغرفة مقباة بطول يتراوح بين ٤ ـ ٦ أمتار وعرض ٤ ـ ٥ ، أمتار وإرتفاع ٣ ، م ويبلغ الطول الكلي المدفن حوالي ١٢ م ويأخذ إتجاه الشمال ـــ الجنوب ، ويتميز هـذا النوع بكونه مبيناً من حجارة غير موجهة وبأن سقفه مغلق بمشاطيح حجرية بسمك ٢٠ ـــ ٣٥ سم وعرض أقصى ١ م وطـــول يتراوح بين ٢ ـــ ٤ م ويدعى هـــذا الوع من المدافن بـ :

Corbelled Cyclopaean Construction

عثر على مثل هذا النوع في موقع محبانة على الضفة الجزيرية المقابلة من حوض الفـرات وفي تل برسيب قرب كركميش وفي موقع ماري . محتويات قبر من هـذا

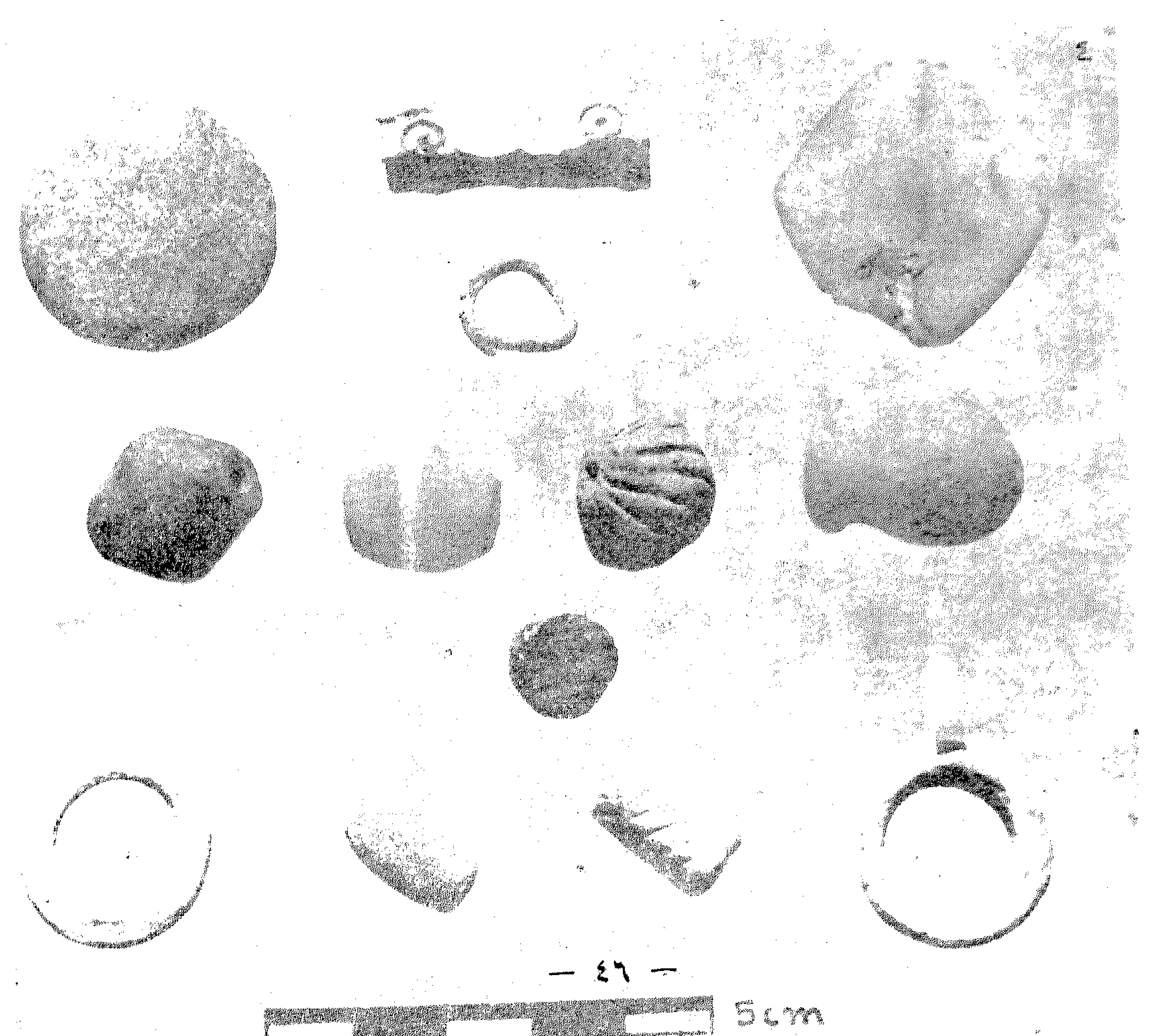
النوع عادة تشتمل على أوان فخارية صقيلة ناعمـــة ورقيقة ، أحياناً تزينها خطوط دائرية بعروض مختلفة منفذة باللون الكستنائي . هذا بالاضافة إلى تمائم فخارية تمثل الآلهة والأشخاص وأصناف متنوعة من الخرز المصنوع من الفريت والكوارتز والعقيق والزفت وتشتمل اللقى على دبابيس مختلفة الأشكال مصنوعة من الرونز وأشـــكال قرنية مصنوعة من الأصداف تنتظم باشكال عقود ، هذه اللقى جميعها توجد منتثرة بين هياكل الموتى .



إن هذا النموزج الذي أرجعه المختصون إلى عصر البرونز القديم من حيث نمط بنائه كان يستعمل من قبل السكان في العهود اللاحقة ، وقد يستمر استعماله بشكل

متتابع خلال ألف عام أو أكثر ، وهذا ماحدث فعلاً في القبر الذي نتحدث عنه ، والظاهر أنه عندما إنتهى العهد الذي استعمل فيه المدفن أغلق ولكن عوامل الطبيعة من أمطار وتعرية كشفت عنه فاستفاد منه سكان العصر اللاحق نظراً لكونه مبنياً بشكل جيد ومازال به متسع ، فقاموا بتسوية الطبقة السفلية وشرعوا في دفن موتاهم ، وهكذا استفاد منه من أتى بعدهم . ولذلك فان بعض المدافن إذا مادرست طبقاتها فانها تعطي ثبتاً متدرجاً في العهود يفوق بكثير نظيره في العمران لأن طبقات المدفن لايحدث عليها تشويش بينما طبقات العمران في المواقع السكنية ينتابها كثير من الاضطراب بسبب الحفر التي يحـــدثها سكان الطبقات العليـا وبالتالي إختلاط آثار العهود المختلفة .

ويحدث كذلك أن تخلى هـذه المدافن إخلاء تاماً من محتوياتها ويستعملها الأحياء كسكن مؤقت فتكون ملجـــأ للرعيان من المطر والبرد والحر ويمكن الاستفادة منها كمخابيء إذا مادام عدو غاشم المنطقة .



في عصر البرونز الوسـيط تراجعت العناية بالمدافن وهزلت نوعية المحتويات ، فأصبح المدفن لايعدو بشكله حفرة يتراوح قطرهـا بين ٢ — ٣ م . تارة تحفر في الأرض الصلبة وتارة أخرى تحفر في طبقـات الحصى والرمل المتحجرة المترسبة منذ عهود بالية في القدم والتي تعرف علمياً بـ : (Braccia) .



وعثر على نموذج ثان لمدافن عصر البرونز الوسيط يشبه مدخله جحر الحيوان ، ما أن يلج أحد الى الداخل حتى يفاجأ بحفرة كبيرة غير منتظمة تتسع لحوالي العشرين شخصاً قاع أرضها ترابية وسقفها بنفس تركيبة البركسيا السالفة الذكر ، وهذا النوع من المدافن يكون له امتدادات في اتجاهات مختلفة وأحياناً يكون لها أكثر من مدخل ، ولتحاشي خطر سقوط السقف تترك دعامات سبيعية تتصل مابين الأرض والسقف .

عثرنا في سفح التل المطل على السهل قبراً من هـذا النوع واسعاً جداً وبعد إخلاء محتوياته عثرنا على أدوات صوانيـة تتمثل بسكاكين وحراب وسهام يمكن إرجاعها إلى العصور الحجرية الحديثة ، وهذا يعني أن الانسان عندما تتاح له فرصة الاستفادة من جهد غيره لايتردد في ذلك . ليس هذا من طبيعة الانسان فقط بل من طبيعة الحيوان لأنه كثير ماتلجأ الحيوانات إلى مثل هذه المدافن وتتخـذ منها سكناً ، فمن ذكرياتنا : ضباع وذئاب وثعالب خرجت من قبور مماثلة في جبل أسيس في صحراء بلاد الشام وأما الزواحف من الثعابين وأسرتها والعقـارب فحدث عن ذلك ولا حرج .

محتوى هذه المدافن شبيه إلى حد بعيد بمحتوى نموذج العصر السابق من حيث الكمية ولكن النوعية متدنية المستوى فنياً . هناك نموذج ثالث هو نموذج عصر البرونز المتأخر ، انه نموذج مدروس بشكل جيد وهـــو مبني بكامله من حجر نحيت وبشكل متقن ويتجه بناؤه شأن نموذج عصـــر البرونز القديم شمالاً — جنوباً . يتكون من درج اعلاه من جهة الشمال ، بالقرب من منتصف الدرج يوجد الى كل من الجانبين باب حجري يؤدي إلى غرفة جانبية . في أسفل الدرج قبل ولوج عتبة المدفن توجد حفرة أعتقد أنها أوجـــدت لاستيعاب مياه الأمطار التي تتسرب عبر الدرج ، حتى لا تتوحل ردهة المدفن الوسطى . تتصل بالردهة الوسطى ثلاث غرف إثنتان جانبيتان صغيرتان وفي الصدر غرفة كبيرة لتودع بها جثث الموتى مع الأواني والأدوات والنذور ، عرف هذا النوع في مواقع أثرية معاصرة مثل الألاخ في شمال سوريا وفوري في العراق ورأس شمرا بالقرب من اللاذقية .



بقي لدينا نموذج أخير من القبور ، إنه القبر البسيط الذي لايعدو بشكله حفرة لايراعى فيها أي أساس سوى أنها تتسع لجثة المتوفى مع أوانيه المختلفة ، وهذا النمــوذج عرف في مختلـف عصور البرونز ، ويتم التعرف على عهده فقط بواسطة اللقى التي تتوفر فيه ويتراوح عمقه بين ١ و ٥ر١ م .

نلفت النظر إلى أن سكان عصر البرونز الوسـيط والذين يظن أنهـم من الهكسوس قـد اتبعوا اسلوباً خاصـاً بالنسبة لدفن الأطفال حيث كانوا يودعونهم في جرار كبيرة يحفر لها في غرف البيت الذي يسكنونه بحيث تساوى فوهة الجرة وأرض الغرفة ثم تغلق بشكل محكم وهذا مايشجع على الاعتقاد بأن كل بيت يدفن الجرار الفارغة في أرض الغرفـة احتياطاً لطوارىء الموت وأحياناً إذا كبرت الجثة عن حجم الجرة تحدث لها حفرة في أرض الغرفة وتدفن بها .



هذا النموذج وجد كذلك في رأس شمرا إلى جانب شكل آخر مجسم أكثر يتوضع خلف مدخل البيت مباشرة وهي عبارة عن حفرة في الأرض أحياناً يبلغ مقاسها ٢ × ٣ م وعمقها حوالي ٢ م وتبنى بالحجر النحيت وتتصل بدرج يبدأ من عتبة المدخل الرئيسي ، فان حضر صاحب الدار حياً تجاوز العتبة إلى داخل البيت وإن حضر متوفياً رفعت بلاطة خلف الباب وأنزل إلى مثواه الأخير .

أهمية المدافن من الناحية الاثرية :

للمدافن أهمية قصوى بالنسبة البعثات الاثرية وذلك لأنها تحتوي على مجموعات متنوعة من مصنوعات العصر ، وهذه المجموعات غالباً تكون الأدوات والأواني فيها سليمة كاملة لذا فان اكتشاف المدافن واستخراج محتوياتها يساعد البعثة على معرفة أشكال الأدوات والأواني، وذلك مايساعد على ترميم الكسور التي تعثر عليهافي مربعات التنقيب النظامية . والمألوف بشكل عام أن توجد في الحفريات النظامية الكسور أكثر مما توجد القطع الكاملة . لا شك أن ذلك رهن بالظروف التي أحاقت بالعمران موضوع التنقيب فان كان ذلك العمران مهجوراً في ظروف سلم فلا يجد المنقب إلا ماأهمله السكان بخيارهم وإن كان مهجوراً قسراً فلا يعثر المنقب على نفائس لأن المواطن ينقذ أنفس مالديه وإن كان مخرباً من قبل الأعداء فيتوقع المنقب أن يعثر على أشياء هامة وإن كان التخريب بواسطة زلزال أو كارثة طبيعية فللمنقب حق في أن يتوقع العثور من مايريد. وفي كل الأحوال تقدم المواد المكتشفة في القبور عوناً هاماً في التعريف بالمكتشفات وبأشكالها .

سرقة المدافن :

إن سرقة المدافن أمر معروف منذ أقدم الأزمان ، ويمكن أن نرجعها إلى الزمن الذي إبتدأ فيه الانسان يودع الأشياء الحياتية مع المتوفى وقد سمعنا الكثير عن سرقة الاهرامات المصرية منذ عهود الأسر الأولى ، وكذلك سمعنا عن سرقة المدافن اليونانية والرومانية والتدمرية إذن. يكاد يكون شرطاً من شروط السرقة أن تتوفر في القبور مواداً تغري بذلك ، إذا كان ذلك حدث في القديم حين لم يكن للأشياء إلا قيمتها المادية الذاتية فلماذا لايفكر الناس اليوم بسرقة المدافن وقد أصبح لمحتويات القبور بالاضافة إلى القيمة المادية القيمة الأثرية ؟ .

في السنين العشر الاخيرة أصبحت منطقة حوض الفرات عرضة لصيادي الطيور الذين يأتونها من سائر جنبات القطر ومن القطر اللبناني الشقيق وذلك لتوفر أنواع من الطير مغرية مثل الدرغل والطيور البرية والحباري والقطا والدّريج بالاضافة إلى أنواع مختلفة من العصافير والحيوانات .

وكان بين هؤلاء الصيادين أناس يحملون البنادق ولكنهم بدلاً من أن يرجعوا

بصيد يرجون بحقائب مليئة بالآثار . هذا بالاضافة إلى أناس يتعاطون عمليات التهريب بشكل أو بآخر ، وكان تردد هؤلاء وتكاثرهم فيما بعد وشدة إغرائهـم المواطنين الفقراء السذج من أهل المنطقة يغويهم بترك زراعاتهم وأعمالهم التقليدية والاستعاضة عن ذلك بالبحث عن الآثار ، فكانوا في النهار يقصدون المناطق النائية الوعرة التي لايراهم فيها أحد وفي الليل على ضوء المصابيح يداهمون المناطق الأخرى .

وقد بلغت حمى البحث عن الآثار ذروتها في فترة إرتفاع ماء بحيرة الأسد وتهديدها المناطق المجاورة بالغمر ، إذ لم يبق للمواطن هنا مورد رزق كاف بعد أن قضى الغمر على مناطق الزراعة المروية فهب جميع السكان للعمل (في المشكة) أي في استخراج الأنتيكا ، وقد شجع على ذلك تغاضي السلطات هناك لأن المناطق المحيطة في البحرة سوف تبتلعها البحرة إن عاجلاً أم آجلاً .

كان الهدف المفضل للصوص هي المقابر الهلنستية الرومانية والبيزنطية ، لأن هذا النوع عادة يحتوي على آثار ذهبية والمواطن البسيط يرى في المادة الذهبية أعلى قيمة يمكن الحصول عليها ، والدليل على ذلك أننا كنا نجد إلى جوانب القبور المسروقة كثير من الأواني الفخارية المحطمة حيث كان اللص يكسر الاناء إما لأنه فخارياً وهو بنظره لاقيمة له أو لأنه يتوقع أن يجد فيه أشياء ثمينة . وقد اتبع نفس الأسلوب في مدافن العهود القديمة فكان اللص يكتفي بالدمي الطينية (الماجات) كما يسمونها في المنطقة وكذلك الخرز ، وما يمكن استخلاصه من موقف اللص أنه يعتني فقط بما يطلبه منه الصياد أو المهرب الذي لايعبأ بطبيعة الأمر بالقطع ذات الحجوم الكبيرة التي تكشف أمره أثناء تنقله ، لذا فان جميـع الأواني الفخارية تكسر أو تهمل ويمكن تصور الخسارة الفادحة التي لحقت بالثروة الأثرية لو علمنا أن البعثة الهولندية رممت من قبر واحد حـوالي ٢٦٠ قطعة فخارية تحتوي على أكثر من ٩٠ شكلاً مختلفاً .

أساليب اللصوص والادوات التي يستعملونها :

شـاهدنا فئة من اللصوص في منطقـة جبل خالد — بالقرب من قرية قشلة يوسف باشا — يعملون في نهب مقبرة رومانية ، وعندما شاهدوا سيارتنا تتجه نحوهم تركوا عدة عملهم ولاذوا بالفرار باتجاه الجبل حيث لاتستطيع السيارة اللحاق بهم . قمنـا نحن بمصـادرة الأدوات وأخـذنا نتحرى أسلوبهم في العمل فـوجدنا

أن ساحة كبيرة من سطح الأرض المجاورة مغروسة بالشارات المنتصبة التي تشتمل على عصي قصيرة وجذوع النباتات وغير ذلك وكلها موزعة تقريباً وفق مسافات متقاربة . لم نستطع أن نفهم معنى ذلك في البدء . وبعد مسافة أخرى من الطريق داهمنا رب عائلة يعمل مع عائلته في إخلاء أحد القبور ، فتجاهلنا في بدء الأمر أن الموضوع يهمنا وتظاهرنا بالفضول وبعد بعض الموادعة والملاطفة بالحديث سألناه عن بعض أسرار المهنة ومنها عن الشارات التي شاهدناها سابقاً ، قال هذه خبرة أبو عفير وجميع هذه القبور محجوزة له لايستطيع أحد أن يقربها إلا إذ دفع مبلغاً مقدماً ، سألته ماهو أعلى مبلغ يدفع لقبر من هذا النوع ، فقال هذا يتبع مايكتشف في جواره فاذا تبين أن في هذه المنطقة ذهب يصل ثمن القبر حتى ٥٠٠ ل . س وقد حدث أن إشتريت قبور ولم يعثر بها سوى على القطع الفخارية والقطع الزجاجية التي لاتساوي جزءاً يسيراً من المبلغ المدفوع .

سألته هل يضع أبو عفير هذه الشارات بشكل اعتباطي كيفما اتفق فأجاب لا إن أبا عفير يعلم الكثير عن أسرار هذه المهنة ولديه فريق يعمل لصالحه ويتقاضى أفراده أجوراً عالية وعندما ترى فريقه يعمل في مكان فلا بد أن ذلك المكان هام وأن المواد التي ستستخرج منه ذات أهمية ، لذلك يغرى أحياناً برفع اليد عن المكان مقابل مبلغ معين .

سألته هل تعلم كيف أن أبا عفير يعلم مكان القبور فأجاب : يكفي أن يعثر على قبر في مقبرة فيحفر خندقاً مستديراً حوله على مدى معين فاذا إصطدم بقبر آخر يدرس المسافة بين القبرين ويدرس الزاوية التي يتحتم أن تتوضع القبر الثالث في رأسها ، ومن هذا المنطلق يقوم بتغطية المنطقة بالشارات ، وكلما فرغ عماله من من إخلاء قبر ينتقلون إلى موضع شارة جديدة للعمل تحتها والفشل على مسؤولية أبي عفير . سألته عن مدى فائدة هذه العملية العفيرية فقال إنها أفضل من البحث الفوضوي لذلك تدفع لأبي عفير فروغات .

في مناطق القبور التي تعود إلى العهود القديمة يختلف الأسلوب بحيث يكون كما يلي : يؤخذ قضيب من الحديد غليظ ١٦ مم أو أكثر ويسمى مجساً ويغرس في الأرض في المكان المتوقع أن يكون قبراً ويدق القضيب بمطرقة ثقيلة وعندما يغوص القضيب في الأرض إلى مسافة معينة ولا يصطدم بحجر هذا يعني الانخفاق ،

عندها يسحب القضيب وذلك بوضع عصـاة غليظة في المقفة التي تصنع في أعلاه ثم تدار ثم يخرج وإذا إرتطم رأس القضيب بحجر يجس المـــكان في عدة مواضع ليعلم مـــدى حجم الحجر فان وجد كبيراً كشف المكان وإن كان صغيراً أهمل ويجري الانتقال الى مكان آخر وهذا لايعني أن كل حجر كبير هو ظهر قبر لأن كثيراً من الصخور الطبيعية تتوزع تحت سطح الأرض .

يحسن هنا أن نشير أن السكان حتى الآن يستعملون الأحجار الكبيرة فوق القبور حتى يحولوا دون إخراج الجثة من قبل الحيوانات الضارية . إن مثل هذه الفكرة ينفذهـا سـكان القرى الذين يبعدون عن مناطق الأحجـــار ولكن باسلوب آخر وهو أن يغطوا أعلى الحفرة الشوك .

أما أدوات اللصوص فانهـا : المجس ، المطرقة ، الكريك الطويل والقصير ، المحفار الطويل والقصير ، المسطرين ، الزنابيل المربوطة بالحبال .

أخيراً لاحظنا أن ركوداً أصاب هذه (المهنة) لأن معظم المناطق المغرية قد غرقت وكذلك فان نسبة كبيرة من السكان إرتحلت إلى منطقـــة الحزام العربي في الجزيرة ، هذا بالاضـافة إلى أن السلطات لم تعد تتساهل لأن الغمر أخـذ مـداه والمنـاطق التي تليه قابـلة للتنقيب الرسمي النظـامي ، لذا فقـــد غابت هـــذه الظاهرة تقريباً .

أقتصر الموضوع على هـذا القدر آملاً أن أتابعه في مناسبة مقبلة لاتحدث عن البعثات الأثرية وعن طبيعة عملها ومن ثم عن التل الأعلى موضع العمران .

حمص والقضية الفلسطينية

بين الذاكرة والنصوص

في سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ كنّا طلاباً في القسم الابتدائي من المدرسة الحسينية السلطانية (التي تطور اسمها حتى أصبح اليوم « ثانوية عبد الحميد الزهراوي ») وكان مقرها (في المصلحة) البناء العسكري القديم الذي تشغل طابقه الأرضي اليوم المؤسسة الاجتماعية العسكرية ، وكانت الحديقة الواسعة — التي تشغلها اليوم أبنية نادي الضباط — تابعة له ، وفيها كنا نقضي الفرص بين الدروس ، فنفيء إلى ظلال أشجارها ، ونتجمع في أحضان ورودها ننشد الأناشيد الوطنية ، ونهتف بالشعارات القومية ، مضطرمين حماسة ، شامخي الأنوف عزة ، فنحن في ظل الاستقلال . ومن هذا المكان خرجنا ذات صباح ، نشارك البلد فرحه وابتهاجه باستقبال جلالة الملك فيصل بن الحسين بعد أيام قليلة من تتويجه ملكاً دستورياً على سورية بحدودها التاريخية — من رفح إلى جبال طوروس .

وكان من المتبع ، إذذاك ، أن ينتظم الطلاب ، عند الانصراف ، في فرق بحسب أحيائهم أو شوارعهم ، ويرافق كل فرقة معلم يشرف على نظامها حتى تبلغ حيّها أو شارعها .

وذات يوم ـ ويجب أن يكون خميساً فقد كان الانصراف ظهراً ـ كان يشرف على فرقتنا الأستاذ المرحوم محمد الخالد الشلبي ، وهو معلم الموسيقى ومدرب فرقة النشيد في المدرسة ، وكان معروفاً بنشاطه الأدبي والفني والاجتماعي والسياسي .

ولما بلغنا دار الحكومة (في بنائها القديم) ألفينا في الجهة الشرقية منها (مكان فندق الخيام اليوم) جمهرة من الناس يصغون إلى خطبة شاب إعتلى إفريز دار الحكومة ، وهو يتقد حماسة ويتدفق بالخطابة بصوت جهوري ، فمال الشيخ نحوه وتبعناه حتى بلغنا الجمهور وإختلطنا به ، وإذا الخطيب هو المرحوم عبد الرزاق

الرستم الدندشي (مؤسس عصبة العمل القومي فيما بعـد) ، وكان ساعة وصولنـا يقول : « اليهـود . . . اليهود الذين لم يدعـــوا فاحشة إلاّ إرتكبوها لاغتصاب بلادنا . . . أترضون بالذل ؟ ؟ » ، وإذا بالشيخ ، عليه الرحمة ، يلوح بعصاً كان يتوكأ عليها ويصرخ بملء صوته : « كلاّ ! » وينفعل الجمهـور ويردد : كلاّ كلاّ ، ويضيف الخطيب : « أترضون بالعار . . ؟ ؟ » ويدوّي الجـواب كلاّ كلاّ . . . وترتفع قضبان كانت بأيدي بعضهم ،وتلوّح سواعد العزل متساوقة مع عصا الشيخ ، و « كلاّ كلاّ » تدوّي في الفضاء ، ويلتفت الشيخ إلى تلاميذه مشيراً بيده :

نحن خواضو غمار الموت . . .

وتنطلق حناجر التلاميذ بالنشيد فاذا هي مظاهرة صارخة ويقفز الخطيب فيقودها إلى أمام دار الحكومة ، وينـــدفع ليظهر على شرفتها ويستأنف خطـاباً جديداً ، والتلاميـذ بقيادة معلمهم الشيخ ، ينشدون الأناشيد الحماسية ، والنـاس من حولهم — وقد تـكاثر جمعهم بمن إنضم إليهم من المواطنين والطلاب والمعلمين — يطلقون الهتـافات : الموت لليهود ، أرواحنـا فداء للصخرة والبراق . . . حتى أطل من الشرفة شخص يلبس نظارات ملوّنة ، وألقى كلمة شكر فيها الجماهير على حمـاستهم وصدق وطنيتهم، وطمأنهم إلى أن الحكومة يقظة ، ولن تمكن اليهود من إغتصاب حجر واحد من فلسطين . وتفرق النـاس ، وكانت أول مظاهرة يشهدها جيلنا في حمص ، بل لعلها أول تظاهرة عرفها البلد خارج نطاق (العراضات) .

ونأوي إلى بيوتنا نحدثُ أهلنا حديث (الهوشة) ونتساءل عن الصخرة والبراق اللذين كان الناس يفدونها بالأرواح ، ماهما وما شأنهما ؟ فيقصون علينا حديث الاسراء بالرسـول العربي عليه الصلاة والسلام (من المسجـد الحرام الى المسجد الأقصى) والعروج به من هنـاك إلى السماء ، يحدثوننا عن مـكان الصخرة وحائط البراق في هذا الحادث التاريخي المقدس . ثم نسأل عن اليهود ، من هم وما قصتهم ؟؟ فنعرف أنهم قوم كفار ، عبدوا العجل وقتلوا الأنبياء ، فغضب الله عليهـــم ولعنهم ومسخ طائفة منهم قردة وخنازير ، وشتت سائرهم في جميع أرجاء الدنيا ، فأصبحوا منبوذين مـكروهين ، لا يألفون ولايؤلفون ، وباتت حياتهم كلها تقوم على الكيـــد والدس والعداوة لكل البشر ، حتى ليدفعهم غدرهم وحقدهم على كل من ليس من دينهـم الى اختطاف أطفالهم ، واستصفاء دمائهـــم بطرق وحشية شنيعة ، ليعجنوا بها عجينة يصنعون منها (فطاير) في بعض أعيادهم .

نسمع هذا فتمتلىء نفوسنا بغضاً وكراهية لهؤلاء الوحوش ، ثم نسأل عن علاقتهم بالصخرة والبراق ، فلا نحظى بجواب واضح ، ولكننا نجد بعض هذا الجواب في اليوم التالي عند معلمينا ، وعند بعض طلاب الصفوف المتقدمة في المدرسة فيكون ذلك أول عهدنا بقضية فلسطين ، وبدء اطلاعنا على الحركة الصهيونية .

ويبدو أن شباب حمص العاملين في الحقل الوطني إذ ذاك ، في ظل (النادي العربي) كانوا موفقين جداً في الخطة التي رسموها لتوعية الجماهير الشعبية وتعريفها بقضية فلسطين والعدوان اليهودي ، على قلة وسائل الدعاية والاعلام المتاحة لهم ، فلا صحافة في البلد ولم تكن الدنيا تعرف المذياع أو التلفاز ، ولكنهم فطنوا الى مكانة خيال الظل (الكركوزاتي) بين تلك الجماهير فاستفادوا منه أيما استفادة ، إذ دفعوا الى المخايل (أبو الخير البخاش) (بابة) ـ فصلاً ـ وضعوها حول يهودي قذر ماكر سموه (شمويل) تسلل الى بيت عربي آمن ، وأحس به صاحب البيت ، وتصدى له فراح يتصاغر ويتذلل ويدعي أنه ماجاء إلا ليساعده في أعماله الكثيرة : حراثة الأرض ورعاية الماشية والعناية بالدواجن ... ولكن صاحب البيت لايخدع بأقواله فيطرده ، ويهم بأن يعود إلى بيته ، فيغتنم الخبيث الفرصة ، وينتضي خنجراً يحاول أن يغمده في ظهره ، لولا يد صلبة تشد على معصمه فتطيح خنجره ، ويلتفت صاحب الدار فاذا جيرته وأبناء عمومته قد استيقظوا وهبوا لنجدته ، فيسرع الى الخنجر يلتقطه من الأرض ويغرسه في قلب الغادر ، فاذا هو جيفة يتخبط بدمه .

ويدوي المقهى بالتصفيق وتتعالى الهتافات : « يعمر دينك » « تسلم إيدك » ... « صرميلو »[1] ... « شقفوا »[1] ...

وأعيد عرض (البابة) عدة ليال وكانت حديث الأوساط الشعبية لمدة طويلة ومن خلال شرح أحداثها وفك رموزها وقفت هذه الأوساط على المؤامرة اليهودية الصهيونية ، وأصبحت تتابع أحداث فلسطين وتنفعل بها وتتجاوب معها .

هذه الظاهرة و (البابة) التي تلتها لاتحتفظ الذاكرة بتاريخ محدد لها سوى أنها كانتا في العهد الفيصلي . ولكني أستأنس بالنصوص التاريخية فأقرر أنها كانتا في شهر نيسان عام ١٩٢٠ تجاوباً مع الانتفاضة الأولى في فلسطين نفسها .

ذلك أن وعد بلفور الذي أعطي لليهود في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ لم يتبلغه عرب فلسطين رسمياً إلا في ٢٠ شباط ، فقابلوه بالاحتجاجات الصارخة ، وفي أوائل نيسان

---

(١) صرميلو ـ اضربه بالصرماية ـ النعل ـ احتقاراً له . شقفو ـ مزقه

١٩٢٠ ، وأثناء احتفالهم في القدس بعيد النبي موسى (وهو يكاد يشبه خميس المشايخ بحمص وبزامنه) اصطدموا باليهود واشتبكوا معهم بمعركة قتلوا فيها عدداً منهم وجرحوا كثيرين ، فهب الجيش البريطاني لصيانة الأمن وحفظ النظام !! ... وشكلت محاكم عسكرية حكمت على زعماء العرب بالسجن مدداً متفاوتة . فكان لهذه الحوادث صداها في المدن السورية ، فتظاهرت واحتجت . وكانت مظاهرة حمص هذه ثم تلتها (بابة الكركوزاتي) . وبذلك تبدأ حمص مسيرتها مع القضية الفلسطينية من أول خطوة فيها .

وتمر العشرينات ليس فيها مايذكر . ففي فلسطين نفسها يعمد الانكليز إلى مخادعة الشعب العربي وإلهائه بلجان التحقيق والمفاوضات والمؤتمرات ، وإصدار البيانات على شكل كتب بيضاء ... وسوداء ... حتى يخدروا أعصابه ويخمدوا جذوة حماسته ، ويتيحوا لليهود فرصة من الزمن يرتبون فيها شؤونهم ويؤلفون عصاباتهم .

وفي سورية يطغى الاستعمار فينهار العرش وتغرق البلاد في جحيم الثورات ضد الافرنسيين .

وفي العراق ملك يشاد ومعاهدة تبحث فتشق البلاد فئات وأحزاباً .

وفي الجزيرة العربية حرب تثار بين السعوديين والهاشميين تنتهي بانهيار العرش الهاشمي ونفي صاحبه الحسين بن علي إلى قبرص وتكون قضية فلسطين نفسها واحداً من أسباب ذلك .

وفي اليمن سحب كثيفة من دخان مجالس (القات) تحجب عن عيون رجال (الامام) الحشود النجدية التي احتلت (عسير) وأصبحت تدق أبواب مملكتهم (المتوكلية) .

ولا تسل عن مغرب الوطن العربي ولا عن مشرقه فثمة تنيخ كلا كل الاستعمار .

وهكذا نرى كيف يتضافر البغي فيحيل دنيا العرب إلى مثل يوم الحشر . . لكل بلد فيه شأن يغنيه .

وما كان لحمص أن تنجو من غمرات هذا الخضم الزاخر ، خصوصاً وإن الثورة السورية الكبرى ٩٢٥ — ٩٢٧ قد ظلت قائمة فيها قرابة سنتين بعد إنتهائها في شتى الميادين .

ويأتي العـــام ١٩٢٩ حاملاً مثقلاً ، ويتمخض عن قضية حائط البراق وهـو الجدار الغربيّ للمسجد الأقصى ، وهو نفسه (مبكى) اليهود . . . وإذن فهو تراثهم المقدس ولا بدّ لهم من الاستيلاء عليه ! . . . وكيف وهو جزء من المسجد الأقصى ، بل هو أحد أركانه ؟ ؟ ؟ ! . .

ويشهد شهر آب من تلك السنة معارك دامية بين العرب واليهود ، فقد صحا عرب فلسطين من خدرهم ، وآفاق العالم العربي من رقاده ، وبدأ عهد نضال واسع ، دموي في فلسطين ، سياسي في سائر الأقطار العربية . ويتنبه العاملون فيه إلى مدّ آفاقه حتى يشمل العالم الاسلامي ، فيدعون إلى مؤتمر إسلامي عام . ويعقـد المؤتمر في المسجد الأقصى ليـلة السابع والعشرين من رجب ١٣٥٠ (ليلة ذكرى الاسراء والمعراج) الموافق للسابع من كانون الأول ١٩٣١ . وتشترك حمـــص فيـه بوفد يؤسفني أني لا أذكر من أعضائه غـــير المرحوم يحيى خانـــكان ، ومنه استقيت معلوماتي عنه .

ثم يدعو الشباب العربي الفلسطيني إلى مـؤتمر للشباب عقد في مدينة يافا أوائل كانون الأول من العـام ١٩٣٢ ولعلّ حمص اشتركت فيه . وأقول (لعلّ) لأن هذه المؤتمرات قد تعددت فذكرياتي متشابكة متداخلة أخشى خداعها فيما لاأملك عليه دليلاً قاطعاً .

ثم يقام في القدس معرض صناعي تجاري أواخر العـام ١٩٣٣ وتشترك حمص فيه ممثلة بغرفتها التجـارية ، ويكون جناحها من أبرز الأجنحة وألمعها ، وتغـــدو قاعته ملتقى العديد من رجالات فلسطين وغيرها من سائر الأقطار العربية .

ولا تقل لي : ذاك معرض صناعة وإقتصاد فما هو والعمل السياسيّ النضاليّ ؟ ؟ فأنت عليم أن كل المؤسسات والتنظيمات الوطنية في عهود المقاومة إنما هي حجب وستائر للعمل السياسي النضالي ، كما أنها وسيلة لبث الأفكار وتمازج الآراء وتوحيد الصفوف ورصّهـا . تستوي في ذلك المؤسسات الاقتصادية والمنتـــديات الأدبية والثقافية ، والتنظيمات الفنية والرياضية والاجتماعيّة والنقابية . . . ومعرض القدس هذا لم يقم إلا لهدف سياسيّ نضـاليّ ، وبحسبك أن تعرف أن مديره العام كان المرحوم نبيه العظمة رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين في دمشق .

وتستمر الحال تأييداً لفلسطين بالاضرابات والمظاهرات والاحتجاجات ، والمشاركة

في المؤتمرات والندوات حتى تنفجر الثورة الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ — ١٩٣٩ .

وعلى الرغم من أننا — في سورية — كنا في سنتها الأولى نخوض معركة ضارية مع الافرنسيين بدأت بالاضراب الستيني في شباط وآذار ١٩٣٦ وظن أنها إنتهت بماهدة إيلول من السنة نفسها ، وأننا كنا في السنوات التالية ٩٣٧ — ٩٣٩ في معركة أشد ضراوة من أجل لواء اسكندرونة . . . فان ذلك لم يشغل البلد عن واجبه نحو فلسطين، تظاهراً واحتجاجاً وبذلاً سخياً للأموال . . . وإشتراكاً فعلياً بالقتال ، فقد التحقت كوكبة من شباب حمص بتلك الثورة ، ولا سيما حين هبّ لنجدتها القائدان فوزي القاوقجي وسعيد العاص . وما يزال بعض العارفين يذكرون أسماء بعض من هؤلاء الشباب : نيازي ختن وخالد النجار وأمين زيني ويحيى الجندلي وزهري الدروبي وشباب من آل النفري . . . الخ . وقد جرح في إحدى المعارك الشاب نيازي ختن فحمله رفاقه إلى حمص حيث عولجت جراحه وشفي منها وكتبت لهم السلامة جميعاً .

وفي أواخر تلك الثورة ٩٣٨ و ٩٣٩ كانت حمص ملجأ لبعض مجاهديها الفلسطينيين الفارين من أحكام الاعدام الانكليزية ، والملاحقين من قبل السلطات الفرنسية عندنا — تلبية لارادة الانكليز ووفاءً بما كانوا أسلفوها يوم قبضوا على الزعيم ابراهيم هنانو وغيره من المجاهدين السوريين في فلسطين نفسها وسلموها إياهم — وقد وجد بعض هؤلاء اللاجئين الأمن والحماية ، وعثر الحظ ببعض فاعتقلوا وسُلموا للانكليز .

وما أنس لا أنس واحداً منهم ، شاب في مقتبل العمر ، كله نخوة وعزيمة ونشاط أدخل الميتم الاسلامي كمراقب داخلي — حماية له — وأطلق عليه اسم (علي) إخفاءً لاسمه الحقيقي ، وأوصي بأن لا يبرح بناء الميتم فهو حرم مقدس لايجرؤ الفرنسيون على انتهاكه . ولكن الذين تخونهم الجراءة يواتيهم الكيد وتسعفهم الحيلة ، فقد استطاع اثنان من شرطة الأمن العام الفرنسي الاحتيال عليه واستدراجه من داخل الميتم الى عرض الطريق ، وثمة اعتقلاه وأوثقا يديه قيداً ومضيا به في طريق الشام ، باتجاه الثكنة العسكرية . ولكنه إستطاع أن يفلت منهما في أثناء الطريق ، والقيد في يده ، وأن ينجوا بنفسه حتى يبلغ البساتين الغربية ، فيتلقاه بستاني بالعطف والرعاية ، ويدق قيده حتى يحطمه ، ويؤمن له مخبأً يحجبه عن الأنظار ، ويدلف إلى البلد لينقل نبأه إلى زعيم حيه المرحوم محمود السبيتي ، وكأنه لايمتر عليه فيلتي بالنبأ الى ولده اليافع

(جيد) ، فينطلق هذا الى البستان مع نفر من شباب حيّه ، ويعودون بالشاب المجاهد الى مكان أمين أعدوه له في حيهم (باب السباع) ، فيلبث فيه حتى تواتيه فرصة الخروج من حمص سالماً معافى .

وتندلع الحرب العالمية الثانية أول ايلول ١٩٣٩ فتتوقف الثورة العربية ، وقد أحرزت بعض المكاسب بحملها بريطانيا على تقدير قوة الحق العربي ، ولو جزئياً ، وإرغامها على الرجوع عن قرار تقسيم فلسطين الذي كانت اعتمدته بناءً على توصية إحدى لجان التحقيق التي أوفدتها في أوائل الثورة . ولكن الكيد اليهودي لم يتوقف ويخرج العالم كله من تلك الحرب منهوك القوى مضعضع الأركان إلا اليهود ، فقد خرجوا منها بالعصابات الارهابية (الهاغانا) و (شتيرن) واضرابها ، وبفرقة كاملة من الجيش المنظم كانوا ألفوها تحت جناح جيوش الحلفاء ، وبنصير جديد لباطلهم هو الولايات المتحدة التي استطاعوا ، هم وبريطانيا نفسها ، أن يجعلوها طرفاً رسمياً ورئيسياً في القضية ، وهي لم تكن من قبل كذلك ، وأن يحصلوا منها (من رئيسها روزفلت بالذات) على وعود قاطعة باقامة (دولة إسرائيل) في فلسطين .

ويراع العرب لذلك ويضطربون ، فيهبون لجمع شملهم ولمّ شتاتهم ، ولكن الأحداث لاتمهلهم ، فما ينقضي العام ١٩٤٧ حتى تكون الولات المتحدة قد حملت منظمة الأمم المتحدة على اتخاذ قرار بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، ذلك المشروع الذي كانت بريطانيا قد نبذته قبل عشر سنوات تحت ضغط الثورة العربية . فلا يبقى أمام العرب خيار ، وماهي إلا الحرب (حرب الانقاذ) .

وإذا كان حديثنا هذا مقصوراً على دور حمص وحدها في القضية الفلسطينية فان حمص جزء من قطر هو نفسه جزء من الوطن العربي الكبير ، ولن نستطيع فهم أحداثها إلا إذا ألممنا بالجو العام في القطر السوري ثم في الوطن العربي ، بقدر مايمس هذا الجو مدينة حمص ويتعلق بالقضية الفلسطينية .

منذ العام ١٩٢٨ أخذ العمل السياسي ، بل قل العمل الوطني ، في سورية يميل الى نوع من التنظيم ، بتأسيس هيئات تتحمل أعباء العمل السياسي وتوعية الجماهير وقيادتها في طريق النضال .

في ذلك العام أسست الكتلة الوطنية ، وفي العام ١٩٣٣ أنشئت عصبة العمل القومي ، وفي العام ١٩٣٥ شكلت جمعيات تحمل إسم (شباب محمّد) أو (الشباب المسلمون) التي انتهت بعد ذلك إلى تنظيم (جماعة الاخوان المسلمين) ، وفي العام ١٩٣٧ ظهر الحزب الشيوعي علناً وكان من قبل خلايا سرّية

وفي هذه الفترة ظهر الحزب القومي السوري في لبنان ولا أحقق تاريخ تسربه إلى سورية فحمص ، وفي العام ١٩٤٠ تكونت نواة حزب البعث العربي . وكانت الأهداف العليا لكل هذه الهيئات واحدة ومتفقة ، وهي تحرير الوطن العربي من الاستعمار بكل أشكاله وتوحيده وبناء نهضته . والاختلاف بينها ينصب على نظرة كل منها إلى هذه الأهداف وعلى الأسلوب الذي تتبعه لتحقيقها .

وحمص – بلدي الحبيب – خصب التربة ، غني بالعقول النيّرة والهمم المتوفرة . فما من صيحة إلاّ ويرتد صداها الأول من أفقه ، بل لعل بعض الصيحات تصدر من أفقه أولاً ، أو هي تجد في هذا الأفق المكان الأمثل لتنطلق منه . وعلى ذلك فقد كان يضم فروعاً ناشطة لهذه الهيئات كلها ، ومن ثم كانت سوق العمل الوطني فيه قائمة على قدم وساق ، وميدان التنافس بين تلك الهيئات رحب الساحات بعيد الآفاق ، والتسابق إلى كسب ثقة الجماهير الشعبية متعدد السبل متنوع الوسائل . وكان للمهرجانات الشعبية والحفلات الخطابية في شتى المناسبات – مايعرض منها عفواً وما يصطنع إصطناعاً – مكانها الأول بين تلك الوسائل . وكانت قضية فلسطين لاتكاد تنفك عن القضية السورية في كل تلك التظاهرات ، بل هي استأثرت بها وكاد يكون لها الميدان كلّه منذ أواسط الأربعينات ، مما أدى إلى زيادة وعي الشعب لها . وقد تحدثت آنفاً عن موقف حمص منها خلال ثورة ٩٣٦ – ٩٣٩ وقبلها ، ونحن الآن في أواخر العام ١٩٤٧ مع فكرة (حرب الانقاذ) .

من يتولى إدارة هذه الحرب ؟ أجامعة الدول العربية وكان عمرها لايزيد على سنتين ؟ وقد جربها عرب فلسطين في سنتي ٩٤٦ و ٩٤٧ حين طرحت القضية على منظمة الأمم المتحدة فلم يحمدوا غبّ التجربة . ثم هي إلى ذلك تتألف من دول أعضاء في منظمة الأمم المتحدة لاتستطيع أن تدفع جيوشها إلى بلد مازال الانتداب البريطاني عليه قائماً ولن ينتهي قبل منتصف أيار ١٩٤٨ .

إذن فلتكن الحرب شعبية تساندها الدول العربية وتمدها بالمال والسلاح والعتاد ، وبالضباط يستقيلون من وظائفهم وينضمون إليها قادة مدرّبين ، حتى يحين موعد إنسحاب بريطانيا من فلسطين فتبادر الجيوش العربية النظامية إلى أداء واجبها في نصرة العرب وإنقاذهم من عدوان اليهود الصهيونيين .

وإنثالت على فلسطين كتائب المتطوعين من شتى الأقطار العربية وفي طليعتها

سورية . وما أنتحل لها صفة الطليعة هـذه انتحالاً ، وإنما هي الحقيقـة التي لاجدال فيها .

فاذا هبّت كلّ الأقطار العربية لتنجد فلسطين على اعتبار أنها قطر شقيق ، وأن الدفاع عنها واجب قوميّ ، فانّ سوريّة تهبّ لتنقذ جزءاً منها ولتجبر كسراً أصابها في جناحها ، ثم لتدفع عن نفسها بالذات مايخبئه لها الغدر اليهودي وأهداف التوسع الصهيوني . فقد أتيح للشعب العربي فيها خلال السنوات الماضية ، وبخاصة في أثناء الحرب العالمية الثانية ، أن يطلع على بعض الوثائق الرسميّة التي تشتمل على المخطط اليهودي التوسعيّ ، ولعلّ أجمعها وأوجزها ، فـيما يتعلق بسورية (ومنها لبنان وشرق الأردن) ماجاء في كتاب وضع نصّه اليهـود أنفسهم وحملوا رئيس الولايات المتحدة ويلسون « صاحب البنود الأربعة عشر وفي مقدمتها إلغاء الاستعمار وحق كلّ الشعوب في الحرية والاستقلال وتقرير مصائرهـا بأنفسها » على توقيعه . وهو يشتمل على مايلي :

« إن حققت مطاليب الفرنسيين المستندة إلىمعاهدة (سايكس — بيكو) السريّة ، كان تحقيقها ضربة قاضية على الوطن القومي ، تنافي طبيعة أرضه الجغرافية وتهمل حاجاته الاقتصادية . إن نجاح القضيّة الصهيونيّة يتوقف على توسيع الحدود في الشمال والشرق إلى أن تشمل نهر الليـطاني ومنابع المياه في الحرمون ، أي سهلي حوران وجولان . إن لم يكن وعـد بلفور — الذي وافقت عليه فرنسة وسائر الدول الحليفة — قصاصة من الورق ، فيجب أن تتخـذ التدابير اللازمة لتحقيقه » .

والكتاب هذا أرسل رسميّاً إلى بريطانيـا في أواخر العام ١٩١٩ أو أوائل العام ١٩٢٠ . فقبلت مضمونه ـ بل هي كانت ضالعة في وضعه ـ ودعمته بكل ماتملك من جهـد وحيلة ، ولكنّ (مصلحة) الفرنسيين حملتهم على إتخاذ موقف عنيد ومتصلّب في عدم التنازل عن أي جزء من تلك المناطق . فأخفقت الخطة .

إذن فعرب سورية كانوا يعتبرون النضـال من أجل فلسطين واجباً (قطرياً) وإمتداداً لنضالهم الذي توّج بإجـلاء الفرنسيين عام ١٩٤٦ ، بالاضافة إلى كونه واجباً قومياً ، فكان إندفاعهم في سبيله أقـوى وأشدّ من إنـدفاع سائر الأقطار العربيـة ، وتدفق متطوعـوهم للانتظـام في كتائب (جيش الانقـاذ) فرادى وجماعات .

ولو رأيت حمص في تلك الفترة لرأيت البلد ، كما عرفته ، سباقاً إلى تلبية نداء الواجب ، موحّد الصف ، على تعدد الهيئات والأحزاب فيه ، تمثله لجنة عامة موحدة ألفت من شبابه المثقفين ورجاله العاملين وفتيانه الميامين ، برئاسة المرحوم الأستاذ عبد الحميد الحراكي ، مهمتها جمع الأموال لتأمين السلاح والعتاد لمن عزموا الجهاد بأنفسهم وقصرت أيديهم عن التجهز له ، ثم تنظيم عملية التطوع وإيصال المتطوعين إلى معسكر (قطنا) ليوزعوا منه على شتى المناطق في فلسطين .

ولو أشرفت على شوارعه الرئيسية وساحاته العامة ، لراعتك غضبة الشعب الأبيّ الطيّب ، ولهالتك ثورته الجارفة الكاسحة ، ولألفيت البلد على بكرة أبيه بين كميّ يتطاير الشرر حارقاً من عينيه ، وتقيّ تنطلق الدعوات صادقة من شفتيه ، وهاتف بشعارات الحرب ، وداع إلى الاقدام والصبر عند اللقاء . وليس أروع ولا أبدع عند الوداع من مرآى إمرأة (بلدية) تلفها ملاءتها الزرقاء تحتضن إبنها المدجج بالسلاح بين ذراعيها ، وتطبع على جبينه قبلة الرجولة ، وتأخذ وجهه بين راحتيها « رح يا إبني أودعتك عند الذي لاتضيع عنده الودائع ، الله ينصركم ويسلمكم » وتزغرد كأنها تزف عريساً ، فتتجاوبها زغاريد النساء وزمجرات الرجال وأهازيج الأطفال ، وتضجّ الساحة بالتصفيق ، وتعجّ الخلائق بدعوات النصر والسلامة والتوفق .

وتمضي الكتائب ، وتتوالى الأنباء ، سارّة حيناً ، موجعة حيناً ، مشرّفة في كل الأحوال ، حتى بنتصف أيار فتزحف الجيوش العربية : سبعة في المدّ ، وإثنين في الشدّ ، يتقدمان من شمال وجنوب حتى ليوشكا أن يتعانقا في (تل أبيب) ، وتوشك القدم العربية أن تتمكن من عنق (شمويل) لولا سرعة النجدة ، وكانت له هذه المرة ؛ فقد قيل : « هدنة أربعة أسابيع حتى تتمكن (المساعي الحميدة ! !) من حقن الدماء وإجتثاث جذور العداوة والبغضاء » .

وليس في الناس من يجهل نتيجة تلك المساعي (الحميدة جداً) التي رجّحت كفة اليهود عند إستئناف القتال ، وأرغمت الدول العربية على الرضوخ لقرار الهدنة الدائمة والتوقف عن القتال ، واقتلعت مليون عربيّ فلسطينيّ من أرضهم وألقت بهم لاجئين في الأقطار العربية المجاورة .

وإذا كان التاريخ إنما يسجّل ويقرأ للعظة والاعتبار ، فان أبلغ عظة كانت لي من قضية اللاجئين ، ماسمعته من بعض ضيوف حمص منهم ، إذ ذاك ، وهو

أنَّ إحدى الجهات العربية ، التي كانت ترفع شعار حماية الفلسطينيين والدفاع عنهم ، كانت تغريهم بالنزوح عن أرضهم ، وتحضهم عليه ، وتيسّر لهم سبله ، مقنعة إياهم بأنه لن يطول أمده ، فان مجلس الأمن سيبتّ الأمر في شهر أوشهرين ولو على أساس قرار التقسيم في أسوأ الأحوال ، فيعودون إلى ديارهم سالمين . وكانت خدعة لاتفوقها خدع اليهود أتخذت سبيلاً لبلوغ غايات وإرضاء شهوات .

وكان دخول الجيوش العربية إلى فلسطين إيذاناً بانتهاء الحرب الشعبية ، فانضمَّ بعض المتطوعين السوريين إلى صفوف جيشهم ، وعاد سائرهم إلى مدنهم ، وراحت كل مدينة تتفقّد أبناءها وتحصي شهداءها . وكان لحمص صفحة مشرقة في سجل الخالدين زينتها بأسماء عشرات من الشهداء الأبرار ، تحتفظ الذاكرة بأسماء بعضهم ممن كانت تجمعني بهم صلات خاصة أو علاقة تربية : الضابطين الباسلين فتحي الأتاسي ومارسيل كرامه ، والفتى المرح روحي عادل الأتاسي ، والزهرتين الناضرتين إبني اليتم الاسلامي عبد الجواد مراد ومحمد القباني .

وبانتهاء هذه الرحلة ، ينتهي الحديث عن مواقف المدن فرادى في ميادين النضال من أجل فلسطين ، ويندمج في الحديث عن الحكومات ، وهو ليس من غرض كلمتي هذه . أقتراني قمت ببعض واجبي نحو بلدي حمص فسجلت كلّ ماوعته الذاكرة وما استقيته من بعض الأخوة المعاصرين للأحداث التي تصله بقضية فلسطين ؟ قد يكون ذلك ! إلا حديث (الكلمة) خلال تلك الأحداث . حديثها منظومة تنشد في الحفلات ، ومنشورة تنشر في الصحف والمجلات ، ومسموعة تنطلق من المسارح في مشاهد وتمثيليات . وإنها لجديرة بحديث خاص ودراسة مستقلة يقوم بها من لاتعقل لسانه عقدة (ضمير المتكلم) ، فسيجد فيها إرهاصات للنضال المسلح والعمل الفدائي وتحذيرات صريحة مما حدث في نكبتي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ، ونداءات صارخة للوحدة ودعوة واضحة إلى شهر سلاح البترول اللذين كانا عماد المعركة الظافرة سنة ١٩٧٣ .

ولو أتيح لهذه الدراسة من ينهض بها لتمت الصورة وبدا موقف حمص من القضية الفلسطينية واضحاً جلياً من جوانبه كلها ، أو قريباً جداً من الوضوح والجلاء .

حمص — رضا صافي

ملاحظات حول أهمية العلوم الانسانية كعلم الآثار والانثربولوجيا وعلم اللغات المقارن وعلم الاديان المقارن بالنسبة لعلم التاريخ

ماجد الموصلي

القسم (١)

مقدمـــة

أردفت فلسفة القرن التاسع عشر اللغات الأوربية بمصطلحات جديدة كمصطلح وحدة العلوم أو مصطلح علم العلوم أو مصطلح اجتماعية العلوم(١) وما كانت هذه المصطلحات الجديدة إلا تلمساً محسوساً ومشكوكاً في صحته وخاصة بالنسبة للعلاقات بين مختلف العلوم وإمكانية إفادة بعضها البعض ، إلا أن تنبؤ الفلاسفة ذاك كان قد بدأ يتحقق منذ بداية القرن العشرين وبدأ التأكيد يزداد عليه يوماً بعد يوم . وما يمكن ملاحظته اليوم هو التطور الهائل للعلوم وبشكل لم تعرفه الانسانية من قبل ، فالمعرفة البشرية تتضاعف باستمرار خـــلال فترات زمنية تقصر بدورها بشكل مضطرد ، كذلك فان التخصص والاندماج ينيران النظام التقليدي للعلوم ويحرضـان على نشوء علوم جديدة كما نشأ علم الكيبرنيتيك (٢) الذي يوحد معرفتنا وينقلها إلى مستوى عال من التجريد وكما نشأ علم الباليونتولوجيا (٣) الذي بدأ يزودنا بمعلومات علمية عن أصل وتطور الانسان وبدايات الحياة في الحقبين الجيولوجيين الثالث والرابع . ومما تجدر الاشارة له في هذا الصدد القول بأن الأشكال والطرائق وقواعد التنظيم

---

١) فلسفة هيغل وماركس ص٦ من كتاب G.N. wolkow' , Soziologie der Wissenschaft

٢) ص (١١) Frank Fiedler , Einheitswissen Schaft

٣) علم نشوء الحياة والانسان ، النشرة الخاصة بالمعرض الخاص عن أصل الانسان الذي افتتح في خريف عام ١٩٧٦ في متحف الانسان في باريس .

للبحث العلمي تخضع اليوم لتحول جـذري ،فالعلاقـة بين العلم والعمل تقترب بشـكل ملحوظ ، ويأخذ العلم شكل القوة غير المبـاشرة للانتاج في المجتمع ، كما ويبني القاعدة النظرية لخطوط التطور الاجتماعي بالاضافة إلى أن مـــكانة العلم في الحياة الاجتماعية قد خضعت هي أيضاً لتحول جذري وبحيث يمكننا التحدث عن ثورة حقيقية .

١) تشكل كلتا علم الآثار مصطلحاً دخل على اللغـة العربية حديثاً وهو ترجمة للمصطلح الشائع في اللغة الانجليزية **Archaeology** وفي اللغة الألمانية **Archaeologie** وفي اللغة الفرنسية **Aachêologie** (١) وإذا ترجمنا حرفياً الكلمة الانجليزية **Archaelogy** إلى العربية فانهـا تعني علم القوس ، وبالحقيقة فان علم القوس كان قد نشأ كوصف لاتجاه خاص ضمن عـلم التاريخ وكان سـبباً في ظهور علم تاريـخ العمارة ، ويعني مصطلح علم القوس البحث في تاريخ ومنشأ ووصـف القوس الذي نبه إليه المؤرخون والرحالة الذين شاهدوا أو اطلعوا على المـدن والأوابد الحجرية التي خلفتها بشكل خاص الحضارات المصرية واليونانية والرومانية (٢) . كان منشأ علم الآثار إلى حد ما عشوائياً وغير منهجي إلا أنه سرعان ماتطور بشكل ملحوظ وعن وعي كامل سـواء من حيث طرائقه أو وظائفه أو أهدافه واسـتخدام ماقدمته بقية العلوم مثل الجيولوجيا والفيزياء والـكيمياء وعلم اللغات المقـارن وعلم الأنثروبولوجيـا وعلم تاريـخ الأديان المقارن من معلومات في تطوير طرائقـه ووسائله وبنية الاسراع في التعرف على الحضارات المندثرة سواء تلك التي عاشت خـلال التطور البشـري ما قبل اكتشاف الكتابة أو تلك التي عاشـــت خلال الفترات التي تلت ابتـكار الأبجـديات . وقبل أن أنتقل إلى عرض مايمكن أن يفيد علم الآثار به علم التاريـخ سأتطرق إلى ذكر فروع علم الآثار وطرائقه .

١) لقد ذكرت في المقدمة أن علم الآثار قد ظهر في بدايته كوصف للهندسة المعارية للأوابد الحجرية الضخمة التي بقيت ظاهرة فوق سطح الأرض والتي خلفتها الحضارات شـبه المتأخرة (٣) كالحضارة المصرية والحضارة اليونانية والحضارة الرومانية

---

١) إشتقت الكلمات الثلاثة عن اللغة اليونانية .

٢) كانت المخلفات الاثرية كأبنية المعابد الضخمة وغيرها قد بنيت بالأحجار الكبيرة وقد قاومت عوامل الحت الطبيعي والزلازل وغيرها مما أبقى على بعض من أجزائها ظاهراً فوق الأرض وقد لفتت هذه البقايا العمرانية أنظار الرحالة والمؤرخين وجعلتهم يقومون بوصفها والبحث في تاريخ بنائها .

٣) بالمقارنة مع التاريـخ السحيق للانسان .

إلا أن تتبع مخططات وأساس الأبنية الأثرية الظاهرة فوق الأرض قد لفت أنظار الجغرافيين والمهندسين والمغامرين منذ القرن السادس عشر الى ضرورة التنقيب ، علماً بأن نبش القبور وسرقة محتوياتها معروف في التاريخ منذ آلاف السنين ، فقد بنيت الاهرامات متضمنة ممرات سرية تميق على سارقي القبور العبث بموجوداتها ، وقد أظهرت التنقيبات الاثرية الحديثة في التلال والمواقع الأثرية الواقعة على ضفاف الفرات أيضاً وخاصة التنقيب في المدافن الجماعية ان تلك المدافن كانت قد تعرضت للنهب والعبث بها في الألف الثالث ق . م ، وهذا الكلام يعني ان انسان الحضارات القديمة كان يعرف شيئاً عن الحفر في الأوابد الأثرية وإن كانت هذه المعرفة في حينها غير هادفة .

لقد سار التنقيب عن الآثار زمنياً في العديد من المواقع الأثرية المشهورة في العالم بشكل مختلف ، وتبنت معاهد الآثار كمعاهد المصريات ومعاهد الحضارات الهندية (١) ومعاهد علم الآشوريات وغيرها إعداة الدراسات وتشكيل بعثات التنقيب .

[١]٢) التنقيب هو عماد علم الآثار وهدفه إعناء المعارف الانسانية عن التاريخ القديم المكتوب وتقييمها وإعطاء معلومات علميـــة عن الحضارات الانسانية لما قبل التاريخ وحضارات ماقبل الكتابة والملموسات المادية لتاريخ المجتمعات القديمة يتمثل مثلا بالأدوات والأسلحة والفخار والمجوهرات والقطع الفنية وكذلك ببقايا البيوت والمعابد والمدافن وغيرها من منشآت معمارية .

بدأ التنقيب العلمي المنهجي بشكل حقيقي في القرن التاسع عشر وقد طورت له طرائق علمية دقيقة ووصل إلى مستوى رفيع من التقدم منذ بداية القرن العشرين ، لكن التنقيب الفعلي عن الآثار كان قد بدأ منذ القرن السادس عشر وكان هدف ذلك التنقيب غير المنهجي هو الحصول على النفائس والتحف الثمينة وإغناء مجموعات هواة الجمع ، وقد جرى أول تنقيب في عام ١٥٠٦ في روما ، كما وتم الكشف عن الرسوم الجدارية الرومانية في مدينة روما الأثرية (٢) .

بـــدأ التنقيب عن الآثار في منطقة الشرق الأوسط عام ١٨١١ في كل من موقعي بابل وآشور ، وقد جرى أول تنقيب في سوريا عام ١٨٣٨ في ارواد ، وفي عام

---

١ ــ حضارات موهنجودارو وهارابا .

٢) راجـــع **Lexikon der Kuust, Leipsig 1968, archaeologie**

١٨٦٠ جرى تنقيب عن الآثار في طرطوس وبيبلوس وصيدا ، ثم تبع ذلك تنقيب في كركميش (جرابلس) عام ١٨٧٨ ، وفي عام ١٨٩٩ جرى تنقيب في الموقع الأثري الهام تل حلف (محافظة الحسكة) باشراف العالم الألماني الكبير فون اوبنهايم (١).

أما التنقيب عن الآثار في فلسطين فقد بدأ عام ١٨٦٥ وتوقف بعد حفريات البروفسور البرايت (٢) إلا أن حفريات كاثلين كينيون قبل وبعد الحرب العالمية الثانية وخاصة في موقع حفريات أريحا (٣) دفع بعلم التنقيب عن الآثار بخطوات عديدة إلى الأمام ، وكان لأعمال هذه الانجليزية الفضل في التحديد الزمني للحضارات الشرقية منذ العصر الحجري الحديث وحتى منتصف الألف الأول ق . م .

تعتمد طرائق التنقيب الحالية في الحقيقة على الخبرات العلمية المكتسبة لأجيال الأثريين والمنقبين الذين مارسوا التنقيب عن الآثار في مختلف بقاع الأرض وخاصة في منطقة الشرق القديم (مهد الحضارات الانسانية المتقدمة الأولى) . وتسبق عملية التنقيب الاثري الدراسات التحضيرية ، وتشتمل تلك الدراسات على الاطلاع على جميع المعلومات التاريخية عن الموقع المراد التنقيب فيه أو عن المنطقة المعنية بالامر ، وتضم عملية الاطلاع كذلك دراسة اللقى الأثرية والنتائج المستخلصة سابقاً إن كان الموقع قد نقب فيه من قبل وفي الحالة الأخرى دراسة كافة النتائج لحفريات في مواقع أثرية مجاورة ، وتشتمل الدراسات التحضيرية أيضاً على دراسة فخار المنطقة بشكل رئيسي لما للفخار من أهمية بالغة بالنسبة للتاريخ والتنقيب الأثري ، أما إذا كان الموقع لآثار ماقبل التاريخ والعصور الحجرية المتوسطة والحديثة فتدرس عندها كافة اللقى الحجرية للموقع أو المنطقة . وتضم الدراسات التحضيرية أيضاً الاطلاع على كافة المعلومات الجغرافية والجيولوجية والبيئية (The ecology) .

الحقيقة إن الدراسات الأولية عن الموقع تؤثر في الأسلوب الذي يتم فيه تشكيل بعثة التنقيب ، فبعثة التنقيب التي تنقب في موقع ما قبل التاريخ هي غيرها التي تنقب في موقع حضارات الكتابة ، وعليه تضم بعثة التنقيب لموقع آثار ما قبل التاريخ بالاضافة إلى الطلاب أو الخريجين اخصائيين في الجيولوجيا والبيولوجيا والنبات والانثروبولوجيا ويرأس البعثة أستاذ متخصص في آثار ماقبل التاريخ .

---

١) راجع كتاب تل حلف (von Oppenheim)

٢) مقدمة كتاب K.Kenyon, Archaeology in the Holy Land

٣) اسم موقع أريحا كما ورد في كتاب K.Kenyon هو Jericho

بينما تضم بعثة التنقيب لمواقع الحضارات القديمة بالاضافة الى الطلاب أو الخريجين اخصائيين في هندسة العمارة واللغات القديمة والفخار ، ويرأس البعثة استاذ متخصص في حضارات الموقع .

[١]٣) يتبع عملية التنقيب كتابة التقارير عن النتائج المستخلصة ، يلي ذلك دراسة تلك التقارير والصور ودراسة مقارنة للفخار ان كان التنقيب قـــد جرى في موقع أثري لحضارات مابعد العصر الحجري الحديث (النيوليتيك) ويتم التأريخ اما بواسطة الفخار المكتشف او بواسطة استخدام طريقة الكربون (١٤) وحديثاً باســـتخدام الطريقة المبنية على القياس الفيزيائي لتحرك ذرات المعادن باتجـاه القطب ، وتبنى وتربط النتائج المستخلصة في آخر موسم التنقيب بنتائج عمليات تنقيب سابقة وتنشر النتائج الجديدة وتناقش لتثبيت هويتها العلمية .

من دراسة النتائج المستخلصة عند نهاية موســـم التنقيب يتبين لعلماء الآثار على اختلاف اختصاصاتهـم ظهور معلومات جديدة تهم دارســـي تاريخ الفنون والعمارة والتجارة والصناعة والاقتصاد والقانون والاجتماع والسكان كما وتهم دارسي تاريـــخ الاديان (١) وتاريخ الكتابة ودارسـي اللغات القديمـة (٢) وعلماء الأنثروبولوجيا (٣) وعلماء البيئة والحيوان .

٢) صدر في لايبزغ (٤) عام ١٩٦٧ كتاب عنوانه رمل فوق معابد بلاد العرب **Sand uebet den Tempeln Arabiens** للمؤلفة ايفا غيرلاخ وقـــد تضمن الكتاب استعراضاً تاريخياً لرحلات المغامرين والبحاثة وللنتائج التي توصلت اليها البعثات العلمية بتنقيباتها التي أجرتها في بلاد اليمن ، كما وحاولت الكاتبة البدء بعرض امكانية اعادة كتابة تاريخ اليمن وذلك عن طريق الربط بين كافـــة المعلومات العلمية الحديثـــة وبين ماورد من معلومات تاريخيـــة في تدوينات مؤرخي اليونان والرومان والعرب .

[٢]١) كان أول المغامرين الأوربيين الذين وصلوا بلاد اليمن هـــو الدانماركي كارستن نيبور (**Carsten Niebuhr**) فقـط حطت رحال ذلك المغامر في بلاد

---

١ ـ سوف أتطرق الى بحث علاقة علم الأديان المقارن بعلم التاريخ لاحقاً
٢ ـ سوف أتطرق الى بحث علاقة علم اللغات المقارن بعلم التاريخ لاحقاً
٣ ـ سوف أتطرق إلى بحث علاقة علمي الأنثروبولوجيا والاجتماع بعلم التاريخ لاحقاً
٤ ـ ألمانيا الديمقراطية

العرب السعيدة في خريف عام ١٧٦٢ ، ومع وصوله بـــدأت مرحلة البحث العلمي الحديث لبلاد العرب وتاريخها ، وكانت معلومات البعثة التي يترأسـها نيبور [1] قبل البدء باجراء أبحاثها مقتصرة على ماورد في وصف اليونانيين والرومان لبلاد العرب ، هذا الوصف الذي يعود تاريخه الى أكثر من الف وخمسماية عام ، فمنذ بطليموس الذي وصف البلاد المعروفة في زمنه (القرن الثاني الميلادي) لم ترد معلومات جديدة الى اوروبا عن بلاد العرب . كان من نتائج أعمال البعثة الأولى في اليمن التنبيـه الى غنى تلك البلاد بخلفية حضارية متقدمة والتنبيه الى الغموض الذي يحيط بتلك الحضارات البائدة وخاصة من ناحية تاريخها الجلي ، وقد تبع نيبور في شـــد الرحال الى اليمن الدكتور سيتزن (Dr. Seetzen) الذي كان من أهدافـه زيارة مأرب عاصمـــة مملكة سبأ .

قبل أن تحتل بريطانيا ميناء عدن بعدة سنوات بدأت في عام ١٨٣٤ باجـــراء أعمال قياسات على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية ، وقد لاحظ ضابط السفينة السيد ولستيد وجود صخور سوداء تقع على ساحل حضرموت وعلى بعد حوالي / ٤٠٠ / كم الى الشرق من عدن ، وعلم ولستيد لاحقاً ان اسم المكان الذي رآه من البحر هو حصن الغراب ، وتقع عند أقدام هذا الحصن قرية بير علي . ارتقى ولستيد الى هذا المرتفع البركاني مصطحباً معه زميلين من زملائه ، واكتشـف عنده بقايا طريق ممهدة تقود السائر على الأقدام حتى أعلى المرتفع ، وهناك عثر الثلاثة على بقايا أسوار وبقايا جدران أربعة خزانات للمياه . لقد تساءل الثلاثة عندها من تحصن في حصن الغراب اي من بناه ولماذا ؟ لكنهم توصلوا بعد هنيهة الى الفكرة التاليـة : يجب علينا ان نبحث عن أحجار مكتوبة علنا نستطيع الهداية بها الى مبتغانا ، وفعلا عثر ولستيد على نصين محفورين على الحجر ، وباشر فوراً الى نسخ الكتابة وارســال هذه الطلاسم الى اوروبا .

---

١ ـ ضمت البعثة بالاضافة الى نيبور كلا من كريستيان فون هافن **C.V.Haven** كمتخصص في اللغات الشرقية ، وبيتر فورســكال **P. Forskal** بيولوجي ، والدكتور كريـــستيان كارل كرامر **C. C. Cramer** كطبيب ، وجورج باورن فانيد **G. W. Buuernfeind** كرسام .

تبع ولستيد كل من ادولـف فون فريـدي . (١) وآرنورد (٢) وجوزيف هالفي (٣) وسيفريد لانجر (٤) وادوارد دغلازر (٥) .

---

(١) وصل ادولف فون فريدي إلى ميناء المكلا في عام ١٨٤٣ وكان يهدف الوصول الى طرب فبدأ أولاً بزيارة للأسوار القديمة التي وصفها ولستيد ومن ثم تابع السير في وادي حضرموت حيث كان قد تزيل بزي مسلم يريـد الحج إلى قبر النبي هود ، ولكن البدو قبضوا عليه لشكهم بأمره ومزقوا أوراقه وأعادوه إلى الساحل ، ولحسن الحظ كان ادولف قد أرسل بعضاً من أوراقه المدونة عليها المعلومات التي سجلها عن آثار وادي حضر موت وخاصة عن مدينة لبنة إلى المكلا .

(١) توماس جوزيف آرنود T· J. ArnauD حط بـه الترحال في بلاد العرب السعيدة في تموز عام ١٨٤٣ مستغلاً وصول حامية تركيـــة ومبتغياً زيارته لمملكة سبأ ذات الغنى الخيالي . بدأ آرنود رحلته متخفياً بزي بدوي ، وخرج من صنعاء متجهاً إلى مأرب ليرى السد الذي قرأ عنه في كتاب الله عز وجل ، ولكن الصعوبات التي واجهته كوجوده في منطقة بيرو عبيدة لم تمنعه من نسخ بعض كتابات المنطقة .

(٢) جوزيف هالفي وصل إلى صنعـاء في شباط من عام ١٨٧٠ وانطلق إلى منطقة الجوف متخفياً بزي يهودي ، وإستطاع خلال إقامته في اليمن القيام بنسخ عدد كبير من الكتابات والنصوص المحفورة على الحجر وخاصة كتابات لغة حضارة المعينين (عاصمتهم مدينة قرنوة) .

(٣) سيفريد لانجر S.Langer وصل إلى اليمن في شباط من عام ١٨٨٢ واغتيل فيها في شهر حزيران من نفس العام .

(٤) ادوارد غلازر E.Glaser نزل في ميناء الحديدة في تشرين أول من عام ١٨٨٢ أي بعد حوالي أربعـــة أشهر من مـــوت سيفريد لانجر ، وتخفى بزي فقيه مسلم واستطاع بقدرته الفائقة على التلاؤم نسخ أكبر عدد من النصوص المحفورة على الأحجار الأثرية ، وبالمعاونة مع أسلافه فقد قارب عـدد النصوص التي إستطاع نسخها الألفي نص وهي مكتوبـــة باللغات السبئية والمعينية والقتبـانية والحضرموتيـة .

ثم وصلت البعثة البريطانية الأولى للتنقيب عن الآثار والتي تتألف فقط من ثلاثة نساء تقودهن سيدة تومبسون (١) وفي عام ١٩٥٠ بدأت البعثة الامريكية للتنقيب عن الآثار في جنوب الجزيرة العربية أعمالها برئاسة البروفسور البرايت . لنقرأ ترجمة المقطع من كتاب السيدة غير لاخ عن أعمال البعثة الامريكية : (البروفسور البرايت يبحث عن كسر فخارية) .

لم يهدف البروفسور البرايت عالم الآثار التنقيب الشامل في أوابد مدينة تمنا التي تبلغ مساحتها حوالي ٪ ٢٥ / هكتاراً ولم يكن في مخططه الكشف عن القصور الضخمة لكي يبهج أنظار العالم بأبهة الحياة التي عاشها ملوك قتبة لكنه يظهر من المؤكد أن رفع الأنقاض عن القصور الغارقة بواسطة المعول والرفش والفرشاة هو عمل ممتع ، ومع ذلك فان عمل الأثريين هو اليوم أبعد من أن يكون هدفه فقط حفر وتنقيب عن القصور والمعابد أو البحث عن الحلي الذهبية والتماثيل وجمع للنصوص المكتوبة وهو أيضاً أبعد من أن يكون هدفه رسم صورة لما كان عليه بناء قبل تدميره ، ولكن اعتماداً على اللقى والآثار التي يعثر عليها يجب الكشف عن علاقات تاريخيه ، لذلك يمكن ان يكون لكسرة من الفخار الملون بالنسبة للآثار تحت ظروف خاصة قيمة أكبر من قطعة أثرية مصنوعة من الذهب . ان لون الكسرة الفخارية نوعها أو الطريقة التي صنعت بها أو الطريقة التي دهنت بها كل هذه الأمور يمكن أن تزود المختص بالآثار بمعلومات جديدة تؤدي إلى إستنتاجات وربط علاقات جديدة ، وكذلك فان المقارنة بين تلك الكسر الفخارية مع كسر مشابهة ظهرت في موقع أثري آخر تعطي الاثري امكانية تحديد الزمن بدقة متى استخدم ذلك النوع من الفخار وكذلك تعطيه امكانية تحديد العمر للطبقة الأثرية التي وجدت فيها الكسر بشكل دقيق وسليم .

لقد تحددت الوظيفة الرئيسية للبعثة الأمريكية للتنقيب عن الآثار ف جنوب شبه الجزيرة العربية بالحصول على عدد كاف من اللقى الأثرية ذات المصدر الغريب عن المنطقة ، فمن هذا الطريق يمكن الوصول إلى كرونولوجى مقارنة بالنسبة لجنوب الجزيرة العربية .

لم تستطع تنقيبات عريترود كاتون تومبسون في وادي عمد العثور على مثل

---

١ — نقبت البعثة في هريدة من وادي حضرموت عام ١٩٣٧

هذه اللقى ، فقد كانت هريدة وكان معبد الشمس فيها عبارة عن مكان مقدس صغير ، والآن يجب أن يستخدم المول للتنقيب في إحـــدى عواصم الماليك الأربعة لجنوب الجزيرة العربية ، ففي أوابد المدينة الملكية تمنا يمكن توقع العثور على لقى تستطيع البعثة بواسطتها تأريخ تاريخ قتبة بدقة .

أختيرت مقبرة تمنا لكي تكون موقعاً للتنقيب ، فالقبور تحتوي على الكسر فخارية والأختام الاسطوانية والعقود والتماثيل . بالمقابل فان تقارير رحلات آرنود وهالفي وغلازر أشارت بالاجماع على أن النصوص المكتوبة على الأحجار وجدت في مواقع آثار جنوب بلاد العرب بالقرب من أبواب المدن والمناطق المحيطة بأسوارهـا . لذا بدأت مجموعة تحت إشراف البروفسور هوني مان بالكشف عن الباب الجنوبي لتيمنا والمبني من ردم تبلغ سماكته ثلاثة أمتار .

يرتفع نصب آلهـة الشمس الغرانيتي من بين الرمال المحيطـة به وهو يقـع في مركز المدينـــة الملكية السابقة ويتوقـع تواجد بقايا عـدد لابأس به من الأبنية بالقرب منـه .

بينما بدأ التنقيب كلاً من الدكتور جامي والبروفسور هوني مان وفنديل فيليبس في الأمكنة الثلاثة التي ورد ذكرها أعلاه ، أعطى البروفسور البرايت كل اهتمامه للعنصر الهام ألا وهو التل الذى يرتفع حوالي عشرين متراً والذي يقع على بعد ١٥ كم إلى الجنوب من أوابد تيمنـا .

لقـد اكتشف البروفسور البرايت في وادي بيحان ليس فقـط أوابد المدينة الملكية تيمنا ولكن أيضاً مرتفعات ذات قمة شبه مسطحه وترتفع حـوالي من ١٥ إلى ٢٥ متراً ولها أطراف مائلة وهي موزعـة بشكل ملفت للنظر وعلى مقربة من بعضها البعض .

يدعو الأثريون تلك المرتفعات بالتلال ، والتل عبارة عن مرتفع مسكون تتوضع طبقاته السكنية فوق بعضها البعض . ردم وأحجار من الطين وكسر فخارية وبقايا جدران كل تلك الأشياء تنير للأثري ماضي المستوطنات المدمرة والتي قامت فوقهـا وعلى نفس المكان مستوطنات جديدة . مثل هذه التـلال كان تل حجر بن حميد وهـو يقـع على بعد ١٥ كم من تيمنا وقـد أصابه الحت الطبيعي في جزئـه الغربي فكشفت بذلك بعض الطبقات الأثرية . هنـا بدأ البروفسور البرايت وبكل حـذر إستخدام المول وضمن مربع يبلغ طول ضلعه ١٨ م .

حفر العمال التراب ضمن هـذا المربـع سنتيمتر فسنتيمتر ، وببطء باتجاه الأسفل حفروا طبقة بعد الأخرى . فقط من رأى مرة تنقيباً عن الآثار يعرف بـكم من الصبر والتأني وبكم من تحسس الانامل الضروري يمكن قراءة طبقـات الأرض المتوضعة فوق بعضهـا البعض والتي يعـود تاريخها إلى مئـات السنين وبل آلاف السنين ، يجب الانتباه إلى كل عنصر ولا يجب إضاعة أشياء تضمها الطبقات الأثرية وهي بعد غير مرئية ، كذلك تهم المختص طبقات الأرض ذات الألوان المختلفة فهي تساعده في الوصول إلى فكرة جديدة . اذا حدث وتوصل العمال إلى أرضية مسكن فيوضع عندها المعول جانباً ويبدأ العمل بحذر بواسطة السكين والفرشاة .

بعد مضي سبعة أسابيع على عمل البروفسور البرايت في حجر بن حميد كان عمق التنقيب إبتداء من السطح فقط أربعة أمتار ونصف ولم يؤد التنقيب إلى العثور على أشياء ذهبية أو بقايا أبنية فخمة لكن على الرغم من ذلك فقد ضم هـــذا التل الأشياء التي يبحث عنها البروفسور ، فكسر الفخار التي عثر عليها في الطبقات العليا من التل أعانته في تحديد تاريخ آخر سكن للتل خلال القرون مابين العاشـــر والخامس عشر ميلادي ، وأما الطبقات الدنيـــا فتعود إلى مابين القرنين الخامس والثـالث ق . م (١) .

٢) من السرد الذي ورد آنفاً عن مضمون كتاب السيدة غير لاخ يمكن أن نخلص إلى النقاط التالية :

١ ـ تقسم المصـــادر المتوفرة عن تاريخ اليمن حتى وصـول اول المغامرين الاوربيين الى البلاد الى ثلاثة أنواع :

أ ـ الكتب المقدسة

ب ـ كتب التاريخ التي كتبت في العهود القديمة كتلك التي كتبت في العهـود اليونانية والرومانية والعربية الاسلامية (٢) .

---

١ ـ Eva Ger Lach p. 285 - 287

٢ ـ يعتبر كتاب الاكليل لمؤلفه اليمني الهمداني والمولود في صنعـاء عام ٩٤٥ من اهم المصادر القديمة عن تاريخ اليمن ، وقد كتبت في عشرة اجزاء ووصف فيه هذا الجغرافي القدير الذي كان يتقن قراءة النصوص القديمة المحفورة على الاحجـــار الاثرية القلاع والقصور القديمة، ويعتبر هذا الكتاب مصدراً علمياً هاماً بالنسبة للبحث في تاريخ جنوب الجزيرة العربية .

جـ — التراث الشفوي والتمثل بالقصص والحكايات الشعبية والأساطير والأفعال والأغاني .

٢ — النتائج التي خلص إليها كافة الرحالة والعلماء والمغامرين الذين زاروا بلاد اليمن وحتى إجراء أول عملية للتنقيب عن الآثار .

٣ — الدراسات التي تمت في جامعات أوروبا حول ترجمة النصوص المدونة والمحفورة على الحجارة الأثرية ومقارنتها ضمن مجموعة اللغات العربية الجنوبية ومقارنتها ببقية لغات المجموعة السامية واستخلاص معلومات تاريخية منها .

٤ — النتائج التي توصلت إليها بعثات التنقيب العلمي الأثري الأولى والتي أجرت أعمالها فقط في الأوابد والمدن الأثرية الظاهرة فوق الأرض .

٥ — النتائج التي توصلت إليها بعثات التنقيب العلمي الأثرى والتي أجرت أعمالها لاحقاً في التلال الأثرية .

[٢] ٣ — وبناء على النقاط الخمسة التي ورد ذكرها أعلاه يمكن ملاحظة مايلي :

١ — علم الآثار هو علم من نوعية خاصة فهو يعتمد على الوثائق من كافة الأنواع لكن تلك الوثائق يمكن أن تتأرجح أهميتها بالنسبة لعلم الآثار ضمن حدين مرنين جداً في تقاربها إلى بعض أو في إبتعادها عن بعض .

٢ — تتراكم المعلومات التي تنتج عن عملية إجراء التنقيب لتعطي جدولاً كمياً تتعدل علاقته مع الكيفية العلمية بثبات أو نفي أو تعديل للكم والكيف والجاهز قبل التنقيب .

٣ — تتحدد الأهمية العلمية والنتائج المستخلصة عن علاقة الكم والكيف بمقدار غنى المقارنة .

٤ — تتأرجح النتائج المستخلصة عن التقييم للمعلومات السابقة وربطها بالنتائج الحاضرة زمنياً وتبعاً للطرائق المستخدمة في البحث العلمي .

٥ — من الممكن أن تبدأ محاولة إعادة كتابة تاريخ منطقة مابحذر شديد وخاصة بالنسبة لاكتشاف العلاقات بين العناصر التاريخية المتشعبة .

٦ — يجب أن لانغفل في إعادة كتابة التاريخ كافة الأوجـه الحضارية المختلفة زمنياً بدءاً من الصناعة الحجرية الأولى ومروراً بمختلـف الاكتشافات الهامة بالنسبة للتقـــدم الحضاري والتقني بشكل خاص والفني والثقافي بشكل عام كما ويجب تجنب طغيان إبراز الوجه السياسي العام للحوادث التاريخية .

— يتبـع في العدد القادم —

ـ شيزر وبنو منقذ ـ

اعداد : المدرس جرجس مخول

كل أثر أو موقع هام يرتبط باسم شخصية بارزة أو أسرة معينة عاصرته أو مرت عليه ، واسم شيزر أينما ذكر ومتى ذكر يرتبط به اسم بنى منقذ ، وهي الأسرة الكنانية المعروفة بين القبائل العربية بالفروسية والبطولة ، إلى جانب العلم والأدب ، وخاصة في الفترة التي تعرضت فيها بلادنا للمطامع الاستعمارية الأوروبية التي اتخذت اسم الحروب الصليبية قناعاً لها . فكان لشيزر ولبني منقذ وفارسهم أسامة القسط الهام في التصدي لهذه الهجمات وإبعادها عن مواقعهم الحصينة في شيزر .

موقع شيزر ودورها عبر التاريخ :

على مسافة ٣٠ كم إلى الشمال الغربي من حماة وعلى نهر العاصي في نقطة تحول إتجاهه نحو الغرب في منطقة الغاب تقع شيزر ، وقد لعبت دور الحصن المنيع منذ عهد الفراعنة ، فذكرها تحوتمس حوالي ١٥٠٠ ق . م في وصف إحدى حملاته باسم « شيزار أو سيزر » وذكرها بعده « امنحوتب الثاني » (١) ووردت باسم « زنزار » في رقم تل العمارنة . وسماها اليونان الأقدمون « سدزار » وأطلق عليها « ساوقس ١ » في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد اسم « لارسا » حيث أسكنها مهاجرين من لارسا في تساليا . وذكرها البيزنطيون باسم « سيزر » وغلب عليها الاسم السامي العربي في صيغة « شيزر » وذكرها امرؤ القيس في قصيدته المشهورة :

تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا (٢)

وتردد إسمها هذا في كتابات المؤرخين العرب كياقوت الحموي والأصطخري ، أما مؤرخو الصليبيين فأطلقوا عليها اسم «قيصرية» أو «قيصرية العاصي» تمييزاً لها عن غيرها .

---

١ — J. H. Breasted : Ancient Records of Egypt . V . 2 . 314 : 584

٢ — ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٣٥٣

أما عن أهميتها الستراتيجية ، فلوقوعها على الطريق الداخلية الهامة التي تصل الساحل الشمالي بالمنطقة الداخلية والتي كانت طريق أكثر الفاتحين ، ولسيطرتها على الوادي الذي تشرف عليه قلاع أخرى ، كان لها دور هام في الحروب الصليبية مثل أفاميا « قلعة المضيق » وكفر طاب وغيرها من المراكز التي احتلها الصليبيون مراراً واتخذوها كقواعد للهجوم على شيزر وحماة وغيرها .

أما تحصينها فتذكر أكثر المصادر التاريخية أن بني منقذ هم أصحاب الفضل الأكبر فيه ، وأن سديد الملك علي بن منقذ قد بدأ تحصينها فور تسلمها من البيزنطيين عام ١٠٨١ م ، كما أن نور الدين محمود زنكي اهتم بها اهتماماً زائداً وخاصة بعد أن هدمتها الزلازل عام ١١٥٧ م وينسب إليه بناء الجانب الغربي من البرج الجنوبي . وتؤيد ذلك الكتابة المذكورة عليه ، ويذكر الأثري « مون برشم » في كتابه « رحلة في الشام » أن باشورة باب القلعة من آثار نور الدين محمود هذا ولكن لم يبق منه الآن إلا النذر اليسير .

تاريخها السياسي :

نظراً للدور الذي لعبه المنقذيون في حصن شيزر واجماع أكثر المصادر على اعتبار عظمة الحصن وأهميته تعود إليهم رأينا اعتبارهم مبدأ لتاريخ شيزر وقسمناه إلى ثلاثة عهود :

١ — قبل بني منقذ : ١٥٠٠ ق . م — ١٠٨١ م
٢ — عهد بنى منقذ : ١٠٨١ م — ١١٥٧ م
٣ — بعد بني منقذ : ١١٥٧ م . . . .

١ — قبل بني منقذ :

أول من ذكر شيزر كما أسلفنا تحوتمس من فراعنة الأسرة الثامنة عشرة حوالي عام ١٥٠٠ ق . م وبعد « امنحوتب ٢ » لكن تاريخها السياسي يبدأ مع قيام الدولة السلوقية حيث جدد « سلوقس ١ » بناءها إلى جانب جارتها أفاميا عام ٢٩٨ ق . م وأسكنها مهاجرين من لارسا احدى مدن تساليا اليونانية وسماها باسم مدينتهم الأصلية . وبقوا فيها حتى الاحتلال الروماني عام ٦٤ ق . م .
ودخلت ضمن الامبراطورية التدمرية حيث يذكر أن الامبراطور « اورليانوس »

دخلها عام ٢٧١ م بعد معركة انطاكية (١) وتراجع جيش زنوبيا باتجاه تدمر ، ثم ازدهرت في العهدين الروماني والبيزنطي وأصبحت دار أسقفية (٢) . وعندما جاء الفتح العربي الاسلامي سلم سكان شيزر مدينتهم إلى القائد أبي عبيدة بن الجراح بعد فتح حمص وحماة ، ومن أقوال أهلها للأمير العربي ، الفاتح : « إنّا قتلنا بطريقنا في محبتكم » (٣) ويعنون بذلك قائدهم . واستوطنتها طائفة من الموارنة عند انتشارهم في وادي العاصي أواخر القرن السابع الميلادي (٤) ثم سكنها قوم من بني كندة . وغزاها القرامطة ، وكانت عرضة لهجمات البيزنطيين وخاصة فترة صراع سيف الدولة الحمداني معهم ، حتى أن وفاته كانت فيها ثم نقل جثمانه إلى حلب . وبقيت تتأرجح بين النفوذ البيزنطي والحكم الفاطمي إلى أن سيطر عليها البيزنطيون ، وبقيت تابعة لنفوذهم مدة ٨٢ سنة إلى أن احتلها بنو منقذ عام ١٠٨١ م .

٢ — عهد بني منقذ :

تتابع على حكم شيزر من بني منقذ بعد استيلائهم عليها من البيزنطيين كل من : « سديد الملك أبو الحسن علي بن مقلد بن نصر » وهو الذي ينسب إليه اصلاحها . ولما توفي خلفه ولده : عز الدولة أبو مرهف نصر بن علي ، وقد إتسع نفوذه خارج شيزر إلى المعرة واللاذقية ومصياف . وبعد وفاته خلفه أخوه « مجد الدين » والد أسامة الشهير ولانعكافه على نسخ القرآن وشغفه بالصيد تنازل عن الأمارة (٥) لأخيه الأصغر « عز الدين أبي العساكر سلطان » الذي لفترة حكمه تعود أكثر الحوادث التي دونها أسامة في مذكراته وكتبه ، وبعد وفاته خلفه إبنه « تاج الدولة ناصر الدين محمد » وهو آخر الأمراء المنقذيين في عهده حدثت الكارثة المفجعة : « زلزال ١١٥٧ م » (٦) التي قضت على بني منقذ ولم ينج منهم سوى أسامة الذي كان غائباً في دمشق فجاء شيزر بعد الزلزلة وعاين مافعلته بشيزر وأهله ،

---

١ — مجلة الشرق العدد « ٢٠ » صحيفة ١٠٣٦ ، ١٨٩٨ نقلاً عن فوبيسكوس .

٢ — جرجي زيدان ـ تاريخ سورية ولبنان ص ٣٥٠ طبع بيروت ١٨٨١ م .

٣ — الحوليات الأثرية : ١٩٥٢ نقلاً عن الواقدي .

٤ - المسعودي : التبنية والاشراف .

٥ — أبو شامة : ذيل الروضتين ج ٢ ص ١١١ وابن الأثير ج ١ ص ٥٠٤ .

٦ — ابن الأثير : ج ١ ص ٥٠٣

فرثاهم بقصيدته المشهورة التي منها :

لم يترك الدهر لي من بعـــد فقدهم
قلبـاً أجشمه صـبراً وسلوانا (١)

هـــذي قصـورهم أمست قبـورهم
كذاك كانوا بهـا من قبل سكانا

وكان لبني منقذ في شيزر علاقات هامة مع جيرانهم من اسماعيلية ومماليك وفرنجة « صليبين » وسنخص بالشرح علاقاتهم مع الصليبيين :

بقيت شيزر الحصن العربي الذي لم يستطع الفرنجة أن يسيطروا عليه طيلة المدة التي قضوها في بلاد الشام . ويعود السبب في ذلك إلى مناعة الحصن أولاً وإلى إستبسال أمرائه من آل منقذ في الدفاع عنه . فلقد انتزعوه من الروم البيزنطيين وظلوا حماته الميامين إلى أن أودت بهم الـكارثة المفجعة .

وطوال هذه المدة والغارات وأعمـال الغزو والسلب والنهب لم تنقطع ؛ فتـارة تبدأ من جهة الفرنجة وأخرى يكون المنقذيون هم السابقون ، فشيزر مركز المنقذيين الأساسي وأفاميا « قلعة المضيق » مركز الفرنجة الذي يمدون منه معظم حملاتهم . وكثيراً من الأحيـان يتعـاون الفرنجة والبيزنطيون في حركاتهم العسكرية وكتاب الاعتبار لأسامة .. حافل بذكر الحوادث والغزوات والمعارك التي كان بطلهـا ومحورها كاتب هذه الأخبار ؛ فسهلت على المؤرخين والنقاد كثيراً من العنـاء في النقد والاثبات ، فالراوي شاهد عيان وقائد معظم المعارك .

ولقد انتقينا أبرز الاحداث التي وقعت بين بني منقذ من جهـة والصليبيين والبيزنطيين من جهة أخرى ، والتي ألح عليها أسامة في كتابه وتناقلها أكثر المؤرخين عنه .

فـفي سنة ٥٠١ هـ ١١٠٨ م نزل شيزر « تنكرد » خليفة « بوهيموند » على انطاكية في عام ١١٠٤ م . فحاصرهـا إلى أن تم الصلح بينه وبين سلطان . وإستمر هـــذا الصلح حتى ١١١٠ م حيث عـاد وحاصر المدينة ولكن دون جدوى .

وقد جاءها في نفس العام ١١١٠ م . صـاحب طرابلس الصليبي « برتراند »

---

١ — ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٦ .

وكان أمراؤها في الصيد فرجعوا ودخلوا الحصن متسللين ومن بينهم أسامة الذي دخل من تحت السكر [1] . وفشلت محاولة « براترند » وكان المسلمون لا يسكتون على هذه التعديات فكانوا يبادلون الحصار بالحصار والحملة بحملة مماثلة . ففي عام ١١١٥م اجتمع امير شـــيزر مع غيره من الأمراء وهاجموا حصن كفرطاب [2] وأحرقوه واستخدموا في حصاره كافة الوسائل المعروفة آنذاك ، ولكنه لم يتداع فاتجهوا منــه الى « داينث » حيث نشبت المعركة في أيلول ١١١٥ م التي هزم فيها الفرنجة وسلمت على أثرها كفرطاب . ولم يكتف المنقذيون بهذه الانتصارات بل كانوا يجددونها باستمرار . ففي آب ١١١٩م سير عز الدين أبو العسكر : أسـامة إلى نهب أفاميا ومعه رجاله . فيتصدى لهم الافرنج وتنشب معركة يتغلب فيها أسامة ويعود سالماً مع جماعته [3]

وفي سنة ١١٢٢ م يأتي شيزر جماعة من فرسان الافرنج وعندما لم يتمكنوا منها قتلوا الحارس وعادوا إلى مراكزهم .

وفي سنة ١١٢٤ م جدد بنو منقذ الهجوم على أفاميا وكان على رأس الحملة أسامة وشهاب الدين قراجا . فحاولوا مهاجمة باب الحصـن لكن الافرنج صدوهم عنه وجرح شــــهاب الدين فتراجعوا عنها إلى شـيزر وعاد شهاب الدين إلى حمـاة حيـث مات متأثراً بجراحــه [4] .

وفي عام ١١٢٧ أغار عسكر انطاكيـة على شيزر فلجأ عسكرها إلى القلعـــة حصنهم المنيع فعاد الافرنج من حيث أتوا .

وفي سنة ١١٣٩ م نزلت شيزر خيل انطاكيـــة من جديد بقيادة « بوهيموند الثاني » كما جاءها عام ١١٣٨ م القيصر البيزنطي « حنا جومنين » [5] على رأس جيش من الروم ونصب منجنيقاته على جبل جريجيس المشـــرف على القلعة ، فاستنجد أبو العساكر سلطان بعماد الدين زنكي الذي أسرع لنجدته ونزل حماة وأخذ يشن الغارات على الروم ويأخذ من يظفر به منهم وطالب مبارزة جيش الروم في السهول والصحاري والتخلي عن التمركز في المناطق الجبلية . كما اتبع سياسة الايقاع بين الروم

---

١ ـ أسامة . الاعتبار ص ٥٥ ٢ ـ المصدر نفسه ص : ٧٣-٧٤-٧٥ .

٣ ـ ٤ ـ المصدر نفسه ص ٤٧ ـ ٤٨ .

٥ ـ احمد وصفي زكريا : جولة أثرية . ص ١٦١ ـ المطبعة الحديثة دمشق ١٩٣٤ .

والتميمي : الحروب الصليبية ص ٩١ ـ مطبعة اللواء القدس ١٩٤٥ .

والفرنجة مقتفياً خطة المسلمين في غزوة الخندق في مطلع الدعوة الاسلامية .

وهكذ غادر الامبراطور البيزنطي قلعة شيزر بعد أن حاصرها فترة من الوقت تاركاً وراءه المجانيق وسائر آلات الحصار ، فاقتفى عماد الدين أثره وظفر بكثير ممن تخلف من جنوده ، وأخذ جميع ماتركوه غنيمة له . وكانت كثير من المدن السورية وخاصة حماة تخشى وقوع شيزر في يد الروم لأن ذلك يؤدي إلى سقوطها هي الأخرى . وهذا دليل قاطع على أهمية شيزر الاستراتيجية بالنسبة للدفاع عن بلاد الشام آنذاك .

ولكن هذه المنازعات الحربية لم تكن تمنع من حدوث وفاق أحياناً بين شيزر والصليبيين وخاصة طرابلس . ومما يذكر أن صاحبها أرسل مرة إلى أبي العساكر سلطان رسولاً ليوصله من أفاميا إلى رفنية (١) منقذ سلطان ذلك (٢) . وهذا دليل على الوئام والسلام الذي كان يحدث بين الفريقين أحياناً . .

٣ — بعد بني منقذ .. عهد المماليك والأتراك :

لمّا حلّت الكارثة ببني منقذ ١١٥٧ م هرع اليها الطامعون ، فقد حاول الصليبيون أن يملكوا القلعة ليحققوا حلمهم التالي رغم تهدمها ، لكن الاسماعيلية هبطوا إليها من مصياف وطردوا الصليبين واستولوا على شيزر . ثم جاء نور الدين محمود زنكي وطرد الاسماعيلية منها ورممها وجدد الدور وأقطعها إلى أخيه في الرضاعة « مجد الدين بن الداية » ، وبعد وفاة هذا انتقلت إلى أخيه « سابق الدين عثمان ابن الداية » ، فاختلف مع الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الذي اعتقله ، مما أغضب السلطان صلاح الدين الأيوبي . وكان هذا من الحجج لانتزاع الشام من الزنكيين . ودخل أولاد الداية في خدمة صلاح الدين فأقرهم على شيزر وضم إليهم « أبا قبيس » .

وفي عام ١٢٣٢ م استولى عليها صاحب حلب الملك العزيز (محمد بن الظاهر غازي) ولما جاء التتر بقيادة هولاكو ١٢٦٠ م هدموا اكثر القلاع التي كانت للايوبيين ولا بد أن يكونوا نالوا أيضاً من شيزر لأنها ذكرت في جملة القلاع التي

---

١ — من الحصون المنتشرة في منطقة مصياف ، مقابل بعرين .

٢ — أبو الفداء . ص ١٦٠

زارها الملك الظاهر بيبرس مراراً ورممها (١) .

وفي عهد قلاوون الصالحي ظلت شيزر كجارتها أفاميا بيد الأمير سنقر الأشقر الذي عصى قلاوون ، لكن هذا استرجعها منه صلحاً على أن تبقى بيده . وتتالت على شيزر غارات الصليبيين إلى أن أقيمت هدنة في عام ١٢٨٣ م بين قلاوون وبين أمراء الصليبيين « أودوبوالشيان » نائب المملكة في عكا واتباعه لمدة عشر سنوات (٢) ورمم قلاوون بعض أركان شيزر واستكتب اسمه على جدرانها . وظلت في حوزة خلفائه المماليك حيث كانت نيابة من أعمال حلب .

وفي سنة ١٣٤٧ م وقعت فتنة في شيزر بين العرب والأكراد الى أن أتاها « ناصر الدين بن الحسني » من حلب وقمع الفتنة (٣) .

وفي سنة ١٣٥٢ م هاجمها أحد أمراء البادية « نصير بن حيار » فنهبها وفتك بأهلها ولعل خرابها بدأ منذ تلك الفتنة .

وفي العهد العثماني اقاموا فيها حامية بالتناوب مؤلفة من ٣٠ نفراً لحفظ الأمن فقط (٤) وذلك لزوال الحاجة للدفاع بعد استيلاء العثمانيين على بلاد الشام بكاملها ، فلم يبق لها مكانة حربية كما لم تعد القلاع والحصون تفي بمهمة الدفاع بعد اختراع الوسائل النارية الحديثة . ولذا أهملت شيزر وغدت قرية يسكنها البعض من الأعراب والاسماعيلية إلى ماقبل حوالي /٧٠ عاما/ حيث نزحت الاسماعيلية عنها الى قرية عقارب الصافي التابعة لسلمية وبقي السكان أخلاطاً من الأعراب وفلاحي القرى المجاورة الذين كانوا يغيرون عليها أيام الفتن في عهد المماليك والعثمانيين .

---

١ ـ المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٤٦ والنجوم الزاهرة .

٢ ـ المصدر نفسه ص ٩٨٧

٣ ـ كرد علي خطط الشام ج ٢ ص ١٥٨

٤ ـ بي براز دزدار قلعة شيزر شيخ مصطفى بن حسن « دزدار : حاكم حصن »

الفخار وأهميته الأثرية والتاريخية

رياض البدوي

مدير آثار حمص

الفخار مادة رخيصة قابلة للانكسار ؛ وحين تنكسر يستغني عنها الانسان فيرميها أرضاً ، ومن هنا نجد ضمن أنقاض وطبقات الخرائب عدداً كبيراً من القطع الفخارية ، فاذا تواجدت في موقع أثري لم تعبث به الأيدي أو العوامل الطبيعية ، نستطيع عندئذ بالتنقيب الطبقي والمنهجي الدقيق ان نقدر عمر الطبقات التقريبي ؛ ونتعرف على حضارة الأمة أو الشعب وعلاقاته مع جيرانه القريبين والبعيدين وذلك بتتبع آثار هذا الفخار ، اذ أن لكل نوع من الفخار ولانتاج كل منطقة ميزات خاصة يصنفها العلماء بدقة ، فهم يدرسون بنية الفخار وتركيبه الكيماوي وطريقة صنعه باليد أو الدولاب أو استعمال القالب ، بالاضافة الى طريقة تزيينه بالختم أو الحز أو القطع أو الوخز أو القولبة التزيينية ، ودراسة معارف القدماء وذوقهم ودقتهم بالعمل ومستوى حضارتهم وأفكارهم ومعتقداتهم وذلك بمعاينة الرسوم المتوضعة على الفخار . كما يمكن تقدير عمره التقريبي بواسطة التحليل بالكربون المشع أو الفحم ١٤ وقد أذيعت هذه الطريقة لأول مرة عام ١٩٤٩ وهي طريقة مألوفة لبعض المواقع في بلادنا : جبيل وسوية عصور ماقبل التاريخ في رأس شمرة ؛ وفي تل الرماد وتل العبد ، كما انها نجحت في تقدير أعمار الآثار المصرية خاصة مايعود منها لما بعد ١٨٠٠ ق . م . كما توجد طرق فيزيائية لتقدير عمر الفخار (بالطرق المغناطيسية وطريقة التألق الحراري وهما طريقتان جديدتان لم تعطيا بعد نتائج أكيدة) . كثيراً مايتساءل المرء عن المادة الرئيسية المكونة للفخار . . . أو ربما يسأل أيضاً عن كيفية حصول الصانع على الفخار . . . ! ؛

يحصل الصانع على الفخار بواسطة التسيل بالماء والترسيب مكوناً عجينة لينة تأخذ شكلا يجففه ثم يشويه بدرجة عالية من الحرارة تصل الى الف درجة أو

أكثر ، ثم يبرد بالتدريــج ليصبح الاناء المصنوع صلباً ومتينا ، إلا أنه لايصلح إلا لحفظ الماء لأن فيـــه مسام . ويصنع من المادة نفسها القرميد والآجر وأنابيب المياه ومصارف المياه المالحـــة . . ، ويكون الفضار جيداً بقـــدر مايكون صافياً وحاوياً على مواد معدنية مثل البوتاسيوم ومعدن الألمنيوم وحمض السيليس .

اكتشف الانسان القديم منذ العصر الحجري الحديث صناعة الفخـار صدفة ، فقد كان يؤلف الاناء من الاغصان الدقيقة على شكل سلة ويكسوها بالفضار ليتماسك الاناء ، ولكن بعد ان تعرض الاناء إلى حرارة عالية على سبيل الصدفة ؛ تمـاسك الفضار وأصبح متيناً . وقد برع الانسان القديم بصناعة الفخار وتفنن به إلى درجة معجبة ، واستمرت الصناعة راقية عنــد الأمم حتى أتى العرب المسلمون فأخذوا يتفننون بتزيين الفخار بالحز والوخز والقطع واضافة الحبيبات واضـافة أشكال مجسمة (الباربوتين) ، والتلوين . كما احدثوا على سطح الفخار زخارف بارزة نباتيــة وحيوانية وكتابية وهندسية . . في غاية من الدقة والجمال .

ومما يجدر ذكره ان الفخار بقي حتى وجود الكتابة المصدر الوحيد لامدادنا بالمعلومات التاريخية الحضارية لـكل تاريخ الشرق القديم ، ولقد كان الطين وما زال له مــكانته المرموقة في حضارات مابين النهرين بصورة خاصة وفي جميع الحضارات الأخرى بصورة عامة . وقد خلف لنا الاقدمون من آثارهم الفنية الفخارية مجموعات كبيرة في الـكم تتغطى على ماسواها من الآثار ، وكان لهذا الفخـار فضل عظيم في تعريف الشعوب والاستدلال على نوع حضارتها ومدى رقيها .

وتعتبر الأواني الفخارية المكتشفة في حوض النيل من أقدم الفخار الموجود في العالم ويرجع الى ١٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، كما اكتشف أيضاً فخار مصنوع باليد في أنحاء انكلترا وبلجيكا والمانيـا وهي تعود الى حوالي ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وتعتبر من بوادر نشوء صناعة الفخار في عصور ماقبل التاريخ . (لكن هـــذه التواريـخ غير مؤكدة لانها قدرت نسبة الى طبقات الارض التي وجدت فيها) .

كما وجدت في وادي النيل كسور القرميد والآجر ، بالاضـــافة الى الأواني الفخارية المسماة « تيراكوتا » التي يحفظ فيها أدوات الميت ومؤونته مثل قبور ممفيس التي تعود الى مابين ٥٠٠٠ — ٣٠٠٠ ق . م ، أما الرسوم الجدارية في قبور طيبة فتتضمن مشاهد تمثل حياة صناع الفخار وترجع الى مابين ٣٠٠٠ — ١٧٠٠ ق . م ،

وقد وصلت صناعة الفخار الى مصر الى الأوج في الفترة الواقعة بين ١٧٠٠ - ٥٠٠ ق . م .

وفي سورية يوجد أنواع عديدة من الفخار أقدمها يعود الى الألف السابع ق.م وجد اكثره في منطقة الجزيرة في تل براك .

أما في موقع رأس شمرة « اوغاريت » فقد بدأ باستخدام الفخار منذ الألف السادس ق.م ، واليها تعود أول أبجدية عرفت في العالم وهي عبارة عن رقيم فخاري صغير (الطول ٥ر١ سم والعرض ٣ر١ سم) كتب عليه ثلاثون حرفاً أبجديا أوغاريتياً مشتقاً من الخط المسماري .

ومدينة ماري العمورية - تل الحريري - أعطتنا فيضاً من القطع الاثرية والفخارية المتنوعة الاشكال والحجوم مثل الجرار والصحون والطاسات والقدور والكؤوس والمصافي والحقق الصغيرة وكلها تشير الى أن الفخار العموري قد بلغ شأناً عظيماً في تطوره وانتاجه من حيث الكم والكيف .

ومادمنا بصدد عرض الطين فلزاماً علينا ذكر انتاج آخر للفن العموري هو فن التمائم الذي يقدم لنا الشيء الكثير عن مظاهر الحياة والمعتقدات ، ومن أهم المواضيع التي طرقها هذا الفن هو الانسان (الرجل والمرأة) فقد أعطتنا حفريات ماري مجموعات تمثل الرجل والمرأة وهما بوضع الوقوف عارياً تماماً وابراز الثديين وصفيفات الشعر وتزيينات العنق ، وكان نموذج (الربة الام) المارية هو السائد في جميع تمائم المرأة في الألف الرابع والثالث والثاني والأول قبل الميلاد .

كما نجد من مخلفات الفن العموري في ماري مجسم بيت صنع من الطين غير المشوى مطلي بالكلس ، وهو نادر المثيل عظيم الاهمية لأنه يكشف عن ناحية مجهولة من فن البناء طالما اختلف العلماء حولها ، فنحن أمام مثال كامل للبيت السوري العموري في الألف الثالث .

وبالتنقيب العلمي الذي جرى على الضفة اليسرى للفرات في تل العبد ، عثر ضمن السوية الثانية العدد الكبير من الدمى البشرية والحيوانية ، ويجدر بالذكر العثور على فرن لصنع الفخار مليء بالأواني الفخارية (اصص فوق بعضها وصحون وأجزاء آنية متنوعة ودمى .. الخ) ويمكن أن ترجع هذه اللقى الى الألف الثاني قبل الميلاد .

واستناداً الى اللقى الفخارية المكتشفة في تل الحاج على الضفة اليمنى من الفرات

وخاصة الأواني الناقوسية والجرار المصقولة والمدهونة بالاحمر وبمقارنتها مع لقى مماثلة مكتشفة في تل حبوبة المجاور فان أعمق طبقة أثرية في تل الحاج ترقى الى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد .

أما بلاد الرافدين فقد عثر فيها على توابيت مصنوعة من قطعة واحدة أو قطعتين تدل على مدى تقدم هذه الصناعة في تلك البلاد ، كما قام البابليون والآشوريون بصنع القرميد الطلي بالزجاج المتعدد الالوان وذلك في الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والسادس ق.م ، ويحدثنا هيرودوت ان عاصمة ميديا في ايران كانت محاطة بسبعة أسوار من القرميد الملون ولكل سور لون خاص به .

ولا ندري ان كان الهنود قد تعلموا صناعة الفخار من بلاد الرافدين أو أنهم توصلوا اليها بانفسهم ، وقد وجد في الشمال الغربي من الهند اواني من الفخار الاحمر يدل على تقدم الحضارة الهندية في الألف الثالث ق.م وهو من النوع المصنوع باليد .

وعلى الرغم من وجود العلاقات التجارية بين اليونان وسوريا وبلاد الرافدين فان صانع الفخار اليوناني يتجه اتجاهاً خاصاً في صناعته ، حيث يعتمد على مادة الفخار الصافي النظيف النقي بالسيليس ، ويعتني بتكوين اناءه بدقة بالغة ويزينها برسوم ملونة تعطيها قيمة فنية راقية . ويمكننا القول أن الفنان اليوناني قد وصل بين القرنين السادس والرابع ق.م الى الاوج في صنع الفخار شكلا وحجما وجمالا واناقة وغنى بالرسوم والألوان ، وقد اقتنت معظم المتاحف العالمية تحفاً تعود الى هذه الفترة ، وكل متحف منها يفاخر بمجموعته وينشر عنها باستمرار معلومات مهمه تضاف الى معلومات الميثولوجيا القديمة .

وفي العصر الهلنستي أخذ الفنان السوري يبدع تماثيل فخارية جميلة تمثل آلهة الميثولوجيا (افروديت) و (ليدا) و (كيوبيد) وربة العدالة والانتقام (نيميسيس) ، بالاضافة الى التماثيل الفخارية التي تمثل مواضيع المقتبسة من الحياة اليومية تمثل أماً جالسة تحنو على رضيعها وعلى وجهها أجمل معاني العطف والحنان . او موسيقيات تعزف كل منهن على آلتها الموسيقية (اللير) أو القيثار أو العود أو الدف أو المزمار أو مغنيات أو راقصات ... الخ وهناك تماثيل فرسان ... ويعتقد بعض مؤرخي الفن أن هذه التماثيل الفخارية كانت تمثل أو تشكل جزء من الاثاث الجنائزي وتوضع في القبور كي تؤنس الموتى ، وكان بعض هذه التماثيل يسهم في تزيين مساكن الأحياء ومعابد الالهة في ذلك العصر . كما أبدع فنان ذلك العصر تماثيل فخارية تمثل حيوانات

أليفة (كالديك والحصان والخروف والجمل .. الخ) يتميز بعضها بالدقة الفنية والاسلوب الواقعي .

أما الصناع الرومانيون ، فلم يتأثروا بالبلاد المفتوحة كمصر وبلاد الرافدين وسوريا في بادىء الامر وانما فضلوا متابعة اتجاه الفن اليوناني ، فقد استمر الصانع الفنان على ابتكار الاشكال الجميلة للأواني الفخارية ذات الفوائد الاستعمالية مؤكداً صلة الجمال بالفائدة قبل ظهور مانسميه في عصرنا الحديث بـ (علم الجمال الصناعي) . أضف الى ذلك السرج الفخارية التي تزين سطوحها مواضيع ميثولوجية ومشاهد موسيقية وزخارف لها أهميتها الفنية وقيمتها الجمالية ولانستطيع أن ننكر أهمية الفخار في العهد البيزنطي على الرغم من أنه فخار رخيص من الاستعمالات اليومية لكنه يتميز بتنوع عظيم وانتاج شعبي محلي ، وكان اكثرها أهمية ، وتنوع السرج بعضها بعدد ضوئي واحد وبعضها باثنين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر ، وبعضها قابل للتعليق .. ويلاحظ أن الصانع الفني كان يتفنن في زخرفة هذه السرج بكتابات مقدسة أو تزينها بمواضيع دينية أو رمز من رموز المسيحية (كالصليب) مما جعل السرج أعمالا فنية لها أهميتها المقدسة ، ومما يميز الفن البيزنطي عن الفن الكلاسيكي بالرغم من أنه الوارث الوحيد له في جميع المجالات ، ظهور شمارات المعتقدات المسيحية على جميع المظاهر الفنية واختفاء الشمارات الوثنية وما يماثلها في جميع نواحي الحياة .

وبالرغم من التنقيبات العديدة في المواقع الاثرية التي أعطتنا فخاراً كثيراً فان الميزات ليست واضحة ، خاصة اذا كان الموقع الاثري قد سكن من قبل العرب في العهود الاسلامية ، فان تحديد عهد الفخار يكون صعباً اذا لم يحمل شماراً أو كتابة تفصح عن هويته .

ولدراسة الفخار في العهود الاسلامية ، يمكن أن نصنفه في مراحله التطورية التالية :

١ — فجر الفخار العربي الاسلامي ويمتد من ظهور الاسلام الى أوائل القرن /٣/ هـ فمن الصعوبة تمييز الانتاج هنا في العهد العربي عنه في العهد السابق ، الا من ظهور بوادر عربية خالصة كظهور الكتابة العربية بالخط الكوفي على الفخار ، أما الزخرفة فقد غلب عليها البساطة في الشكل والتنفيذ ، فقد لجأ الفنان الى تكوين نتوء فوق العروة بشكل لطيف استخدمه لوضع علامة تشير الى صاحبه ، اما تربة هذا النوع من الفخار فكانت نظيفة وصافية لذا استطاع الفنان أن يجعل أوانيه رقيقه مثال الاناء الذي يحمل اسم ابراهيم النصراني رقيق جداً يبلغ سمكه أقل من ملم واحد .

٢ ـ ضحى الفخار العربي الاسلامي ويمتد من القرن ٣ ـ ٥ هـ فقد حصل تجديد وابداع ملحوظين في جميع مظاهر الفن العربي الاسلامي وذلك عندما انشئت مدينة سر من رأى = سامراء ، فقد حورت الأشكال النباتية والطبيعية وجردت من كيانها الحي ، روعي فيهـا التناظر والتكافؤ بين المساحات المشغولة بالزخرفة والمساحات العارية .

٣ ـ ظهر الفخار العربي الاسلامي ويمتد بين القرنين ٥ ـ ٨ هـ فمن خصائص هذه المرحلة ان الزخرفة نفذت بالقالب على الاغلب ، وتنوعت الأواني الفخارية ، وكان للعرى وظيفة عملية وأحياناً ذات صفة تزيينية .

وبعد هذا الاستعراض الشامل للفخار لابد من القول بان الفنان والصانع ترك في مختلف العصور روائع فنية فخارية تعتبر من اجمل ما أبدعه الانسان عبر التاريخ ، لما يتميز به من جمال المعنى والمبنى والصورة والشكل والمضمون مما جعل الفنانين المعاصرين يعجبون بها ويعودون اليها ويقتبسون منها ويعتبرونها نماذج جديرة بالتأمل والدراسة لأنها بمثابة مفاخر للفن ، وسبيل من سبل الكشف والاطلاع على حقيقة الجمال .

مصادر البحث :

الحوليات الأثرية العربية السورية	١٩٦٠ و ٩٦١ و ٩٦٢ و ٩٧٤
دراسات في مادة الفخار والخزف	د . محمد أبو الفرج العش
مكتشفات الحملة الدولية لانقاذ آثار الفرات المديرية العامة للآثار والمتاحف	
التنقيب الأثري الحديث	الأستاذ عدنان البني
الفن السوري في العصر الهلنيسي الروماني	الأستاذ بشير زهدي
الفن السوري	الأستاذ عدنان الجندي

وهم تاريخي حول النحو والصرف

بقلم الاستاذ محي الدين الدرويش

عندما طلب إليّ الاخوه أعضاء الجمعيّة التاريخيّة الاسهام في العدد الأول من مجلتهم ، وقفت حائراً أتساءل : ماذا أحدثهم وقد جاسوا خلال التاريخ ؟ وأحاطوا علماً بخفاياه وأسراره *؟

وذكرت حديثاً شريفاً فحواه : استعينوا على الصناعات بأهلها ، فلماذا لا أجعل حديثي متّصلاً بما يتعلق باللغة العربية ، فأنا قيس هذه اللغة وهي ليلاي ، وقد أنفقت في مصافاتها شيخوختي وصباي ؟ لماذا لا أزيل وهما ساور الأذهان قروناً متعاقبة ، وتناقله المؤرّخون دون بحث عن صحته أو بطلانه ، يتشكل الواحد منهم على رواية الآخر ، وما أيسر هذا الاتكال الذي مثله « موليير » بالمركيز الذي ينقد الرّواية بقوله : هي قبيحة لأنها قبيحة وفلان الذّي قعدت إلى جانبه يرى هذا الرّأي وفات هؤلاء المؤرخين جميعاً أن الغرض الحقيقي من مطالعة التاريخ هو إهاجة قوانا العقليّة ، وان ندرس أفكار غيرنا وآراءهم لانقبلها دون تمحيص فالتاريخ متحف حافل بروائع الصّور ، ولن نستطيع فهمه بطريق التصّورات المجرّدة . فمن الأوهام التاريخية مايتعلق بعلمي النحو والعروض ، فقد زعم المؤرّخون أن واضع علم النحو هو أبو الأسود الدؤلي إمّا لكونه سمع ابنته يوماً تلحن فذهب إلى الامام علي بن أبي طالب فقال له : فشا اللّحن في ابنائنا وأخشى أن تضيع اللّغة فقال الامام : اكتب : الكلام كلّه اسم وفعل وحرف والأسماء ثلاثة ظاهر ومضمر ومبهم والفاعل مرفوع أبداً والمفعول منصوب أبداً والمضاف إليه مجرور أبداً فافهم وقس وما عنّ لك من الزّيادة فاضممه . واما لكون عمر بن الخطاب جيء إليه برجل يقرأ : « إن الله بريء من المشركين ورسوله » بالجر فسأله ، فقال : هكذا قرأت في المدينة فقال عمر : ليس هكذا ، إنما هي ورسوله بضم اللّام فان الله لايبرأ من رسوله ، ثمّ أمر أن لايقرأ القرآن إلاّ عالم بالعربية ودعا بأبي

الأسود فأمره أن يضع النحو ، ومقتضى هاتين الروايتين يتناقلها المؤرخون . ان هــذا العلم لم يكن معروفاً قبل أبي الأسود وأن كلام الناس قبله إنما كان بمجرد الفطرة ، ولكن الامام السيوطي قال في المزهر : « النحو والعروض كانا قديمين وأتت عليها الأيام فقلا في أيدي النـاس فجددهما الخليل وسيبويه » وهذه وثبة ذهن سريعة لم تدعمها الدراسة الكافية ، فقد حاول السيوطي الاستدلال فأتى بأدلة لاتقوم على قدم ثابتة ولذلك اضربت عن ذكرها واجتزأت بذكر ماسنح لي في تأييد دعواه ، وازالة هذا الوهم السائد من أمور ، إن لم يفد كل منها أفاد المجموع .

أولاً — تبيين الامام علي لأبي الأسود جملاً من القواعد الاصطلاحيــة ظاهر الوضع بين البطلان فليس في وسع الذهن البشري أن يضع هذه القواعد فوراً ولا بد من الأناة والتأمل ويبعده أيضاً قول الامام نفسه لأبي الأسود : وما عنّ لك من الزيادة فاضممه إليه أي مما كان كهذه الضوابط فهذا صريح أو كالصريح في أنّ هذا كان معروفاً بينهم أو بين أفراد منهم لامجرد صحة النطق سليقة .

ثانياً — قول عمر بن الخطاب : لايقرأ القرآن إلا عالم باللغة العربية فان المتبادر منه قواعدها وأصولها التي بها تعرف وجوه الكلام إذ لو كان المراد مجرّد المتكلمين بالصواب لزم منح كلّ أعجمي منه ولم يكن وجه للتخصيص بالعالم باللغة إذ القوم جميعاً أعراب معتدلو الألسنة بالسليقة وتجويزه القرآن لمن كان عارفاً دون غيره صـريح في انّ منهم عارفين باللغة وان منهم جاهلين بهـا فيلزم أن تكون معرفة العارفين قدراً زائداً على ماعند غيرهم وليس إلاّ القواعد والضوابط المذكورة وإلاّ لانسدّ باب قراءة القرآن وصار نسياً منسيا .

ثالثاً — أمر علي بن أبي طالب أبا الأسود بوضع النحو إذ فيه مايدل على ان هذا العلم معلوم لدى الآمر والمأمور على السواء لاسيما وانه أمره أمراً مطلقاً ولم يبين له ماينسج على منواله منه .

رابعاً — انه حيث كان علم العروض واصطلاحاته من خبن وطيّ وغير ذلك معلوماً لدى بعض العرب كما صرح به الوليد بن المغيرة إذ قال في القرآن لما قيل : انه شعر : والله لقد عرضته على هزجه ورجزه فلم أره يشبه شيئاً من ذلك ، والشعر لم يكن إلاّ لأفراد من العرب فلأن تكون قواعد العربية إلىّ هي لسانهم جميعاً أولى .

ونخلص من هنا إلى القول بان اللغة العربية بنيت وتطوّرت بمقتضى ناموس

النشوء والارتقاء الطبيعي في بيئة غنية منوّعة بالموارد المادّية والبشريّة ثم تطوّرت بالاشتقاق والقلب والابدال والنحت والتعريب قبل الاسلام وبعده على مدى عشرات القرون من التاريخ المكتوب والمعروف ومن التاريخ غير المكتوب وغير المعروف وكان للعرب في ذلك الزمن السحيق دول معروفة .

ويفضي بنا الحديث إلى ذكر حقيقة لابد منها وهي ان اللغة العربية مفضّلة على جميع اللغات السّامية لمحافظتها اكثر من بقية اللـّغات السّامية على الخصائص السّاميّة الأولى وعدم تنصّلها منها ، فما من قاعدة من قواعد اللـّغات السّاميّة تابعت نموّها ونضجت في تطوّرها كما نضجت في اللغة العربية بعد ذلك التقدم المتطاول عبر أقدم العصور ، ففي اللـّغات السّاميّة إعراب ولكنّه قاصر غير مطّرد ولا متناسق في مواضعه ولم يبلغ قط مبلغ القانون الذّي نعرف فيه حدود الاطراد وحدود الاستثناء ، وفي اللغات السّامية اشتقاق ولكن قوالب الاشتقاق فيها لم تتميّز بأوزانها ومعانيها كما تميزت مع تطور اللغة العربية ، وفي اللغات السّامية نحو وصرف ولكنها واقفان فوق المنبت جذوراً كالخشب الذي لايقبل النمو بعدما وصل إليه ، وما من جذر من جذور نحونا وصرفنا لم يتفرّع ولم يحتفظ بقوة الحياة فيه ، ولغتنا العربية تجري دائماً على توافق تام مع روح الموضوع واندماج كامل في صميمه ، وهكذا تشكل باشكال الاشياء وبرز مع كل حالة موقعة بايقاعها وحركة روحها توافقاً وانسجاماً ، كما تتناسق وتتوافق في الرّقص الايقاعي لقطات الرجل مع صفق الصفاقات أو نقرات اليد على الطّار بحساب ، ولست أدري إذا كان الشاعر ابن حمديس الصقلي لمح في راقصته خاصة اللغة العربية هذه توافق إيقاعها أم لمح في اللغة العربية خاصية رقص الراقصة في توافق لقطات رجلها ونقرات الطّار حين وصفها وصفه المشهور :

وراقصة لقطت رجلها حساب يد نقرت طارها

وليس يعقل ان يكون مرتجلاً ذلك التهذيب والتنزيه الذي تميز به لغتنا من كل نقيصة والمعلّى من كل خسيسة والمبرأ مما يستهجن أو يستبشع فلم تجمع بين ساكنين أو متحركين متضادين ، ولم تلاق بين حرفين لايأتلفان ولا يعذب النطق بهما أو يشنع ذلك منها جرس النغمة وحسن المسمع كالغين مع الخاء والقاف مع الكاف والحرف المطبق مع غير المطبق مثل تاء الافتعال مع الصّاد والضّاد في أخوات لها والواو الساكنة مع الكسرة قبلها والياء الساكنة مع الضمة

قبلها ، ولذلك كان المؤرخ العظيم والفيلسوف الرياضي أحمد بن محمد البيروني من أهل خوارزم وهو يتمطق بحلاوة العربية يقول : « والله لأن أهجى بالعربية أحب إليّ من أن أمدح بالفارسية » وسمعنا الامام الزمخشري الاعجمي الذي أغرم باللغة العربية يقول في مقدمة كتابه المفصل في النحو : « الله احمد على ان جعلني من علمـاء العربية ، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وانضوي إلى لفيف الشعوبية وانحـاز » ، وحسبنا استشهاداً على توغلها في القدم بحديث شريف دلل على ان العربية كانت لغـــة ابراهيم خليل الرحمن ، وهذا الحـــديث يعطي حقائق موضوعية هامة توضح بعض ماغاب عن التـاريخ في منهجه الحديث .

الخليج العربي في تاريخه القديم

الخليج الزمرّدي الذي يحتضن اللؤلؤ والأصداف ويعوم فوق بحر من الذهب الأسود كان وما يزال يستدر لعاب الفاتحين ويحرك شهوات الطامعين ويمثل حلماً ذهبياً بالنسبة للمستعمرين . يتمتع بموقع استراتيجي فريد ومركز اقتصادي رائع فلاعجب أن تكون شطآنه على موعد مع كل مغامر وفاتح ، وأن تبقى منطقة الخليج قلقة طيلة العصور تتطاحن على أرضه مختلف القوى دون أن يتمكن أي من الغزاة تغيير عروبة الخليج أو تبديل سمات شعبه أو إيقاف تيار عطائه .

اسم الخليج بين الفارسية والعروبة :

كان الاسم الذي عرف به الخليج قديماً هو البحر الأدنى أو البحر المر كما ورد في النقوش الأكادية ويقابله البحر الأعلى أي البحر الأبيض المتوسط (١) وما أن قام الاسكندر بفتوحاته بين ٣٣٣ — ٣٢٣ ق م وقضى على الأسرة الأكمينية وعرف الساحل الشرقي من الخليج حتى أطلق عليه اسم الخليج الفارسي (٢) ثم استمر التداول بهذا الاسم ولم يسلم من الوقوع في خطأ هذه التسمية كثير من المؤرخين العرب والأجانب . لأن الساحل الغربي باجماع المؤرخين كان مجهولاً بالنسبة للاسكندر .
ليس غريباً أن يقع الاسكندر في خطأ تسمية الخليج باسم الخليج الفارسي لأنه لم يكن يعرف سوى الشاطيء الشرقي من الخليج لكن الخطر يكمن في استمرار المؤرخين المغرضين وإصرارهم على تسميته باسم الخليج الفارسي ، لكن عودة إلى ماكتبه العديد من المؤرخين والمستشرقين توضح لنا أن نسبة الخليج لفارس تزوير

---

١ — العرب والملاحة في المحيط الهندي تأليف جورج فاضل حوراني ترجمة الدكتور يعقوب بكر صفحة ٣٠٩ .

٢ — الخليج العربي تأليف قدري قلعجي والكفاح العربي في عربستان تأليف خليل التميمي .

مؤكد أوجبته الأساليب الاستعمارية ولم تخف حقيقة عروبة الخليج على كثير من الباحثين الذين أعطوا للخليج اسمه الحقيقي (الخليج العربي) . فمنذ القرن الأول الميلادي أطلق المؤرخ الروماني (بليني ٦٢ — ١١٣ م) على الخليج اسمه العربي أثناء تحديده ووصفه لمدينة خاراكس التي يرجح الباحثون أنها مدينة المحمَّرة وفيما يلي ما قاله بليني : « خاراكس مدينة تقع في الطرف الأقصى من الخليج العربي حيث يبدأ الجزء الأشد بروزاً من العربية السعيدة وهي مبنية على مرتفع اصطناعي ونهر دجلة إلى يمينها . . . . » . (١)

ويقول المؤرخ الانكليزي المعاصر رودريك اوين في كتاب نشره عن الخليج العربي عام ١٩٥٧ مايلي : « ان التسمية الفارسية للخليج العربي ، بالنسبة للعرب ، لا وجود لها لقد كانت هذه المساحات في الرمال والمياه دائماً جزءاً لايتجزء من الخليج العربي . . . » (٢) ويقول أيضاً : « إن هذه المساحات الشاسعة من الرمال وتلك المياه الضحلة الزرقاء المترامية الأطراف وكل ما فوقها وما تحتها كانت وستظل أجزاء من الخليج العربي . . . . » كما يقول : « بما أن كتابي هذا تقرير عن رحلة سلكت فيها بعد الجهد الأولي مسلكاً فيه أقل مايمكن من المقاومة وتعمدت أن أحرم فيها نفسي من القصد وأردت أن أجرد ذاتي من الارادة وأسلمت النتيجة إلى يد الله فلسوف أشير إلى هذا الخليج اللاهب الرطب من العالم كخليج فارسي ماقبل وصولي وكخليج عربي ما بعد ذلك لأن هذا مايفرضه التأدب . » (٣) نلاحظ من خلال دراساتنا لأقوال أوين أن رحلته إلى الخليج كانت لمعرفة حقيقة الخليج وتسميته وأنه جاء إلى المنطقة وهو يحمل في ذهنه صورة بان الخليج فارسي فاذا الحقيقة غير ذلك خليج عربي وليس خليجاً فارسياً .

ومن المعروف أن الشطر الغربي من الخليج لم يكن يعرف غير العرب سكاناً تربطهم باخوانهم عرب شبه الجزيرة العربية أواصر القربى ووحدة اللغة والحضارة والتاريخ . لقد كان يطلق على الشطر الغربي اسم البحرين أو شط عبد القيس بدءاً

---

١ — الخليج العربي صفحة ٩ تأليف قدري قلعجي نقلاً عن كتاب الخليج الفارسي تأليف أرنولد ويلسون .

٢ — الكفاح العربي في عربستان ، خليل التميمي صفحة ١٠ .

٣ — الخليج العربي صفحة ١٤ .

من رأس الخليج حتى عمـــان ويشمل الساحل والجزر الواقعة في الخليـج (١) وينتمي ســـكانه إلى قبائل ربيعة ومضر منها عبد القيس وبكر بن وائل وعجل وضبيعه وعنزه . . (٢)

أما الشطر الشرقي من الخليج فهو فارسي بحكم السياسة وحدها بينما يؤكد الواقع التاريخي والبشري والجغرافي عروبته أيضاً وقد انتبه كارستن ينبور الذي قام برحلات في الجزيرة العربية عام ١٧٦٢ وعبّر عن هـــذه الحقيقة فقال : « لكنني لا أستطيع أن أمرّ بصمت بمماثل بالمستعمرات الأكثر أهمية والتي رغم كونها منشأة خارج حدود الجزيرة العربية ، هي أقرب إليها . أعني العرب القاطنين على الساحل الجنوبي من بلاد فارس المتحالفين على الغالب مع الشيوخ المجاورين أو الخاضعين لهم . . . » وقال أيضاً : « ومن المضحك أن يصوّر جغرافيونا جزءاً من بلاد العرب كأنه خاضع لحكم ملوك الفرس في حين أن هؤلاء الملوك لم يتمكنوا قط أن يكونوا أسياد ساحل البحر في بلادهم الخاصة . لكنهم تحملوا صابرين على مضض أن يبقى هذا الساحل ملكاً للعرب . . » ثم أوضح أكثر فقال : « لقـــد أخطأ جغرافيونا حين صوّروا لنا جزءاً من الجزيرة العربية خاضعاً لحكم الفرس لأن العرب هم الذين يمتلكون جميع السواحل البحرية للامبراطورية الفارسية من مصبّ الفرات إلى مصب الآندوس على وجه التقريب . . . صحيح أن المستعمرات الواقعـــة على السواحل الفارسية لاتخص الجزيرة العربية ذاتها ولكن بالنظر إلى أنها مستقلة عن بلاد الفرس ولأن لأهلها لسان العرب وعاداتهم . . » (٣)

هذه بعض من الأدلة الدامغة والحقائق الثابتة تؤكد عروبة الخليج اسماً وحقيقة وتضع سكانه العرب وموطنهم في المكان الذي يستحقون من أمتهم العربية كما تثبت زيف الاساليب الاستعمارية وحملات ادعاءاتها المغرضة ، ويتضح لنا من الأدلّة التاريخية العربية والأجنبية أن نسبة الخليج لفارس تزوير مؤكد أوجبته الأساليب الاستعمارية .

لمحة عن جغرافية الخليج :

يؤلف الخليج العربي الذراع الأيمن من بحر العرب أو أحـــد خليجي المحيط

---

١ — معجم البلدان تأليف ياقوت الحموي صفحة ٤٤٩ .

٢ — العرب قبل الاسلام جرجي زيدان صفحة ١٨٣ .

٣ — الخليج العربي قدري قلعجي .

الهندي (البحر الأحمر والخليج العربي) وقد نشأ نتيجـــة عوامل متعددة منهـا الالتواءات والهزات الأرضية العنيفة التي حدثت في الطور الثالث من العصر الميوسيني ونهضت بسببها سلاسل طوروس وزاغروس وهيميلايا كما نهدت هضبة ايران وتكون غور فسيح في منطقة الخليـج أثرت فيه عوامل مختلفة ـ أهمها نهرا دجلة والفرات اللذان كانا وما يزالان يرسمان شطآنه ويبدلان أشكاله نتيجة عوامل الجرف والطمي . تبلغ مساحة الخليـج مئتين وخمسين ألفاً من الكيلو مترات المربعة وهو ضحل المياه لايتجـاوز عمقـــه مئة متر أما طوله فيبلغ في خط مستقيم بين مصب شط العرب وساحل عمان ثمانمائة كيلو متر ويتراوح عرضه بين ثمانية وعشرين ومئتي كيلو متر إلى الشرق من شبه جزيرة قطر وبين ستة وأربعين كيلو متراً في مضيق هرمز ويمكن تقسيم الخليـج جغرافياً إلى ثلاث مناطق :

آ ـ المنطقة الشرقية : تتكون من سهل ساحلي ضيق تكثر فيـــه الجونات (المتقعات الساحلية) وتليه إلى الشرق سلاسل جبلية تأخذ في الارتفـاع كلمـا إمتدت نحو الشمال لتؤلف الحدود الطبيعية الشرقية من الوطن العربي وما بين هذا الساحل وتلك السلاسل الجبلية يمتد اقليم عربستان الذي تواطأ الاستعمار البريطاني والايراني لسلخه عن الوطن الأم في أعقاب الحرب العالمية الأولى . لقد كانت الأطماع الاستعمارية في هذا القطر العربي الذي يرقد فوق أحواض غزيرة من النفط وتتوفر على سطحه التربة اللحقية الخصبة وتخاوف بريطانيا من ترشيح الشيـخ خزعل نفسه لعرش العراق مشترطاً لزوم قيام وحدة بين الاقليمين (العراق وعربستان) فراحت بريطانيا تسمى إلى اقناعه بسحب ترشيحه حتى تمَّ لهـــا ما أرادت وأخذت توغر صدر إيران وتشجعها على احتلال الاقليم وتساعدها عن طريق الغدر والخديعة بعد الفشل العسكري .

أما سواحل هذه المنطقة فهي قليلة التعاريـج أنشأ عليهـا الايرانيون بعض الموانيء مثل بندر عباس وبندر كنجه وبندر شهر .

ب ـ المنطقة الغربية : وهي إمتداد طبيعي لشبه الجزيرة العربية شرقاً ، ساحلهـا كثير التعاريـج متعدد الخلجان والرؤوس تقابله مجموعات من الجزر يساعد وجودهـا على هدوء حركة الماء في الخليـج واستخدامها كمراكز لصيادي السمك ومـــوانيء لاستقبال السفن كما تنطوي سواحلها على مصايد اللولؤ والاسمـاك والى الغرب منها تمتد سهول الاحساء بطول أربعمائة كيلو متر وعرض ستين كيلو متراً ، وتليها غرباً سلاسل قليلة الارتفاع

كجبال شمّر والجبل الأخضر الذي يتميز بروعة مناظره .

جـ ـ المنطقة الشمالية : وتشمل سهوب جنوب بلاد الرافدين وغرب عربستان وهي سهوب رسوبية حديثة غنيّة بالثروة المائية ، تكوّنت من رسوبات النهرين التوأمين (دجلة والفرات) ، اللذين أرغما الخليج على التراجع نحو الجنوب وقيام سهوب خصبية كانت من أهم عوامل إزدهار الحضارة في التاريخ القديم .

إن موقع الخليج وتداخله بين بلاد الشرق القديم قصر الطريق البري عبر وادي الفرات وبادية الشام وجعله الطريق التجاري الشمالي واستمر يلعب دوراً بارزاً في نقل التجارة وتحقيق الاتصالات البشرية بين عالمي المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط منذ أقدم العصور . ولم يفقد هذا الخليج جزءاً من أهميته إلا بعد شق قناة السويس ، لكن اكتشاف منابع النفط في منطقة الخليج واستخدام وسائط النقل الحديثة أعادت للخليج العربي أهميته الاستراتيجية ودوره الانساني .

الخليج ملتقى تيارات الصراع في العالم القديم :

تاريخ الخليج حافل بالأحداث الحربية منها والحضارية، تصارعت من أجل موقعه وثرواته مختلف القوى في العالم القديم ودرج على شطآنه رواد الحضارة الأوائل من سومريين وعيلاميين وبابليين وآشوريين وكلدانيين وعرب [1] . واذا استثنينا السومريين والعيلاميين نجد أن الشعوب التي شع نور حضارتها إلى أنحاء العالم القديم هي شعوب عربيـة ترجع بنسبها وأصولها إلى عرب شبه الجزيرة العربية الذين دفعتهم ظروف الحياة وقسوة الطبيعة وتبدل المناخ للهجرة نحو مواطن الماء والخصب في بلاد مابين النهرين وبلاد الشام ووادي النيل حيث أسسوا دولاً قوية وحضارات رائعة وتطلعت نحو التوسع والفتوحات .

لقد ورد في أخبار سرجون الأكادي أن فتوحاته بلغت البحر الجنوبي أو الأسفل أي الخليج العربي وأنه استولى على أجزاء منه . كما ورد في كتابة على تمثال من الديوريت لنارام سين تنص : أنه أخضع بلاد ماغان (عمان) وغلب سيدها مانيوم ويدل عثور المنقبين على أختام ومواد أخرى من عمل الهند في أور وكيش والبحرين ومواضع أخرى من الساحل العربي الشرقي . على أن الاتصال التجاري البحري كان

---

١ ــ عمان والخليج العربي تأليف فضيل عبيد صفحة ٧٧

معروفاً في الألف الثالثة قبل الميلاد، وأن حركة الاتصال هذه كانت مستمرة عامرة وأن بعض مواضع الخليج مثل البحرين كانت من مراسي السفن الشهيرة في تلك الأيام، تقصدها السفن القادمة من العراق في طريقها الى الهند والسفن القادمة من الهند في طريقها الى العراق. وتشير النقوش السومرية والأكادية التي ترجع الى الألف الثالثة قبل الميلاد الى صلات بحرية واسعة بين أرض الجزيرة وبلاد دلمون (البحرين) والعراق وماغان (عمان) وميلوخا التي تقع جنوب الاحساء في عمان (١) ويظهر من النصوص أن (دلمون) كانت جزيرة تتمتع بقدسية خاصة، وقد رويت عنها أساطير دينية وعبدت فيها آلهة تعبد لها أهل العراق مما يدل على الاتصال الثقافي المتين الذي كان بين العراق والبحرين، وتشير اسطورة (أنكي) وزوجه (منخرساك) وملحمة (جلجامش) وأسطورة ارض الحياة وغير ذلك من القصص الشعبي الى هذا الاتصال الطبيعي بين جنوب العراق والعروض.

يرى بعض المؤرخين أن سكان الخليج هم أول من رفعوا شراعاً في البحار ومارسوا الملاحة وأتقنوا علمها فكانوا الصلة العاملة بين الشرق والغرب ويرى آخرون أن الفينيقيين هم من هذه الديار العربية (٢) أي من سكان البحرين بينما يقول فضيل عبيد في كتابه (عمان والخليج العربي): (إن الفينيقيين كان موطنهم عُمان، وميناء تجارتهم مع افريقيا والشرق الأقصى هو ميناء صور الواقع إلى الشمال من رأس الحد). ليس المهم أن نتعمق في البحث عن الوطن الأصلي لهؤلاء الملاحين الفينيقيين العظام لكن الأهم من ذلك هو أن نعرف الدور الحضارى المعظيم الذي قام به سادة الملاحة البحرية وأساتذة العالم القديم وما قدّموه للعالم المعروف آنذاك من خدمات اقتصادية وفكرية.

أما البابليون فقد أتقنوا فنّ الملاحة كأقربائهم الفينيقيين واتصلوا بالهندوسيلان والجنوب العربي والحبشة يصدّرون إليها مصنوعاتهم اليدوية المتقنة، وكان الخليج العربي يحظى برعاية ملكية بابلية (أرنولد ويلسون) ويقول الكاتب اليوناني ايشنوس: «إن بابل التي ترقد على كنوز من الذهب كانت تبعث بضائعها على متون السفن».

ثم أصبحت أرض جزيرة العرب مسرحاً لملوك آشور فقد جاء في نص آشوري أن الملك سنحاريب أرسل حملة إلى الخليج فانتصرب وحققت رغباته، وقد فرّ ملك

---

١ — تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي ج ١ صفحة ٥٥٤ — ٥٦٠

٢ — ملوك العرب الجزء الثاني صفحة ٢٢١ تأليف أمين الريحاني.

إلى الخضوع لآشور . ويظهر أن سنحاريب كان قد تمكن فعلاً من إخضاع الأعراب له ومن السيطرة عليهم . ويرى بعض الباحثين في نبت (هيروبوت) له بانه ملك العرب والآشوريين تعبيراً عن إخضاع الأعراب للحكم الآشوري وإن كان ذلك قد وقع لأمد محدود (١) . وقد افتخر آشور باني بعل بأنه ملك من البحر الأعلى حتى جزيرة دلمون من البحر الأسفل (٢) أما عن علاقة البابليين بالخليج فالمعروف أن البابليين كانوا قد ضموا جزيرة (دلمون) أي البحرين إلى أملاكهم وعينوا عليها حاكماً بابلياً وذلك بعد سنة ٦٠٠ ق . م بقليل . (٣)

الصلة بين العرب والفرس :

إن معارفنا بصلات العرب بالأخمينيين والبارثيين قليلة جداً فلقد ذكر كزينوفون العرب في جملة أتباع الملك كورش ٥٥٧ ـ ٥٢٩ ق.م وأنه عيّن والياً عنه على (العربية) ويظهر أن المراد بها (الجزيرة) أو جزء منها وذكر هيرودوت أن جميع سكان آسية الذين أذلهم كورش ثم قامبيز بعده قد اعترفوا بسلطانه إلا العرب ، فهؤلاء لم يخضعوا كالرقيق البتة لسلطان الفرس وانما كانوا قد تحالفوا معهم وساعدوهم في الوصول إلى مصر ، ولو كانت علاقاتهم غير ودية معهم لما تمكن الاخمينيون من غزو مصر . واهتم دارا بأمر التجارة البحرية فأمر سكايلاكس اليوناني بالذهاب إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي لكشف تلك المناطق وتكوين صلات تجارية معها فوصل هذا المكتشف اليوناني ـ على رواية هيرودوت ـ إلى الهند وقد أثرت هذه الخطوة تأثيراً خطيراً على التجارة العربية في البحار إذ فتحت البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي لمنافسين أقوياء صار بامكانهم شراء تجارة افريقية والهند وسواحل جزيرة العرب باسعار رخيصة لبيعها في الاماكن التي تريدها والتي كانت تشتريها بأثمان غالية وبذلك أخذت من التجار العرب جزءاً كبيراً من أرباحهم وألحقت بتجارتهم مع البحر المتوسط ضرراً لايستهان به (٤) .

---

١ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ج١ صفحة ٥٩١
٢ ـ جواد علي ج١ صفحة ٦٠٥
٣ ـ نفس المرجع صفحة ٦٢٠
٤ ـ جواد علي ج (١) صفحة ٦٢٤ ـ ٦٢٥

الخليج العربي في العصر اليوناني :

منذ بداية الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميـــلاد بدأ عصر جديد من عصور التنافس والصراع في منطقة الخليج العربي، فقد داعبت الآمال مخيلة الاسكندر المأكدوني لاكتشاف أرض العرب ومصب نهر الهندوس ومنـابع شروق الشمس كي يؤسس امبراطورية عالمية يتحقق فيها الاخاء وتزول منهـا عوامل الخصومة والحروب وتمتزج فيهـا حضارة الشرق بحضارة الغرب ، ولتحقيق هذه الطموحات قام بسلسلة من الحروب والفتوحات اجتاح خلالها بلاد الشرق القديم ونفّذ أمنية أبيه في الانتقام من الفرس الاخمينيين الذين غزوا بلاد اليونان .

لقد أسند الاسكندر مهمة بناء أسطول كبير إلى أحد كبار مهندسيه (كراشير) وسيَّر حملات متواصلة إلى الهند لجلب الأخشاب من غاباتها وبنـاء الاسطول الذي أسند قيادته إلى صــــديقه نياركوس واختار له البحـارة من الفينيقيين والمصريين والقبارصة واليونان ثم سيَّره للكشف في الحوض الأخضر (الخليج) ، وتـابعت تلك الحملات للكشف والتوسع على أيدي قواد تابعين للاسكندر أمثال نياركوس وأركياس وهيرون دي سولي ولقد منيت الحملتان الأولى والثانية بالفشل ، وتمرد الجند أثناء الرحلة في جزيرة دلمون فأمر الاسكندر بصلب ربابنة السفن وسيَّر حملتين ثالثة ورابعة نجحت في الوصول إلى باب المندب .

كان اهتمام الاسكندر ببناء السفن وتحسين الملاحة في نهر الفرات والنهوض ببناء بابل يضاهي اهتمامه باكتشاف مصب نهر الهندوس وبالتالي منابع شروق الشمس (١) وشجع الاسكندر على بناء المدن الـــتي سميت (الاسكندريات) نسبة اليه وشجع اليونانيين على السكنى في تلك المدن وعلى التمازج بين الشرق والغرب كي يحقق الهدف الذي كان يصبو اليه فكان من نتيجة ذلك أن المنطقة عاشت في خير وبحبوحـــة ونشطت العلاقات التجارية بين الشرق والغرب عبر الخليـج على أيدي الملاحين الفينيقيين وعرب جزر الخليـج وشطآنه .

إن الفتح المأكدوني للمنطقة الشرقية من بلاد العرب لم يؤثر على البنية الاجتماعية لسكانها واستمرت العروبة سمة مميزة للعرب القاطنين هناك . ثم كان موت الاسكندر في بابل بحمى الملاريا في الثالث عشر من حزيران عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة قبل

١ ــ الكفاح العربي في عربستان : خليل التميمي

الميلاد نهاية المطاف بالنسبة لتيار الكشف والفتوحات .

انتقلت السيادة على القسم الشرقي من الامبراطورية الى السلوقيين الذين شغلوا عنها بالنزاع مع البطالمة على جنوب بلاد الشام فتحررت السند وقامت الاسرة البارثية في فارس وانتزعت العراق من السلوقيين عام ١٣٨ ق م .

الصراع بين العرب والفرس الساسانيين :

ثار الساسانيون على البارثيين وانتزعوا الحكم من أيديهم عام ٢٢٤ ميلادية ومد الساسانيون نفوذهم إلى العراق وساحل غربي الخليج ودارت رحى الحروب بين فارس وبيزنطة وكان اللخميون في الحيرة حلفاء للساسانيين والغساسنة في بصرى حلفاء للبيزنطيين أما عرب شبه الجزيرة فقد كانوا يقلقون راحة الامبراطوريتين الكبيرتين بغارات خاطفة مستمرة . وظل الصراع بين خليجي المحيط الهندي (البحر الأحمر والخليج العربي) قائماً حتى تفوّق الخليج العربي أثناء حكم الاكاسرة الأقوياء الذين الذين أسسوا موانىء على الخليج وسعوا لاقتناء المراكب وإنشاء الأسطول وقاموا بأعمال الملاحة عبر الخليج التي نراها تنمو وتزدهر إبّان حكم الأكاسرة الأقوياء ثم تؤول إلى الضعف إذا ما إعتلى العرش أكاسرة ضعفاء لايحفلون إلا بأشخاصهم ولا يعيرون المصلحة العامة اهتماماً ، وكثيراً ما كان العرب يشنون الغارات على ثغور الفرس ومراكبهم التجارية ويخضدون شوكة الامبراطورية العظيمة (١) . وكانت مدينة الأبلّة أهم موانىء أعالي الخليج في أيام فتح المسلمين للعراق وكانت حينئذ مسالح من قبل كسرى وكان تجارها يربحون ربحاً عظيماً (٢) .

وهكذا كان الخليج شرياناً حياً وميداناً لتبادل المنافع ومسرحاً لغارات الجيوش والقراصنة دون أن يتمكن كل ذلك من تغيير مجرى تيار العروبة في الخليج . فقد صنع الجاهليون سفنهم وقواربهم بأيديهم مستعينين بالخشب المستورد وبالخشب المحلي . صنعوها في مواضع متعددة من سواحل جزيرة العرب ولا سيما على سواحل الخليج حيث تيسّر لسكانها استيراد الخشب الصالح لبناء السفن من الهند .

معارك عربية خالدة على شطآن الخليج :

إذا كان الفرس قد نجحوا في فرض نفوذهم على العراق والخليج واليمن إلى حين فان الأيام بالنسبة لهم لم تكن سهلة ميسورة فلقد دفعوا الثمن غالياً للوصول إلى أحلام الفرس وأطماعهم في أرض العرب دون جدوى وظل العرب أسياد أنفسهم

١ — الخليج العربي : قدري قلعجي .

٢ — تاريخ العرب قبل الاسلام : جواد علي ج ٧ صفحة ٢٥٧ .

وأرضهم ، حسبنا في ذلك ما تركه التاريـــخ الأدبي من منـاظرة النعمان بن المنذر لكسرى أنو شروان الذي أراد أن ينتقص من العرب ، وكيف ردّ عليـه (عامله) الردّ الشافي بوصف قومه : « لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل حصونهـــم ظهور خيلهم ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر . »(١)

كان الخليـج منطقة ساخنـة وشهد خلال تاريخه القـــديم مزيداً من الغزوات والمعارك منها غزوة بني عبـــد القيس من البحرين على بلاد فارس أيام سابور الثاني (ذي الأكتاف) ٣١٠ — ٣٧٩ ميلادية فغلبوا أهلها على مواشيهم ومعايشهم وغلبت قبيلة إياد على سواد العراق ثم مكث العرب حيناً لا يغزوهم أحد حتى كبر سابور فعبر الخليج إلى البحرين واليمامة والقطيف وشرع يقتل ولا يقبل فـــداء ، وسفك دماء لا حصر لها من تميم وبكر وعبد القيس انتقـاماً لغزو العرب الذي اســـتهدف الثغور الفارسية (٢) .

لكن معارك ثلاثاً دارت رحاها على أرض الخليج فكانت أياماً عربية خالدة ذاق الفرس فيها ألوان الذل والهوان .

آ — معركة قلهات حوالي ٥٣٦ ميلادية : كان الفرس قد احتلوا قلهات (مرفأ في عمان شمال رأس الحد) وفرضوا سيطرتهم على عمـان فخرج مالك بن فهم من السراة يريد عمان وانضمت إليه قبائل العرب من معدّ وغيرهم ، ودارت المعركة بين العرب والفرس فـــكانت نصراً للعرب ، وتجددت الحرب بعد عام فانتصر العرب أيضاً وطرد الفرس وتمّ نقل الهاربين منهـم على سفن العرب إلى الشواطىء المقابلة في إيران تسهيلاً لهم على النزوح والهرب . (٣)

ب — يوم **الصفقة** : هو اليوم الخالد الثاني من أيام العرب على الفرس في عهد كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) يعود سببه إلى هجوم بني تميم على قافلة فارسية تحمل عدة القتال إلى عمال كسرى في اليمن في وادي نِطـاع باليمامة حيث استولوا عليها وقتلوا أساورتها (قوادهـا) وأسروا دليلها (هوذة بن علي الحنفي) الذي أخلى سبيله مقابل فدية ، فانطلق إلى كسرى وقصّ عليه أمر بني تميم فاغتاظ

---

١ — الخليـج العربي : قدري قلعجي صفحة ٩١

٢ — العرب قبل الاسلام : جرجي زيدان

٣ — عمان قديماً وحديثاً تأليف محمد علي الزرقاء صفحة ٥٩ — ٦٠

كسرى وأكرم هوذة بكأس من الذهب وثوب مذهَّب من ديباج وعقد من درّ وقلنسوة ثمينة ثم قال : ياهوذة رأيت هؤلاء الذين قتلوا أساورتي وأخذوا مالي ؟ أبينكَ وبينهم صلح ؟ قال هـوذة : « أيها الملك بيني وبينهم حساء الموت وهم قتلوا أبي » .

قال كسرى : « قد أدركت ثأرك ؛ فكيف لي بهم ؟ » قال هوذة : « احبس عنهم الميرة سنة ثم ارسل معي جنداً من أساورتك فأقيم لهم السوق فانهم يأتونها فتصيبهم عند ذلك خيلك . » وفعل كسرى ذلك وكانت سنة مجدبة حتى أحسّ بضائقة العرب فأرسل إلى هوذة قائلاً : « إيتِ هؤلاء فاشفني منهم واشتفِ . » وأرسل معه ألفاً من الأساورة بقيادة شخص يدعى آذاد فردزين جبشنس [1] حتى وصل حصن المشقّر من أرض البحرين ونودي الناس بأن كسرى قد بلغه الذي أصابكم في هذه السنة وقد أمر لكم بميرة . فقدم الناس وفيهم بنو سعد وهم بطن من تميم أخذوا يدخلونهم إلى الحصن واحداً واحداً بعد أن أخذ سلاحهم وفي داخل الحصن كان المكعبر يأمر بضرب أعناقهم فنظر عبيد بن وهب التميمي إلى قومه يدخلون ولا يخرجون فقال : ويلكم أين عقولكم ؟ فوالله مابعد السلب إلا القتل . وانتضى حسامه وضرب سلسلة كانت على باب المشقّر فقطعها وانفتح الباب واكتشفت الجريمة ، فاقتحموا الحصن واختلطت دماء الفرس بالنجيع العربي وخرج عبيد مفتخراً يقول [2] :

تذكرت هنداً لات حين تذكّر	تذكرتها ودونها سير أشهر
حجازية علوية حلّ أهلها	مصاب الخريف بين زور ومنور
ألا هل أتى قومي على النأي أنني	حميت ذماري يوم باب المشقّر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة	تفرج منها كل باب مضبر

جـ – **يوم ذي قار** : صفحة ناصعة من صفحات تاريخ العرب القومي والعسكري هو عدة أيام بين العرب الفرس حدثت عند ماء لبكر بن وائل قرب الكوفة اختلف المؤرخون في تحديد العام الذي حدث فيه هذا اليوم منهم من جعله

---

١ – سماه العرب المكعبر لأنه كان يقطع الأيدي والأرجل .

٢ – أيام العرب في الجاهلية تأليف محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البخاري ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

جمله قبل الهجرة والمهم في الامر أنه حدث في مطلع القرن السابع الميلادي[1] عند بزوغ فجر الاسلام إذ كان النبي ﷺ قد بعث ووصله نبأ نصـــر العرب في ذي قار فقال : « هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي نصروا » .

ترجع أسباب القتال في هذا اليوم إلى مقتل النعمان بن المنذر في المدائن ورفض هانيء بن قبيصة بن هانيء بن مسعود أحد بني ربيعـــة بن ذهل بن شيبان تسليم ما أودعه النعمان عنده قبل ذهابه لمقابلة كسرى إلى إياس بن قبيصة الطائي عامل كسرى على الحيرة فالتفت جموع العرب حول بني شيبان وساهمت النساء العربيات بدورهن المشرّف في القتال وأخذن يردّدن :

إن تهزمـــوا نعـانق ونفـــرش النمـارق

أو تُهزمـــوا نفارق فراق غير وامق . .

وثبت العرب في القتال وصمدوا صموداً عجيباً وألحقوا بالفرس هزيمة كانت بداية النهاية لامبراطورية الفرس . وأثبت العرب أنهم أمة واحدة تلتقي عند الخطر وتزلزل الأرض تحت أقدام الغزاة . .

للبحث صلة

---

١ — جواد علي ج ٣ صفحة ٢٩٤

اعداد المدرّس
جميل عازار

من مآثر العرب الحضارية :
صناعة الورق ونشره في العالم

١ — اشتهر العرب بالحفظ والرواية والحكم منذ القدم وكان لهم حضارة متواضعة تلبي حاجات مجتمعهم البدوي والحضري البسيط ، وليس سوق عكاظ إلا صدى لما طبع عليه العرب من شغف بالأدب والمشاعر الانسانية والفخر .

ولما ظهروا على مسرح الحضارة العالمية بعد ظهور الاسلام تفتقت طاقاتهم الكامنة وأبدعوا أيما إبداع في مختلف صنوف أبواب الحضارة ماشادته لهم قريحتهم الخصبة . . واعترف بفضلهم أساطين المؤرخين ، وفيما امتدت امبراطوريتهم من جنوب باريس في فرنسا إلى كاشغر في الصين هضموا وتمثلوا كافة الحضارات التي وجدوها في البلدان المفتوحة كالحضارة السريانية والهندية والفارسية واليونانية . . . وأجادوا في الطب والفلك والهندسة والفلسفة والزراعة وطوروا بعض الصناعات كالبارود والزجاج وصناعة الأسلحة والقماش والفخار . . .

وسنشرع الآن بدراسة ما أسداه العرب المسلمون إلى الانسانية من الفضل في تطوير الصناعة الورقية الهامة التي من الصعب أن يتخيل أحدنا تقدم المعرفة الانسانية بدونها ، ولكن لابد من اعطاء القارىء لمحة قصيرة عن المواد التي كانت تستعمل لتسجيل المعارف البشرية منذ تعرف الانسان على طريقة الكتابة بواسطة النقش بالازميل والمطرقة على الحجارة وتخلصه من هذه الطريقة الشاقة والمضنية . . . فمواد الكتابة تكاد تنحصر فيما يلي :

١ — ورق البردي .

٢ — الرقم الفخارية .

٣ — الرقوق (الجلود) .

٤ — الألواح الخشبية . . .

وستتناول بشيء من الشرح كلاً من هذه المواد :

١ ــ ورق البردي في مصر :

في عصور ماقبل التاريخ كان الفيضان يأتي إلى مصر كل صيف ، فيشكل البرك والمستنقعات بعد ارتداد المياه الى مجراهـا الأصلي في النيل ، وتنمو ضمن هذه البرك أدغال وحشائش ونبات البردي ، وقد استفاد المصريون من نبات البردى ، ذي الساق المثلثة والتي تحتوي على عصارة لزجة ، وطول هـذه النبتة يتراوح بين المترين والثلاثة أمتار ، وقطرها حوالي أربعة سنتمترات ؛ وبعد قلع النبات ونقله إلى المخازن ، ينزع الغلاف الخارجي (القشر) ويقطع الجسم الى شرائح رقيقة وتوضع هـذه الشرائح بجانب بعضها ثم توضع طبقة متعامدة فوق الطبقة الأولى حسب الطلب ، وتضغط الطبقتان معاً وتدق بمطـارق من الخشب على سطح مستو ، وهنا تلعب العصـارة اللزجة دورها في التثبيت واللصق ، بعد إضافة قليل من الماء . . وتصبح بعد ذلك صالحة للاستعمال .

وكان الكاتب المصري يستعمل نوعين من الحـبر : الاسود والأحمر وتكون الكتابة على شكل أعمدة أفقية أو رأسية بواسطة فرشاة يغمسها في المداد ويخط مايكلف به من الأعمـال . . . .

٢ ــ الفخـــار :

لم يستعمل سكان الرافدين الرق أو ورق البردي ، ربما لأنهم اعتقدوا أن الفخـار ــ [وهم على صواب في ذلك] ــ أكثر مقاومـة لعوامل الفناء وأطول بقاء من النوعين السابقين رغم أن الصلات كانت وطيدة بين القطرين : مصر والعراق منـذ القدم . وكانت كتابة السومريين تعرف بالخط المسماري الذي سمي كذلك لأنهـا على شكل المسامير أو الأسافين .

وكان الكاتب يرسم علاماته فوق سطح اللوحة الطينية وهي طريـة بواسطة قلم مثلث الشكل يمسك به مائلاً ، وعند الانتهاء يقوم بتجفيفه أو حرقه ، وبذلك يسهل حفظه ، وكذلك كتب البابليون ١٩٠٠ ــ ١٦٠٠ ق . م وثائقهم بهذا الخط ، وكانت تحفظ هذه الوثائق ضمن حرارة كبيرة فوق أرفف تلحق بالمعابد والقصور . . .

٣ ــ صناعة الرق :

نشأت هذه الصناعة بصورة أصولية ومنتظمة في مدينة برغاموم في آسية الصغرى عام ٢٦٢ ق . م على أثر انفصالها عن الدولة السلوقية ، وحدثت منافسة حضارية بين

الاسكندرية وبرغاموم بوصف الأولى المركز الأول للحضـارة ، ولارغام برغام على الاعتراف بزعامتها ، منعت الاسكندرية تصدير ورق البردى إليها ، فرد عاهلهـا أمنيز الثـاني (٢٠٤ — ١٨١ ق . م) على هذه المضـاربة بتشجيع صناعة جلود الضأن والماعز والعجول . . لتكون مادة الكتابة بدل البردى . ومع أن الرق كان يستعمل منذ القديم في الكتابة إلاّ أنه لم يأخذ شكل الصناعة المنظمة إلاّ زمن هذا العاهل البرغامي . ويسود الاعتقاد أن الاسم الأوربي للرق وهو البرشمان . . .(parchment) مشتق من اسم مدينة برغاموم . وكانت أفضل أنواع الرق هي جلود العجول . . ومعالجة الجلود تكون على النحو التالي : يغسل الجلد ويدفن لمدة أيام ضمن الأحجار الكلسية للتخلص من شحمه وقذارته ثم يمط على إطار ويترك ليجف وتحلق شعراته بواسطة السكين . ويصقل الجلد للحصول على سطح أملس للكتابة . . .

٤ — أما الألواح الخشبية الرومانية فكانت على نوعين :

١ — يطلى لوح الخشب بمادة بيضاء لتظهر عليها الكتابة واضحة .

٢ — يستعمل لوح ذو حواف بارزة ويسكب شمع منصهر على اللوح فيتكون بعد تجمد الشمع سطح مستو تحفر عليه الكتابة بقلم معدني مدبب (استيلوس) طرفه الآخر مستوياً لطامس الشمع بعد انتهاء الغرض المطلوب من النص المحفور عليه .

أما في بلاد العرب وخاصة في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين فقـد استعملوا للكتابة جريد النخل والرقاع (الخرق) والرق وعظام اكتاف الشاة والابل وكانت الرق عند العرب هو أثمن هـــذه المواد ، ومنه قوله تعالى في كتابه الكريم (في رق منشور)[1] .

هذا وظلت مصر المورد الرئيسي لورق البردي في العالم القديم وخاصة الى بلاد اليونان ، ولما تعرف العرب على سر صناعة الورق كما سيأتي فيما بعد ، ونشروه في العالم قضى على صناعة ورق البردي نهائياً مع الرقوق ، وأصبحت مواد الكتابـة متاحة لجميع جماهير الشعوب الاسلامية لأن الورق مادة سهلة ورخيصـة . وأصبح لدى العرب المصانع الكثيرة وأسواق لبيع الورق والكتب ، وعندما كان رهبان الأديرة في أوروبا يقومون بحك الكتابة الموجودة على الرق لاستعمالها مجدداً في الكتـابة (٢) كانت مراكز الاشعاع العقلي في بغداد وقرطبة ودمشق وبخارى وسمر قند والقيروان تعج بالخطاطين والنساخ وتجار الورق (الوراقين) والمجلدين والمُذهبين والمزخرفين والمصورين للكتب لشرح مضمونها وخاصة الكتب الطبية والأدبية . وكان كثير من سكان

الامبرطورية الاسلامية وعائلاتهم يعيشون على أجر ماينسخونه من الكتب ، وليس سبب الخصومة بين ابن العميد وأبي حيان التوحيدي إلاّ عندما كلف الأول الثاني نسخ عدد من الكتب رآها التوحيدي مرهقة له . (٣) وإذا كان مقياس الحضارة في عصر من العصور هو نسبة المتعلمين إلى الأميين أو الذين يفكون طلاسم الحرف فيمكن اعتبار سكان الامبراطورية الاسلامية في أعلى السلم الثقافي . . وما تعجبُ رجال شارلمان من هدية هارون الرشيد الخليفة العباسي وظنهم أنها من قبيل السحر إلاّ دليلاً على مازعم :

والآن : كيف تعرف العرب المسلمون إلى الورق بعد نهضتهم الجبارة . . إن المتتبع للمصادر التاريخية التي أولت هذه الناحية اهتماماً بالغاً لايسعه إلاّ الاعتراف بالفضل العظيم للأيادي العربية التي طورت هذه الصناعة .

فلم يكن الاسلام يقيم عمد الأساس لصرحه الأشم في آسيا الغربية حتى اندفعت كتائب المسلمين المظفرة إلى ماوراء النهر عبر الطريق التي سلكها الاسكندر المكدوني من قبل . في عام ٤٦ هجرية الموافق ٦٦٦ ميلادية سير الخلفاء العرب من دمشق عدة حملات لفتح تلك البلاد . ولكن صفة الفتح المستمر والدائم لم تأت إلا عندما سير الحجاج القائد المظفر قتيبة بن مسلم الباهلي عام ٨٦ هـ / ٧٠٤ م وركز راية الاسلام فوق أسوار بلخ وسمرقند . . . ونشبت ثورة في بخارى عام ١٣٤ هـ قضى عليها العرب زمن حكم أبي مسلم الخراساني لتلك البلاد بزعامة القائد زياد بن الربيع الذي قمع الفتنة التي أضرم أوارها الثائر : شريك بن الشيخ المهدي وانضم إليه من الزعماء عبد الجبار بن شعيب وأميرا خوازم ، (٤)

واستطاع زياد بن الربيع أسر عدد كبير من الفتية الذين كانوا يعرفون صناعة الورق حيث أفضوا بها إلى العرب .

ويكاد يتفق رأي العلماء أن الورق ابتكرته الصين خلال القرن الثاني للميلاد . . . في عام (١٠٥) م اخترع (تساي لون) مادة لكتابة مكونة من قشور الشجر والقنب والخرق البالية وشباك الصيادين وأصبح له مكانة محفوظة لدى الامبراطور الصيني . ولكنه تورط بعد ذلك مع الامبراطورة في بعض الدسائس ، وافتضح أمره . فذهب إلى منزله واغتسل ومشط شعره ولبس أحسن ملابسه ثم تجرع السم ومات .

وطريقته لصنع معجونة الورق كالتالي : تقطع المواد النباتية وتنقع في ماء الجير ،

فتصبح رخوة ثم تدق وهي مغمورة في السائل ،فتنفصل الالياف عن بعضها ، ويصفى المحلول خلال منخل حريري ضيق المسام ، فتبقى فوق المنخل طبقة من الألياف تجفف ثم يصقل سطحها ويضاف إليها مادة ماسكة من الغراء لتقوية الألياف (٥) .

وبذلك تمكن العرب من إقامة مصانع للورق وانتاجه بكميات كبيرة وأصبح الكتان والقنب عماد صناعة الورق الأبيض الناعم ،وكانت الضربة التي تلقتها صناعة أوراق البردى على يد الخليفة أبو جعفر المنصور ٧٥٤ – ٧٧٥ م الذي حرّم على دوائر الدولة استعمال ورق البردى، وبنيت أول مطحنة للورق في بغداد عام ٧٩٤ م في ظل حكم هارون الرشيد (٦) .

ثم شمل إقامة المطاحن الورقية أنحاء العالم الاسلامي، ويقال بأن أقدم مخطوطة على ورق كتبت بالعربية في القرن التاسع (غريب الحديث) المنسوخ عام ٨٦٦ م ويعتبر أحد أقدم الكتب وهو الآن محفوظ بمكتبة جامعة ليدن . وأما أول وثيقة أوربية كتبت على ورق فتعود للملك روجر الصقيلي في سنة ١١٠٢ م بعد خروج العرب من الجزيرة ؛ وأمر كتبته زوجته باليونانية والعربية في سنة ١١٠٩ م (٧) .

وكما تتنوع أصناف البضاعة فان أسعارها تختلف بحسب الجودة ومن سوق لآخر ، والورق أيضاً لم تكن أسعاره بعد انتشاره واحدة بل كانت تختلف حسب النوعية وحسب الجودة . . فالورق الأبيض الصقيل الذي يصنع في الصيف أغلى ثمناً من الورق الأسمر الذي يصنع في الشتاء ويرجع الفرق بين نوعي الورق إلى المادة المستعملة : فقد كان يصنع من الكتان (ويكثر في مصر) المضروب بالقطن كما يصنع من الخرق البالية . (٨) ثم أين كانت تقام المصانع (المطاحن) الورقية من قبل العرب لهذه المادة الحيوية فهل كان انشاؤها يختص به قطر دون آخر ؟ يحدثنا لويجي لينيالد العالم الايطالي : إن العرب أول من أدخل هذه الصناعة إلى أوروبا وقد أنشأوا مصانع عظيمة في الأندلس وصقلية ومن ذلك الحين انتشرت صناعة الورق في إيطاليا (٩) .

هذا في جناح العالم الاسلامي الغربي ولكن مانصيب الجناح الشرقي في تطوير هذه الصناعة وهو الذي نقلها إلى الأندلس : فقد ازدهرت صناعة الورق زمن هارون الرشيد الذي أمر بكتابة المصاحف على هذا الورق ، بدلاً من الرق (البرشمان) وانتشرت صناعة الورق انتشاراً هائلاً في البلاد الاسلامية كلها منذ القرن الثاني للهجرة (أي القرن ٨ للميلاد) ومن طريق العرب دخل الورق قارة أوروبا (١٠)

وجاء في مقال : ديار الكتب العربية ومشاكلها للعلامة العربي التونسي عثمان الكعاك مايلي :

نشر الكاغد : جلبه هارون الرشيد من الصين ونشره ببغداد فانتقل الى القيروان في نهاية القرن الثاني للهجرة وصنع بالمنازل والمعامل وتحول إلى الأندلس ـ مدينة شاطبة وبين وجوده بالقيروان ووجوده بفرنسة بمدينة اسّون (Esson) خمسة قرون هذا مانقله العلامة العربي .ونستدل من دراساتنا لهذا النص أن صناعة الورق أصبحت منزلية نظراً لسهولتها ويسرها وخيرها [11] .

ونحن الآن نرى كثيراً من السلع الاستهلاكية تزاحم بعضها البعض مما يجعل سوقها رائجة للسماسرة والمضاربين لدى الشركات والحكومات بقصد الربح التجاري واحداث الأزمات الاقتصادية ،فهل الورق مر بهذه الأدوار حسب جودته وأصنافه ؟
[وقد راجت صناعة الورق في العصر العباسي الثاني وكان ورق البردى الذي اشتهرت به مصر منذ عهد بعيد كثير الاستعمال حتى أوائل العصر العباسي الثاني ثم حل محله الكاغد الذي انتقل من الصين إلى البلاد الاسلامية واشتهرت به سمرقند حتى قبل أن كواغد سمرقند عطلت القراطيس وانتشرت صناعة الورق في دمشق وطبرية وطرابلس الشام وحافظت سمرقند على شهرتها في هذه الصناعة [12] .]

والشيء الجدير بالذكر أن العرب كانوا يستخدمون القوة المائية والهوائية في إدارة رحى طواحين الورق وهاك ماتقوله زيغريد هونكه :

[... حتى أنه اضطر (روجر الثاني) في عام ١١٠٢ م إلى تجديد وثيقة كانت قد دبجتها أمه النبيلة أديلازياAdelasia في العام السابق وتقضيبامتلاك مطحنة كان قد بناها عربي في دير القديس فيليبس [13] . SanFilippo ويستدل من كلام السيدة زيغريد هونكة ان بناء المطاحن كان اختصاصاً عربياً حققه العرب بأنفسهم ومنحوا أوروبا كل أنواع المطاحن المائية والهوائية ...

وعندما ابتلى هذا الشرق الاسلامي بهجمة غادرة من قبل الغرب تحت ستار الدين والدين منها براء وأعني بها الحروب الصليبية ٤٩٠ هـ ـ ٦٠٩ هـ ١٠٩٦ ـ ١٢١٢ م . اقتبس الغربيون كثيراً من فنون الشرق وصناعته ، ففي الحرب اقتبسوا لبس الدروع الخفيفة وقرع الطبول والرتب العسكرية ؛ ونقلوا صناعة السكر والزجاج وغيره ونسوا كثيراً من عاداتهم واقتبسوا صناعة الورق [14] .

وعندما زحف الجنرال غورو على دمشق واحتلها عام ١٩٢٠ كان على رأس قواته الضابط غوابة وقد سجل غوابة مذكراته كضابط حربي وذيلها بهذا التعليق الفريد :

[انا في دمشق .. ان هذا الاسم كان يمثل لي شيئا خرافيا عندما كنت أقرأه في سجلات عائلتي وأنا بعد في سن الطفولة . إن جان مونتوليه الجد البعيد لجدتي من جهة (ابي لويز) كان قد وقع في الأسر خلال الحرب الصليبية الثانية ١١٤٧م ونقل الى دمشق : انه كان من السواد الاعظم [يقصد جنود الجيش] ولذلك لم يعامله السرافون (يقصد بها المسلمين) المعاملة الحسنة التي كانوا يختصون بها الفرسان اللامعين وأهل دمشق جعلوا منه ذلك الحين عبداً يشتغل في أحد المصانع التي يصنع بها الورق من القطن فاشتغل المسكين هناك شغلا شاقا خلال ثلاث سنوات ، وبعد ذلك فر من دمشق وتمكن من الالتحاق بالجيش الصليبي بعد اجتياز آلاف المخاطر. وعندما عاد الى مسقط رأسه بعد غياب دام عشر سنوات أسس أول طواحين الورق التي عرفتها أوروبا . (١٥)

وأخيراً تقول : ان نهضة أوروبا جاءت بعد اطلاعها على تراث العرب العلمي والفكري وأخذ يساورهم شعور عظيم بالعجز والفشل أمام تيار العرب العلمي، وكاد يثبت في الاذهان انه لاسبيل الى مضاهاة العرب ، وقد صور هذه الحالة النفسية أصدق تصوير الشاعر الايطالي تيرارك : ماذا لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيبا بعد ديموشين واستطاع فيرجيل أن يكون شاعراً بعد هوميروس ثم بعد هؤلاء جاء العرب ، لايسمح لأحد بالكتابة ؟ لقد جارينا اليونان غالباً وتجاوزناهم أحياناً ثم تقولون (الكلام موجه لمواطنيه الطليان) إننا لانستطيع الوصول الى شأو العرب بالخيال بالعبقريه ايطاليا الغافيه .

عبد الرحمن ايوب

الرستن ـ ١٧/ ٧ / ١٩٧٧

المراجع لهذا المقال

١ ـ قصة الورق وصناعته في مصر : دكتور محمود عبد الواحد ص ١٢

٢ ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية : جلال مظهر ص ٣٣٨

٣ ـ أبو حيان التوحيدي : بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

٤ ـ تاريخ بخاري : المستشرق المجري ارمينوس فامبري ص ٧٩

٥ ـ الورق وصناعته في مصر ص ٧٨

٦ ـ شمس العرب تسطع على الغرب : زيغريد هونكة ص ٤٦

٧ ـ أثر العرب في الحضارة الأوربية ص ٣٣٩

٨ ـ تاريخ الدولة الفاطمية : د . حسن ابراهيم حسن ص ٥٨٩

٩ ـ العلوم عند العرب : قدري حافظ طوقان ص ٣١

١٠ ـ دور العرب في التكوين الأوربي : د. عبد الرحمن بدوي

١١ ـ مجلة الآداب البيروتية العدد ٢ ـ ص ٧٠ شباط سنة ١١

١٢ تاريخ الاسلام السياسي : د: حسن ابراهيم حسن جزء ٣ ص ٣٢٥

١٣ ـ شمس العرب تسطع على الغرب. هونكة ص ٤٦

١٣ ـ الحروب الصليبية : رفيق التميمي ص ٢٧٢

١٥ يوم ميسلون : ساطع الحصري ص ٣٦٨

الهجرة اليهودية الصهيونية بين

١٨٨٠-١٩٤٨

اعداد المدرس : منذر حمودي

مع أن الكثير من الكتاب والمؤلفين ، قد ألفوا الكتب وصنفوا الدفاتر في موضوع القضية الفلسطينية ، وأثرها على حركة تطور الوطن العربي ، لدوجة ما ، بدأ بعض الناس معها بالتساؤل قائلين : أو لم تشبع القضية الفلسطينية درساً وتمحيصاً ، أو ليس من المفيد والأجدى أن نصرف جهدنا ووقتنا ومالنا في سبيل القضايا الأخرى التي نعاني منها ؟! في هذا الوقت بالذات أجد نفسي مضطراً لدراسة القضية الفلسطينية ، انطلاقاً من اعتقادي بأن الامبريالية وحلفاءها ، قد خططوا لايجاد إسرائيل بقصد تعويق وعرقلة مسيرة النضال الكفاحي المنتظر من الأمة العربية . واني لأرجو أن يساعدني الحظ في بحث الهجرة الصهيونية وما رافق ذلك من أساليب ماكرة وغير أخلاقية ، مارستها الجهات المعادية للأمة العربية بشكل يتفق وينسجم مع الأهداف الاستعمارية . لذا نبدأ بعوامل الهجرة (١) الصهيونية ، التي يمكن اجمالها فيما يلي :

١ — عامل أساسي : يشارك فيه طرفان هما :

أ — البورجوازية الغربية - التي أصبحت امبريالية -

ب — البورجوازية اليهودية ، التي نمت وتكونت داخل البلدان الأوربية ، قبل ظهور البورجوازيات الغربية ، فأتاحت الظروف للبورجوازيين اليهود ، أن يلعبوا دوراً هاماً في حياة أوربة ابان تأسيس الدول الأوربية الحديثة ولاسيما خلال مرحلة الاستعمار والتنافس الاستعماري . لذا كانت البورجوازية اليهودية مقبولة لدى الانظمة الأوربية لارتباطها واستفادتها من الرساميل اليهودية من جهة ولعدم وجود بورجوازيات أوربية بديلة في بادىء الأمر . الا ان هذه الحالة لم تستمر طويلاً بسبب تكون البورجوازيات الوطنية الغربية ، التي راحت تضيق ذرعاً أكثر فأكثر

بحسب حجمها وازدياد نفوذها ، بالبورجوازية اليهودية ، في مجال التنافس الاقتصادي الداخلي ، لذا اقتضت المصالح البورجوازية المشتركة ، ان تحسم الخلافات الناشئة بين البورجوازيات الغربية والبورجوازيه اليهودية غير المطمئنة على سلامة مستقبلها ، وتم رأب الصدع عن طريق خلق تحالفات احتكارية عالمية موجهة ضد شعوب العالم وفي طليعتها ، الأمة العربية ، التي كانت في القرن التاسع عشر تعاني من آثار التجزئة والاحتلال والتخلف ، فتطلع المتحالفون نحو الوطن العربي كعالم جديد لم يوزع بين المستعمرين ولم يتمكنوا من نهب خيراته كما يريدون .

٢ — عامل ثانوي : يتكون هو أيضاً من عنصرين ، هما :

آ — شعور عدد قليل من المتدينين اليهود بالرغبة في الهجرة الى فلسطين للعيش بجوار الأماكن المقدسة — فكان هؤلاء عرضة لتضليل الصهيونية والامبريالية — .

ب — تعرض اليهود الفقراء للاضطهاد جزاء تصرفات البورجوازيين اليهود تجاه الشعوب الأوربية من ناحية طبقية ، ونتيجة بقاء رواسب الفكر الديني المتوارث من عهود الأنظمة الاقطاعية لدى الأوربيين من ناحية أخرى .

— ٢ —

مراحل الهجرة الصهيونية :

١ — المرحلة الأولى بين ١٨٨٠ — ١٩١٨

أسس المهاجرون اليهود أول مستعمرة [1] زراعيـــة في فلسطين عام ١٨٨٠ م وكانت بدائية متأخرة كما يقول المؤرخ ارنولد توينبي ، ثم بعد اشتراك بعض اليهود الروس في مؤامرة اغتيال القيصر الروسي اسكندر الثـــاني عام ١٨٨١ م ، تعرض اليهود الروس لاضطهادات وملاحقات ، هاجر على أثرهـا قسم كبير من اليهـود الى أوربة الغربية وامـيركا ، حيث تتمركز الرساميل ، ويشتد عود الامبريالية — التي تسهم في احتكاراتها بعض البيوتات المالية اليهودية — بينما اتجه قسم صغير من اليهود نحو فلسطين بتأثير جمعيات — أحبّاء صهيون — الداعيـــة الى تجميع اليهود في

١ — من هذه المستعمرات : بتاح تكفا ـ ريشيون ليستيون ـ رونسون بتاح ـ زخروف يعقف .

فلسطين ، تحت ستار الأغراض الدينيـــة ، لاخفاء الغرض الحقيقي ، الرامي الى السيطرة على البلاد واستعمارها . ولهذا السبب قدمت الجمعيات المذكورة الدعم والمساعدة لليهود المهاجرين إلى فلسطين من أجل الاستيطان .

ثم مالبثت جمعيات صهيون أن تعـاونت مع ـ صندوق اكتشاف فلسطين ـ في عملية دفع اليهود باتجاه احياء التاريخ العسكري اليهودي بغية استخدام القوة في السيطرة على البـلاد ، ونظراً لذلك اصدرت الدولة العثمانية في عام ١٨٨٨ القرارات والقوانين التي تحرم الهجرة اليهودية الجماعيـــة الى البلاد العثمانية وتحدد مدة دخول اليهود الأجانب بثلاثة أشهر للحج . ولكن اليهود حصلوا في عام ١٨٩٠ م من الدولة العثمانية على (اعـــتراف رسمي بهم ، باسم جمعية دعم الزراعيين والحرفيين اليهود في فلسطين وسورية) وكان ذلك بمثابة تراجع عن قرارات الحظر السابقة الى حد ما . وفي عام ١٨٩٣ م قام الرأسمالي اليهودي الأصل ـ بول فريدمان ـ بمغامرة عسكرية ، ونقل جيشاً مكوناً من حوالي ستين فرداً ، محمولين على ظهر يخت بخاري ، لاحتلال مدين ، واستعان بيهودي انكليزي للطقوس الدينية اليهودية ، كما استعان بيهود آخرين من الاسكندرية ، يتكلمون اللغة العربية ، يساعدونه على اغراء البدو والسكان الأصليين . كان معظم جيشه يتكون من أعضاء جمعيات حب صهيون ، إلا أن هـذه المغامرة باءت بالفشل بعد أن قام الجنود بالعصيان على النظام العسكري ـ البروسي ـ القاسي الذي طبق عليهم .

ولمواجهـة الدولة العثمانية وا كراههـا على قبول الهجرة الصهيونية في فلسطين ، قابل تيودور هرتزل قيصر ألمانيا وطلب مساعدته من أجل انشاء شركة قانونية لتنمية الأراضي في فلسطين عام ١٨٩٨ م تكون تحت حماية ألمانيا ، لكن القيصر الألماني رفض تأييد هـــذا المشروع لأنه يثير مخاوف كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا على مصالحها ! . ولما لم تفلح مساعي الاعتماد على الدول الكبرى بما فيه الكفاية ؛ شجع زعماء الصهيونية قوميّي الشعوب والأمم المختلفـــة على ترويج افكار اللاسامية بين الجماهير ضد اليهود ، واشار إلى هذه الناحية هرتزل عام ١٨٩٦ بقوله : ان (من أشد أنصاري قـــوة حتى اليوم هو لاساميَّي بطرسبورغ ايفـان [1] وسيموني) وتزداد الفكرة وضوحاً من خلال الحديث الذي دار بين هرتزل ووزير قيصر روسيا حول

---

١ ـــ روسيان متعصبان ضد اليهود .

ما تستطيع روسيا فعله لتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين عندما قال الوزير : (كان من عادتي أن أقول للامبراطور المرحوم اسكندر الثاني : لو ان في الامكان اغراق ستة ملايين يهودي أو سبعة ملايين في البحر الأسود لبلغت قمة الرضا ولكن هذا غير ممكن إذن يجب علينا أن ندعهم يحيون) .

ولما ألح هرتزل على ضرورة تحرك روسيا نحو التعجيل في تهجير اليهود الروس ، أجابه الوزير الروسي - رايت - ساخراً : (ولكننا نقدم لليهود كل التسهيلات الممكنة للهجرة : رفسات مثلاً) . وتحمس للصهيونية كل من الألمان والانكليز والفرنسيين والاميركان بهدف المساهمة في تهجير اليهود الى فلسطين .

وفي موجة ثانية من الهجرة امتدت بين ١٩٠٤ — ١٩١٣ بلغ عدد المهاجرين بين ٣٥ — ٤٥ الفاً كان أكثرهم من اليهود الروس ، بينما كان معظم المهاجرين من الناحية الطبقية ، من العمال الذين اقاموا مستعمرات يهودية صرفة ، منع العمال العرب من المشاركة فيها وحصر العمل بالعمال اليهود فقط ؛ فكان هـذا التصرف بمثابة مقاطعة اقتصادية يهودية للسكان العرب ، أصحاب البلاد الأصليين . إلا ان هـذه المقاطعة زادت في تحسب المثقفين العرب من الحركة الصهيونية وما ترمي اليه من زيادة الهجرة . ولكن وبالرغم من معارضة العرب للهجرة ووجود قانون الحظر الذي فرضته الدولة العثمانية ، فقد استمرت الهجرة بتأييد من متصرف القدس احمد رشيد بك المعين عام ١٩٠٤ بل ازدادت رغم اوامر الباب العالي بمنع دخول المهاجرين وبذلك نرى شكلا آخر من اجراءات تعطيل قوانين حظر الهجرة الصهيونية الى فلسطين مارسته السلطات الحاكمة . وفي عام ١٩٠٦ جرى استبدال احمد رشيد بك بمتصرف جديد هو علي اكرم بك ، نزولاً عند الضغوط العربية ، ونفذ هـذا المتصرف التعليمات التي وصلت اليه من السلطات العثمانية بحذافيرها ، وكان ذلك نتيجة فشل المنظمة الصهيونية في كسب عطف الدولة العثمانية رسمياً رغم العروض المغرية التي قدمتها الصهيونية للدولة العثمانية ، التي عبَّر عنها هرتزل بقوله : (لو أعطانا جـلالة السلطان فلسطين ، لبذلنا مافي وسعنا لتنظيم مالية تركيا تنظيماً كاملاً) . غير ان فرص نجاح المساعي الصهيونية لدى الدولة العثمانية ازدادت بعد قيام ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ واكراه السلطان عبد الحميد الثاني على اعـلان الدستور والعودة بالبلاد الى الحياة البرلمانية التي سمحت لعدد كبير من اليهود بأن يصبحوا أعضاء بارزين في حزب تركيا

الفتاة وفي البرلمان العثماني . فقد تعاطف هؤلاء الحزبيون والبرلمانيون اليهود مع الحركة الصهيونية ، وكان من أبرزهم نيسم روسو ونيسم مازلياغ .

في عام ١٩١٠ وصف قائمقام الناصرة العربي سلوك ومطامع الصهيونيين بقوله : (لايختلط اليهود بالعثمانيين أبداً ولا يبتاعون منهم شيئاً ، كما ان لهم مصرفهم الخاص . وأسسوا في كل قرية وفي كل مستعمرة لجنة مركزية ومدرسة . . . واليهود أيضاً علم أزرق تتوسطه نجمة داود ؛ يرفعون هذا العلم بدلاً من العلم العثماني . . . ويصرخ اليهود عندما يخاطبون السلطات الادارية بأنهم مسجلون في السجلات العثمانية أي أنهم مواطنون عثمانيون وهذا كذب وخداع . . .) . ان ماتحدث عنه قائمقام الناصرة كان نتيجة ماخططت له الصهيونية في مؤتمراتها وخاصة مؤتمر لاهاي المنعقد عام ١٩٠٨ حيث قرر فيه الصهاينة تأسيس شركة للاراضي الفلسطينية وتخصيص قرض يقدمه البنك الوطني اليهودي لبناء حي عصري للمهاجرين اليهود بالقرب من يافا — نواة تل أبيب — كما تقرر اعتبار اللغة العبرية لغة التخاطب الرسمية للحركة الصهيونية ؛ لتصبح لغة الحياة اليومية والعلمية تجاري لغات الامم المتقدمة .

وتمشياً مع هذه السياسة أنشأ الصهاينة الجامعة العبرية في القدس عام ١٩١٣ فكان لها فضل كبير في مجال تطوير اللغة العبرية وتقدم الحركة العلمية العبرية من خلال جهود المعاهد والكليات التابعة لها مثل : معاهد الدراسات اليهودية والشرقية والفلسفة وكليات الآداب والتاريخ والعلوم بأقسامها : العلوم الطبيعية ، الكيمياء غير العضوية ، الكيمياء البيولوجية ، الكيمياء العضوية ، الكيمياء الطبيعية ، والرياضيات والهندسة . . . وفي الجامعة العديد من الأجهزة العلمية المعقدة الى جانب مكتبة تحتوي على ربع مليون من المجلدات في مختلف الأغراض الفكرية والعلمية .

بعد جهود مضنية بذلتها الحركة الصهيونية ، وصل عدد اليهود في فلسطين عام ١٩١٣ الي حوالي ٨٥ الفاً فتساءل عن ظاهرة الهجرة الصهيوني الدكتور روبين عام ١٩١٣ قائلاً : (وماذا جنى اليهود بعد عشرين عاماً ؟) ثم أجاب نفسه بقوله : (لاشيء أو مايقرب من العدم إذا قيس بالأحلام الأولى ولا علاج لذلك إلا إذا جلبنا دماء فتية من مختلف أنحاء أوربة تعيد الشباب وتنفخ في الأرض روحاً وثابة جديدة) . ولتحقيق ماطرح الدكتور روبين من أفكار فقد أقدم على تأسيس مكتب فلسطين في حيفا وراح يفاوض السلطات التركية ويوسع دائرة نشاط مكتبه

بواسطة الاستعانة بمزيد من الخبراء والقانونيين والزراعيين والفنيين من أجل جعل الهجرة ممكنة ومشجعه . إلا أن وقوع الحرب العالمية الأولى أحدث الخلل والفوضى في الجهاز الاداري الصهيوني ، وبرزت الى السطح ظاهرة الهجرة المعاكسة بين ١٩١٣ و ١٩١٨ وانخفض عدد اليهود في فلسطين من ٨٥ الفاً عام ١٩١٣ الى ٥٥ الفاً عام ١٩١٨ نتيجة تدني الحالة الاقتصادية وتوقف تدفق المؤونات (١) الخارجية ، فاستدعى كل ذلك جعل الهجرة تبدو وكأنها عديمة الجدوى ، قبل خضوع البلاد للاحتلال البريطاني عام ١٩١٨ .

المرحلة الثانية بين ١٩١٨ — ١٩٣٩

ماكادت تخضع فلسطين للاحتلال الانكليزي ثم للانتداب حتى بادرت بريطانيا الى التعاون مع الحركة الصهيونية والتصرف وفق مخططاتها لتعيين الصهيوني البريطاني هربرت صموئيل مندوبا سامياً في فلسطين ، والاعتراف بالمنظمة الصهيونية وحقها في تكوين وكالة تقدم النصح للانتداب وتتعاون مع حكومة فلسطين في المسائل (٢) الاقتصادية والاجتماعية التي من شأنها ان تؤثر على اقامة الوطن القومي اليهودي ، بل التزمت بريطانيا بالاعتراف بشرعية الهجرة وتسهيلها امام من يود دخول البلاد عن طريق المندوب السامي الذي يملك حق تحديد عدد المهاجرين من آن لآخر حسب الظروف وان مافعلته بريطانيا في فلسطين من اجراءات وتصرفات كان في الغالب مدبراًومخططاً له ، وفق المصالح الاستعمارية البريطانية والمخطط الصهيوني الذي عبر عنه حايم وايزمن بقوله : (ان مركز الثقل في الحركة الصهيونية ، ليس هو البرنامج المتطرف ، ولكن هو العمل المنجز ، الاستيطان ، التعليم ، الهجرة ، الحفاظ على علاقات ثقة مع دولة الانتداب ـ بريطانيا ـ وان التقدم بمطالبات غير عملية سوف يستثير العرب ويستبق المتاعب التي تحرج دولة الانتداب) . ولكي لا تثار مثل هذه المتاعب

---

١ — كان ذلك بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى والتي كانت الدولة العثمانية احدى أهم الدول المشاركة في رحاها الدائرة .

٢ — سهلت بريطانيا الهجرة الصهيونية باقدامها على منح الجنسية الفلسطينية الى المهاجرين وتسليمهم العديد من امتيازات المشاريع كالكهرباء والبوتاس .

والاحراجات التي أشار اليها وايزمن ، لأن صك الانتداب قد صيغ بالشكل الذي يؤمن الوفاق ، ويمنع الطلاق بين الحركة الصهيونية راعية الهجرة ومعيلة المهاجرين وبين الدولة المنتدبة بريطانيا كفيلة تحقيق ذلك امام المؤتمرين في سان ريمو ، كما في المادة الثانية والتي تقول : (تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في احوال سياسية وادارية واقتصادية تضمن انشاء الوطن القومي لليهود) . وتنص المادة الرابعة على انه : (يعترف بوكالة يهودية ملائمة لهيئة عامة لاسداء المشورة الى ادارة فلسطين والتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الامور التي تؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين ، وتساعد وتشترك بترقية البلاد على ان يكون ذلك خاضعاً دوماً لمراقبة الادارة) . ونصت المادة السادسة قائلة : (على ادارة فلسطين مع ضمان عدم الحاق الضرر بحقوق ووضع فئات الأهالي الأخرى ، ان تسهل هجرة اليهود في أحوال ملائمة وان تشجع وبالتعاون مع الوكالة اليهودية حشد اليهود في الاراضي الموات غير المطلوبة للمقاصد العامة) .

كذلك أكدت المادة الثامنة والعشرون على : (أن تكون الانكليزية والعربية والعبرية ، اللغات الرسمية في فلسطين ، وكل عبارة أو كتابة بالعربية وردت على طوابع أو عملة تستعمل في فلسطين يجب ان تكرر بالعبرية وكل عبارة او كتابه بالعبريه يجب أن تكرر بالعربية)

وفي الجلسة المشرين للجنة الانتداب الدائمة في عصبة الأمم بجنيف ، صرح ممثل الحكومة البريطانية قائلاً : (ان الدولة المنتدبة ـ بريطانيا ـ تبذل كل ما في وسعها للسماح لليهود بالهجرة الى فلسطين وان حكومة فلسطين تنفق جزءاً من أموالها بطريق مباشرة وغير مباشرة في سبيل انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين) . وفي مذكرة سرية أرسلتها بريطانيا الى يهود امريكا جاء فيها : (إن الحكومة البريطانية تعترف بجعل فلسطين موطناً قومياً لليهود وعلى منح يهود فلسطين جميع الحقوق القومية والسياسية والمدنية وعلى اطلاق الهجرة اليهودية الى فلسطين من كل قيد وعلى تكوين شركة يهودية يكون لها حق إمتلاك الأراضي) . وتنفيذاً لهذا المخطط التآمري الصهيوني ـ البريطاني بدأ اليهود يستولون على الوظائف ولا سيما الهامة منها بينما كان العرب يفقدون وظائفهم يوماً بعد يوم ، فغدت الوكالة اليهودية دولة ضمن دولة تتمتع بما يشبه حق الرقابة على السلطات البريطانية التي طلب منها بأن (... التشريعات التي تصدرها السلطات العسكريه يجب ان تعرض أولاً

على اللجنة الصهيونية) التي لم تخف أطماعها الاستعمارية الا عندما تخاف من تفجر المقاومة العربية ، عندئذ تلجأ الى التصريحات العلنية للتضليل ، وفي نفس الوقت تصدر المنشورات السرية إلى هيئاتها ومؤسساتها تعلن فيها عن عزمها واصرارها على حق تطويب فلسطين قاعدة لتحركات النشاط الصهيوني الهادف الى اغتصاب البلاد وتشريد سكانها ، كما أشار إلى ذلك عام ١٩٢١ نائب رئيس الجمعية الصهيونية الدكتور ايدر بقوله : (لايمكن ان يكون في فلسطين الا وطن قومي واحد هو الوطن اليهودي ومن المستحيل ان تكون هناك مساواة في الشركة بين العرب واليهود بل يجب أن تكون هناك سيادة يهودية حالما يزداد عددهم ازدياداً كافياً) .

ومع ان السلطات البريطانية قد اصدرت في آب عام ١٩٢١ قانوناً يحدد الشروط المالية التي ينبغي أن تتوفر فيمن يود الهجرة إلى فلسطين من اليهود كما يلي :

١ — آ — أصحاب رأسمال لايقل عن الف جنيه .

ب — العاملون في المهن الحرة مع خمسمائة جنيه .

٢ - ذوو الفرص المؤكدة في ايجاد العمل في البلاد .

٣ — الأشخاص الذين يكفلهم سكان يقيمون في فلسطين .

وبذلك يكون القانون المشار إليه في جوهره ليس أكثر من مغالطة بريطانية لايهام العرب بأنها أرادت ان توقف الهجرة الصهيونية ، بينما هي ساهمت بتنظيم الهجرة نيابة عن الوكالة الصهيونية وعلى نفقة الشعب الفلسطيني وبرهنت عن حسن نيتها تجاه الصهاينة باقدامها على منح الجنسية الفلسطينية للمهاجرين اليهود . ونتيجة لهذه لهذه السياسات المعادية للحق العربي ، فقد دخل فلسطين خلال العقد الأول من الانتداب — ١٩٢٠ — ١٩٢٩ — حوالي مئة الف من المهاجرين ، وكان من أهم العوامل التي ساعدت على زيادة تدفق المهاجرين الى فلسطين ، وضع الولايات المتحدة الاميركية لعدد من الاجراءات التي تحدد عدد المرغوب بهم من المهاجرين وشروط قبولهم ، بينما كانت بولونيا ايضاً تعمل على تقليل عدد اليهود العاملين في بعض المجالات الاقتصادية التي تؤثر على مصالح الشعب البولوني قومياً ، ولهذا السبب أو ذاك يمم المهاجرون اليهود وجوههم نحو فلسطين ، في الوقت الذي

راحت الولايات المتحدة الاميركية تتطلع فيه الى أهمية المنطقة ومبادرتها إلى تأسيس الشركة الاقتصادية الفلسطينية . وبسبب مواءمة الظروف وصل عدد المهاجرين في عام ١٩٢٩ الى ١٥٠ مئة وخمسين الفاً ، يعادلون ١٦٪ من مجموع سكان البلاد يوزعون وفق النسب التالية :

١ — ٣٣٪ يعملون في الصناعة .

٢ — ٢٠٪ يعملون في الزراعة .

٣ — ٢٠٪ يعملون في التجارة .

٤ — ٢٧٪ يعملون في المهن الحرة .

إلا أن تيار الهجرة الى فلسطين تأثر بالأزمة الاقتصادية الكبرى في العالم الرأسمالي والبلدان التابعة عام ١٩٢٩ ، وأصبحت الهجرة المغادرة لفلسطين ، أكثر من الهجرة القادمة اليها ، وخصوصاً ، بعد توقف تدفق الأموال من الخارج الى الصهاينة في فلسطين ، مما سبب اختناقاً في الاقتصاد اليهودي الصهيوني ، وخلق معاناة صعبة لليهود المهاجرين في نفس الوقت الذي انخفضت فيه نسبة المهاجرين الروس بشكل متزايد منذ قيام الثورة الاشتراكية واصدار القوانين التي تحرم الانتماء الى الحركة الصهيونية ، باعتبارها حركة رجعية كشفت عن طبيعتها المعادية للثورة الاشتراكية وباتت ذات صلة بالتيارات الشوفينية والتحريفية ، وحليفاً وثيق الارتباط بالامبريالية والأنظمة الرجعية ، وفي الثلاثينات توقفت الهجرة تماماً من الناحية الشرعية والرسمية ، ولكن ذلك لايعني توقف الهجرة غير الشرعية ، التي استمرت بتشجيع من الدوائر الامبريالية ، ودعاة الصهيونية المبثوثين هنا وهناك للعب بعقول العديد من بسطاء اليهود وفقرائهم واقناعهم بصحة حكاية وجود اللبن والعسل في فلسطين وتصويرها لهم بلاداً مهجورة من السكان ، تنتظر من يسارع الى استيطانها وجمع خيراتها وهكذا تجاوزت الصهيونية المحنه واستمرت الهجرة الى فلسطين ، إذ دخل البلاد عام ١٩٣٢ حوالي ٢٦ سته وعشرين الف مهاجر بصورة شرعيه ودخلها حوالي ١٤ أربعه عشر الفاً من المهاجرين بصورة غير شرعيه ، واستمرت نسبه المهاجرين في عام ١٩٣٣ بمعدل ثلاثه آلاف مهاجر في الشهر الواحد . وفي عام ١٩٣٤ — ١٩٣٥ دخل البلاد حوالي ١٠٤ مئة وأربعه آلاف مهاجر .

بينما اشترت شركات الاستيطان من الأراضي عام ١٩٢٩ – ١٩٣٠ حوالي ٢٥٠ مئتين وخمسين الف دونم وكان عدد الأسر العربية المطرودة من أرضها ٢٠ عشرين الف عائلة . وقد يكون من العوامل التي ساعدت على تحقيق ذلك تآمر السلطات البريطانية مع الأسر الاقطاعية عن طريق استخدام القوة أو التلاعب بقوانين تسجيل العقارات – الطابو – ومن أجل زيادة عدد المهاجرين لم تدع الصهيونية فرصة وصول هتلر الى السلطة تمردون الافادة منها ، لذا تحالفت مع اجهزته بغية تحقيق أهداف هتلر بالخلاص من اليهود ، وتحقيق أهداف الصهيونية في زيادة عدد المهاجرين الي فلسطين ، واتفق الطرفان على خطة ترويع اليهود وتخويفهم ليضطروا الى مغادرة أوربة والتخلي عن فكرة البقاء فيها ، وفي مجال تطبيق الاتفاق (كان رجال الغستابو يظهرون براعة خارقة في تنظيم الهجرة اللا مشروعة ، وسرعان ماتظهر تأشيرات السفر والخروع بصورة سحرية . وكانت شركة الملاحقة الألمانية في الدانوب تنقل المهاجرين الى موانيء رومانيا) ليتوجهوا من هناك الى موانيء البحر الأبيض المتوسط ومنها الى فلسطين ، ولكي تكسب الصهيونية عطف العالم عليها وتيسر سبل تنفيذ مخططها الرامي الى السيطرة على فلسطين ، عمدت دعايتها الى المبالغة في تصوير الاضطهاد النازي لليهود . وقد أشار الى وجود المبالغة في تصوير الاضطهاد النازي الليفتينانت جنرال فريد ريك مورغان ، الرئيس البريطاني لادارة الاغاثة والاسكان التابعة للأمم المتحدة في المانيا بقوله : (١) (فاليهود الوافدون بالآلاف من مدينة لودز وغيرها من المراكز البولندية يرتدون الملابس الفاخرة ويبدون في صحة جيدة ، يتفجر الدم من وجناتهم وجيوبهم منتفخة بالنقود . وليس على أي فرد منهم سيماء البؤس أو الاضطهاد رغم أنهم جميعاً يروون نفس القصة الخيالية المملة عن المذابح والتعذيب) .

وبالرغم من مشاركة الدول الرأسمالية للحركة الصهيونية في التشهير بهتلر الذي هجر اليهود واضطهدهم كما يزعمون ، فان تلك الدول نفسها ، لم تسمح لليهود والغجر بدخول بلادها ، اذا ماوفقوا بالفرار من معسكرات الاعتقال . وان ذلك الموقف هو الذي يفسر لنا عدم اعطاء اليهود أكثر من ٤٧٦٧ شهادة هجرة بالدخول الى الولايات المتحدة الاميركية ، ويوضح الروابط المشتركة بين عنصرية هتلر ومشاعر الامبرياليين ازاء الجاليات اليهودية والغجرية في بلادها ، فعملت على تنشيط الهجرة نحو فلسطين بطرق مشروعة أو غير مشروعة ، وعلى سبيل المثال فقد دخل فلسطين

١ – قضية فلسطين . للدكتور طربين ص ٦٤٦ .

عام ١٩٣٦ حوالي ٣٦ ستة وثلاثين الفاً من السواح ، الا أنـه لم يخرج من هؤلاء السواح سوى ٤ أربعة آلاف فقط . ومن الاساليب التي اتبعتها الصهيونية في زيادة عدد المهاجرين بشكل غير أخلاقي وغير قانوني ، اقدام الصهيونية على خطف الأطفال من بين أحضان أهلهم وارسالهم الى فلسطين مع أن هؤلاء الأطفال لم يكونوا جميعهم من اليهود . وعلى كل حال وجد المهاجرون مايشجعهم ويغريهم على البقاء في فلسطين كاعطائهم أراضي الموات واقدام الاقطاعيين على بيع أراضيهم وقرام الى المؤسسات الصهيونية وبالاتفاق مع حكومة الانتداب البريطاني على اخراج الفلاح العربي من أرضه وتسليمها الى الصهاينة كاقدام المندوب السامي واكهوب على تهجير بدو وادي الحوارث من أرضهم وصرع بعضهم بالرصاص ، في الوقت الذي كان الصهاينة يفرضون على العرب مقاطعة اقتصادية شاملة من أجل افقارهم ودفعهم الى بيع أراضيهم والرحيل عنها . وقد وصف الخبير الانكليزي ـ سمبسون ـ هذه المقاطعة التي استمرت بعد فرض الانتداب بقوله : (ولا يؤلف ـ بشكل ـ مبدأ الاصرار المتعمد على مقاطعة العمال العرب وعدم تشغيلهم في المستعمرات اليهودية ، مناقضة للانتداب فحسب ، وانما يؤلف كذلك مصدراً دائماً ومتزايداً للخطر الذي يهـــدد البلاد) . ولم يكتف بذلك بل وصف الصهاينة بالرذيلة أيضاً وأكد في تقريره (ان ٣٠٪ من القرويين العرب هم بحاجة الى مساعدة بسبب حرمانهم من الأرض) لتعاون كل من المشتري والبائع والمرابي مع بريطانيا والصهيونية ضد الفلاح المسكين الغارق بالديون، وكذلك دعا الى وجوب نشر التعليم الى جانب المساعدة المادية ، بغية ايجاد فرص جديدة للعمل والتخفيف من اندفاع الفلاحين نحو المدن للبحث عن عمل يهرب امامهم بسبب المحاصرة والمقاطعة . وتحدث عن مسألة الأرض الخبير الانكليزي فرنـــش بقـوله : (لو لم ترتكب الحكومة خطأ عظيماً في الماضي والحاضر لما رأينـا مشكلة المزارعين الذين لا أرض لهم) ووصف ايضاً تقرير لجنة شو حظر الهجره على العــــرب كالتالي : (. . . ان الشعور السائد اليوم بين العرب يستند الى خـــوفهم المزدوج من أنهم سيحرمون وسائل معيشتهم ويسيطر عليهم اليهود سياسياً يوماً ما بسبب المهاجرة اليهودية وشراء الأراضي وأصبح العرب لايرون في المهاجرة اليهودية خطراً على معيشتهم فقط بل يرون فيه ذلك الذي قد يسيطر على البلاد في المستقبل أيضاً) . ان ماورد في تقرير لجنة شو كان نتيجة مالوحظ من استيلاء الصهيونية على مليوني دونم من أخصب الاراضي في سهل الحولة ومرج ابن عامر وبيسان وسارونة ، وفي تلك الاراضي الطيبة

كانت تؤسس المستعمرات والمدن التي تكبر وتتسع يوماً بعد يوم وتصبح أكثر فأكثر قدرة على استقبال المزيد من المهاجرين الذين يتم توطينهم على الشكل التالي :

١ ــ التوطين في المستعمرات الزراعية التعاونية (الموشاف) .

٢ ــ التوطين في المستعمرات الزراعية التعاونية الجماعية (الكيبوتز) .

٣ ــ التوطين في الملكيات الزراعية الصغيرة والخاصة .

وفي عام ١٩٣٦ وصف احد التقارير الهجرة اليهودية ووضع اليهود في فلسطين بأن (الطائفة اليهودية في فلسطين تبلغ أكثر من ٤٠٠ اربعمائة الف شخص ولها عاصمتها ، تل أبيب ، وهي اكبر مدينة في فلسطين ، ولهـا علمها الوطني ونشيدها الوطني ، ونظامها الثقافي ، ولها شبكة من المصالح الاجتماعية . وترتبط هذه الطائفة باليهودية العالمية بواسطة الوكالة اليهوديه ، بينا تدار شؤون هذه الطائفة الداخلية بواسطة مجمع وطني ومجلس ملي ومجلس ربانيين) .

أسس المهاجرون اليهود في فلسطين الأحزاب السياسية العديدة ، إلا أنها كانت أحزاباً عنصرية مرتبطة بالصهيونية والامبريالية ، تسعى جاهدة لتسويغ اغتصاب فلسطين والتوسع على حساب الأقطار العربية المجاورة . وفي الثلاثينيات كانت المنظمة العسكرية بيطار تردد النشيد التـالي :

مجـال حيوى للملايين	عـلى ضفتي الأردن
الأردن له ضفتـان	واحدة لنا وكذلك الأخرى

تبنت الأحزاب الاشتراكية اليهودية فكرة العمل باليد ، وحظرت العمل بالاجرة لدى الآخرين ، فكثرت مزارع الموشاف والكيبوتز الموزعة هنـا وهناك ، واستغلت الصهيونية بذلك ظاهرة العمل التعاوني في مجـال الدعاية والتشدق بامكانيـة تطبيق الاشتراكيين في فلسطين بعد تحررها من الانتداب الانكليزي . وكان لهذه الدعاية أثرها لدى الاشتراكيين اليهود ، الذين خدعوا بالدعاية وصدقوا خرافة اقامة النظـام الاشتراكي الرائد في فلسطين ؛ ثم مالبث معظم المخدوعين أن بدأوا يكتشفون مع الزمن زيف الادعاءات وتوزع الاشتراكيين بين الأممية الثـانية والاشتراكية البوندية وان المزارع التعاونية تتحول الى معسكرات انتاجية موجهة ضد العرب اولاً وضد الطبقة الـكادحة من اليهود والعرب ثانياً بسبب سيطرة البورجوازية اليهودية على البلاد مالياً

واداريا ، كما تبين ارتباط معظم المؤسسات بالهستدروت الصهيوني - اتحـاد العمال - الذي هو بدوره يخضع الى البورجوازية عن طريق مؤسسات (صنـــدوق المرض والعجز - بورصة العمل - شركة القاولات - بيع المنتجات الزراعية - تعـاونية البيع بالجملة - شبكة مدارس عمالية . . .) .

وان النقابات اليهودية لم تستطع الافلات من قبضة البورجوازية التي دفعتهـا في طريق الشوفينية لذلك رفعت شعار : العمل والأرض واللغة . لذلك كان لابد من قيام ثورة ١٩٣٦ التي عبرت عن رفض العرب للانتداب والصهيونية ، ونجم عن قيام الثورة تناقص عدد المهـاجرين الى فلسطين من ٣٠ ثلاثين الف عام ١٩٣٦ الى ١١ أحد عشر الف عام ١٩٣٧ و ١٣ ثـلاثة عشر الف عام ١٩٣٨ . وبعد سحق الثورة والقضاء على المقاومة عادت نسبة الهجرة الى الارتفاع وسمحت بريطانيا بدخول ١٥ خمسة عشر الف شخص في العام الى البلاد لمدة خمسة أعوام مع العلم ان الهجرة غير الشرعية استمرت بفضل سكوت بريطانيا التي (لم تفعل . . . كثيراً للحؤول دون الهجرة اللاشرعية ، كما أنها لم تطرد المهاجرين الذين قدموا بطريقة غير شرعية عند اعتقالهم) .

المرحلة الثالثة بين ١٩٣٩ — ١٩٤٨ :

استطاع هتلر منذ وصوله الى السلطة في ألمانيا ان يجند كل الطاقات والامكانات المتاحة في بلاده من أجل النهوض بالبلاد ودفعها في مجال التنافس الاقتصادي وبالتالي الدخول في الصراعات العسكرية مع جيرانه ومع الدول الامبريالية المنافسة لألمانيـا اقتصادياً وعسكرياً ، مما فجر شرارة الحرب العالمية الثـانية عام ١٩٣٩ . وفي تلك الأثناء (جهد الصهيونيون لاقناع دول الهجرة مثل الولايات المتحدة وكندا بعدم قبول اللاجئين اليهود ،مدعين بان اللاجئين لايريدون الذهاب الى اي بلد سوى فلسطين ، وهكذا رفضت عدة بلدان بما فيها الولايات المتحدة قبول قدوم اللاجئين اليهود) . ولتأكيد هذا الادعاء وكسب مواقف الدول وحيازة تعاطف الرأي العام لدى الشعوب ، أقدمت الصهيونية على ارتكاب جريمة قتل آلاف الابرياء من اليهود المهاجرين كاغراقها للباخرة باتريا والتسبب بمقتل ٢٥٠ مئتين وخمسين من ركابهـا ، والاقدام ايضاً على اغراق الباخرة ستروما والتسبب في مقتل ٧٥٠ سبعمائة وخمسين من ركابها أيضا . وهكذ نظراً لاساليبها الشريرة وتوسلاتها الملحة لدى الدول الكبرى ، مددت بريطانيا

مدة قبول المهاجرين الى فلسطين حتى عام ١٩٤٥ أي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، ربما تسمح الظروف بتنفيذ ماهو مبيت للشعب العربي الفلسطيني . ثم ما كادت تعلم بريطانيا ان الحصان الانكليزي المكلف بجر العربة الصهيونية الي فلسطين ، قد شاخ ، واعدت له طلقة الخلاص بعد استبداله بحصان آخر ، لكنه هذه المرة كان حصاناً امريكياً حتى بادرت الى الاعراب عن عدم الرضا بواسطة وزير خارجيتها بيفن ، الذي علق على طلب الرئيس الامريكي ترومان الذي طلب : (من بريطانيا ، الدولة المنتدبة ، السماح لمئة الف مهاجر بدخول فلسطين قائلاً ـ أي بيفن ـ [1] : (أنا أقول بكل جد اذا كان الموضوع فقط هو موضوع التفريج عن مئة الف من يهود أوربه ، واذا كانت المسألة التي يجب علي حلها هي مسألة انسانية بحتة ، فاعتقد أنه يمكن العثور على تسوية ولسوء الحظ لم يكن الموضوع كذلك ، فان المئة الف من وجهة النظر الصهيونية هم فقط بداية ، وان الوكالة اليهودية تتحدث عن الملايين . ان طلب العرب هو طلب عسيرة جداً اجابته . نحن هنا في بريطانيا العظمى كمجلس العموم نقرر ما إذا كنا سنقبل الناس في هذا البلد أم لا . لا أحد غيرنا يقوم بذلك ، فلماذا يجب ان تقرر وكالة خارجية ممولة بسخاء من أمريكا كم من الناس يجب ان يدخل الى فلسطين ، وتتدخل باقتصاديات العرب ، الذين كانوا هناك منذ ألفي عام ؟ هذا مايجب علي مواجهته) .

نعم كانت بريطانيا مضطرة الى قول الحقيقة بعد أن شعرت بالخطر الامريكي الذي يهدد المصالح البريطانية في الوطن العربي أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية ولا سيما بعد اقبال الولايات المتحدة الامريكية على امتلاكها وسيطرتها لشركات البترول العاملة في آسية العربية . وكانت بريطانيا مضطرة الى المشاركة في اللجنة الانكلو اميركية عام ١٩٤٥ لكي تتمكن كل من الولايات المتحدة وبريطانيا من [2] (حل مشكلة فلسطين بطريقة عملية تخدم مصالحها) في المنطقة . درست اللجنة القضية الفلسطينية ورفعت بعد ذلك توصياتها لدعم الهجرة الصهيونية على الوجه التالي :

١ ــ منح مئة الف شهادة دخول الى فلسطين للصهاينة ومساعدة من يود الهجرة من اليهود الى فلسطين .

---

١ ــ قضية فلسين ص ٨٠٨ للدكتور أحمد طربين

٢ ــ دولة اسرائيل ص ٤٠ جالينا نيكيتينا

٢ — إطلاق حرية بيع الأراضي واجارتهـا بغض النظر عن العنصر أو المذهب أو الطائفة .

قدمت هذه المطالب وفرضت على الاطراف المعنية ، في وقت تطورت فيه فلسطين من الناحية العسكرية لصالح الصهيونية التى (أصبحت دولة شبه عسكرية أو دولة بوليس) ، أرادتها بريطانيا كذلك ، بدليل ان المفوض السامي البريطاني قد سارع الى القول : (قررت الحكومة البريطانية الآن لأسباب قوية وجـــوب السماح باستمرار الهجرة بصفة مؤقتة بالمعدل المقترح وهو الف وخمسمائة مهاجر شهرياً) . وفي بلتمور بالولايات المتحدة الاميركية ، عقـــد الصهاينة عام ١٩٤٢ مؤتمراً صهيونياً اميركياً ، قرروا فيه التوصيات التالية :

١ — التعجيل في قيام دولة يهودية كجزء من العالم الديموقراطي الجديد .

٢ — رفض الكتاب الابيـــض الصادر عام ١٩٣٩ الذي يطـالب بتحجيم الهجرة الصهيونية .

٣ — السماح بحرية الهجرة اليهودية .

٤ — السماح للوكالة اليهودية في السيطرة على الاستيطان .

٥ — انشاء جيش يهودي له رايته الخاصة والاعـتراف به ويسمح بالمشاركة بالحرب الى جانب جيوش الحلفاء . والغرض من المطلب الاخير هو اظهار الصهيونية كأحد الأطراف المتحالفة ضد هتلر من جهة يمكن الافادة منها في الاتفاقات الدولية والدعاية للصهيونية . ولاستخدام هذا الجيش المدرب ضد العرب من جهة أخرى إذا ما سمحت الظروف .

وفرض على اليهودي الامريكي دفع ضريبة مقدارها ٢٥٠ مئتين وخمسين دولاراً امريكياً عندما يعتذر عن الهجرة الى فلسطين ومع هذا كانت نسبة المهـاجرين من اليهود الاميركيين ضئيلة بسبب قدرتهم على دفع الضريبة والتبرعات نتيجـة اشتراكهم مع الامبريالية الاميركية في نهب ثروات الشعوب ومنها طبعاً الشعوب العربية .

وبالرغم من الاجراءات الامبريالية الصهيونية المتخذة ضد العرب ، كان عدد سكان فلسطين عام ١٩٤٧ وفق الاحصاءات الانكليزية ، قد وصل الى (١٫٩٣٣٫٦٧٣) نســـمة منهم ٣١٪ من اليهود فقط نظـراً لعدم قيـــام اليهود العرب بالهجرة الى فلسطين وذلك لاقتناعهم بانتمائهم العربي من جهة ولعدم وجود تمايز طائفي يستحق الذكر من ناحية أخرى . وعلى هذا الأساس كان اليهود الغربيون يشكلون ٩٠٪ من مجموع سكان يهود فلسطين حتى ١٩٤٧ .

المراجع

اسم الكتاب	اسم المؤلف أو المترجم	
١ ـ الهجرة اليهودية الى فلسطين	الياس سعد	
٢ ـ تاريخ فلسطين	لوران غاسبار	
٣ ـ ضد إسرائيل	بيير ديميرون	
٤ ـ الخطر اليهودي	محمد التونسي	
٥ ـ محاضرات في التوجيه القومي	ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي للجيش السوري	
٦ ـ مع الكلمة الصافية	قاسم الشواف	
٧ ـ الصهيونية في المجال الدولي	محمد عبد المعز نصر	
٨ ـ هي هي الصهيونية	لجنة الثقافة والنشر بهيئة التحرير بالقاهرة	
٩ ـ خنجر إسرائيل	علي كنعان	ـ ترجمة ـ
١٠ ـ الصهيونية العالمية	عباس محمود العقاد	
١١ ـ دراسات يسارية	جلال صادق العظم	
١٢ ـ إسرائيل بنت بريطانيا البكر	محمد الزعبي	
١٣ ـ مفارق الطرق الى إسرائيل	خيري حماد	ـ ترجمة ـ
١٤ ـ الصهيونية العالمية وخطرها الكبير على البشرية	سليمان حاتم	
١٥ ـ إسرائيل والشرق الأوسط	علي محمد علي	
١٦ ـ القضية الفلسطينية	اكرم زعيتر	
١٧ ـ قضية فلسطين	أحمد طربين	
١٨ ـ التمييز ضد اليهود الشرقيين في إسرائيل	هيلدا شعبان صائغ	
١٩ ـ الحكم غيابياً	خالد قسطيني	
٢٠ ـ في الادب الصهيوني	غسان كنفاني	
٢١ ـ الضعف والسلام	ابراهيم العابد	
٢٢ ـ التحدي الصهيوني	جاك دومال	
٢٣ ـ الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار	فتحي الرحلي	

٢٤ — المذهب العسكري الاسرائيلي — هيثم الكيلاني
٢٥ — إسرائيل واقع استعماري — مكسيم رودنسون
٢٦ — دولة إسرائيل — جالينا نيكيتينا
٢٧ — عاجلاً أو آجلاً ستزول إسرائيل — ١٥ كاتباً فرنسياً
٢٨ — المسألة اليهودية — كارل ماركس
٢٩ — فلسطين مسألة ماثلة — نادي كتاب الساعة بالهند
٣٠ — فلسطين جريمة ودفاع — ارنولد توينبي
٣١ — احذروا الصهيونية — يوري ايفانوف
٣٢ — تاريخ الاقطار العربية المعاصرة — نخبة من المؤلفين السوفييت ـ دار التقدم ـ موسكو
٣٣ — سلسلة شؤون فلسطينية حتى العدد ٥ — منظمة التحرير الفلسطينية
٣٤ — مجلة المعرفة ـ عدد خاص ـ — وزارة الثقافة السورية

في متاهات الفكر الصهيوني

بقلم الياس مقدسي

فكر اليهود بعد أن دمر الملك الكلداني نبو خذ نصر مملكتهم عام ٥٨٦ ق.م اقامة دولة جديدة فثار (زور بابل) أحد زعمائهم عام ٥٢٢ ق. م مستفيداً من دورة الفوضى القصيرة التي مرت بها الامبراطورية الفارسية والتي تقع مابين وفاة قمبيز وتولي داريوس الحكم ، ولكن سرعان ماتبخرت أحلامهم كما اخفقت فيما بعد جميع المحاولات التي بذلوها في اجتذاب اليهود للاقامة بأرض الميعاد المزعومة فلم يستجب لنداء (عذرا) أحد زعمائهم عام ٤٥٨ ق.م سوى عدد قليل وعدد أقل لنداء (نحميا) عام ٣٨٤ ق.م .

ومنذ ذلك الحين كان هدف اليهود الحفاظ على وجودهم ومقاومة مغريات الحضارات التي يعيشون بينها خشية أن ينجرفوا في تيار الاندماج[1] لذا عاشوا في أوربا بشكل خاص منغلقين على أنفسهم ضمن دائرة الجيتو / وهي الحارات اليهودية الانعزالية . / ويبدو أنه نتيجة لطبيعة البناء الفوقي الذي كان قائماً في الجيتو والذي كان يؤكد لليهود باستمرار أنهم المتفوقون المختارون فقد انجذب كثير من شبابهم للافكار العنصرية السائدة في أوروبا كفلسفة / نيتشة / فتأثروا بها ورأوا « أن اليهودية قد ابتعدت عن جوهرها منذ عصر الأنبياء وحتى الوقت الحاضر لأنها أعلت من شأن المجردات وأهملت القوة الجسدية وفضلت الكتاب على السيف والظل على الحياة ، وتحول اليهود إلى شيء ملتصق بالقانون المجرد ليس له إرادة مستقلة »

هذا وقد طالب هؤلاء الشباب وعلى رأسهم الفيلسوف الصهيوني / آحاد هعام / بضرورة اطلاق العنان للروح اليهودية ، كما رأوا أن اليهودي يعلو فوق التاريخ ويجسد كلمة الرب ويصلب من أجلها .

---

١ — مشكلة اليهود العالمية : دراسة تحليلية لآراء المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي تأليف فؤاد محمد شبل ص ١٣

والواقع إذا كان تأثر الوجـدان اليهودي بالافـكار المنصرية قد جاء فتأخراً فان الدول الاستعمارية في أوروبا قد تبنت قضية توطين اليهود خارج القارة الأوربية منذ منتصـــف القرن السابع عشر . ففي عام ١٦٥٤ كانت فرنسا ترغب في توطينهم في كينيا ، وفي عام ١٧٩٩ حاول نابليون توطينهم في فلسطين ولـكن المحاولة باءت بالفشل إثر هزيمته على أسوار عكا .

وأما بريطانية فقد اهتمت بتوطينهم في فلسطين وقد أشار إلى ذلك (ايفانوف) في كتابه / احذروا الصهيونية / . كما ذكرت صحيفة التايمز في عددها الصادر بتاريخ ١٧ آب ١٨٤٠ :

« إن الاقتراح القائل بتهجير اليهود الى بلاد آبائهم ليسكنوها لم يعد مسألة جديرة بالبحث وحسب بل هو موضوع قائم فعلاً ويتطلب دراسة جدية . . . »

وفي المانيـا كان بسمارك يفكر باستغلال هذه الفكرة ولكن بتهجير اليهود إلى البقعة الممتدة على طول خط سكة حديد برلين — بغداد .

وهـكذا يتضح أن الدول الاستعماريه هي التي ابتكرت فكرة خلق الدولة اليهودية في الشرق العربي وانها كانت تدفع اليهود إلى قبول هذه الفكرة والترحيب بها .

وهنا يجب أن لاننسى دور الرأسمالية اليهودية التي كانت تملك زمام السيطرة المالية في كل من انكلترا وفرنسا وتتمتع باوضاع ممتازة في المانيـا والنمسا كما كانت تقود التيار السياسي بزعامة أسرة روتشيلد . لقد كان روتشيلد من ألد أعداء ثورة باريس عام ١٨٤٨ تلك الثورة التي دقت ناقوس الخطر للرأسمالية اليهودية وحولت فكـرة استطيـان اليهود في فلسطين من غرض استعماري مجرد إلى فكرة عنصرية تستهدف إبقاء يهود العالم في قبضة التحالف اليهودي العالمي المكوّن من كبار الرأسماليين اليهود .

وكان على الرأسمالية اليهودية أن تتحرك ، وتذكرت أن هناك رقعة من الأرض في هذا العالم ينظر اليها اليهود أنها مقدسة وتستطيع توجيههم نحوها بدعوى الاحسان وتخليصهم من الاضطهاد . وهـكذا تحول اهتمامهم في اتجاه عنصري استعماري لتقضي على ظاهرة اندماجهم في المجتمعات البورجوازية .

إذن التقت المصالح الاستعمارية المتعددة مع الرأسمالية اليهودية حول هدف واحد وهو « توطين اليهود في فلسطين » ولـكن ذلك الهـدف لم يثر فضول اليهود ويحول أنظارهم بشكل جماعي الى فلسطين . وكان لابد من ولادة الحركة الصهيونيـة لتحيل

الفكرة الاستعمارية إلى عقيدة سياسية . وفي اواخر القرن التاسع عشر جاءت الحركة الصهيونية كتعبير عن الذات القوميـة الوهمية . ولكن هذه الحركة ليست فكراً أو مذهباً أو عقيدة سياسية وإنما هي تشويه متعمد للمفهوم الانساني ، وهي تدعو لالغاء العقل والوعي والارادة الانسانية عن طريق الارتماء في أحضان المطلق ، والمطلق بطبيعته شامل وعالي يتخطى الزمان والمكان حيث أن كل مايجري في الطبيعة وحياة البشر بارادة الاله / يهوه / ونتيجة لهذا الارتماء العفوي في احضان المطلق فقـــد أصبح اليهود أمة مقدسة طُبعتْ جميعُ طقوسهم وكتبهم الدينية بطابع قومي عميق ، كما أصبحت فكرة الأمة المقدسة هي إحدى أسس الفكر الصهيوني الذي يري أن اليهودية ضرب من ضروب الفلكلور الشعبي الذي يستحق الاحياء بل والتقديس ويتبنى هـــذا الرأي الحاخام / صموئيل حاييم لاندو / وعدد من المفكرين الصهاينة أمثال (نحمن سيركين) .

يؤمن لاندو بالأمة اليهودية المقدسة ويُشيرُ في لغة صريحة إلى « أن الاقامة في الأراضي المقدسة هي أحد الأوامر الدينية اليهودية » .

وبذا تكون القومية هي القيمة الاساسية والمطلق الأول بالنسبة للشعب اليهودي ، كما تعتبر الأرض مطلقاً ثانيـاً لابد من توفره لأن القبس الالهي لايؤثر في الشعب اليهودي إلا وهو على أرضه (١) ثم يُشير لاندو إلى العمل ويعتبره مطلقاً ثالثاً ولكن تقديس العمل عندة لاينبع من احـترامه للعمل الانساني كوسيلة للتغلب على الطبيعة ولا هـــو محاولة لتحقيق فكرة الانسان المتـكامل الذي يفكر بعقله وقلبه ويده بل يتنبُع من إيمانه بأن العمل اليـدوي ي أرض الميعاد عامٌ لاعادة خلق الانسان اليهودي والوجود القومي .

العمل إذن ليس نشاطاً ثقافياً ولا سياسياً ولا حتى أخلاقياً لأن مثل هذه المفاهيم لاتشمل الحياة الازلية التي هى صفة الشعب .

وبشكل عام يمكن القول إن الحركة الصهيونية لم تقابل بالترحاب من قبل اليهود فحينما عرض هرتزل كتابه / الدولة اليهودية / على حاخام فيينا استنكر فكرة الوطن القومي اليهودي ، وحينما حاول عقد المؤتمر الصهيوني الأول في ميونخ احتج

---

١ ـــ الفكرة الصهيونية : النصوص الأساسية . إشراف الدكتور أنيس صايغ
بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية مركز الأبحاث ١٩٧٠

أعضاء الأقلية اليهودية هناك مما اضطر الحركة الصهيونية في أن تتخذ من بال مركزاً لها . إلا أن الرفض اليهودي للصهيونية يختلف في درجاته ومنطلقاته .

ولعل أكثر اتجاهات الرفض ثورية هو الاتجـــاه العلماني الاندماجي الذي يرى أصحابه « أن الصهيونية ليست إلا تعبيراً عن عقلية الجيتو في خلطهـــا بـين الدين والقومية وأنها لاتعبر عن المستقبل وإنما هي رواسب من الماضي .. »

كما يرى أصحاب هذا الاتجاه أيضاً :

« أن اليهود ليس لهم تاريخ مستقل وإنما يشاركون في تاريخ الشـــعوب التي يعيشون بينها ، فتاريخهم فرنسي في فرنسا وانكليزي في انكلترا ، واللغة التي يجب أن يتحدثوا بها هي لغة الوطن الذي يعيشون فيه » وقد رفع هؤلاء الصيغة الاندماجيـة القـائلة :

« كن يهودياً في منزلك مواطناً خارجه »

والى جانب هذا الرفض العلماني هناك رفض آخر للصهيونيـة بخصوص تداخل الانتماء الديني والقومي عند اليهود ، يتمثل في موقف « صهيونية الدياسبورا » أوصهيونية المنفى وهي مدرسة تحاول أن تربط مابين الرؤية الصهيونية المطلقة وواقع الأقليـات اليهودية في الغرب . ومن اتباع هذه المدرسة الحاخام « سلفر ١٨٦٣ — ١٩٦٣ » الذي يرى أن المنفى ليس مصدر بلاء خالص بل هو حقيقة ينبغي الترحيب بها .

ويرى أيضاً « أن اليهود الامريكيين ليس لديهم مايدفعهم للعودة الى أرض الميعاد فظروفهم طيبة للغاية ، كما أنهم ليسوا ضحية للاضطهاد العنصري الذي ينصب أسـاساً على الزنوج ... »

لكن موقف الصهيونية التقليدي من يهود المنفى يتسم بالرفض التام لأنها تؤمن بان كل الجهود المبذولة للحفاظ على الكيان اليهودي في المنفى هي في الواقع عمل قسري لحفظ وجود غير طبيعي ولأن حياة المنفى ليست جديرة بالبقاء كغاية في حد ذاتهـا وقد عبر المفكر الصهيوني « جوردن » عن هذه الافكار بقوله :

« هدفنا أن تصبح فلسطين الوطن الأم ليهود العالم وأن تكون الجاليات اليهودية في الشتات مستعمرات لها وليس العكس ... »

ومن أجل تحقيق هذا الهدف عقد زعماء اليهود ثلاثة وعشـــرين مؤتمراً كان الأول في « بال » بسويسرا عام ١٨٩٧ وقد تدارس المؤتمرون الخطط الـتي تؤدي الى

تأسيس مملكة صهيون المالية واحيطت قراراتهم بأشد أنواع التحفظ والكتمان ومن هذه القرارات :

١ — يجب أن يكون شعارنا كل وسائل العنف والخديعة ويتحتم علينا ألا نتردد في أعمال الرشوة والخيانة إذا كانت تخدمنا في تحقيق غايتنا .

٢ — يجب علينا أن نصادر الأملاك بلا أدنى تردد إذا كان هذا العمل يمكننا من السيادة والقوة .

٣ — إن حكومتنا ستشبه الاله الهندي / فشنو / وكل يد من أيديها المائة ستقبض على لولب في الجهاز الاجتماعي للدولة (١) .

لقد كان تيودور هرتزل رئيس المؤتمرات الست الأولى يتحرك من مكان الى آخر حاملاً في عقله آلاف الأساطير اليهودية خاصة اسطورة العودة واسطورة الامة المرتبطة بالأرض رغم شتات آلاف السنين ، وكان يقول « شعارنا هو فلسطين داوود وسليمان » ولكنه عملياً كان يطالب بالأرض العربية « من الفرات الى النيل » .

إن هرتزل مثل كل صهيوني يعتقد أن له علاقة ميتافيزيقية بارض الميعاد يحملها في قلبه اينما سار ولهذا فهو دائم الحنين الى العودة ، وبسبب مثاليته الفلسفية المفرطة وايمانه العميق بالأساطير فانه يرفض دراسة الواقع التاريخي في فلسطين ويبحث عن وسيلة يتخلص بها من العرب أصحاب البلاد ويفرغ بواسطتها أرض الميعاد وتفريغ أرض الميعاد لايتم على حد تعبيره إلا عن طريق العنف لذا يشير في مذكراته الى ضرورة تدريب الشباب في الدولة المزمع تأسيسها ليكونوا جيشاً محترفاً كما يجب تدريب الباقين ليكونوا قادرين على الخدمة كمتطوعين إذا لزم الأمر .

« والتدريب يجب أن يكون عن طريق الأناشيد والدين والمسرحيات البطولية والتكريم » .

هذا الاحساس المعادي للتاريخ يظهر عند هرتزل على هيئة جمود ادراكي حاد فهو لايؤمن بحركة التاريخ ولا بقدرة الانسان العربي على الاحتفاظ بارضه بل يؤمن أن الارادة الصهيونية قادرة على انتزاع الأرض من أصحابها .

هذا الجمود الادراكي الذي خدر ضمير هرتزل في مطلع القرن العشرين هو ذاته الذي لعب دوراً خطيراً في حرب تشرين عام ١٩٧٣ .

---

١ — بروتوكولات حكماء صهيون ١-٢-٣ ص ١٨٨

فلقد كان عند الاسرائيليين من الدلالات مايؤكد أن العرب يستعدون للحرب ولكن الدلالات بقيت معلومات مبعثرة لاينتظمها أي اطار وليس لها اتجاه محدد لأن الاطار والاتجاه لايمكن أن يدركها الا من يقرأ التاريخ ويفهم حركته والاسرائيليون بطبيعتهم لايؤمنون اطلاقاً بحركة التاريخ لأنهم لوفعلوا لآمنوا بحتمية استيقاظ العرب وهو استيقاظ سيؤدي الى سقوط واختفاء الكيان الصهيوني المزروع ميكانيكياً في المنطقة :

والآن بما أننا نتعرض لمتاهات الفكر الصهيوني يجدو بنا أن نلقي الضوء على حركة الكنعانيين وعلى موقف أوري افنيري من الصهيونية وهما حركتان ترفضان بعض مثل وأفكار الصهيونية ولكن هناك قاعدة مشتركة تربط بينها وبين الصهيونية .

أولا — حركة الكنعانيين

وهي حركة سياسية — ثقافية ذات نظرة خاصة للتاريخ اليهودي وقد بدأت نشاطها في الأربعينات في فلسطين . وتصدر هذه الحركة عن اسطورة مفادها أنه عندما عاد اليهود من مصر الى أرض كنعان فانهم لم يجدوا فيها قبائل معادية لهم ، بل وجدوا شعباً ينطق بالعبرية ويشبههم في الملامح والخصائص البدنية .

وبهذا لم يكن خروج اليهود من مصر وذهابهم الى أرض كنعان غزواً وانما كان مجرد عودة لأن اليهود والعبرانيين ليسوا سوى كنعانيين .

هذه الاسطورة تختلف عن الاسطورة الصهيونية في بعض خطوطها حيث تجعل ارتباط اليهودي أو العبراني بالأرض ارتباطاً حقيقياً وتعمق من أهمية الأرض كما أنها تلغي اسطورة الشعب المختار والعودة الى أرض الميعاد ، وترى أن اليهود أمة فقط على عكس ماتراه الصهيونية أن الشعب اليهودي أمة وجماعة دينية .

ولكن رغم هذه الاختلافات فان حركة الكنعانيين تشارك الصهيونية في بعض السمات فهي ترفض الواقع التاريخي وتنادي بتحرير اليهودي من دور المتفرج ازاء التاريخ . وفيما يتعلق بموقفها من العرب في فلسطين فانها ترفض وجودهم وتنظر اليهم بانهم أقلية دينية يمكنها أن تدخل الحياة الاسرائيلية شريطة أن تحافظ على طابعها كجماعة دينية مميزة ، وفي عام ١٩٦٩ نشرت اعلاناً في احدى الصحف الاسرائيلية طالبت فيه بتجنيد العرب في الجيش الاسرائيلي وتعليمهم اللغة العبرية كما نادت بضرورة الاحتفاظ بالأراضي العربية المحتلة وتصعيد الهجرة اليهودية وزيادة نسبة المواليد .

والواقع يمكن القول إن هذه الحركة ليست حركة شعبية وانما حركة غرضها تشويه الوجود العربي في فلسطين وهي تعبر عن فشل الفكر الصهيوني بعد احتكاكه بالواقع التاريخي كما تعبر عن عجز بعض قطاعات المجتمع الاسرائيلي عن التأقلم مع هذا الواقع . انها حركة تتعمد انكار حق الانسان العربي الفلسطيني في أرضه عن طريق التهويم أن العرب أقلية دينية من جهة وعن طريق ربط وجود اليهود العبرانيين تاريخياً بالكنعانيين العرب أصحاب البلاد من جهة أخرى .

ثانياً - موقف اوري افنيري من الصهيونية

يرى افنيري أن الصهيونية والحملات الصليبية لها سمات مشتركة عديدة فالدفعة العاطفية وراءهما لم تكن سياسة محضة بل كانت خليطاً عجيباً من الدوافع العملية والصوفية فقد كان الصليبيون يتحدثون عن إرادة الله التي ارسلتهم لبيت المقدس ، وكان الصهاينة يتحدثون عن العودة الى أرض الميعاد لتشييد مملكة الرب

هذا وقد رسم افنيري أوجه التشابه بين الغزو الصهيوني والحروب الصليبية بما يلي

١ - هرتزل = البابا أربان الثاني [1]

٢ - المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ = مؤتمر كليرمونت عام ١٠٩٥

٣ - الارتباط بين اليهودية العالمية واسرائيل = الارتباط بين اوربا ومملكة الصليبيين

٤ - اعتماد اسرائيل على التمويل اليهودي العالمي = اعتماد الصليبيين على تدفق المال من أوربا .

إلا أنه رغم هذا التشابه فان أفنيري يصر على اختلاف التجربة ، لأن الصليبيين كانوا أقلية وكان بامكانهم أن يعودوا إلى بلادهم أما الاسرائيليون فلا ، ولذا فانه هاجم اسحق رابين عندما قال في الذكرى السبعين للمؤتمر الصهيوني الأول : « إن اسرائيل هي مملكة الصليبيين الجديدة » لأن في ذلك اضعافاً لارادة اليهود الذين علموا كيف انتهت مملكة الصليبيين على أيدي العرب .

ويرى أفنيري أيضاً أن الدولة الصهيونية محاصرة عسكرياً لأنها وريثة التناقضات

---

١ - المرتكزات النفسية للفكرة الصهيونية ص / ٤٦ / تأليف عبد الرحمن غنيم

الصهيونية ولا تحاول أن تتخطاها . فالصهاينة الجدد قد تجاهلوا الوجود الفلسطيني أحياناً عن وعي وأحياناً أخرى عن غير وعي ، ورفضوا الاعتراف بأن أرض فلسطين كان يقطنها العرب منذ آلاف السنين .

وبينما يرى الصهاينة أن صلة صوفية مطلقة تربط بين اليهودي وأرض الميعاد وأن هذه الصلة كفيلة بتغيير الذات اليهودية والتركيب النفسي اليهودي يرى أفنيري على على العكس من هذا ان النفس البشرية ليست نتاج تفاعل ميكانيكي بينها وبين الواقع بل هي كُلٌّ مركب ينمو ببطء ، وعلى مر الزمن من خلال معايشة واقع تاريخي محسوس

ومنطلقاً من هذا التصور يبين أفنيري أن المشكلة الرئيسية لاسرائيل أنها دولة لاتزال تدور في عالم الاحلام والمطلقات دون أن تعايش واقعها التاريخي والاجتماعي معايشة حقيقية بل تسيطر عليها الذهنية الجيتوية حتى بعد أن ماتت أنماط التفكير والواقع الذي أدى إلى ظهورها ، وهذا مايفسر انقسام الشخصية الاسرائيلية على نفسها فهي تعيش عالمين مختلفين :

أحدهما له أساس موضوعي « الواقع الاسرائيلي » والآخر هو من مخلفات الماضي لم يعد له وجود « الجيتو » .

ويتضح الخلاف بين رؤية الصهاينة الصوفية ورؤية افنيري النسبية في حديثهم عن بطولة الشخصية اليهودية (١) ، فبينما يُصر الصهاينة على أن اليهود أبطال وضحايا وليسوا بشراً عاديين ، يرفض افنيري حتمية الاستشهاد الصهيونية ويرفض أيضاً أن يكون اليهود مثل أبطال المآسي اليونانية الذين حكمت عليهم الآلهة بمصير محتوم ، كما يعرض في مقاله عن الشخصية الاسرائيلية صورة طريفة لستة مغنين يرقصون ويتقاذفون الكرة الأرضية بأرجلهم / ابطال خارج التاريخ / ولكنهم في الوقت ذاته يغنون في مرح الأغنية الشعبية الاسرائيلية « العالم كله ضدنا ولكن لايهمنا » والحل عند افنيري هو أن يدخل الاسرائيلي الكرة الأرضية كأي إنسان آخر وأن يبتعد عن المطلقات ويجني ثمار واقعه الجغرافي والسياسي والاجتماعي وأن يرفض الرؤية الصهيونية التي تقسم العالم إلى الاعداء « العرب » والمنهزمين « اليهود خارج اسرائيل » والصفوة المختارة « الصهاينة المحاربون » .

---

١ ـ الفكر الصهيوني المعاصر بيروت : مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٨

وأخيراً يمكن القول إن الفكر الصهيوني في حالة صراع دائم مع ذاته ، وإذا كان قد اهتدى إلى اقامـة الدولة الاسرائيلية في فلسطين عام ١٩٤٨ . إلا أن هذه الدولة قامت على التضليل والاغراء وتشويه التـاريخ ، وهي لاتملك مقوماً واحداً من مقومات الأمة ، وهذا ماجعلها تتحول إلى واقع مليء بالمشاكل والمتاعب ، ذلك أن مجيء اليهود إلى فلسطين من دول كثيرة ليسكنوا في بلد ، هم غريبون عنه بقدر ماهو غريب عنهم وليقيموا فيه بالقوة والعنف مجتمعاً واحداً ، لم يكن بالأمر السهل الذي حلم أوائل الصهاينه بتخطي صعوباته [1] فما أن قامت دولة اسرائيل حتى قامت معها عشرات المشاكل والصعوبات السياسية والاجتماعية التي هزت كيانها المصطنع وما تزال تعبث به إلى أن يزول .

يقول عالم الأجناس البريطاني الدكتور / فانتون / الذي زار اسرائيل عام ١٩٦٦ « إن اسرائيل مجتمع في طريقه إلى التمزق » .

وإضافة إلى ذلك فان الارهاب الصهيوني في فلسطين المحتلة يعتبر فصلاً أسود في التاريخ الانساني ، فـكما أن عدداً كبيراً من الناس أصبحوا وحوشاً بشرية بفعل المرقية النازية وتلطخت أسماؤهم بألوان من الفظائع البربرية فان الاسـرائيليين قد انقلبوا بفعل المرقية الصهيونيه إلى وحوش إرهابيين تملأ أعمـالهم القلب الانساني بالأسى والاستنكار مما دعا « جـيرمان ديون » [2] إلى القول : « إن لعنة القسوة والوحشية ستصل الى اليهود الصهـاينة ولن يفلتوا من أيدي القدر ... »

انتهى البحث

---

١ ـ التمييز ضد اليهود الشرقيين في اسرائيل تأليف / هيلدا شعبان الصايغ / .
٢ ـ الارهاب الصهيوني : تأليف / فرانتز شايدل / ص ٤٨ .

الوثائقية التاريخية في صحيح البخاري

بقلم الاستاذ عبد الرزاق الاصفر

لقد أصبح التاريخ اليوم علم الحقائق لاعلم الروايات ، وأخذ المؤرخ بمنهج البحث التاريخي الذي يعتمد على النصوص الوثائقية ومحاكمتها والبحث عن حيثياتها ومصادرها وتقدير قيمتها التاريخية بمقارنتها مع غيرها من النصوص ، ومن ثم استنتاج الحقائق التاريخية منها وربط هذه الحقائق بعضها ببعض ضمن السياق التاريخي العام . ومن هنا أصبح التاريخ يعتمد على الحفريات والنقوش والوثائق والمخطوطات والنقود واللقى وعلى الاجهزة العلمية التي تساعد على البحث والكشف عن الاعمار الزمنيّة ، وذلك حتى تكون أحكامه أقرب ماتكون إلى الحقيقة وأبعد ماتكون عن التخمين والظنّ والرجم بالغيب .

وحين ننظر إلى كتبنا التاريخية نجد أنها بحاجة إلى إعادة التمحيص . وهـذا ماعبر عنه الكثيرون باعادة كتابة التاريخ ، وذلك لما يتسرب الى معلوماتها من الشك بسبب ما يعتورها من التأرجح والتخبط والتناقض والمبالغة والتعصّب في كثير من الأحيان . وهنا تبرز أهمية النصوص الأكيدة التحقيق كالقرآن الكريم أو العالية التحقيق كالأحاديث الصحيحة .

ولئن كان القرآن النصّ الذي لايأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه فأتي بعده في الصحّة الأحاديث الشريفة الصحيحة . ومن حظ التاريخ العربي والاسلامي أن الحديث خضع إلى منهج مبكر في التدقيق والتحقيق والتحري من قبل علماء الحديث وجامعيه ، وكانت الغاية في أول الأمر دينيّة محضاً بسبب حرصهم على السنّة التي تكمّل القرآن الكريم شرحاً وتوضيحاً وتفصل ما أجمل فيه وتروي سيرة النبيّ وأفعاله وهي بالنسبة للمسلمين واجبة الاقتداء ولاسيما في الأمور التعبدية والعقدية وفي المعاملات والأخلاق والآداب لقوله تعالى :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وقوله : « ولكم في رسول الله أسوة حسنة » .

وليس هنا مجال البحث عن القيمة الدينية للأحاديث ، بل مجال البحث عن قيمتها التاريخية .

ولنتحدث مباشرة عن أول كتبها وأعظمها ألا وهو الجامع الصحيح للامام البخاري . ولا بد قبل ذلك من لمحة موجزة عن صاحبه . فالامام محمد البخاري من الموالي الفرس ، ولد في بخارى عام ١٩٤ هـ . وكان أبوه محدثا . وقد نشأ البخاري يتيماً وورث عن والده مالاً ساعده في رحلاته العلمية فيما بعد . وكان على جانب كبير من الذكاء والورع والأمانة والصدق . وحفظ وهو في العاشرة كتب وكيع وابن المبارك . وكانت أولى رحلاته إلى الحجاز وهو في السادسة عشرة حيث تخلف ليجمع الأحاديث من مكة والمدينة ثم غادرها إلى بلخ فمرو فنيسابور فالري فبغداد فالكوفة فالبصرة وواسط ثم ذهب الى الشام فزار دمشق وحمص وقيسارية وعسقلان ثم غادر الشام إلى مصر ثم عاد الى وطنه بعد هذه الرحلة الطويلة التي دامت ستة عشر عاماً قضاها في البحث عن علماء الحديث ورواته وحفاظه ولقي فيها من التعب والمشقة مالم يلقه أحد من العلماء. كل ذلك في سبيل العلم . وتوفي البخاري في عام ٢٥٦ هـ وله عدا الجامع الصحيح مؤلفات كثيرة منها التاريخ الكبير والتاريخ الأوسط والتاريخ الصغير وكان يسلك في تحقيق أخباره التاريخية مسلكه في تحقيق روايات الحديث وله مؤلفات في الفقه والسنن جليلة القدر .

والذي حمل البخاري على تأليف كتابه مارآه ، في عصره ، من كثرة رواية الحديث ومن الشكوك التي تكتنف الأحاديث بسبب العصبية القبلية أو الاتجاهات السياسية والنزاع بين الشعوبية والعروبية والمنازعات الكلامية ، ورغبة بعض ضعاف النفوس التقرب من الخلفاء والأمراء ، وما أدخله الوعاظ من أحاديث الترغيب والترهيب وما اخترعه القصاصون من الروايات المختلفة لجذب الناس ، أو من الأساطير والخرافات الاسرائيلية وسواها . . .

كل ذلك أدى بأصحاب النظر إلى التردد في قبول الحديث وجعل من الصعب الوثوق بصحة أي حديث يسمعونه مما أدى إلى وجود فراغ في الدين وبحوثه التي كانت على أوجها في النصف الأول من القرن الثالث الهجري . ولذلك قرر الامام البخاري الخروج إلى الناس بكتاب يجمع الأحاديث الصحيحة المعتمد عليها ، فكان أن ألف هذا الكتاب بعد أن اختار أحاديثه من مئات الآلاف من الأحاديث التي جمعها وحفظها وأعمل في متونها واسانيدها مبضع الفاحص المدقق .

يبلغ عدد أحاديث الجامع الصحيح ٩٠٨٢ حديثاً وهي كل ما أورده البخاري،فاذا حذفنا من هذا العدد الأحاديث المكرورة التي تدخل في أكثر من باب وعددها ٤٥١٣ حديثاً ثم أسقطنا الأحاديث المتابعة وهي الأحاديث التي تعاد روايتها من طريق اسنادي آخر وعددها ٥٦٦ حديثاً ثم حذفنا بعد ذلك الأحاديث المعلّقة وهي التي رويت فقط عن الصحابي الأول الراوي عن رسول الله كأن يقال: عن عمر رضي الله عنه .. أو التي سقط من اسنادها أحد الرواة وعددها ١٣٤١ حديثاً . . أقول إذا أسقطنا هذه الأحاديث بقي لدينا ٢٧٦٢ حديثاً هي زبدة كتاب البخاري التي اختارها خلال عشرين عاماً من بين مئات آلاف الأحاديث . وهذا يصور لنا مدى دقته وحرصه على اتقان عمله .

وقد نهج البخاري في تأليف كتابه منهجاً خاصاً . فجعل منه كتاب فقه علاوة على كونه جامع أحاديث ، ولذا رتبه وبوّبه حسب أبواب الفقه . وكان يأتي بجميع الأحاديث التي تتعلق بباب معيّن ، ثم يأتي بالآيات القرآنية التي تتعلق بالموضوع نفسه ثم يوفق بين الأحاديث والآيات ويستخرج الأحكام ، ويعطي رأيه ، وهذا مادعاه المحدثون بترجمة الأحاديث . ذكر البخاري أولاً كتاب الصلاة فالزكاة فالصيام فالحج والبيوع والمعاملات والمرافعات والشهادات والوصية والوقف والجهاد ، وكل هذه الأبواب فقهية ، ثم أورد كتباً غير فقهية تتعلق بالعقائد كبدء الخلق والجنة والنار ، ثم أورد تراجم الأنبياء وفضائل الصحابة والمهاجرين والأنصار والسيرة النبوية والمغازي وتفسير بعض الآيات ، ثم عاد إلى الفقه فذكر الطلاق والزواج والأطعمة والأشربة والآداب والاستئذان وصلة الرحم والحدود والنذور والاكراه وتعبير الرؤيا والفتن وأحكام الاجتهاد والوصية وغيرها . . . وقد بلغ مجموع هذه الكتب سبعة وتسعين كتاباً .

وكان كل كتاب يحتوي على أبواب وفصول بلغ عددها ٣٤٥٠ باباً وفصلاً . منها مايطول ومنها مايقصر حتى ليرد فيه الحديث الواحد ومنها ماهو أبيض لايحوي شيئاً . وكثيراً مانجد فيه عناوين ولا نجد تحتها شيئاً من الأحاديث أو نجد أحاديث بدون عنوان ضمها الشارحون إلى أحد الأبواب . ويظهر أن البخاري توفي قبل أن يتم كتابه أو أتمه بشكل مسودة نظمها الشارحون فيما بعد .

وإذا كان لهذا الترتيب فضائله الفقهية فقد اضطره إلى أن يقطع بعض الأحاديث ليوزعها بين بابين إذا كانت متعلقة بموضوعين مختلفين . فكثيراً مانرى مثلاً شطر

الحديث في باب الصلاة وشطره الآخر في باب البيع . ويصعب الجمع بين الشطرين لولا وحدة السند .

شروط البخاري : إذا تحدثنا عن شروط البخاري في قبول الحديث فهذا لايعني أنه وضع شروطاً مسبقة قبل أن يشرع في جمع الأحاديث أوقبل أن يبدأ تأليف كتابه . ولكن هذه الشروط التي سنذكرها إنما استنتجت من قراءة الكتاب وتتبع الأحاديث والتأمل في آرائه حول المتون والأسانيد وما فيها من قوة أو ضعف . فوجد كأنما يسير على منهج مرسوم وقواعد منظمة وشروط معينة . إلا أن هذه الشروط لاتضطرد بل يعترضها بعض الشذوذ الذي لايمنع من اطلاق القاعدة . وعلى كل حال فهذ الشروط ليست من نصه بل من استنتاج الدارسين . وهي على قسمين :

(الأول) شروط السند والسند عنده شرط واحد وهو أن يكون متصلاً من رواة الحديث حتى النبي عليه السلام أي ذكر كل رواته واحداً عن آخر بلفظ السماع أو التحديث كأن يقول الراوي : سمعت فلاناً يقول أو حدثني فلان عن فلان... الخ وكلها تعني الأخذ الصريح المباشر . وخلاف السند المتصل السند المنقطع وقد ذكرناه في مطلع هذا البحث . ورواية البخاري للمنقطعات قليلة .

(الثاني) شروط الرواة : وهي سبعة شروط :

١ ــ أن يكون الراوي مسلماً . فلا تقبل رواية الكافر أو الذميّ .

٢ ــ أن يكون عدْلاً مشهوداً بعدالته .

٣ ــ أن يكون صادقاً فلا تقبل شهادة الكاذب ولو مازحاً أو هازلاً .

٤ ــ أن يكون ضابطاً والضبط هنا قوة الحافظة وقلة الخطأ والنسيان والبعد عن الخلط ، وهو أن يكون الراوي ثقة في نفسه ولكنه لايدري ممن سمع هذا الحديث أو يخلط إسناداً بآخر .

٥ ــ أن يكون غير مدلّس . والتدليس في الاصلاح قريب من الكذب وهو أن يسقط فرداً ضعيفاً من أفراد إسناده واقعاً بين رجال أقوياء فيتجاهله ليكسب حديثه القوة والشهرة .

٦ ــ أن يكون متبعاً غير مبتدع . والمبتدع صاحب البحث والرأي والأخذ بالعقل والفلسفة واتباع المذاهب المبتدعة كالمعتزلة والمرجئة والزنادقة . أما الخوارج ،

فقد روى عنهم البخاري لأنهم يعتبرون الكذب كبيرة يكفر صاحبها . وقد روى البخاري عن عمران بن حطان حديثاً واحداً . والغالب أنه يجيز الرواية عن غير الغلاة منهم ، كالقعدية أو عمن ذهب مذهبهم ثم تاب (ذهب بعض المحدثين إلى أنه لاتجوز الرواية عنهم جميعاً لأنهم كفروا علياً ولا يجوز تكفير المؤمن) .

٧ – أن يكون معروف الحال غير مجهول الاخلاق والأعمال .

ويظهر من هذه الشروط أن المقصود منها مجتمعة في شخص الراوي أن يكون موثوقاً به ولكن ماهو مقياس الثقة ؟ إنه مقياس نظري محض ، يستند إلى نظرة المرء وأقوال الناس وإلى ملاحظة الظاهر من السلوك والاعمال . وهذا جهد الدارس . وإذا كانت النوايا والضمائر من الأمور المغيَّبة فعليها من السلوك دليل .

فاذا اجتمعت هذه الصفات للراوي ، وكان معاصراً لمن روى عنه وملازماً له ملازمة طويلة كان من رواة الطبقة الأولى . وهي الطبقة التي اعتمد عليها البخاري في رواية أحاديثه الأصلية . وإن كان معاصراً له ولم يلازمه أو لازمه فترة قصيرة كان من رواة الطبقة الثانية . والبخاري يروي عن هؤلاء أحاديث التقوية . أما الامام مسلم فقد اعتبر الطبقة الثانية بمنزلة الطبقة الأولى . وهنالك طبقات أخرى دون هاتين لم يروعنها البخاري . وروى مسلم" عن الثالثة للتقوية . وهذا مايؤكد لنا تشدّد البخاري في قبول الرواية بالنسبة إلى غيره من المحدثين

وقد لاحظ بعضهم أن البخاري يؤثر الأحاديث التي يرويها اثنان عن اثنين حتى الرسول فظنوا ذلك شرطاً من شروطه . ولكنه في الحقيقة لم يلتزم بهذا الشرط في كتابه ولاقصده .

الانتقادات الموجهة الى صحيح البخاري :

وجهت إلى الجامع الصحيح الانتقادات التالية :

١ – إتيانه بالترجمة والآيات والأحكام مع الأحاديث . بخلاف صحيح مسلم الذي أفرد للأحاديث فقط . وقد أجيب عن هذا الانتقاد بأن البخاري أراد أن يخدم الفقه بتدوين ماحصل لديه من العلم نتيجة ممارسته الطويلة للحديث .

٢ – تقطيعه بعض الأحاديث بين بابين أو أكثر . والحق إنه إذا أراد أن يذكر من الحديث ماله علاقة بالباب وجب أن يفصل ماسواه . وعلة ذلك أيضاً التبويب الفقهي .

٣ ــ كان البخاري ، في الغالب ، يوجه نقده لرجال الحديث بدون أن يحاكم متن الحديث نفسه . فقد أورد أحاديث يكذبها العقل والواقع والتجربة ، كالحديث الذي رواه عن سعيد بن غفير عن الليث عن عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن سالم عن عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ يوماً في آخر حياته بعد أن صلى العشاء وسلّم : « أرأيتم ليلتكم هذه ، فان رأس مائة سنة منها لا يبقى على ظهر الأرض أحد ! » . وهذا ماظهر للبخاري خلافه .

٤ ــ طعن علماء الحديث المتقدمون بثمانين رجلاً من رواة البخاري ، فمثلاً روى عن عكرمة مولى ابن عباس ، الذي قال فيه عبد الله بن عمر يخاطب مولاه نافعاً : لاتكذب علي كما كذب عكرمة على ابن عباس . . وعكرمة هذا كان يرى رأي الخوارج الصفرية . وكذلك روايته عن اسماعيل بن أويس الذي أقرّ على نفسه بوضع الأحاديث .

وأجيب عن هذا بأن عدد المطعون فيهم من رواة البخاري قليل إذا قيس بالعدد الضخم من الرواة الذين روى عنهم ويقدرون بالآلاف . وكذلك إذا قيس بعدد المطعون فيهم من رواة مسلم وعددهم / ١٦٠ / رجلاً أكثرهم من المنتقدين من رواة البخاري . ثم إن البخاري كان يورد أحاديث هؤلاء على سبيل التقوية لا على سبيل الأصالة والاعتماد .

هذه هي المآخذ التي وجهت إلى صحيح البخاري وهي بسيطة جداً بالنسبة إلى حسنات الكتاب ومزاياه . وفي الحقيقة إنه يعد بالنسبة لعلم الحديث فتحاً جديداً إذ ظهر بشكل كتاب منهجي متكامل محقَّق بعد طبقة كتب المسانيد التي جمعها رجال الطبقة الثالثة من تابعي التابعين سواء من أهل الحجاز مثل مالك وابن جريج أم من أهل الشام مثل الأوزاعي أم من أهل العراق مثل الثوري وحماد . ولكن رجال هذه الطبقة ضمنوا كتبهم كثيراً من أقوال الصحابة وفتاواهم . وقد تلاهم جماعة أفردوا كتبهم للرواية عن صحابي واحد ، فكانت كتب المسانيد مثل المسند عن أبي بكر أو المسند عن عائشة . ومن هؤلاء المؤلفين أحمد بن حنبل . ولم يستقر تدوين الحديث بشكل منهجي محقق إلا على يد البخاري . ولهذا يعد فتحاً جديداً اتبعه فيما بعد كثير من الجامعين مثل مسلم والنسائي والترمذي ، فترسموا خطاه واعترفوا له بالفضل والتقدم فأضافوا إلى علم الحديث روافد جديدة وإن لم يبلغوا من الكمال العلمي مابلغه الامام البخاري .

والخلاصة إن كتاب البخاري كتاب نصوص وثائقية يمكن للمؤرخ أن يعتمد عليها إلى درجة كبيرة وبخاصة بعد أن عكف المحدثون على نقدها وتبيان مواضع العلة والضعف فيها وفرغوا من ذلك منذ زمن طويل . ولا يسع الباحث في تاريخ الاسلام إلاّ أن يجعل صحيح البخاري أحد مصادره المعتمد عليها . أما قيمة الكتاب من الناحية الدينية ومن الناحيتين اللغوية والأدبية فهي عظيمة جداً ولا مجال للحديث عنها في هذا البحث . وأهم ميزة لصحيح البخاري أنه قدّم لنا منهجاً علمياً للتحقيق في الروايات أفاد منه المؤرخون العرب بل والأدباء أيضاً . على أن مؤرخ العصر الحاضر يفيد من جميع كتب الأحاديث ولو اختلفت وتناقضت فيما بينها لأنه سيعمل منهجه العلمي التاريخي أيضاً في سبيل الوصول إلى الحقائق الراجحة نسبياً إن لم نقل الأكيدة . وإن المؤرخ ليستفيد أيضاً من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة إذ لابد أن يتساءل : ما الدافع السياسي أو الديني أو الاجتماعي الذي دفع القوم إلى وضع هذا الحديث أو ذاك . أليس هنا مجال للبحث عن حقيقة كامنة ؟

مصادر البحث :

١ ـ ضحى الاسلام لأحمد أمين

٢ ـ طبقات الشافعية للسبكي

٣ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي

٤ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان

٥ ـ الفهرست لابن النديم

٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية

٧ ـ مقدمة عمدة القاري في شرح صحيح البخاري للعيني

٨ ـ هدى الساري لابن حجر العسقلاني

٩ ـ شروط الائمة الخمسة للخوارزمي

١٠ ـ البداية والنهاية لابن كثير جـ ١١

١١ ـ صحيح البخاري .

مدخل الى دراسة
ديك الجن الحمصي

عمر روحي الفيصل

تتطلع الدراسة التالية إلى نتيجة مبدئية مفادها الاعتماد على المصادر في تكوين هيكل لديك الجن الحمصي أقرب إلى الشخصية التاريخية الحقيقية .

ومن هنا يستفيد المرء من طرائق البحث التاريخي وبخاصة المنهجية منها .

— ١ —

ديك الجن واحد من الذين تتمثل فيهم الحقيقة القائلة إن الأدب العربي لم يؤرخ بعد تأريخاً منظماً ، وإنه مازال في خضم من الاضطراب لانعلم مداه ، إلا أنه اضطراب يعقبه هدوء ، وفوضى ستؤول إلى نظام . وسنحاول في هـــذه الأسطر رسم معالم الطريق التي نراها صحيحة في دراسة شاعر العصر العباسي ديك الجن الحمصي .

تكاد كتب الأدب تجمع على أن ديك الجن من أكبر شعراء العصر العباسي ، وأنه خير ممثل للمدرسة الشامية التي عرفت في القرن الثالث للهجرة بتثقيف الشعر ، والعلم بفنونه درساً وتأليفاً ، والاستقصاء ، والجزالة والسلاسة والعذوبة . ولا غرو بعد ذلك أن تقرأ عن تلمذ أبي تمام الطائي عليه ، وأنه كان سبب شهرته وذيوع صيته . وتكاد كتب تاريخ الأدب تمدنا بالمعلومات التالية عن حياة ديك الجن الحمصي .

ولد عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن [١] في حمص سنة إحدى وستين ومائة ، وعاش بضعاً وسبعين سنة ، وتوفي سنة خمس وثلاثين ومائتين في حمـــص ذاتها [٢] . ولم يبرح خـــلال ذلك نواحي الشام ، لأنه آثر البقاء في حمص بجانب المجان وأهل الخلاعة ، فقد كان مثلهم خليعاً ماجناً منعكفاً على القصف واللهو . ولم يجد مع هؤلاء الصحب غير بساتين حمص المونقة مكاناً لايثار هذه اللذات ، فاعتكف بها ، وصار لايبارحها إلا لماماً . على أنه تغير حين عرف ورداً بنت الناعم ، فأحبها وتزوجها لكنه قتلها بيده نتيجة وشاية قام بها ابن عمه أبو الطيب (؟) . وملخص

هذه الحادثة أن ورداً خانت زوجها مع غلام له في أثناء غيابه في سلمية في زيارة أصدقائه من بني هاشم . ويكتشف ديك الجن الخديعة بعد فوات الأوان ، فيظل يبكي على زوجه ، أو عليها مع غلامه ، بقية حياته ، ويقول فيها شعراً مافتئت كتب الأدب تردده ، وأهم أشعاره في هذا قصيدته :

ياطلعةً طلع الحِمامُ عليها	وجنى لها ثمرَ الردى بيديها
روَّيت من دمها الثرى ولطالما	روَّى الهوى شفتيَّ من شفتيها
قد بات سيفي في مجال خناقها	ومدامعي تجري على خديها
فوحق نعليها وما وطىء الحصى	شيء أعزّ عليَّ من نعليها
ما كان قتليها لأني لم أكن	أبكي إذا سقط الغبار عليها
لكن ضننتُ على العيون بحسنها	وأنفتُ من نظر الحسود إليها

★

هذه النقاط هى أهم ماتناقلته كتب تاريخ الأدب ، ويلاحظ الباحث أنها أهملت فترة حياته الأولى حتى حبه لورد (٣) ، وفترة حياته الأخيرة بعد قتله لورد . ليس ذلك فحسب ، بل إن ماروته هذه الكتب مليء بالثغرات التي تقلل من أهمية هذه الروايات ، إن لم تنقلها إلى ساح الشك في أحايين كثيرة . وفي هذا المجال نورد الاشارة - بشيء من اليقين — إلى أن معظم المعلومات التي وردتنا عن هذا الشاعر مأخوذة من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (الجزء ١٤) ، وعن هذا الكتاب تفرعت معلومات أخرى اجتهادية لعب في أكثرها خيال أصحابها دوراً كبيراً ، صوروا فيه ديك الجن رجلاً أهوج يتحكم فيه حب الذات .

بعد هذا كله ، أين ديك الجن من ذلك كله ؟ وما صحة ماروره عنه ، وكيف نستطيع الوصول إلي معلومات كافية وافية تنير لنا حياته وشعره ؟ .

- ٢ -

معالم الطريق

الطريق الصحيحة في رأيي أن نعتمد على شعره في سد ثغرات حياته أولاً ، وهي الصحيحة ثانياً في دراسة شعره دراسة أدبية وافية ، فأين هذه الأشعار ؟ .

١ ــ الديوان :

لايوجد ديوان يجمع أشعاره كلها ، فقد ضاع هذا الديوان مع ماضاع من تراثنا ، وقيل إنه موجود في الهند ، لكن أهل العلم لم يروه ، ومايزال لديهم أمل في العثور على ديوانه بين المخطوطات العربيـة الموزعة في أرجاء العالم . وعلى هذا فلم تبق بين أيدينا غير قصائد ومقطوعات وأبيـات مفردة مبثوثة في كتب الأدب القديمة ، وقد توفر على جمعها بين دفتي كتاب واحد ، بعض الأدباء فأخرجوا مجموعين تحت اسم ديوان ديك الجن الحمصي :

الأول :

قام به الشاعران الحمصيان عبد المعين الملوحي ومحي الدين الدرويش ، وقد أخرجا هذا المجموع [٤] بعد جهد خمسة وعشرين عاماً ، فاستحقـا بذلك شكر أهل الأدب أجمعين ، لأن لهما فضل إحيـاء هذا الشاعر بين أناس كادوا يجهلونه . ويضم هذا المجموع اثنين وعشرين وأربعمائة بيت فقط .

والثـاني :

قام به المحققان العراقيان عبد الله الجبوري والدكتور أحمد مطلوب ، وقد جمعا فيه أشعار الديوان الأول وأشعاراً أخرى عثرا عليها بأنفسهما ، فـكان لهما بذلك فضل متابعة الجهد وثناء أهل الأدب [٥] .

على أن الديوانين لايجمعان أشعار الشاعر كلها ، بدليل أننا وجدنا له أشعـاراً أخرى جديدة لم نعثر عليها فيها ، ونكتفي الآن بالاشارة الى أماكن وجود بعضها :

ــ حماسة ابن الشجري ٢/٨٩٩

ــ قطب السرور في أوصاف الخمور ٣٥١ ـ ٥٤٨ ـ ٥٦٠ ـ ٦٤٧ ـ ٦٤٨ ـ ٦٥٨

وهذان الكتابان رأيا النور بعد إخراج الديوانين ، ولم يكن في مكنـة المحققين الأفاضل الاطلاع عليهما .

مادمنا نتحدث عن شعره فعلينا التأكد أولاً من صحة نسـبة القصائد التي نتناولها بالدراسة اليه . فقد وجدنا كثيراً من شعره ينسب الى غيره ممـا يدعو الى الحيطة في هذا الأمر ، فقصيدته المشهورة :

ياطلعة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيديها

منسوبة في الاغاني نفسه للسليك بن مجمّع ، وقصيدته (٦) :

وليلةٍ بات طلّ الغيث ينسُجُها   حتى إذا كملت أضحى يدبجها

منسوبة الى الخباز البلدي مع اختلاف في عدد أبياتها وألفاظها ، كما ذكر ذلك الثعالبي صاحب يتيمة الدهر . وغير ذلك كثير نلاحظه في حواشي الدرانين المطبوعين ، مما يدل على عدم دقة الرواية بسبب ضياع الديوان الأصلي ، وإذن فأمام الباحث عمل شاق لكنه مجد في النهاية .

٢ — أخبار الشاعر :

في هذا المجال ، علينا أولاً استبعاد رواية الاغاني ، أو ترك الشك يداعب ماورد فيها دوما ، فلكتاب الاغاني سيطرة على أدبنا العربي لانعرف لغيره مثل هذهالسيطرة . ولا علينا إن أردنا الدراسة العلمية الصحيحة أن نستبعد رواية هذا الكتاب ، أو أن ندرس هذه الرواية دراسة دقيقة دون أن نعتبرها أصلاً ننطلق منه ، ذلك أننا نراها عند كل من تحدثوا عن هذا الشاعر من قدماء ومحدثين . وسبب اقتراحنا استبعاد رواية هذا الكتاب أننا نشك في صحتها جملة وتفصيلاً ، وربما كان لتشيّع ديك الجن دور في كون الرواية على هذه الصورة .

بعد هذا ، على الباحث أن يمحص مصادر أخبار الشاعر وهي في رأيي قسمان :

أ — مصادر أصيلة : وهي

١ — كتاب الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني - دار الكتب - القاهرة - ١٩٢٧

٢ — شعراء الشام في القرن الثالث - خليل مردم بك — مطبعة الترقي - دمشق - ١٩٢٥

٣ — أعلام الأدب والفن (ج ١) - أدهم الجندي — مطبعة مجلة صوت سورية - دمشق - ١٩٥٤

٤ — ديك الجن الحمصي - البدوي الملثم - (لم أعثر على الكتاب)

٥ — محاضرات الموسم الثقافي ٦١ - ١٩٦٢ - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٣

٦ — مقدمة ديوان ديك الجن الحمصي - جمع : اللوحي والدرويش - حمص ١٩٦٠

٧ — مقدمة ديوان ديك الجن الحمصي - جمع الجبوري ومطلوب - بيروت ١٩٦٤

ب ـ مصادر فرعية :

وهذه المصادر تنير بعض النقاط المجهولة لدى الباحث ، وهي كثيرة جداً بحيث يصعب حصرها ، وسأذكر أهمها مراعياً ذكر أرقام الصفحات التي ذكر فيها ديك الجن ، والأجزاء ، والطبعة ، والمحقق ، ودار النشر إن وجدت :

١ ـ قطب السرور في أوصاف الخمور ـ الرقيق النديم ـ تح : أحمد الجندي
مط : مجمع اللغة العربية بدمشق ـ ١٩٦٩
ص : ٢٧٨ ـ ٣٥١ ـ ٥٤٨ ـ ٥٦٠ ـ ٥٩٢
ـ ٦٢٣ ـ ٦٤٦ ـ ٦٥١ ـ ٦٥٨ ـ ٧٠٣ .

٢ ـ الموشح ـ المرزباني ـ تح : علي محمد البجاوي
دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ ص ٥٣٣

٣ ـ إعتاب الكتّاب ـ ابن الأبّار تح ـ : د . صالح الأشتر
مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ـ ١٩٦١ ـ ص ١٥٩

٤ ـ ألحان الحان ـ عبد الرحمن صدقي
دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ ص ٩٦

٥ ـ تاريخ الأدب العربي ـ كارل بروكلمن ـ تر : د : عبد الحليم محمود
دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ (الط ٢) ص ٢/٧٢ ـ ٧٧

٦ ـ أخبار أبي نواس ـ ابن منظور المصري ـ تح : محمد عبد الرسول إبراهيم
ـ عباس الشربيني : مطبعة الاعتماد ـ القاهرة ـ ١٩٢٤ ـ ص ١/٢٤٢ ـ ٢٤٣

٧ ـ حياة الحيوان الكبرى ـ الدميري ـ
كتاب التحرير ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ ـ ص ١/٦١٦

٨ ـ المسالك والممالك ـ الاصطخري ـ تح : د . محمد جابر عبد العال الحيني
تراثنا ـ القاهرة ـ ١٩٦١ ـ ص ٤٦ (عن حمص خاصة)

٩ ـ عجائب المخلوقات ـ القزويني
كتاب التحرير ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ ـ ص ٣١٨ ـ ٣٢٥

١٠ ـ الموازنة ـ الآمدي ـ تح : محي الدين عبد الحميد
المكتبة التجارية ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ (الط ٣) ص ٥٤

١١ — المثل السائر - ابن الأثير (ضياء الدين) - تح : - د . بدوي طبانة
مكتبة نهضة مصر - القاهرة - ١٩٥٩ - ١٩٦٠ - ص ١/١٧٠ و ٢/١٠١

١٢ — النثر الفني — زكي مبارك
المكتبة التجارية — القاهرة — ١٩٥٧ (الط ٢) ص ٢/٢٥

١٣ — أمالي الزجاجي — الزجاجي
المؤسسة العربية الحديثة — القاهرة — ١٣٨٢ هـ ص ١٠٢ وما بعد

١٤ — العمدة — ابن رشيق
مطبعة أمين هندية — القاهرة — ١٩٢٥ (الط ١) ص ١/٦٤ و ٢/١١٩

١٥ — ذم الهوى — ابن الجوزي — ص ٦٤٩ وما بعد (؟) .

هذا ، إلى كتب التراجم التي لاغنى عنها في كل بحث علمي ، وبخاصة هنا كتاب وفيات الأعيان (ج ١) ، وكتب التاريخ والأدب العامة كتاريخ ابن عساكر (لاتوجد له طبعة محققة تحقيقاً علمياً ، عدا الأجزاء التي أخرجها مجمع اللغة العربية بدمشق ، ومحاضرات الأدباء ، وتزيين الأسواق ، والمستطرف من كل فن مستظرف ، وديوان الصبابة ، وعقلاء المجانين ، ومدامع العشاق ، و . . .

٣ — تصنيف الأشمار والأخبار :

وهذه خطوة أخرى هامة في سبيل دراسة شاعرنا ، إذ اننا نرى ركاماً من الأخبار والأشعار الموثوقة ، فماذا نفعل بها ؟ .

أ — الأشعار :

سيلاحظ الباحث أن شعر ديك الجن يقع في معظمه ضمن النقاط التالية :

★ شعره في الخمرة

★ شعره في ورد خاصة

★ شعره في غلامه بكر

★ شعره في مديح الهاشميين

★ شعره في الموضوعات العامة (الوصف — الغزل . . .)

على الباحث تصنيف هذه الأشعار ، ومحاولة معرفة الأزمنة التي قيلت فيها ، لأهمية ذلك في أثناء الكتابة عن الشاعر . وعلى الباحث أيضاً التنبه إلى قوافي أشعارشاعرنا ، فهناك قواف لانجدها ، وأخرى يكثر ديك الجن منها ، وثالثة يقول عليها بيتاً أو بيتين . ففي ديوانه (جمع الملوحي والدرويش) لانجد قوافي على الأحرف التالية : الخاء والذال والزاي والشين والضاد والطاء والغين والواو ، بينا تكثر القوافي على الأحرف التاليـة : (الباء ٦٩ بيتاً) ، الدال (٢٤ بيتاً) ، الراء (٨٣ بيتاً) ، الفاء (٢٠ بيتاً) ، اللام (٧٩ بيتاً) ، الميم (٣٢ بيتاً) ، النون (٢٥ بيتاً) ، ولا نجد على باقي الأحرف غير أبيات قليلة : الألف (٦) ، التاء (٣) ، الجيم (٤) ، الحاء (٨) ، السين (١١) ، الصاد (١) ، الظاء (٢) ، العين (١١) ، الهاء (٨) ، الياء (١٠) .

وعلى الباحث قبل الشروع في دراسة الشاعر ، التنبه إلى اختلاف الرواية بين بيت وآخر في كل من الديوانين المطبوعين وكتب الأدب الأخرى . ففي حماسة ابن الشجري مثلاً بيتان « أولهما غير موجود في الديوان ، والثاني موجود إلا أن فيه اختلافاً عن رواية الديوانين المطبوعين « ٧ » .

ب ـ الأخبار :

وهذه الناحية جديرة بالاعتبار لأنها تنير طريق الأشعار ، وتمهد سبيل الدراسة ، وهي كثيرة لاحصر لها . نصنفها في النقاط التالية :

١ ـ أخبار حياته
٢ ـ أخبار مأساته
٣ ـ أخبار مجونه
٤ ـ أخبار انتجاعه ديار بني هاشم في سلمية .

وقد سبق أن لاحظنا أن هذه الأخبار لاتفي بالغرض ، غير أنها هامة في هذا المجال . وننبه إلى تصنيفها زمنياً لمعرفة الخبر الأصلي والفروع الاجتهادية المأخوذة عنه . ولا غنى للباحث عن استعمال خياله في ربط هذه الأخبار ، كما فعل عبد المعين الملوحي حين ألقى محاضرته في السويداء عن ديك الحمصي .

★

مرة أخرى يعزو المرء غياب ديك الجن عن الدراسات الأدبية والنقدية إلى وعورة الطريق إليه ، ولعل في الذي فعلناه خيراً .

هوامش البحث

(١) ذكر القزويني في عجـــائب المخلوقات (ص ٣٢٥) ، والدميري في حيـــاة الحيوان الكبري (١/٦١٦) ، ان ديك الجن دويبة توجد في البساتين . وقـــال غيرهما : سمي بذلك لاخضرار عينيه . وأقرب الرأيين إلى الصواب الأول ، لكثرة اختلاف ديك الجن الى البساتين وملازمته لها . انظر أيضاً شعراء الشام لخليل مردم / ص ٥٨ .

(٢) : وفي رواية أخرى سنة ست وثلاثين .

(٣) : حاول الاستاذ عبد المعين الملوحي سد هذه الثغرة ، فقسم مراحل حياة شاعرنا إلى ثلاث :

أ : ولادته وتلقيه العلم بحمص ، وتنتهي عند حادثة المسجد

ب : فزع الفتى الى البساتين واعتكافه بها ، واطلاق لقب ديك الجن عليه .

ج : جنوحه نحو المجون والخمرة ، وقصة حبه ، ثم مأساته التي مرت كذلك بثلاثة أدوار :

١ : الدور الذي كان فيه مايزال يعتقد أن ورداً خائنة

٢ : دور يقظة الضمير ، والشك في خيانتها .

٣ : دور معرفة الحقيقة ، وفيه نرى الحزن العميق والالم الدفين .

(محاضرات الموسم الثقافي ص ٢٣٩ وما بعد)

(٤) : طبع على مطابع الفجر الحديثة - حمص ١٩٦٠

(٥) : طبع في دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٤

(٦) : هذه القصيدة غير موجودة في الديوانين المطبوعين ، بل هي في قطب السرور ص ٥٤٨

(٧) : انظر الحماسة ٢/٨٩٩ ، وديوان الملوحي ص ٣٦ ، وديوان الجبوري ص ١٦٥

النشاط العربي الواسع للجمعية التاريخية في حمص بين ١٩٧١ – ١٩٧٧

تأسيس الجمعية التاريخية في حمص :

حيا الله تلك الأيام التي جمعتنا على الحب والمودة والاخلاص من عام ١٩٧١ وما قبل ، فقد كنا مجموعة من الشباب ، متفاهمين ، منسجمين ، مؤمنين بحقنا في الحياة ، نحاول اثبات هذا الحق وتأكيده بأية طريقة من الطرق ، ونحاول الاصلاح في ميدان اختصاصنا وفيما تطاله أيدينا من الفساد ، ما استطعنا من اصلاح ، فاجمعنا الرأي على الاجتماع ، مرة في الاسبوع ، في بيت كل منا بالتناوب ، نتباحث ونتداول في أمور الحياة العامة ، حتى اقترح أحدنا – أحسن الله إليه الجزاء – أن نؤلف جمعية تاريخية نطلب لها الترخيص رسمياً فتكون لنا نعم النادي العلمي والترفيهي ، فيه يبذل هاوي العلم جهده حتى يحقق هواه ، ويجتمع من ينوء بثقل العمل وهموم البيت فيستجم بعض الساعة مع رفاقه المخلصين ، بعيداً عن أماكن الاجتماعات العامة التي ترهق الصدر والأذن والعين بجوها المشحون بكل مانكره . وفي هذا النادي نعمل جميعاً – أو على الأقل من يحب العمل – في سبيل غاية علمية نضعها مثلاً اعلى لنا هي أن ندرس تاريخ أمتنا القديم والحديث دراسة علمية موضوعية نصدّ ونرد بها خطر أولئك الذين يلفون في تاريخ أمتنا فيحاولون فيه الدس والافتراء لاظهاره في أسوء مظهر .

وبدأنا العمل لتحقيق تلك الفكرة ليل نهار وتم لنا ما نريد بفضل الله ، وصدر الترخيص من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل في ١٢/١٠/١٩٧١ بانشاء الجمعية التاريخية في حمص . وتشمرت الزنود للنشاط وشحذت الأذهان للتفكير .

النشاط العربي بين ١٩٧١ – ١٩٧٤ :

كان من أول الاعمال التي قامت بها جمعيتنا بعد تأسيسها أن أرسلت كتباً عديدة إلى كبار

الأساتذة في الجامعات السورية واللبنانية تدعوهم لالقاء أبحاث في مقرها ، كما ارسلت كتباً إلى الجمعيات التاريخية في الوطن العربي تنبئها بتأسيس جمعية تاريخية في حمص وبأهدافها وترجو مراسلتها ودعمها بكل منشوراتها العلمية والتاريخية . وكان أول جواب يأتي من الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التي يرأسها آنذاك - الدكتور أحمد عزت عبد الكريم - الذي تتمذ على يده طلاب التاريخ في كلية آداب الجامعة السورية بين ١٩٤٦ — ١٩٥٥ - فقد رد الأستاذ الكبير مهنئاً بتأسيس الجمعية و واعداً بتقديم كل مساعدة ممكنة ، ثم بعد مرور سنة ونيف تقريباً وردت منه رسالة ثانية يدعو فيها الجمعية للاشتراك في الندوة التي ستعقدها بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية بمناسبة مرور / ١٥٠ / عاماً على وفاة المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي وحملت الدعوة الجهة المدعوة نفقات الانتقال إلى القاهرة بينما تقدم مساعدة رمزية للاقامة مدة اسبوع فقط ، واجتمع مجلس الادارة ودرس الدعوة وكنا آنذاك نشكو الافلاس ، فليس للجمعية إلا وارد بسيط من اشتراك بعض الأعضاء الذين يلتزمون بدفع ليرة سورية فقط في الشهر ، فكثيراً ما كنا نتعاون من جيوبنا لتسديد بعض الواجبات الالزامية للمحاضرين والضيوف الذين يزورون الجمعية أو لدفع أجور مقر الجمعية ، وخرجنا من الدراسة بوجوب تلبية الدعوة فهي ابراز لوجه الجمعية واعلان عام لكل من يحضر الندوة ، إن هناك في حمص جمعية تاريخية ، وقرر مجلس الادارة تكليفي باعتباري رئيسة بالسفر للقاهرة لحضور الندوة والقيام بما يجب من نشاط لتمثيل الجمعية .

وفي ١٥ نيسان ١٩٧٤ كنت في القاهرة وبدأت الندوة في اليوم التالي ودامت اسبوعاً وحضرها ممثلون من جميع جامعات العالم تقريباً من الشرق والغرب ، وبلغ عددهم حوالي / ١٠٠ / مندوب كما ارسل الذين تعذر مجيئهم ابحاثاً لتلقى بالنيابة عنهم مثل المؤرخ الانكليزي الكبير ارنولد توينبي ، فقد قرأ كلمته الأستاذ فؤاد محمد شبل ، وكانت الندوة حافلة بالابحاث القيمة عن عبد الرحمن الجبرتي وكتبه وعصره ، القيت باللغات الثلاث : العربية والانكليزية والفرنسية وكانت الأبحاث تلقى في كل مساء بين الساعتين ١٧ - ٢٠ ، وفي كل صباح نجتمع الساعة العاشرة لنخرج في زيارات موجهة إلى الجامعات والمتاحف والمناطق الأثرية ، وهكذا غطيت فترة الاسبوع تغطية علمية وسياحية وأثرية كاملة ، وأقيمت عدة حفلات عشاء من قبل وزير الثقافة ، والجامعات والمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، وكنت استغل هذه الحفلات

فأتحدث باسم جمعيتي التاريخية في حمص عن اهدافها ومشاريعها وآمالهـا ، كما ألقيت كلمة في مجلس ادارة كلية دار العلوم في الجامع الأزهر عن أهمية اللغة العربية واصالتها في كل العلوم وضرورة التمسك بها وواجب الدولة والمواطنين في المحافظة عليها ، والقيت كلمة ثانية في جامعة الاسكندرية ـ وقد زرناها في نهاية المؤتمر ـ شكرت فيها القائمين على النهضة العلمية والراعين لها وخاصة في ميدان التاريخ وتكلمت عن ضرورة الاهتمام بموضوعية البحث التاريخي وواجب الدولة في السماح للمؤرخين بمناقشة الحوادث التاريخية بموضوعية علمية وروح متجردة ، ودعوت المؤرخين أن يكونوا حياديين علميين أثناء بحثهم ، وأثناء احد تلك الاجتماعات اجتمعت بالوفد العراقي الذي يمثل الجمعية العراقية للتاريخ والآثار برئاسة الدكتور حسين أمين وحدثته عن جمعيتنا حديثي المعهود فقال وهل يمكن ان تقبلوا دعوتنا للاشتراك في تكوين اتحاد للمؤرخين العرب ؟ فقلت انها فكرة حسنة تستحق المناقشة ونحن مستعدون لهذه الدراسة .

وانتهت ندوة الجبرتي وعدت إلى سورية بمجموعة قيمة من الأبحاث التي ألقيت فيها وبعـــض الكتب التي حفظت في مكتبة الجمية وقدمت للجمعية تقريراً شفوياً عن الندوة .

وفي خلال أيام قلائل بعد العودة من القاهرة وصلت الجمية بطاقة دعوة لحضور مناقشة فكرة تأسيس اتحاد عام للمؤرخين العرب في بغداد مع بطاقة طائرة ذهاباً وايابا واجتمع مجلس الادارة فأقر وجوب ايفادي باعتباري حلقة الوصل التي كانت في الأصل في القاهرة .

واستمرت زيارتي هذه اسبوعاً من / ١٤ — ٢١ / أيار ١٩٧٤ وحضـــر ذلك الاجتماع مندوبون عن / ١٣ / قطراً عربياً هي حسب التسلسل الأبجدي : الأردن البحرين ـ تونس ـ الجزائر ـ سورية ـ الصومال ـ العراق ـ الكويت ـ لبنان ـ ليبيا ـ المغرب ـ اليمن الجنوبية ـ اليمن الشمالية . ودامت المناقشات أربعة أيام / ١٥ـ ١٨ / أيار وضع خلالها نظام أساسي لاتحاد المؤرخين العرب المقترح وتبرعت حكومة العراق بعشرين الف دينار للاتحاد المؤسس ، وكانت أكبر صعوبة لاقاهـا الاتحاد العتيد عـــدم اشتراك القطر المصري فيه كما رأيت من ذكر اسماء الأقطار المشتركة فيه وقد ظهر من المناقشة أن العراق ومصر تتنازعان زعامة الاتحـاد ومركزه الرئيسي .

وكان من الطبيعي في الاجتماع ان يختار الامين العام للاتحـاد مندوب العراق

الدكتور حسين أمين كما اختير خمسة أمناء عامون مساعدون روعي في اختيارهم تمثيلهم لانحاء العالم العربي الجغرافية المتباعدة . واعتبر الحاضرون جميعاً أعضاء للمكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب خمسة سنوات كاملة واوصى الجميع بأن يسعوا لدى حكوماتهم لعقد مؤتمر للاتحاد عندها في كل سنة مرة على أن يكون مؤتمراً علمياً موضوعياً .

وكان حضور ممثل للجمعية في تأسيس اتحاد المؤرخين العرب كسباً كبيراً للقطر العربي السوري وللجمعية اذ اعتبر القطر عضواً في المكتب الدائم واسمع صوته إلى كل الأقطار العربية . وليس هنا مجال البحث في قانون اتحاد المؤرخين العرب فلذلك بحث خاص مطول .

مؤتمر بنغازي ١٩٧٥ :

وفي النصف الأول من شهر حزيران يونيو ١٩٧٥ تلقت الجمعية بشخص ممثلها عضو المكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب دعوة إلى حضور المؤتمر الأول للاتحاد في بنغازي ضيفاً على الحكومة الليبية ولبحث المواضيع الآتية :

١) الموافقة على قبول الجمعيات التاريخية والباحثين في الحقول التاريخية الذين تقدموا بطلبات للانتساب للاتحاد .

٢) النظر في ميزانية الاتحاد .

٣) تنظيم عقد المؤتمرات العلمية في الوطن العربي .

٤) مناقشة امكانية كتابة تاريخ الأمة العربية .

٥) مناقشة توحيد مناهج تدريس التاريخ في مراحل التعليم المختلفة في الوطن العربي .

وعين يوم ١٨/١٠/١٩٧٥ موعداً لعقد المؤتمر .

وسافرت إلى بنغازي وعقدت الاجتماعات في كلية الآداب بين ١٨ - ٢٠ تشرين الأول اكتوبر وحضرها اضافة إلى الاعضاء السابقين ممثل حكومة قطر الذي وجه دعوة حكومته لعقد المؤتمر القادم في عاصمة قطر في تشرين الأول اكتوبر ١٩٧٦ وفي نهاية الاجتماعات اتخذ المكتب الدائم التوصيات الآتية :

١) الموافقة على قبول الجمعية التاريخية السودانية والجمعية المغربية للبحث التاريخي وجميع الباحثين العرب الذين تقدموا بطلبات انتساب .

٢) الموافقة على ميزانية الاتحاد .

٣) الموافقة على انعقاد مؤتمر المكتب القادم في الدوحة ـ قطر في آخر ١٩٧٦ .

٤) الموافقة على اعادة كتابة تاريخ الأمة العربية بروح موضوعية تهـــدف إلى بيان معطياتها الحضارية والدور الذي أسهمت فيه في بناء الحضارة الانسانية وتخويل الأمين العام القيام باتصالات مباشرة مع المسؤولين في الدول العربية لطلب مساعدتها في هذا العمل .

٥) تخويل الأمين العام الاتصال بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من أجل توحيد مناهج التاريخ في مراحل التعليم المختلفة في الوطن العربي .

ويجب أن أذكر ان الامين العـام نجح بادخال عدد من المؤرخين المصريين في الاتحاد فمثلهم الدكتور عبد النعيم حسنين وبذلك زالت الصعوبة الكبرى التي كانت أمام الاتحاد بعدم انتساب القطر المصري اليه ، كما حضر ممثل الجمعية السودانية المنتسبة حديثاً وهو الدكتور عباس ابراهيم رئيس قسم التاريخ في جامعة الخرطوم .

وبعد عودتي إلى الوطن من بنغازي تقدمت بتقرير مفصل إلى الجمعية عن الاجتماعات ورفعت نسخة من ذلك التقرير إلى المسؤولين تنفيذاً لتوصيـات المؤتمر ، أملاً بمساندة الدولة في الجمهورية العربية السورية للاتحاد في خطواته ومساعيه .

النشاط خلال ١٩٧٦ — ١٩٧٧ :

في آذار ١٩٧٦ وردت رسالة من حكومة قطر تعتذر عن عقد المؤتمر في موعده في كانون الأول ديسمبر ١٩٧٦ نظراً لانشغال الدوحـــة بعقد مؤتمر الأوبيك في نفس الفترة وتعين شهر آذار مارس ١٩٧٧ موعداً جديداً لعقد المكتب الدائم للاتحاد ، ولعقد مؤتمر تاريخي كبير باسم مؤتمر الدراسات التاريخية لشرقي الجزيرة العربية يحضره مندوبون عن جميع الدول العربية وعن الجامعات الأجنبية في أوربا وآسيا وافريقيا المهتمة بتاريخ المنطقة .

وتتابعت المراسلات في سبيل تنظيم المؤتمر حتى حان وقته فسافرت إلى الدوحة في منتصف آذار مارس ١٩٧٧ وكان تنظيم المؤتمر رائعاً جداً إذ اشتركت فيه حكومة قطر واتحاد المؤرخين العرب وجامعة الدول العربيـة والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فجاء مؤتمراً عالمياً بتنظيمه ، كما شاركت فيه كل جامعـات الوطن العربي بكبار علمائهـــا ومؤرخيها وجاء ممثلون عن جامعات كندا والولايات المتحدة

الامريكية وانكلترا وفرنسا والمانيا واسبانيا وتركيا واليابان وإيران والهند والباكستان والجمعية التاريخية الدولية بشخص أمينها العام وكانت قاعة المؤتمر قد جهزت تجهيزاً كاملاً فهيئت فيها وسائل الترجمة الفورية / مع مكبرات الصوت / باللغات العربية والانكليزية والفرنسية . ووزعت ملخصات للأبحاث التي تلقى كي يدرسها من يشاء من الحاضرين ويستمدون لمناقشتها .

وفي يوم الافتتاح حضر مندوب أمير قطر ولي عهده والقى كلمة رحب فيها بالحاضرين وتمنى لهم طيب الاقامة والتوفيق في العمل على كتابة تاريخ شرقي الجزيرة العربية كما يجب . وجاءت الأبحاث العلمية شاملة لتاريخ المنطقة شمولاً جيداً منذ العصور القديمة حتى مابعد الحرب العالمية الثانية ووقتنا هذا واتصفت بموضوعية وحيادية رائعتين من قبل العرب والأجانب حتى ان السيد ميشيل فرانسوا الأمين العام للجمعية التاريخية الدولية أثنى على الندوة وعلى القائمين على تنظيمها وترتيبها ، وبلغ عدد الابحاث المقدمة نيفاً وثمانين بحثاً باللغات الثلاث سيكون طبعها ونشرها في مجلد أو مجلدين (حسب الامكان) شاملاً لتاريخ شرقي الجزيرة العربية وباعثاً ومشجعاً للباحثين على الاستزادة من البحث والمراجعة .

وإلى جانب تلك الندوة كان أعضاء المكتب الدائم يجتمعون اجتماعاتهم الخاصة لدراسة نتائج جهود الامانة العامة خلال العام المنصرم وخلاصتها انضمام عدد كبير من الباحثين التاريخيين وامانة عُمان ودولة الامارات العربية المتحدة والسعودية ، واعتذار الصومال عن عقد المكتب الدائم في عاصمتها مقديشو في شتاء ١٩٧٧ - ١٩٧٨ لعجزها المالي عن تمويله ، والدعوة للاهتمام بالمخطوطات العربية الكثيرة الموجودة في امانة عمان ، ومحاولة الامانة بالتعاون مع جامعة الخرطوم اقامة مؤتمر عربي افريقي في الخرطوم لدراسة العلاقات العربية الافريقية خلال التاريخ ، ولكن أهم بحث جرت مناقشته هو اتصال الامانة العامة بالحكومة الاسبانية لنيل السماح منها لاقامة مهرجان تراثي ثقافي عربي في الاندلس ، وكان الاتفاق على أن يتصل أعضاء المكتب الدائم بحكوماتهم لتبيان اهمية ذلك المهرجان وإمكانية استغلاله اعلامياً للقضية العربية الكبرى - كما حدث في مهرجان لندن الاسلامي عام ١٩٧٦ وتشجيع كل الحكومات العربية الاشتراك فيه .

وانتهى مؤتمر الدراسات التاريخية لشرقي الجزيرة العربية وعاد جميع الأعضاء إلى بلادهم حاملين معهم خلاصات للأبحاث التي القيت في المؤتمر وبعض نشرات عن إمارة قطر ، وقد ارسلت الامانة العامـة في الايام القليلة الماضية نتائج اتصالاتها مع الدول العربية فبيّنت نجاحها مع السعودية والكويت اذ تبرعت السعودية مقـدماً منذ الآن بمائة وخمسين الف دولار كدفعـــة أولى لتحضير مهرجان الاندلس ، كما أعلنت الكويت استعدادها للمساهمة فيه إلى أبعد حد ممكن والأمل كبير بمساعـــدة بقية الدول العربية .

ذلك عرض موجز لنشاط جمعيتنا التاريخية في حمص في الميدان العربي الواسع والأمل كبير جداً بأن يزداد ذلك النشاط ويتسع اتساع فكرة الوحـــدة الفكرية العلمية العربية ونسأل الله تعالى ان يزيل الخلاف والتنافر بين أبناء الامة العربيـــة جماهير وحكاماً حتى يستطيعوا الاتحاد النافع القاضي على اطماع أعـــدائنا ، اعداء الأمة الخـالدة .

عضو الجمعية التاريخية في حمص
عضو المكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب
محمـــد الحروبي

مجـــلة
البحث التاريخي

مجلة

البحث التاريخي

تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص

العدد الثاني	ذو القعدة ١٣٩٩ هـ	تشرين الأول ١٩٧٩ م

المدير المسؤول

محمد عبد الصمد الشاطر

رئيس التحرير

أسعد خالد الحسين

هيئة التحرير

سمير عبد الصمد

عبد الاله نبهان

عبد الحفيظ شما

فهمي خانكان

منذر حمودي

صمم الغلاف الفنان : أحمد دراق السباعي

العنوان :

مركز الجمعية

حمص ـ الجمعية التاريخية

شارع عبد الحميد الدروبي

☎ ٢٦٢٨٠

طبعت في

مطابع الروضة النموذجية

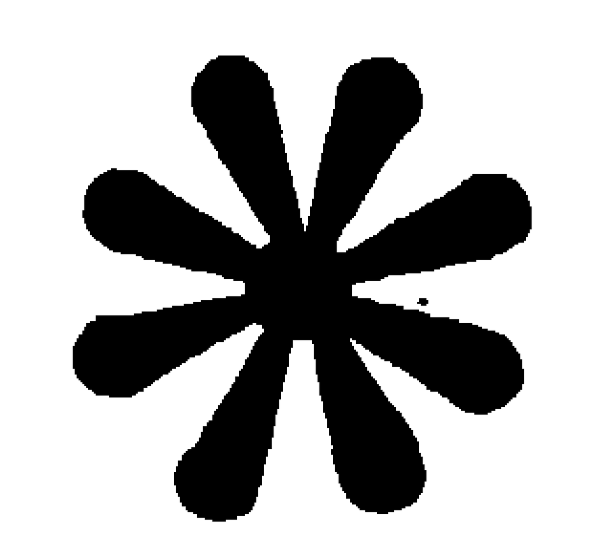
[illegible]

ملاحظـــات

- البحوث والمقالات التي ينشرها الكتاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخص

- ترتيب مواد العدد يخضع لاعتبارات فنية فقط .

- المراسلات باسم المدير المسؤول : حمص ـ الجمعية التاريخية .



في هذا العدد

كلمة العدد

محمد عبد الصمد الشاطر
رئيس الجمعية التاريخية

تقترن اطلالة العدد الثاني من مجلة البحث التاريخي ببروز أحداث جسام عـــلى امتداد الوطن العربي جعلته يقف وجها لوجه أمام تحديات مصيرية من نوع فريد .

هذا الوطن العربي الكبير في امتداده الشامع الفسيح شرقا وغربا شمالا وجنوبا سبق ان نزلت به نوازل قاصمة ، وأحدق به مـــن الملمات والكوارث مالو نزل بغيره من الاوطان لرأيته متصدع البنيان مهدوم الاركان وقد غاب رسمه وعفا اثره ولكن :

سِرّ الصحارى وسلها كلما يَبِسَتْ   من اين يَنبع فيها الظل والشجر ؟ . . !

ان التاريخ يعيد نفسه ، نعم ، لكنه لايعيد نفسه بكل التفصيلات وانما يعيد ذلك ضمن خطوط عريضة وأطر عامة في كل زمان ومكان اللهم الا في أحوال الطفرات ، وتلك لها حديث طويل . . . كما ان سعي الأمة العربية نحو الوحدة له حديث اطول ، فعلى المدى البعيد من خلال القرون ، ومنذ ان بدأ التصدع في وحدة الصف العربي بدأنا نرى المحاولات الجادة تسعى لتوحيد الصف العربي بعد تمزق ، ولتلم شمله بعد تشتت ، وفي التاريخ تبرق نقاط مضيئة هنا وهناك ، وينطلق شعاع رائع لايلبث ان يتلاشى ، ولننظر الى

الاضاءة التي تمثلها محاولة صلاح الدين الايوبي التي تعد استمراراً ومتابعة لما بدأ به سلفه العظيم نور الدين محمود زنكي في توحيد الشمل الشتيت ، ولكن هذا التوحيد على الرغم من الغرض الجليل الذي اداه الى العالم العربي والاسلامي في كسر شوكة الصليبيين ومحق جيوشهم واسترداد مااغتصبوه وتطهير مادنسوه ، اقول : هذا التوحيد لم يكن وردة بلا اشواك سواء في بدايات الامور او نهاياتها اوفي اثنائها . لقد كان للعامل الشخصي « شخصية البطل » أثر كبير في توحيد القلوب واستمرارهذا التوحيد ، وان شخصية صلاح الدين بآفاقها الرحبة مقترنة بالامانة التى تحملها واعني واجب الجهاد المقدس ، كان لها بما اقترنت به اكبر الاثر في تجميع الامراء والقادة في كتلة واحدة وحول نقطة ارتكاز اساسية ، ومع ذلك فكثيراًمارأينا بعض القادة والامراء يعصون امر صلاح الدين في لحظات حاسمة ، ولم يكن يجرد قتالاً ضدهم لاعادتهم مقهورين الى الجماعة ، بل كان يلوح لهم بالخطر المحدق تارة ويمسّهم باللوم والعتاب تارة اخرى . . وبمزيج من هذه الاساليب السياسية الجامعة للقوة استمر صلاح الدين يسير الامور كما تقتضي اصول السياسة والحزم والاخلاق وبذلك دفع الاذى عن الاوطان واسترد مااغتصبه الصليبيون امداً طويلاً .

وتعاقبت امواج الغزاة على العالم العربي ، وهجمت الظلمات امواجاً يركب بعضها بعضاً ، ومازال الغزاة يمدون اذرع الاخطبوط الى عالمنا العربي ويعيثون فساداً ، وتتالت الدول وترادف الملوك والسلاطين الى ان ناء العثمانيون بكلكهلم على البلاد ، وساءت احوال العالم العربي - او قل استمر سوءها على ماكان عليه وازداد - في ظل حكمهم ، ولما اعتراهم الوهن ودب اليهم الانحلال طمع بهم وبالعالم العربي الاستعمار الجديد الفتي آنذاك . وبلغت

الامور من التسيب والانحلال وضياع التبعات درجة دفعت الناس او كادت تدفعهم الى اليأس من كل تحرر اواصلاح . . . ولكن .. هذا رجل ألباني يجيء مصر ، رجل امي ، بدهائه وحكمته وذكائه المتوقد استطاع ان يحقق من الاصلاح ماعجز عنه سيده في الآستانة ، وكاد يحقق مشروعاً لوحدة العالم العربي او لرقعة فسيحة منه ، وظن الناس انه القوة التي لاتقهر بعد ان اصبحت الطريق الى الاستانة مفتوحة امام جيوشه وهُدد البسفور . . ولكنّ القوى الاستعمارية القت بثقلها كله ضد محمد علي لاحباً بالسلطان العثماني ، ولكن خوفاً من تجمع قوة عربية فتية على ارض عربية موحدة ، ولذلك تصالح الخصمان ، انكلترا وروسيا ، وانضمت اليهما اطراف التآمر الأخرى ، وتمكن تحالف الشيطان هذا من قتل الوليد في مهده واتلاف الثمرة او ان حملها . وامعاناً منهم في سياسة - فرق تسد - عبؤوا بعض القوى الوطنية ضد محمد علي ، وحرضوا الناس ليثوروا ضد ماسموه بالاحتلال المصري ، ونفروهم من قسوته في ادارة دفة الامـــور بسوط اشد عسفاً من سوط عساكر السلطان العثماني . . . زعموا . .

وصدق المغرورون وذوو المصالح الخاصة الضيقة ، صدقوا مازينه شيطان الاستعمار لهم ، وران على قلوبهم واسرجوا انفسهم في خدمة المستعمرين وكان ماكان فظن شراً ولاتسأل عن الخبر ! ! . . .

هذا اللحن النشاز كرر عزفه بتوزيع جديد قبل تحطيم وحدة مصر وسورية سنة ١٩٥٨ م . والناس مازالوا يذكرون ويعرفون النكبات التي اصابت الوطن العربي في الحالين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

ولم يقصر المستعمرون اعداء العروبة جهدهم على اسقاط المحاولتين السابقتين

من محاولات التوحيد فقط ، بل انهم كانوا قد راشوا سهامهم واشرعوا رماحهم ووجهوا لثورة العرب الكبرى بقيادة الشريف حسين ولثورة مصدق في ايران ولغيرها مـــن ثورات البلاد المشرقية سهامهم المسمومة لترسيخ الفرقة والانفصال . وبعد :

ان الحل امامنا بات واضحاً ، ولاخيار لنا فيه ، اننا نراه بيناً جلياً ، انه الوحدة العربية ، وان كان هناك من يلقي على هذاالحل طائفة من الشكوك ، ويختلق امامه طوائف من العقبات ، من اجل مصالح شخصية وشهوات خسيسة ، الا ان جمهرة الناس في عالمنا العربي تدرك جيداً اهمية التوحيد وضرورته ولزومه ، والادراك بحد ذاته ليس مهماً الا بقدر مايكون فعالاً في الحركة والتحريك ، ان المهمة العاجلة امام الوطن العربي ان يبدأ خطواته نحو الوحدة ، وليس المهم اصدار البيانات الرسمية بل المهم ان تبرز الوحدة حقيقة الى عالم النور وتنتقل الى حيزالتحقق والوجود .



شقيقة لأوغاريت في رأس ابن هانئ

الدكتور عدنان البني

الآن بعد سنوات خصيبة حافلة بالأحداث الأثرية المثيرة في الفرات وتل مرديخ وتدمر وعلى شاطيء المتوسط ، تلك الأحداث التي تمت نتيجة للاهتمام الذي توليه الجمهورية العربية السورية للآثار وللتعاون العلمي النزيه مع المؤسسات الأثرية الأجنبية ، بدأ العالم يرد لسورية الأثرية مكانها كمركز الثقل في الهلال الخصيب ودورها البارز في تاريخ الحضارة ؛ ذلك الدور الذي يقوم ، من جهة على إبداع فكر وفن وعمارة وصناعة شعبية تتسم بالأصالة والذوق. ومن جهة ثانية ، على توطيد الصلات الثقافية والإنسانية بين مختلف اجزاء العالم القديم بإبداع الابجدية إحدى أبرز المكتشفات البشرية إن لم تكن أبرزها على الإطلاق .

ويحضرني ، ونحن مازلنا في صدد الاصالة والتفرد - أن أورد ماتركته في نفس العالمة الفرنسية السيدة « بورد » زيارة القطر العربي السوري .

قالت السيدة « بورد » :
«إن انطباعي قوي جداً (عن بلادكم) ففيها أصالة عميقة واستمرار تاريخي وحيوية معاصرة . وهذه الخصائص بذاتها تسبغ على سورية تفرداً رائعاً في عالمنا الذي يفقد روحانيته . »

النشاط الاثري في سورية يتسع وينتشر من الجزيرة إلى الفرات الى وسط البلاد وباديتها والساحل السوري حتى أقصى الجنوب ، والمديرية العامة للآثار

والمتاحف تبدأ منـذ وقت بأسلوب جـديد في عمليات التنقيب الاثري ، وهـو أسلوب المشاركـة ، أومايسمي بالبعثـات الاثرية المشتركة العربيـة السورية والاجنبية ، وهي مرحلة انتقال بين البعثات الاجنبية الوطنية الصرفة ، وخطوة أساسية هامة لتبادل الخـبرات وتطوير الكوادر الوطنية . إن كثرة مواقعنا الاثرية وحداثة عهد كوادرنا الوطنية نسبياً في عمليات التنقيب المعقدة ، تجعلنا نرحب بالتعاون مع كوادر تابعة لمؤسسات أثرية أجنبية عريقة في هذا المجال . وقد تكون المقارنة الإفرادية بين عناصرنا والعناصر الاجنبية إيجابية في أحيان كثيرة ، ولكننا نفيد كثيراً من جماعية العمل وتطوير التجهيزات والمخابر وتنوع الاختصاص . ومهما كانت الحال فإننا لاننسى ان أسلوب المشاركة يذلل بالنسبة للبعثات الاجنبية أيضاً عدداً كبيراً من الصعوبات المادية والادارية حتى التقنية في وقت يصعب فيه تأمين الاعتمادات واستجلاب المعاونين حتى في الدول البالغة التطور .

❋ ❋ ❋

وقد تهيأت ظروف مواتية لانشاء بعثة مشتركة عربية سورية فرنسية في (رأس ابن هانيء) شمال اللاذقية . ففي العام ١٩٧٤ كنا نجري في رأس الشمرة مع الزميل نسيب صليبي وطلابنا عملية مشتركة محدودة مع أثريين فرنسيين هما (جاك لاكارس) وزوجته (اليزابيت لاغارس) . وكانت التجربة مشجعة . وكانت على بعد خمسة كيلو مترات منـا إلى الغرب تجرى أعمـال إنشاءات سياحية في رأس ابن هانيء كشفت أوابد أثرية مغيبة وأظهرت في عام ١٩٧٣ مدفنا أوغاريتيا كشف عنه الزميل الاستاذ قاسم طوير .

ورأس ابن هانيء ابرز رؤوس الساحـل السوري ، يقع على بعـد ١٠ كم

شمال اللاذقية ، هو بقعة جميلة جداً يكتنفها بحر ازرق وبلاجات بديعة ، ويطل من أفقه البعيد جبل الاقرع « كاسيوس » وقد اختير هذا الرأس موقعاً لفندق سياحي دولي المواصفات ولمدينة سياحية تخترقها طرقات عريضة . وكان البدء بالفندق في أعلى نقطة من الرأس التي تبين أنها تل أثري كبير وتلان صغيران كان اشار إلى وجودهما من قبل الاستاذ جبرائيل سعادة ، وارتطمت الآليات الثقيلة بجدران يصل سمكها إلى متر ونصف تشبه بنيتها الجدران المعروفة في رأس الشمرة فما العمل ؟ .

لقد نقل موقع الفندق إلى القسم الرملي الجنوبي من الرأس بإصرار من المديرية العامة للآثار والمتاحف ، وبتجاوب من السلطات المعنية ، وخصص التل الاثري وجواره بالمديرية العامة للآثار والمتاحف على ان يخضع إنشاء المدينة السياحية وطرقها لرقابة السلطات الاثرية التي كان عليها أن تتحرك بسرعة قبل أن تزيل الجرافات كل شيء . كان الوقت عاملاً هاماً . وثمة قطاع هام من التل الاثري نفسه مهدد بشق طريق دولية عريضة تمر من جنوبه بينه وبين الموقع الجديد للفندق ، ولابد من استجلاء خباياه قبل فوات الاوان .

وحدثت ظروف بالنسبة للعمل المشترك في رأس الشمرة لامجال للتفصيل فيها حالياً ، وعرض علينا إنشاء بعثة إنقاذ مشتركة عربية سورية فرنسية ، ووقع السيد المدير العام للآثار والمتاحف الدكتور عفيف بهنسي اتفاقية بين المديرية العامة للآثار والمتاحف وبين لجنة البعثات الاثرية بالإدارة الثقافية بالخارجية الفرنسية بإنشاء بعثة أثرية عربية سورية فرنسية للعمل في رأس ابن هانيء يديرها من الجانب السوري الدكتور عدنان البني مدير التنقيب والدراسات الاثرية ، ومن الجانب الفرنسي الاستاذ جاك لاغارس الملحق في

المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا ، وتضم أعضاء عرباً سوريين وفرنسيين يتعاونون جميعاً في الدراسة الاثرية والجيولوجية والجيومورفولوجية والجيوفيزيائية لرأس ابن هانيء . وقد أدت البعثة في الرأس المذكور أربعة مواسم حتى الآن ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ استغرق كل موسم ماعدا الموسم الاول حوالي ثلاثة اشهر (حزيران ، تموز ، آب) مع فترة متممة في أواخر عام ١٩٧٧ .

اسهم في المواسم الآنفة الذكر من العرب السوريين من موظفين في الآثار وغير الموظفين السادة والسيدات والاوانس :

د . عدنان البني ، نسيب صليبي ، بدر الدجاني ، رامز ديب حوش ، حنان المدرس ليلى بدر ، سحر الحسامي ، مي توما ، نابغة السيوفي ، محمد الرومي ، محمد مكي حسن زرقش ، محمد فارس ، أنور عبد الغفور ، إحسان هندي ، وعدد من الطلبة خريجي قسم الآثار بجامعة دمشق وطالبتان لبنانيتان . . .

كما أسهم من الجانب الفرنسي السادة والسيدات والاوانس :

جاك لاغارس ، اليزابيت لاغارس ، بول غارزنسكي ، آني كوبيه ، رولاند دوبرتيسون ، جاك كلود دوكدر ، بيير لويش ، بيير بورد روي ، دوغلاس كينيدي ، وكذلك جول بوسويه وجان سانلافيل .

وليس المجال متسعاً لذكر كثيرين قدموا لعملنا الاثري ماكتب له النجاح وأولهم عمالنا الذين وصل عددهم أحياناً الى قرابة مائة عامل وعاملة .

❋ ❋ ❋

إن مايسمى حالياً باسم رأس ابن هانيء (باسم القرية القريبة منه) كان في وقت مايعرف أيضاً باسم « رأس الفنار » وهو عبارة عن شبه جزيرة ممتدة في البحر من الشرق إلى الغرب بطول يقرب من ثلاثة كيلو مترات ،

وعرض وسطي حوالي نصف كيلومتر يصل إلى حوالي كيلو متر من الجهة الشرقية.
القسم الغربي من شبه الجزيرة صخري مرتفع في الجهة الشمالية بشكل جروف منكسرة. في أساس شبه الجزيرة أساس حواري ميوسيني أو ايوسيني سابق للدور الرابع الطبقي وفوقه طبقة حوارية رمليه صفراء مقاومة لاتصاح كثيراً للبناء، توضعت على مايظهر خلال الفترة ما بين الجمودية المعروفة باسم « مندل ريس » وتغطي هذه الطبقة تربة رملية حمراء غير سميكة. وفي القسم الشرقي من شبه الجزيرة، تختفي الطبقة الحوارية بخط جنوبي غربي وشمالي شرقي، تحت رمال كثيفة نسبياً ترسم خليجين، الشمالي المعروف بالقبان صغير نسبياً محصور بين بروزين صخريين وهو محمي بشكل جيد وفيه على مايرجح كان المرفأ الرئيسي لموقع ابن هانيء. أما الجنوبي فهو واسع يتصل برأس الخضر وهو اكثر تعرضاً للأنواء وأقل صلاحية للملاحة بسبب الارصفة الصخرية القائمة فيه. وكانت شبه جزيرة ابن هانيء بالاصل عبارة عن جزيرة اتصلت باليابسة بذراعين رمليين (تمبولو مزدوج) كان أثرهما واضحاً حتى وقت قريب قبل عمل الجرافات (ارتفاع الشمال حوالي ٩ م) وكان كل ذراع يحيط بأحد الخليجين وبينهما منطقة واطئة تمتلىء بالمياه شتاء.

ولقد وجدنا رصيفاً ممتداً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي وأرصفة متوازية بشكل السنة في البحر وهذه الارصفة كلها مشيدة من كتل الحوار الرملي، وقد غطست جزئياً فيما بعد وعمل فيها نحات البحر حتى اقتطفها على مستوى + ٨٠ سم فوق المستوى الحالي للبحر، والتحمت كتلتها البحرية بيولوجيا بالاشنيات والصدفيات الدقيقة، ثم ارتفع مستوى البحر إلى + ١،٥٠ م عن المستوى الحالي، وقطع ذراع بحري القسم الصخري من ابن هانيء عن اليابسة ثم ملأت الرمال البحرية هذا الذراع البحري، ثم اخذ مستوى البحر

ينخفض مشكلا الذراعين الرمليين وبينهما القسم المنخفض وهو الشكل الذي بقي حتى الآن .

لسنا الان في صدد تفصيل الاسباب الطبيعية من بحرية وبرية الارتفاع وانخفاض مستوى البحر . إن الميل العام للشاطيء السوري- اللبناني يميل بشكل عام نحو الارتفاع ويتخلل ذلك فترات ينعكس فيها الامر . ومن المحتمل أن ارتفاع مستوى البحر من + ٨٠ سم عن المستوى الحالي إلى + ١٫٥٠ م قد حصل في مطلع العهد الهيلينستي ، وتشكل ذلك التوضع الرملي الكثيف الذي احدث شبه الجزيرة (أوما يسمى بالتومبولو) من جديد . و ثمة دلائل على معاودة طغيان البحر على القسم الرملي من شبه جزيرة ابن هانيء في القرون الميلادية الثلاثة الاولى .

⁂

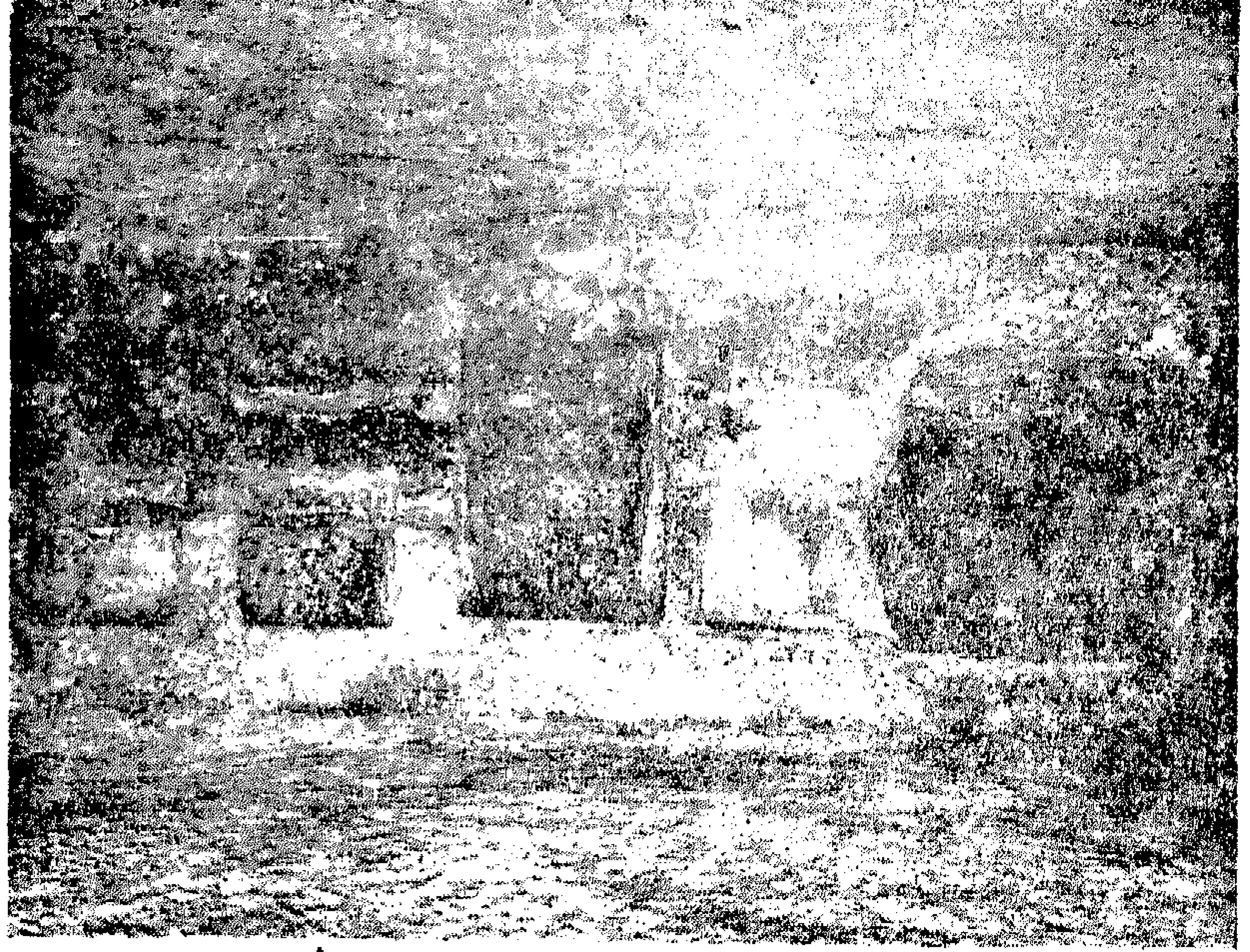
وحوالي نهاية القرن التاسع عشر ، مر العالم الفرنسي الشهير (رينيه دوسو) فرأى في رأس ابن هانيء مسرحاً ومعبداً وقدر أن هذا الرأس هو مدينة « ديوسبوليس » المذكورة في « الستاديارم » وهو دليل للبحارة اليونان .

أما الوضع الذي كان عليه موقع ابن هانيء في مطلع القرن العشرين فلا يتجاوز بعض أقسام مزروعة وممالح محدودة على الشاطىء الصخري الشمالي . وكانت هناك بقايا أسوار ضخمة ظاهرة ابرزها في الجهة الغربية (حيث يقوم السور الغربي) كانت تقتلع وتنقل على الجمال لبناء بيوت في اللاذقية والقرى المجاورة . وقد استقينا ذلك من بعض المسنين واكد الامر احد النصوص .

ولكن هل كانت البقايا التي ذكرها (دوسو) اوبقايا السور الغربي هي الوحيدة في رأس ابن هانيء ؟ لا . لقد كان ولم يزل حتى الان المدفن الهيلينستي الضخم المعروف بمدفن القبان ، وكان بالاصل تحت ركام ترابي (تومولوس)



« جانب من الأسوار المكتشفة في ابن هانيء »



« داخل من مدفن هيلينستي وجد في القسم الغربي من راس ابن هانيء »

على مايظن وقد حول إلى كنيسة في العهد البيزنطي . ويضاف إلى هذا المدفن مدافن منقورة في الطبقة الصخرية ، منها مدفن ديمتريايس غوثينوس المكتشف بطريق المصادفة عام ١٩٦٥ وقد رأينا في القسم الغربي من رأس ابن هانيء مدفنين آخرين مماثلين منقورين فيالصخر وفي كل منهما معازب للدفن .



« جانب من الأسوار المكتشفة في ابن هانيء »

وعلى الشاطيء الجنوبي وعلى الشاطيء الشمالي بعض الارصفة الحجرية الممتدة داخل البحر التي المحنا لها من قبل ولايمكن تحديد زمنها حالياً . يضاف إلى ذلك آبار كثيرة ضخمة ويكون قسم من البئر صخرياً والقسم الآخر مشيداً بالحجارة على الواجح ولم تزل فيها المياه .

ولانتسى التل الاثرى والتلين الصغيرين وكذلك المدفن الاوغاريتي وكنا أوردنا شيئاً عن ذلك في مطلع بحثنا .

※ ※ ※

وكانت الهيئات المختصة قد استملكت جل أراضي رأس ابن هانيء لصالح العمل السياحي وخصت المديرية العامة للآثار والمتاحف بالقسم الاوسط الذي يضم التل الاثري وملحقاته . وبمناسبة تحديد القسم الذي يخص الاثار تجمعت لدينا الوثائق اللازمة للبدء بالعمل من مخططات فوتوغرامترية ومساحية وعقارية وبدأنا أعمال المسح المفصل والتربيع في ١٣ تموز ١٩٧٥ ونظراً لطول الرأس قسمناه إلى قطاعات طولانية عـــرض كل منها ٤٠٠ م وسميناها (آ، ب ، ج ،د ،الخ) وقسمنا كلا من هذه القطاعات إلى مربعات (١٠×١٠)م وأشرنا إليها بالحروف A. B. C. D. E. الخ من الغرب إلى الشرق وبالارقام ١ ، ٢ ، ٣ الخ من الجنوب الى الشمال . ومن اجل الدقة قسمنا كل مربع الى اربعة مربعات (٥ × ٥) م ميزناها بوضعها الجغرافي شمال – شرقي ، جنوب غربي الخ .

وبعد ايام ، وفي السادس عشر من تموز ١٩٧٥ بالدقة اصبحنا نستطيع البدء بالتنقيب الذي سيستمر حتى غاية آب، ويتجدد كما أسلفنا كل عام حتى هذا العام ، وقد يستمر اعواماً كثيرة اخرى .

كان من البدهي ان نبدأ بالقطاع (هـ) الذي منه التل فهو اعلى اقسام الرأس (حوالي + ٩ م) ولان فيه معالم ضخمة وصفات اثرية جديدة ظهرت خلال التمهيد لإنشاء الفندق ولان الفندق بجواره مباشرة ، ولان الطريق الجديدة جنوبه ستقتطع منه قطعة كبيرة اعتباراً من ١٩٧٦ . وخلال هذه المواسم الاربعة

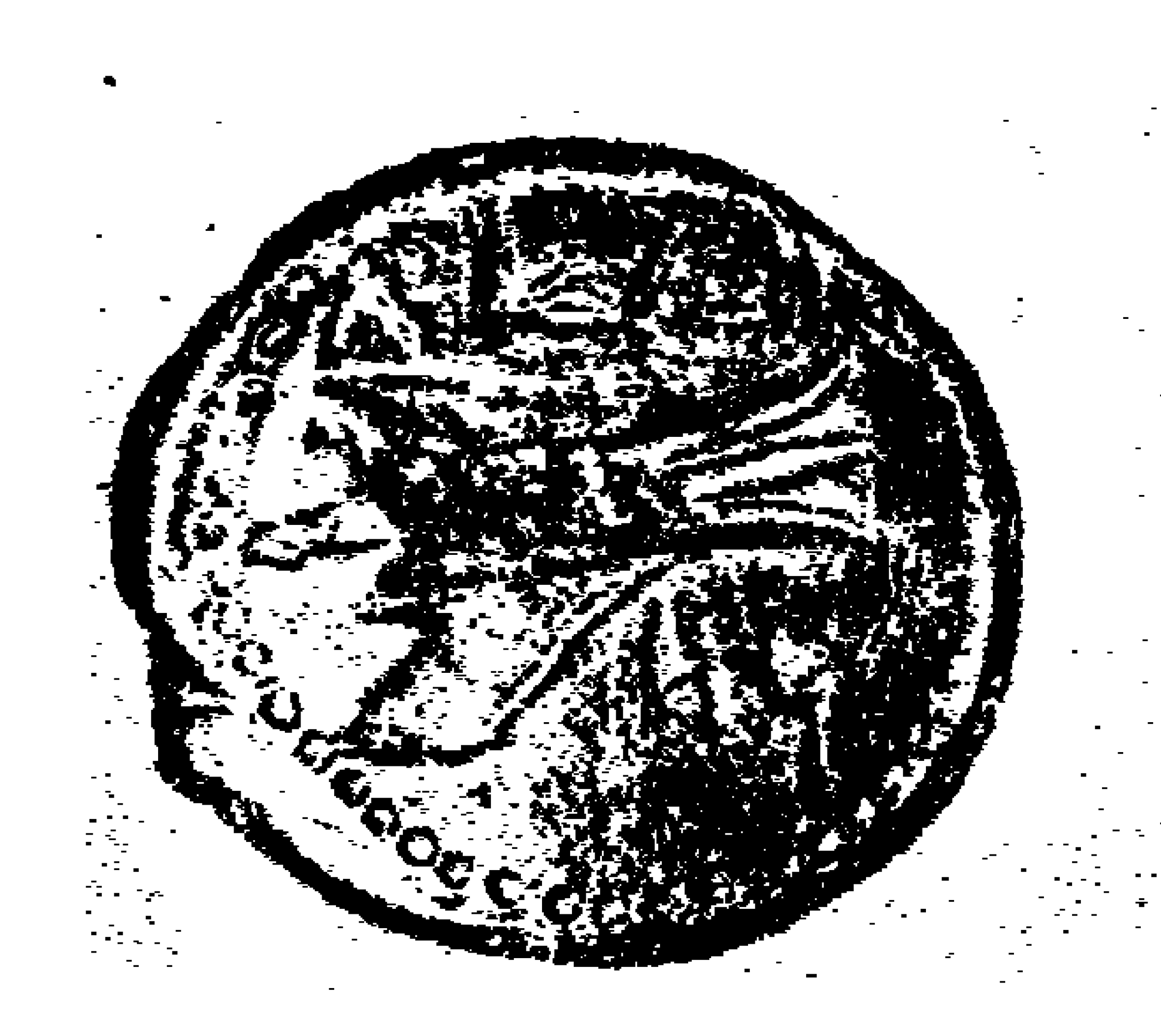
أنجز التنقيب جزئياً او كلياً في حوالي ثمانين مربعاً (١٠ × ١٠) م من هذا القطاع ، والتل امتداده نحو الشاطيء الشمالي ونفذت اسبار عديدة . وعقب هذا الموسم يمكننا ان نلخص الوضع الطبقي والكرونولوجي بما يلي من الادنى الى الاعلى :

- نصلات صوانية من نماذج الدور الحجري الجديد (حوالي الالف السابع قبل الميلاد) توجد غير متوضعة في تربة نهرية قدتكون مجلوبة من مكان آخر.
- كسرات فخارية من أوان بسيطة تعود لعصر البرونز القديم الالف الثالث قبل الميلاد ، وجدت مجتمعة في ركام الأسوار شرقي التل ، ولايمكن حالياً معرفة ما اذا كانت مرتبطة بنشأة معينة او أنها مجلوبة مع تربة منقولة من مكان آخر .
- سوية فيها منشآت معمارية ولقى ورقم أوغاريتية وبابلية تعود لعصر البرونز الحديث الثالث (١٤٠٠ – ١٣٠٠ – ١٢٠٠ ق . م .) مرتبطة بتربة حمراء غضارية . وهذه السوية التي تتميز فيها مرحلتان مبدئياً متوقفة بهجمة شعوب البحر .
- سوية فيها منشآت معمارية وفخار ولقى ، تعود لعصر الحديد الاول (١٢٠٠ – ٩٠٠ ق .) تتميز فيها ثلاث مراحل مبدئياً وهي مرتبطة بتربة سمراء .
- سوية كثيرة الفخار والمواد العضوية لم نتعرف فيها حتى الآن على معالم معمارية ، وهذه السوية تعود لعصر الحديد الثاني (٩٠٠ – ٦٠٠ ق . م) وهي مرتبطة بتربة رمادية ضاربة للسواد . ويظهر أن هذه السوية قد توقفت بالاحتلال الفارسي للساحل السوري ، ولعل هذا العهد الفارسي ترك بعض الآثار في

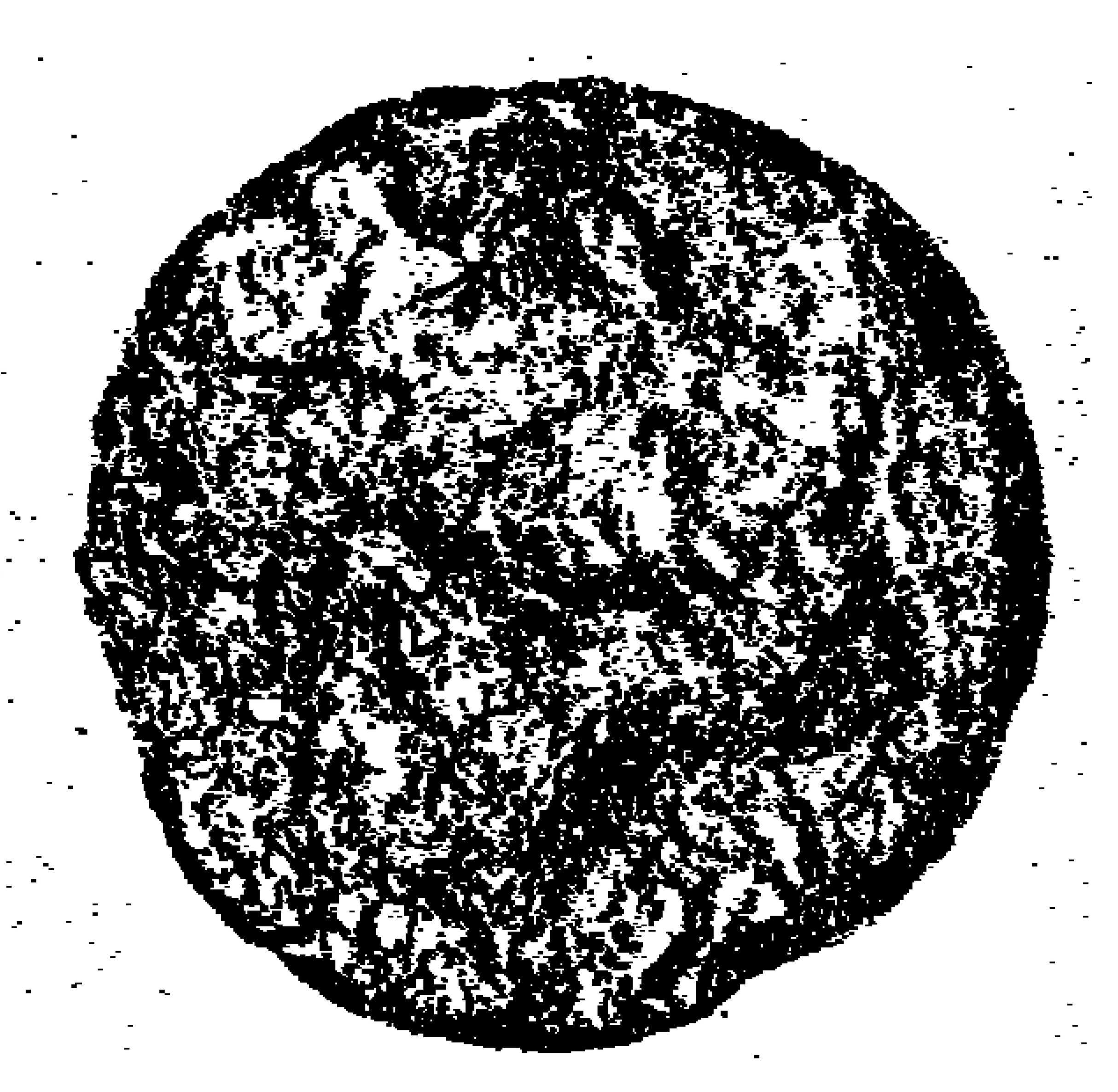
أماكن أخرى من الرأس .

- سوية هيلينستية تمتد في التل وخارجه وهي ذات منشآت ضخمة حصينة دفاعية ومرفأية ومساكن ومدافن وفخار غزير نجده في حفر عميقة وفي كل مكان تقريباً ولقى كثيرة وخاصة العملة . ولاتخلو من النصوص المنقوشة وهي زمنيا تمتد من حوالي فتح الاسكندر (٣٣٣ ق . م .) حتى الفتح الروماني (٦٤ / ٦٣ ق . م .) وفيها فترتان إحداهما تم فيها الاحتلال البطلمي . وقد انقطعت هذه السوية بسبب طغيان البحر .





« نقد ارووادي من ابن هانيء القرن الثاني قبل الميلاد »





« نقد لسلوقوس مؤسس الدولة السلوقية في سورية »

- سوية رومانية متأخرة وبيزنطية تستخدم كثيرا البقايا المعمارية الهيلنستية ممتدة على التل وعلى أقسام كثيرة خارجية • معززة بالمنشآت والفخار واللقى

مع عملة كثيرة وهي مؤرخة من القرن الرابع الميلادي حتى عهد جوستنيان ويرجح أنها آخر مراحل سكن الرأس وأنها انقطعت بالزلزال الذي دمر انطاكية عام ٥٢٨ ويمكن أن تميز فيها فترتان بدلالة العملة وبعض الدلالات المعمارية .

إن هذا التقويم المبدئي والتحليل الطبقي هو في الواقع حتى الآن صالح للتل وقطاعة (هـ) والمواقع المتبقية فيه . وبالنسبة للعهدين الهيلينستي والروماني البيزنطي صالح بالنسبة للموقع كله أو على الاقل للقطاعات (د ـ هـ ـ و) وسنحاول تلخيص أهم الاكتشافات في كل من القطاعات الثلاثة .

القطاع هـ

اهم شيء تم الوقوع عليه في هذا القطاع حتى الآن قصران الأكبر من عصر البرونز الحديث الثاني والثالث (الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد) موجود في الجنوب وهو الذي أحدث المرتفع الذي سميناه تلاً ولم ينته التنقيب فيه بعد ، ولكن يظن أننا عرفنا حدوده الجنوبية والشرقية ومخططه بشكل صحيح على الرغم مما عانى من نهب حجارته في العهود التالية له . والقصر موجه بزواياه إلى الجهات الأربع ، محاط من الجهة الشرقية على الأقل بسور يذكرنا بسور رأس الشمرة وكان بناء القصر بالأصل على سطوح متدرجة مهيئة برمل مجلوب وتراب ، ومحصور بأساسات عميقة حسب تضاريس شبه الجزيرة وإشرافه إلى البحر الجنوبي ، وتأمين التمتع بالمنظر الجميل ونسيم البحر المنعش الذي يهب حوالي الظهيرة كل يوم .

في القصر الجنوبي بالأصل الواسع (٨٥ × ٥٥ م) شبكة جدران عريضة (١و٢٠ — ١و٥٠ م) متعامدة فيما بينها ومشيدة بالحجر الغشيم المغموس بالتراب الغضاري الاحمر البني . وأطراف الجدران المماثلة في أكثر تفاصيلها لجدران رأس الشمرة كانت مربوطة مثلها بجذوع خشبية زائلة حالياً كانت تؤلف مدماكاً ممتداً

من أول الجدار الى آخره . وهذه الشبكة من الجدران كانت تؤلف بالاصل باحة مكشوفة مستطيلة واسعة « ١١ × ١٧ م » أو أكثر ، محاطة بالمرات والحجرات ، وبعضها له مداخل مماثلة لمداخل الحجرات في أوغاريت المزودة بقاعدتي عمودين يضاف الى ذلك مجرورا مياه متجهان من الشمال الغربي ، إلى الجنوب الشرقي ، ومنتفعات كالمألوفة في رأس الشمرة وبيوتها . هذا وقد ظهرت في المواسم الاخيرة « ١٩٧٨ » الزاوية الجنوبية الشرقيه وتبين أن حجارتها قد تآكلت بمياه البحر ، الامر الذي يدل على أن القصر كان مشيداً مباشرة على الماء .

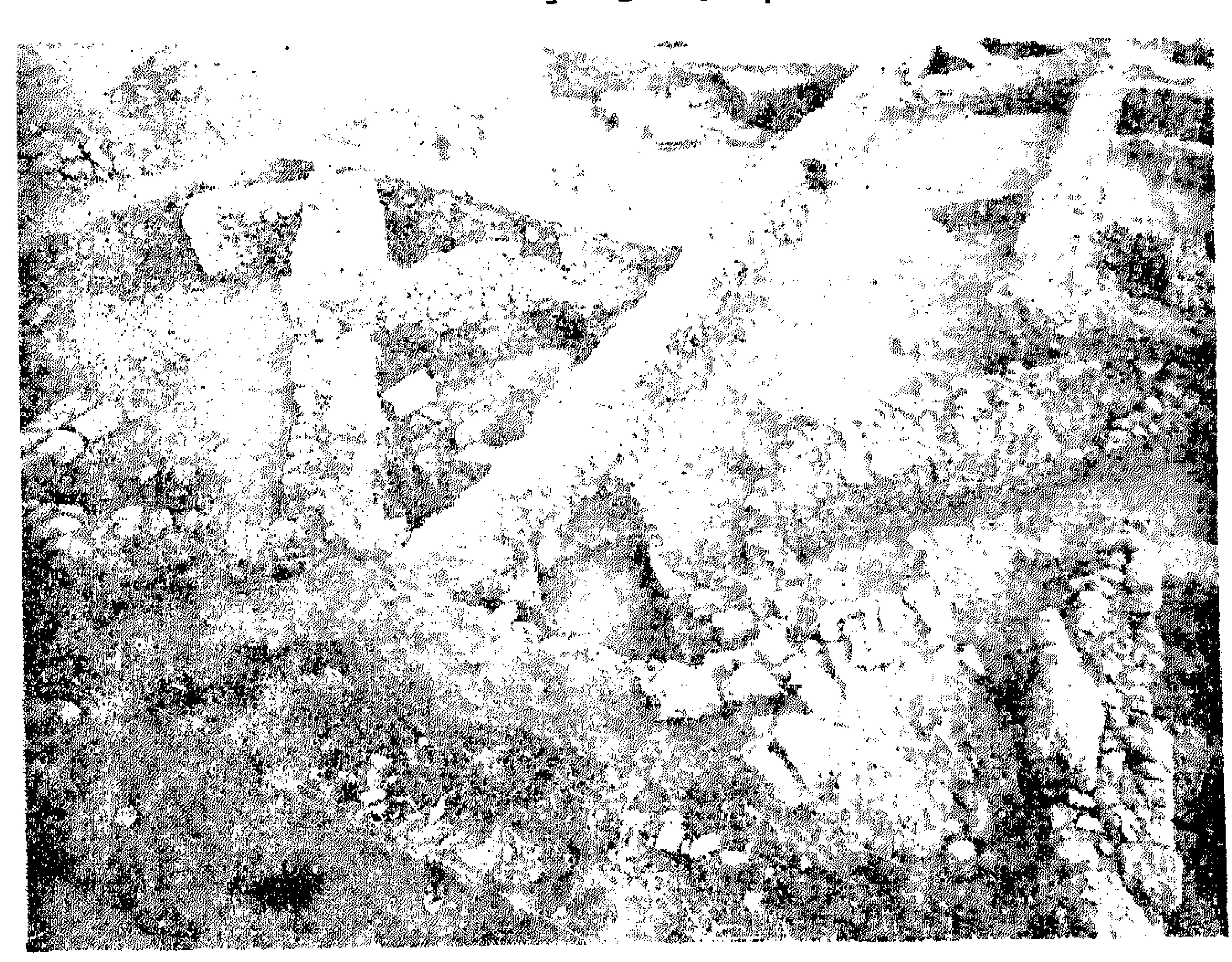
وقد كانت نهاية حياة القصر ، على مايبدو بنهب دقيق ثم حريق أتى على بعض أقسامه . ومن المحتمل أن يكون القصر قد هجر وأفرغ من محتوياته لاحد الاسباب كالإصلاح والتعديل أو اثر تهديد شعوب البحر لمنطقة شرقي البحر المتوسط في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي . وفي أوغاريت عثر على رسالة من ملك آلاشيا « قبرص » إلى ملك أوغاريت ينصحه فيها ان ينسحب إلى مدن داخلية قد يكون حصنها .

والشيء الذي يلفت النظر في هذا القصر هو قلة اللقى حتى الفخار العادي ، الامر الذي قد يفسر كما ذكرنا بإفراغ القصر من محتوياته . على أن القليل المتبقي من اللقى والفخار هو واضح من حيث تأريخه فليس فيه شيء من البرونز الحديث الاول والثالث ، ومن ذلك الجرار الاوغاريتية الطراز ذات الرقاب القصيرة والقعر المحدب ، والطاسات القبرصية (التي كانت تعرف باسم طاسات الحليب) أو « وايت سليب » وبعض الاواني الميسينية وأباريق الزيت المدبدبة ، والفخار ذو القعر الحلقي « بيز رينغ » الخ . . وأكثر النماذج من النوع المتأخر العهد ، ولابد من التنوية بكؤوس فخارية وقدور لاتشبه أمثالها في رأس الشمرة .

* * *



« ختم لجرة من جزيرة رودس »



« منظر عام لأحد أجنحة القصر الملكي الاوغاريتي في رأس ابن هانيء »

أما القصر الشمالي فقد هدانا إليه ، في الواقع ، وجود المدفن الاوغاريتي على الشاطيء الشمالي . فقد كان في برنامج العام ۱۹۷۷ أن نقوم ببعض التحريات في موقع المدفن المذكور . لان المدافـن الاوغاريتية كما هـــو معروف تكون ضمن البيوت والقصور وتؤلف جزءاً أساسياً من اجزائها . كما أن بعض أعمال التسوية والتجريف الحديثة قد اظهرت بعض المعالم على السطح .

بدانا في موسم ۱۹۷۷ بـــداءة محدودة فافتتحنا ٣ أجزاء من المربعين « E85, E86 » وفي موسم ۱۹۷۸ توسعنا على كامل سطح المربعين المذكورين فظهرت معنا في الموسمين بعض معالم هيلينستية سطحية وفخار هيلينستي وحفر ملأى بفخار عصر الحديد الاول . ولكن الشيء الاساسي هو عبارة عن جزء من قصر . وهذا القصر موجه بزواياه إلى الجهات الاربع كالقصر الجنوبي، ومماثل له ايضاً من حيث مخططه العام ومن حيث عمارة جدرانه وتفاصيلها كالحجارة الغشيمة والمونة، ومونه الارضيات ويبلغ سمك الجدران في القصر الشمالي حوالي المتر دون كسوة ويصل الى ١٫١٠ م مع الكسوة وهذه الكسوة كلسية بعض أقسامها ، ذائبة من شدة الحريق الذي قضى على حياة القصر والذي سنعود له فيما بعد . وفي كسوة الجدران اقسام مختلفة اللون ، إما بسبب الحريق وإما بنتيجة إصلاحات .

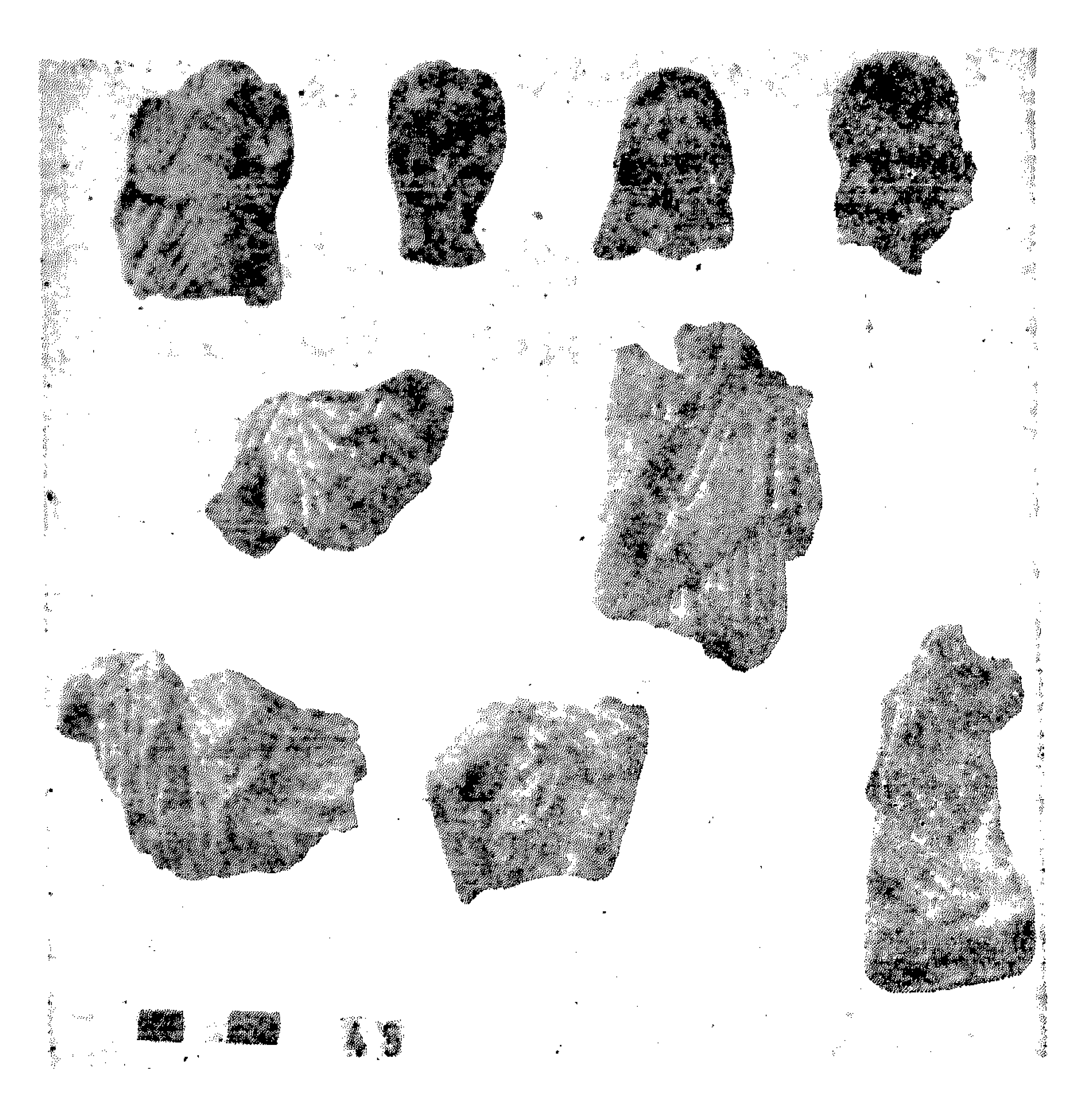
مايزال امامنا بعض الوقت حتى نعرف تفاصيل القصر الداخلي وامتداده ولكننا نتصور انه اصغر من القصر الجنوبي مبدئياً . والتفاصيل المعروفة منه حتى الآن عبارة عن دهليز في الجهة الشمالية الغربية منه درج دائر ، محفوظ منه سبع درجات « L. I » والى الجنوب باحة سماويـة لم يتم التنقيب فيها بعـــد « L. II, » وهذه الباحة المبلطة اصلاً ينطلق من زاويتها الجنوبية الشرقية دهليز آخر ينتهي بدرج « L. VI. » وقد يكون له باب يغلق على الباحة « ؟ » ، وهناك

الردهة التي يتوسطها المدفن « L. VL. » ومدخلها إلى الشمال وفيها سويتان واضحتان . يضاف إلى ذلك كله ثلاث حجرات واحدة ضخمة « L. IV » ومدخلها إلى الجنوب الغربي وقد كشف منها حوالي ستة امتار حتى الآن . وفي جميع هذه الاقسام تقريباً وجدت رقم مسمارية كاملة او اجزاء رقم اكثرها في غير موضعه متساقط من الجدران المنهارة ومتناثر هنا وهناك وبعضها واقع في موضعه ، كما هي الحال في الحجرة « L,VIII » حيث وجدت بعض الرقم ملتصقة بكلسة الجدران المحترقة وكانت على مايبدو في طاقات اوعلى رفوف ومع الرقم كسر اواني من الالباستر وجرار فخار .

ويلاحظ ان كل ارضيات الحجرات مخترقة بحفر للبحث عن مطمورات او عن مدافن . وبدلالة الفخار نعرف ان هذا العمل قد تم في عصر الحديد الاول وعلى عدة مرات « خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد » . وكان هذا القصر الشمالي قد انتهب نهباًشبه منهجي ثم أحرق بحريق هائل ، فتداعت الاقسام العليا من جدرانه وسالت كسوة جدرانه على الارضيات حاملة معها احياناً خشب القوف المحترق كما في الدهليز « L. IV » والباحة « L II » والحجرة . « »

ويبدو ان محتويات القصر كانت غنية بالاصل ، وذلك من بقايا اواني الالباستر وغيرها من اللقى التي نجت من النهب فالخاتم الفضي المزين بحيوان راكض في « L. III »و الرأس العاجي الصغير للربة حتحور في « L. IV » وغيرها .

اما الرقم واجزاء الرقم التى كشفت في موسمي ١٩٧٧ و ١٩٧٨ فقد قارب عددها الخمسين وهي محررة بالابجدية الاوغاريتية وبالمقطعية البابلية وبعضها في وضع سيء بسبب الحريق . وهذه الرقم ذات اهمية غير اعتيادية من حيث كونها اول مجموعة رقم اوغاريتية وجدت حتى الان خارج اوغاريت من



« بعض الدمى من حوالي القرن الثاني قبل الميلاد »

حيث محتواها وهي على فئات .

الفئة الاولى : مراسلات داخلية بين أهل هذه المدينة ومدينة أوغاريت.

الفئة الثانية : مراسلات مع ممالك خارج أوغاريت .

الفئة الثالثة : من النصوص والرقم ، دينية الطابع تعطينا معلومات جديدة عن عوالم الأرباب الكنعانية وعن الطقوس وعن الاساطير التي كانت في الواقع من مصادر التفكير الديني في هذه المنطقة من العالم. وبعضها طبية سحرية .

الفئة الرابعة : هامة أيضاً لانها تختص بالعلاقات الاقتصادية ويمكن إدراجها تحت فئة الرقم الاقتصادية .

إن مضامين الرقم في موسم ١٩٧٧ كانت تبعث على الدهشة ويمكن تلخيصها كما يلي :

إن جزء الرقيم (هاني ٧٧ / ٢١) يذكر شد قادش (أي شد المقدس) وبذلك يضاف الى مجمع الأرباب الاوغاريتي اسم رب جديد .

أما رقم ١٩٧٨ فقد فاقت على سابقتها في الموسم ١٩٧٧ وقد هنأنا الاختصاصي الكبير بالاوغاريتية الاستاذ اندره كاكو بهذه الاكتشافات في رسالة بتاريخ ٢ آب ١٩٧٨ وذكر أن هذه النصوص الجديدة عناصر هامة جداً وأن بعضها يجب أن يتركه الإنسان تحت مخدته أسابيع .

ويمكن أن نجمل بعض محتويات الرقم الأوغاريتية في الموسم الاخير فنذكر أولاً رسالة ملكية (١٢ / ٧٨) من ملك أوغاريتي أو ولي عهد الى أمه (لملكت أمي) يذكر فيها شخصياً اسمه عبد الملك . ورسالة ملكية أخرى (٣ / ٧٨) تذكر أهل أوغاريت (أغوتيم) وملك مصر (ملك مصرم) كما تذكر البيت المالك في اوغاريت وانف (حوت اغوت وأف) ومن المحتمل ان رأس ابن هانيء هو موقع انف ، خاصة وان شكل شبه جزيرة ابن هانيء هو اشبه بالأنف منه بالرأس .

وقبل أن ننجز الحديث عن سورية عصر البرونز لابد أن نذكر أن سبرا تم إجراؤه في المربع (076) قد أوقعنا على بناء من عصر البرونز الحديث أيضاً ، جدرانه حسنة الحفظ عرضها متر وهي مكسوة كالارضيات بمونة نظيفة صقيلة ، وقد توضح التنقيبات المقبلة هوية هذا البناء الذي تخترقه حفر ملأى بالفخار الهيلينستي وسنعود لذلك مرة ثانية .

يمكننا أن نلخص الوضع في سوية البرونز الحديث المتركزة كلها تقريباً في

القطاع هـ E باكتشاف مدينة معاصرة لأوغاريت ممتدة إلى ١٠ – ١٥ هكتاراً (تملأ كامل سوية ٦ أمتار عن سطح البحر) وهـــذه المدينة التي تتكلم لغـــة اوغاريت متحدة معها بطراز العمارة والتنظيم الداخلي وقد تكون المقر الصيفي لملوك أوغاريت أو مركزاً متقدماً لهم لمراقبة التجارة البحريـة أو لاهــداف استراتيجية . وليس من المستبعد بل من المرجح حتى الآن أن تكون هذه المدينة هي مدينـة الانـف (آفو) المـذكورة مـراراً في النصوص الاوغاريتية والمقرونة مع اوغاريت حيث تذكر « سلالة أوغاريت وآفو » .



من دوار الحضارة

الاستاذ
سهيل عثمان

لعل التجمعات الانسانية ثلاث بالنسبة لامتلاك الحضارة ، منها المجتمعات المتحضرة تحضراً متقدماً . ومنها المجتمعات التي عرفت التقدم الحضاري في عصر من العصور طال أوقصر ، ثم ارتدت الى حال هي إما مختلفة عن حال الحضارة أوتمثل مستوى غير رفيع من مستوياتها ومع ذلك لم تندثربل ظلت تحيا وتتفاعل. والتجمع الثالث هو التجمع الذي يمثل البشر الذين لم يتحضروا بعد ، أولم يبلغوا عبر التاريخ الانساني شأوا عالياً في الحضارة .

وإن كلا من هذه الجماعات الثلاث يمكن أن تمتلىء بالقلق حول المسألة الحضارية . فالزمرة الاولى وهي زمرة المتقدمين ينشغل تفكيرها بقيمة الحضارة ومدى استمرارها وكيفية الاحتفاظ بها وتطويرها ، على الرغم مما يتبادر إلى الذهن لاول وهلة من ان الحضارة المتقدمة مطمئنة إلى تفوقها ومكانتها اطمئناناً يحول بينها وبين القلق على مصيرها وقيمتها فالغرور الحضاري ليس مطبقاً بشكل دائم على تفكير المتقدمين أجمعهم . .

وأما الزمرة الثانية وأعني بها زمرة الذين ارتفعوا ثم تدنوا مع احتفاظ تجمعهم بوجوده ، فهي أشد قلقاً وبخاصة اذا حاولت النهضة من جديد لتستعيد دورها الحضاري الرائد ، بل يدل هذا القلق حين تعاني منه على بداية النهضة .

وهي في هذه المرحلة تطرح على نفسها أسئلة عديدة تتعلق بالنشاط الحضاري ، منها أسئلة المتقدمين أنفسهم ولكنها مأخوذة من وجهة نظرها أومن الناحية التي تهمها ، ومنها قضية العود الحضاري وهل يمكن أن يتم وماشروطه وما مضمونه ؟ هل هو تكرار للمضمون السابق الذي قدمه التجمع أم أخذ عن الحضارات المستجدة أم مضمون اكثر من هذا وذاك جدة . . . ؟ . واما التجمع الثالث المتأخر دون ان يعرف التقدم الحضاري سابقاً فهو يقلق عندما يستيقظ اوعندماتفرض عليه الظروف أن يتخذموقفاًمن الحضارة وقيمتها وشروط قيامها. ولعل تجمعات الزمرة الثانية هي اشدالتجمعات قلقاً حول المسألة الحضارية • وبخاصة عندما تهم بالعودة الى متابعة التقدم لانها تحس بالذنب والمهانة وتعذيب الضمير مع الفخر والاعتزازبالقدرةالحضارية التي تثبتت لأسلافها وهي موضوع للجذب والشد بين ماض تنتمي اليه وتشعر أنه قد انقضى ، وحاضر تراه دون هذا الماضي بكثيرولايعبر عن كامن قدرتها ومستقبل تتطلع الى سموه فيحول غموض الرؤية بينها وبين الحركة المطمئنة نحو تحقيقه . ولعلي لااواجه بكثير من الاعتراضات اذاقررت ان المجتمع العربي مثل على جماعات الزمرة الثانية هذه فهو قد عرف الارتفاع الحضاري في مرحلة سابقة ثم اصيب بالتدهور ، ثم عاد عن طريق الصعود مرة اخرى ولم يزل في مرحلة المحاولة الآن ولذلك تكثر بين ابنائه التساؤلات حول الحضارة والتقدم .

من هذه التساؤلات كيف تقوم الحضارة ؟

سؤال اجاب عنة ابن خلدون بان اعتبر الحضارة احد الشكلين اللذين تتبدى عليها التجمعات البشرية وهما : الشكل البدوي والشكل الحضري . الحضارة عند ابن خلدون مرادفة للتحضر وترك حياة البداوة وهي ظاهرة اجتماعية

متعددة الوجوه إلا ان القابلة التي تخرجها الى مجال التحقق هي الفاعلية السياسية لعشيرة من العشائر البدوية ، نشطت فيها رابطـة العصبية فحملت ابنـــاءها على التناصر فتغلبت على ماحولها من عشائر والحقتهم بنضالها ثم استولت على المدن او اسست المدن فبدأت حضارتها ناقلة شيوخاً من مستوى الرئاسة العشائرية الى مقام ملوك الدول . فالحضارة والدولة توأمان في الولادة تكمن وراءهما قوة العصبية وهي قوة وهمية كما يرى ابن خلدون ، ولكنها فعالة لتأثيرها على قناعة ابناء العشيرة ومواليها وحلفائها . وتوجد الى جانب العصبية عوامل مساعدة كالدين والاقليم المعتدل وحسن القيادة إلا ان الاساس الذي لابد منه هو فاعلية الجماعة تحت دفع النابض العصبي .

واما توينبي فيرى ان الحضارة تشرق عندما يواجه مجتمع من المجتمعات تحدياً معقولاً لايكون على درجة من الشدة بحيث يسحقه ولايكون في الوقت نفسه تافهاً ، امام مثل هذا التحدي يعمـــل المجتمع النشاط المبدع فيجد حلاً للمشكلة من هذا المستوى اوذاك ويجعله الحل احد المجتمعات الحضارية او المرشحة للحضارة إلا ان الحل الامثل الذي يدخل المجتمع في حمى الحضارة الحقيقية الفعالة هو الحل الذي يحمل إمكانية استمرار الإبداع، لان المجتمع، حين يحل مشكلته الاولى تنبثق امامه مشكلات جديد عليه ان يحلها ، فإذا استمرت قوة الإبداع قادرة على مواجهة تتابع المشكلات بتتابع الحلول المبتدعة دامت حضارة المجتمع فترة زمنية كافية ووصلت إلى رقي رائد وعدت من بين الحضارات المتكاملة . .
والمشكلات التي تتعرض لها المجتمعات متنـــوعة فمنها مشكلات طبيعية ومنها مشكلات إنسانية بحتة . ومن المشكلات الطبيعية التي يمكن ان تتعرض لها المجتمعات مشكلة الجفاف ونقص النباتات والحيوانات المغذية لابناء المجتمع ، وقد

وقعت هذه المشكلة في بداية الحضارة بشكل عام حين ادى انسحاب العصور المطيرة إلى جفاف مناطق واسعة تقع بين إفريقيا وآسيا ، ونقص الغذاء على الجماعات التي كانت تعيش هناك فاجتهدت للحل فمنها من اخفق في حل مشكلته فانقرض ومنها من نجح نجاحاً جزئياً بأن تراجع إلى المناطق المحتفظة بخصبها ، ومنها من نجح نجاحاً تاماً بان تحـــول من مكانه لا ليلحق المناطق المطيرة ولكن ليتمكن من إجراء عملية هامة جديدة وهي الحصول على مواردالعيش عن طريق الزراعة القائمة على الري المنظم عند السومريين والفراعنة اوكسب العيش عن طريق البحر كما هو الحال عند المينويين الذين اتجهوا إلى كسب رزقهم عن طريق البحر ، وقدعرف التاريخ الحضاري تحديات إقليمية اخرى في الشرق الاقصى والقارة الامريكية . واما التحدي الذي هو من طبيعة بشرية فمثل تحـــدي الحضارة الهيلينية ثم المسيحية للمجتمع السوري القديم ومجتمعات الشرق الاوسط القديمة بشكل عام ، وقد ادى هذا التحدي إلى عـــدة ردود فاشلة ثم جاء الرد الناجح المتمثل في الإسلام فنشأت على يـــد العرب الحضارة الإسلامية التي مالبثت ان شاركتهم فيها شعوب شرقية اخرى كثيرة . ويفرد توينبي للدين منزلة رفيعة في نشوء الحضارات وبخاصة في نشوء جيل مـــن الحضارات تلا الجيلين الاول والثاني ، وهو حضارات الجيل الثالث مثل الإسلامية والمسيحية الغربية والمسيحية الشرقية ، وهو يصل احياناً إلى درجة التعميم حتى ليجعل الحضارات ادوات للديانات ، ولكن الأثر الفعال للدين يظهر عنده اكثر مايظهر في حضارات الجيل الثالث . ومادام توينبي قد تحدث عن تحديات البيئة الجغرافية فهو كابن خلدون انتبه إلى دور العوامل البيئية في تكوين الحضارات إلا أنه مثله أيضاً لم يتخذها العامل الوحيد أو الرئيسي ، واذا كان العامـــل الاول عند ابن خلدون في قيام

لدولة والحضارة هو العصبية فإن المحرك الاول للفوز الحضاري عند توينبي هو الابداع المواجه للتحدي ، وإذا كانت العصبية أمراً اجتماعياً يعم أفراد العشيرة فإن الابداع ينشأ عند القلة المتفوقة ذات المعاناة والذكاء ، ولهذا نعد توينبي أقرب إلى نظرية الصفوة من ابن خلدون الذي نعده اجتماعي النظرة أكثر منه ، وقد ربط ابن خلدون بين الحضارة والدولة ربطاً وثيقاً على عكس توينبي الذي لم يجد هذا الارتباط ضرورياً في كل حين وإن لم يهمله إهمالاً تاماً . وعلى كل حال فإن وينبي لايوحد بين مجال الحضارة ومجال الدولة ، فقد توجد في الحضارة الواحدة في الزمن الواحد عدة دول .

وتحضرني إجابة (أنجلز على تساؤلنا الاول ، وهو يرى أن البشرية تبدأ بالوحشية والبربرية كما يرى مورغان ثم تصل المرحلة الحضارية . والفرق بين المراحل الثلاث فرق اقتصادي راجع إلى تطور الإنتاج وأدواته وعلاقاته . الجماعة الوحشية تعيش على تحصيل المنتوجات الطبيعية فهي قاطفة للثمرة صائدة للحيوان والسمك نظراً لبساطة أدواتها وليس عندها ادخار ولاطبقات إذ لايمكن تجميع الثروات ، وفي المرحلة البربرية يكرر الانسان إنتاج المنتوجات الطبيعية عن طريق تربية الحيوان والزراعة وفي هذه المرحلة تبدأ الثروات المتمثلة في القطيع والارض والمحصول ، ويشرع المتنفذون بالاستئثار فتبدأ الملكية الخاصة غريبة في أول الامر ثم يشتد عودها بالتدريج وتتهيأ الامور إلى المرحلة الثالثة وهي الحضارة حيث تتطور أدوات الإنتاج فيصنع الانسان المنتوجات غير الطبيعية أويتوسع في إنتاج مالم تنتجه الطبيعة من لباس وبناء طعام وأثاث ويستخدم المنتوجات الطبيعية كمواد خام لمصنوعاته . ومن ثم تتطور علاقات الانتاج فتزداد الحاجة إلى تشغيل الآخرين واستثمار جهدهم فتعمل الطبقات

المالكة مستعينة بالقوة المسلحة على إقامة الدول التي هـي بحكم نشأتها حامية للنظام الطبقي القائم على استغلال الانسان للانسان مادامـت غـير اشتراكية .
والحضارة يرافقها التوسع في استخدام معدن الحديد كما ترافقها الكتابة ، ويضرب أنجلز الامثلة من تاريخ اليونان والرومان والجرمن وسواهم ليؤكد نظريته التي هي جزء من الماركسية طبعاً وليبين كيف ابتدأت الملكية مشاعاً ثم تخصصت ومع تخصصها ظهر الاسترقاق وانتهت الدساتير العشائرية لتحل محلها الدساتير الحزبية المرتبة لخدمة أصحاب المصالح الواسعة . . ويتفق أنجلز مع ابن خلدون في التأكيد على دور القوة في ولادة الدولة والحضارة وفي الربط المتين بين ظهور كل منها ، وفي إقامتها على عوامـل اجتماعية هي العصبية عند ابن خلدون ، والمصالح الطبقية عند أنجلز ، فكأن الطبقة الماركسية تقابل العشيرة الخلدونية .
وعلى كل حال فان ابن خلدون لم يكن مهملاً لقيمة الظاهرة الاقتصادية وعلاقتها بالحضارة فهو قد عرفها بها إذ رأى ان البداوة تعتمد على الرعي والزراعة فقط وأن الحضارة تعتمد على الصناعة فكان تصنيف ابن خلدون للمراحل هو التصنيف الذي نادى به بعد ئذ مورغان وأنجلز مـع تغيير الاسماء كالبدواة الخلدونية والوحشية والبربرية عند الآخرين وأما اسم الحضارة فمشترك .
وثمت اجابات أخرى عديدة عن تساؤلنا الاول المتعلق بقيام الحضارة ، منها إجابة اشبنغلر الذي يرى ان الحضارة تبدأ حـين تستيقظ الروح الانسانية من خلال أحـد جوانبها ، اي حـين تستيقظ روح امة من الامم في مواجهة مصيرها ، ومن ثم تشع في العطاء لمدة من الزمن ، ويعد كتاب اشبنغلر من الأصول التي اعتمد عليها توينبي في آرائه الحضارية إلا أن اشبنغلر يكاد يتميز بغيبيته الشديدة في هذا المجال .

وأفضل الآن ان اقتصر على هـــذه الاجابات عن السؤال الاول لانتقل الى السؤال الثـاني وهو ما مسيرة الحضارة بعد ولادتها ؟

أما صاحبنا ابن خلدون فيرى ان الحضارة تزدهـــر فترة ثم ماتلبث ان تذوي وتموت . وآلية ذلك لم تعد مجهولة ، فأصحاب العصبية او العشيرة الحاكمة يميلون إلى نعيم الحياة بعد ان استقروا ، إلى الكماليات والمعشية الراضية ، فينفقون المال لشراء السلع المصنوعة على يد الحرفيين المهرة ، ويستدعون البنائين لإقامـــة القصور والنقاشين لزخرفتها، ويميلون إلى الغناء والموسيقاويتبارون في اقتناء الكتب وضم العلماء إليهم ، فتزدهر الحضارة بجوانب نشاطها المختلفة ويزداد عدد السكان فيزداد الانتاج والتبادل .

ولكن هذا النهوض يحمل في أحشائه الجنين الذي سيقتله، إذ تشتد حاجة الجميع الى المال ويشتد الطمع من أجـــل التحصيل ، ويسبق الحكام غيرهم في نمو الحاجة الى المال لأن الملك منهم يتخلص من اعـــوانه السابقين الذين كانوا يرون أنفسهم أنداداً له ، ويحل محلهم المرتزقة الذين يطالبون دائماً بالمزيد ، فيسرف الحاكم في فرض الضرائب ، وقد يدخل السوق ـ بشركائه ـ تاجرا يشتري رخيصاً ويبيع غالياً فتختل الموازين الاقتصادية ويهرب الناس بمهاراتهم وأرزاقهم ، ويضطرب حبل الامن فضلا عن ان ازدحام السكان واكتظاظهم في المدن دون تنظيم يؤديان إلى انتشار القذارات والأوبئة فتميل الحضارة إلى السقوط ، ولكنها لاتسقط الا بسقوط زميلتها الدولة وهي حتما ساقطة لان الحكام المتعاقبين ضعفت عصبيتهم وهمتهم عن احتمال الكفاح فتنهار الدولة ، وتنهار معها حضارتها لينتقل الزمام إلى دولة وحضارة فتيتين . وهكذا نلاحظ وجود نوع من التفكير الجدلي عند ابن خلدون لان الشيء يحمل نقيضه ، كما أنه يربط هنا أيضاً ربطاً وثيقاً

بين الحضارة والدولة . وعمر الحضارة عند ابن خلدون قصير ، فكل حضارة تعيش عمر دولتها الذي لايتجاوز غالباً الاجيال الثلاثة اوالمائة وعشرين عاماً ، ويتساهل ابن خلدون فيقبل ان تختصر إلى مائة سنة ، فحديث ابن خلدون في معظمه ليس عن الحضارات الكبيرة الواسعة كحضارة العرب او الفرس بشكل عام ، بل عن حضارات ودول ذات اصل عشائري قصير النفس وإن صدر عنه مايدل على إدراكه وجود استمرار حضاري أطول وأعقد . ان ابن خلدون قصر اكثر بحثه واستقراآته على ما شاهده اوسمع به عن قرب ولذلك منح كل تلك الاهمية لدول العشائر . . ويظل ابن خلدون اجتماعياً إذ يذكر ان بعض الحكام الطموحين يحاولون في أواخر عمر الدولة ان يعيدوا لها سابق قوتها ، ولكن تأثير محاولاتهم يظل ضعيفاً اذ ان عوامل الهرم قد فعلت فعلها في الدولة والحضارة ولن يستطيع فرد او أفراد ان يعيدوا الفتوة إلى عجوز . . ولا يرى ابن خلدون طريقاً حضارياً صاعداً تقدمياً مستمراً من حضارة إلى اخرى فكل حضارة تنتج عنده بحسب ظروفها وعصبيتها، وقد تكون الحضارة الاحدث أدنى مستوى من حضارة سبقتها زمنياً ، وابن خلدون صاحب عقل حتمي .

ويشبه اشبنغلر ابن خلدون في حتميته اذ يرى ان الحضارة بعد ان تبدأ تزدهر فتمر اولاً بمرحلة الحضارة بالمعنى الدقيق حيث يكون العطاء السخي في اوجه ، ويكون النتاج مترعاً بالبراءة والرجولة والطموح المرهف الذي لايقيم كل شيء على حساب الارباح والخسائر او على منطق المصلحة ، في مرحلة الحضارة ينتشر الدين الوجداني والشعر الذي تختلج به الصدور والفلسفة المرافقة للإنسان وامانيه وآلامه ثم تنقضي هذه المرحلة لتحل محلها مرحلة المدنية حيث يبدو المحصول وفيراً الا أنه سطحي ، فالقدرة التقنية في ازدياد والانتاج المادي في تحسن

ولكن العنصر الوجداني البريء يضمر ويصبح المال معبوداً حقيقياً ، وينتشر الاستعمار وتتراجع تقاليد النبالة لتحل محلها طبائع التجار واصحاب المصارف وتمضي المدينة الصغيرة أو المعقولة وتحل محلها مدينة كبيرة مكتظة بأناس غير منصهرين في جماعة واحدة فكأنهم في معسكر اومحطة مثل نيويورك . ولابد في النهاية من سقوط الحضارة لان الروح التي أنتجتها تجف وتذوي وتموت .

ويستخدم اشبنغلر كابن خلدون العبارات الحيوية مثل الشباب والشيخوخة كما يستخدم التشبيهات المستمدة من تعاقب الفصول فيقول : ربيع الحضارة وصيفها وخريفها وشتاؤها . إلا ان عمر الحضارات التي يهتم بها طويل كالحضارة المصرية القديمة والهلينية والعربية والغربية . . وهي على كل حال ليست كثيرة العدد . . وعنده ان الخطوات التي تمر بها الحضارات هي ذاتها حتى أننا نستطيع ان نجد في مختلف الحضارات شخصيات وظواهر متناظرة التوقيت متشابهة الدور مثل روما ونيويورك ومثل الإسكندر ونابليون ومثل أرسطو وكانت .

واما توينبي فهو ايضاً يعتقد بالازدهار ثم التراجع الذي يعاند ثم ينتهي بالموت غالباً . والازدهار في نظره واقع مادام في مقدور الاقلية المبدعة ان تبتكر حلولاً للمشكلات التي ماتنفك تتوارد على المجتمع ، ويبدأ الانهيار حين تفقد تلك الأقلية القدرة على الابداع ويملؤها الغرور والطمع في السيطرة ، فتحاول ان تلتف على الواقع وتحاول فرض الحلول القديمة على المشكلات الجديدة فتخفق ولاتعترف بالإخفاق ، بل تفرض نفسها على المجتمع حيث تنقلب من أقلية مبدعة مرغوبة متبعة بقناعة الى اقلية مسيطرة مستبدة تحكم على الرغم من من عدم اقتناع شعبها بها ، وتكثر الخلافات والحروب لغير الاغراض الدفاعية فتفسد الحضارة وتكاد تنهار ، ولكنها لاتنهار مباشرة اذ يقيض لها من يجمعون شملها بالقوه ويؤسسون لها دولة شاملة يسميها بدولتها

العالميـة تعيش في ظلهـا متخـذة مـوقف الدفاع الحريص على الدقائـق والتفصيلات والترتيبات الطقسية والآليةدون الإبداع ثم تحل نهايتها . ويختلف توينبي عن ابن خلدون وعن اشبنغلر بتأكيده أن الحضارة التي لايشاء لها ابناؤها ان تموت فانهالن تموت لان توينبي يتبنى موقف الحرية والامل ويفضلها على الجبريةالتي أثرت عن اشبنغلر ، غير ان بعض الباحثين رأوا ان مجمل مذهب توينبي يميل إلى حتمية الانهيار وان ردد في نهاية البحث كلمة الحرية السابقة .

واما عمر حضارات توينبي فهو اطول من اعمار حضارات ابن خلدون وإذا كانت الحضارات البارزة عند اشبنغلر دون العشرةفإن حضارات توينبي دون الثلاثين، وقد بقي منها حتى الان الحضارة المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية والإسلامية والهندية والصينية . ويعتقد توينبي بالتقدم فكل حضارة تقـدم بعض مايعلي صرح الحياة والقدرة الإنسانيتين ، كما يميل إلى ضرب من التفاؤل الحذر بمستقبل الانسان الذي قد يصل إلى إنشاء حضارة إنسانية واحدة . وهو يرى ان الحرب قاتلة للحضارة إذا زادت عن الحد المشروع لانها تستهلك الانسان ومـا ينتج ، وهذا الموقف مغاير لموقف اشبنغلر الذي يرى في الحرب ظاهرة تجدد الروح وتكلها وهو في ذلك ـ أي اشبنغلر لاتوينبي ـ شبيه بهيجل .

واما انجاز فهو لايبحث الامور بهذه الطريقة لان الحضارة عنده طبقية وتستمر حضارة الطبقة مادامت الطبقة قادرة على توجيه الامور وإلا انتقل الزمام إلى يد طبقة أخرى ولكن الماركسية عموماً تعتقد بوجود تقدم يطرد في مجرى التاريخ البشري إلا أنه ليس تقدماً عادياً يسير على خط مستقيم لانه تقدم جدلي يقوم على تصارع الأضداد، وهكذا تجد كل طبقة تقود الحضارة طبقة اخرى تنافسها ومن موت الاولى مع الحصول على مكتسباتها تقوم حضارة طبقة جديدة تقدم عطاء جديداً .

ولايستغرب ان يقف شعب في بعض المراحل عند مرحلة معينة لايتجاوزها فيتابع الطريق أمامه شعب آخر او الطبقة الصاعدة في هذا الشعب فيحافظ الركب على تقدمه وإن اختلف المنفذون .

ومن الاسئلة التي تدور في الذهن عند البحث الحضاري السؤال المتعلق بقيمة الحضارة أهي خير أم شر ؟ وقد يعجب بعضنا لهذا السؤال لان خيرية الحضارة أصبحت عندهم أشبه بالمسلمات . ولكن رجال الفكر بتشريحاتهم المدققة التي تتجاوز الظاهرة ذهبوا مذاهب شتى فابن خلدون مثلاً يذكر خصائص البداوة والحضارة ولايبدو من كلامه أنه يعطي للحضارة قيمة تفوق قيمة البداوة فالحضارة إن كانت أحذق تبقى البداوة اكثر طيبة وبراءة وسخاء واحتمالاً وشجاعةوصفاء ذهن . ويقترن صعود الحضارة بمتاعب عديدة اشرنا اليها سابقاً ووجدنا أن الحاكم لايعاني منها وحده بل يفرض على شعبه مايرهقه فكأن الحضارة تسترد بيد ماأعطته بأختها . فابن خلدون إذاً من أنصار الاعتقاد بالطيبة في حياة البشر المبكرة حيث كانت العصور الذهبية والاخلاق النبيلة . وقد كرر هذا الاعتقاد روسو الذي أشاد بطيبة الانسان الاول وكشف عن المساوىء التي تعلمها الحضارة للناس .

ولم يكن انجلز من المعتقدين بأن الحضارة خير ونعمة دائماً فهي قائمة في نشأتها على الاستغلال الطبقي وظلم الإنسان لأخيه الإنسان في سبيل الثروة . وإذا عددنا قيام الحضارة خيراً فمن ناحية نسبية ، بمعنى أن المراحل الاولى منها تسبق المراحل المتأخرة التي سوف يتحقق فيها العدل ، فقيمتها آتية من كونها طريقاً لما نريد ان يحدث . وتصبح الحضارة خيرة عندما ينتهي الاستغلال الطبقي ويتعاون الجميع من اجل الهدف المشترك واما اشبنغلر فيعطي قيمة ايجابية كبيرة لمرحلة

الحضارة بالمعنى الدقيق ويمتدح عطاء الانسان فيها ، ويقف من مرحلة المدنية موقفاً متجهماً لانها اسر للإنسان وتقييد وضياع وان برز التفوق التقني وتحسنت ادوات الرفاه . وفي مقابل هؤلاء المتحفظين نحو قيمة الحضارة او الذين لايرون في الحضارة لمجرد كونها حضارة اومدنية خيراً للإنسان ، توجد جحافل ممن يرقمون للحضارة وقيمتها الايجابية بالاصابع العشر ويعتقدن بشكل خاص بفضل الحضارة الحديثة التي يكفيها فخراً علمها وصناعتها فيذكرهم توينبي بأن العلم والصناعة إذا لم يوجهها الانسان لخدمة حاجات الانسان وسموه يصبحان بلاء وتدميراً ولربما قضيا على النوع الانساني او استخدما أداتين طيعتين من اجل ذلك

وارجو الا اخرج عن موضوع البحث إذا تساءلت عن الحضارة أهي حضارة انسانية واحدة أم عدة حضارات مختلفة نوعياً . ؟

اما حضارات ابن خلدون فهي كثيرة عدداً ، اذ لكل دولة عنده حضارتها على المستوى الفعال عنده ، وقد تتباين نسبياً في طول العمر ضمن الحدود التي عينها لذلك . واختلاف أعمارها راجع إلى كثرة عدد المتعصبين لها عند قيامها وقوة عصبيتهم فمرحلة التأسيس ذات اثر يمتد الى بقية المراحل ، وقد يكون اختلاف اعمار الدول والحضارات راجعاً إلى خصائص الشعوب التي انتجتها وتلك الخصائص اجتماعية غالباً ناتجة عن ظروف الشعب الطويلة وتفاعله معها . فحضاره شعب كان في الاصل ممعناً في البداوة والبعد عن العمران ينقص عمرها عن حضارة شعب آخر بعد عهده بالبداوة او كانت بداوته خفيفة نسبياً لأنه يعيش في اثنائها في مناطق قريبة من مراكز الحضارة والعمران ويحتك بها . ويختلف المستوى الذي تصل اليه حضارة عـــن حضارة بسبب خصائص شعبها التي نوهنا بها منذ قليل .

ويتجه اشبنغلر الى تخصيص أشد فهو يرى ان الحضارات مختلفة نوعياً بشكل

صريح وإن تشابهت في المراحل التي تمر بها . كل حضارة لها نظرتها إلى الوجود وتذوقها للأمور ولها تصورها لموقف الانسان وطموحه وعلاقاته بالكون والحياة والموت . ويعبر روح الحضارة الباطن عن نفسه بالرموز الخارجية مثل تصور المكان ، فالمكان في الحضارة الهيلينية محدود سكوني يتجلى في تمثال أبو لون مثلاً، وأما المكان في الحضارة العربية فهو ذو ثلاثة ابعاد إلا أن بعده الثالث يغوص في الاعماق ويمثله الكهف حيث يتصارع النور مع الظلام والخير مع الشر . وأما الحضارة الغربية التي يسميها بالحضارة الفاوستية — نسبة إلى بطل رواية الشاعر الالماني غوته — فمكانها مجال واسع غير متناه يمتد بعده الثالث في الفضاء وتعبر عنه الموسيقا وحساب اللانهايات ثم الارقام والهاتف واللاسلكي والاستعمار ، على حين تميل الحضارة العربية إلى الزخارف المجردة ، وكذلك يختلف تصور الاله من حضارة الى اخرى وان تشابهت اسمـــاء الديانات أحياناً . وعنده ان كل حضارة مستقلة بشخصيتها ، وهـــي اذا تأثرت بسواها فإنها لاتقبل التأثير على علاتــه بل تتمثل الاثر وتحيله الى طبيعتها الخاصة قبل ان تدخـــله في سياق وجودها . واذا ما أكرهت الحضارة على الخضوع لسواها فإنها تعيش فترة من التشكل الكاذب الذي لايدل على حقيقتها الى ان تتاح لها فرصة الانطلاق الحر المعبر عن روحها . ومن الامثلة على ذلك ان معركة أكتيوم التي خسرتها كليوباترة وحليفها أنطونيوس امام جيوش روما التي يقودها أغسطس كانت معركة بين الحضارة الهلينية وبين الحضارة العربية النامية ، وقد انهزمت فيها الحضارة العربية ، انهزم فيها الخليفة امـــام الامبراطور ، والاعتقاد بالاله الواحد امام التعدد ، فانكفأت الحضارة العربية على ذاتها ولم تظهر منها غالباً الا التشكلات الكاذبة المناسبة لغالبيها كانت بين الحين والحين تنتفض محاولة استرداد طبيعتها المستقلة

بدون جدوى إلى أن استطاعت ذلك عن طريق الإسلام . ونلاحظ في هذا المثل النظرة الواسعة التي ينظر بها اشبنغلر إلى الحضارة العربية ، كما نلاحظ التشابه في هذا المجال بين اشبنغلر وبين معاصره الاصغر منه قليلاً وهو توينبي مع بعض الخلاف في المصطلحات . ويعلل اشبنغلر بهذا الكبت الطويل للطبيعة العربية اندفاع الحضارة العربية وسرعة امتدادها ، كما يجدها في تعجلها تتمثل شيخوختها وهي في الشباب . وإذا طرحنا السؤال المتعلق باختلاف الحضارات على توينبي نجده ممن يذهبون إلى اختلافها نوعياً . وهوية كل حضارة تبدأ منذ التحدي الذي يواجهها ، فحضارة واجهت في المهد تحدي الجفاف ، وأخرى تحدي بيئة الهضبة واخرى تحدي بيئه الغابة . . ثم تختلف بالحل الذي أبدعته لمواجهة التحدي سواء أكان جغرافياً أم بشرياً ثم في نوع الحلول المتعاقبة للمشكلات التالية . وحين يبحث مثلاً في الحضارة الغربية يذكر من خصائصها استقلال المؤسسة الدينية عن المؤسسة السياسية بحيث تطور جانب من حياة شعوبها تطوراً حراً إلى حد كبير قام على جهود فردية ولم يحدث نتيجة للتعليمات الرسمية ، ولذلك نجد الحرفيين والتجار يلعبون دوراً كبيراً في تطور الحضارة الغربية ، وتلعب الكنيسة دوراً متميزاً عن دور الدولة هو غالباً أقرب إلى الجمهور . ونتيجة لهذه المقدمات انتشرت الديمقراطية البرلمانية الليبرالية في اكثر أنحاء الحضارة الغربية وتطور علمها وصناعتها وبرامجها على نحو معين ، وهي تعاني الآن من المشكلة الاجتماعية الطبقية ومن علاقاتها الاستعمارية ومن تنافس أجزائها . وأما الحضارة المسيحية الشرقية التي تمثلت في روسيا القيصرية فقد كانت المؤسسة الدينية فيها مقرة بسلطة المؤسسة السياسية عليها ولذلك جاء التطور من الاعلى بقرارات من الحاكم ولعبت الطبقة المثقفة الموظفة فيه دوراً يفوق دور الطبقة البورجوازية التي كانت أقرب إلى القيادة في الجانب الغربي .

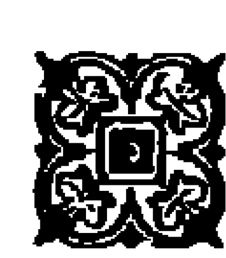
وقـــد كانت الحضارة الشرقية على الدوام في تنافس مـــع الحضارة الغربية وانهزمت أمامها في أواخـــر أيام القيصرية ، فتبنت مذهباً جديداً متطوراً هو الماركسية التي افرزها المجتمع الغربي ، ولكن الحضارة الشرقية على يد لينين طورت المذهب الماركسي حتى جعلته يلائم عقليتها فأصبحت به أقدر على مواجهة الغرب ، وأصبحت ابعد منه عن الصراعات الطبقية الداخلية وعن الأحقاد الناتجة عن الاستعمار وان ظل على اعتقاده ان الحضاره الغربية مازالت في المقدمة بالنسبة الى هذا العصر .

ويندد كل من اشبنغلر وتويني بجمهور المؤرخـــين الغربيين الذين كانوا يعتقدون ان الحضارة الغربية وحدها هي الحضارة الحقيقية وان الحضارات السابقة ماهي الاتمهيدات لها ، والذين لايقرون بخصائص حضارية الاخصائصها ويقيسون كل امـر حضاري عليها فهم ضيقو الأفق غير مـوضوعيين ، وقـد جرفهم غرور حضارتهم البارزة في عصر مـن العصور ، مع ان حضـارات اخرى عرفت التفوق في عصور أخرى ، وليست الحضارة الغربية هي الكلمة الاخيرة في التاريخ . وان تنوع الحضارات عنـــدهما لاينفي استمرار التقدم من حضارة إلى اخرى على الاقل من بعض النواحي .

وأما انجلز في كتابه عن اصل الامرة والملكية الخاصة والدولة فتظهر الحضارة عنده حضارة إنسانية عامـة تتطور حسب تقـدم ادوات الإنتاج وبالتالي علاقاته من مرحلة غير طبقية سابقة على الحضارة إلى مراحل طبقية متحضرة تقوم على استغلال الإنسان تسيطر فيها الطبقـة المالكة للرقاب أو للأرض أو للمال فتنطبع الحضارة كما تنطبع الدولة بطابع الطبقة المسيطرة

أولا وبطابع الطبقات المنافسة ثانياً ثم بطابع الطبقات المسحوقة ، فكأن كل مرحلة حضارية فيها ملامح عامــة وملامح خاصة بحسب التكوين الطبقي والمستوى الذي وصلت اليه ادوات الانتاج ، فمثلا مر وقت على الحضارة اليونانية سيطرت فـيه الطبقة الرأسمالية التاجرة والمسيطرة على الحرف الكبرى فأعطت تلك الحضارة في ذلك الظرف شكل التكوين الرأسمالي ، إلا ان الحضارة الغربية حين سيطرت عليها الطبقة الرأسمالية عرفت هذه السيطرة في ظرف متقدم علمياً وصناعياً على الظرف الرأسمالي اليوناني فاتخذت ملامح خاصة تميزها عـن تلك الفترة اليونانية وان تشابهتا في الطابع العام . ولايعدم كتاب انجلز المذكور حديثاً عن خصائص الشعوب وهي طبعاً خصائص مكتسبة نتيجة التفاعل مع الظروف على انه يذكر رأي مورغان القائل بأن الشعوب السامية والآرية قد سبقت غيرها إلى الرعي فازدادت كمية اللحوم التي تناولتها فنما دماغها أكثر من الشعوب الاخرى وسبقتها إلى الحضارة ، إنه يذكر هذا الرأي دون ان يرفضه فالتعليلات البيولوجية واردة على الاقل في المراحل المبكرة ، ولاننسى ان انجلز يتطلع إلى حضارة جديدة خالية من الاستغلال الطبقي . وقد وجد آخرون غير انجلز يرون الحضارة واحدة بل قد يصورون وحدتها اكثر مما صورها ولكن البحث طال ونأمل ان تكون لنا عودة إلى الموضوع لنلقي اسئلة لم نلقهابعد ونستمع إلى الاجابات المتعدده ثم نحاول ان نعبر عن قناعة متواضعه .

سهيل عثمان



بعض المراجع

مقدمة ابن خلدون

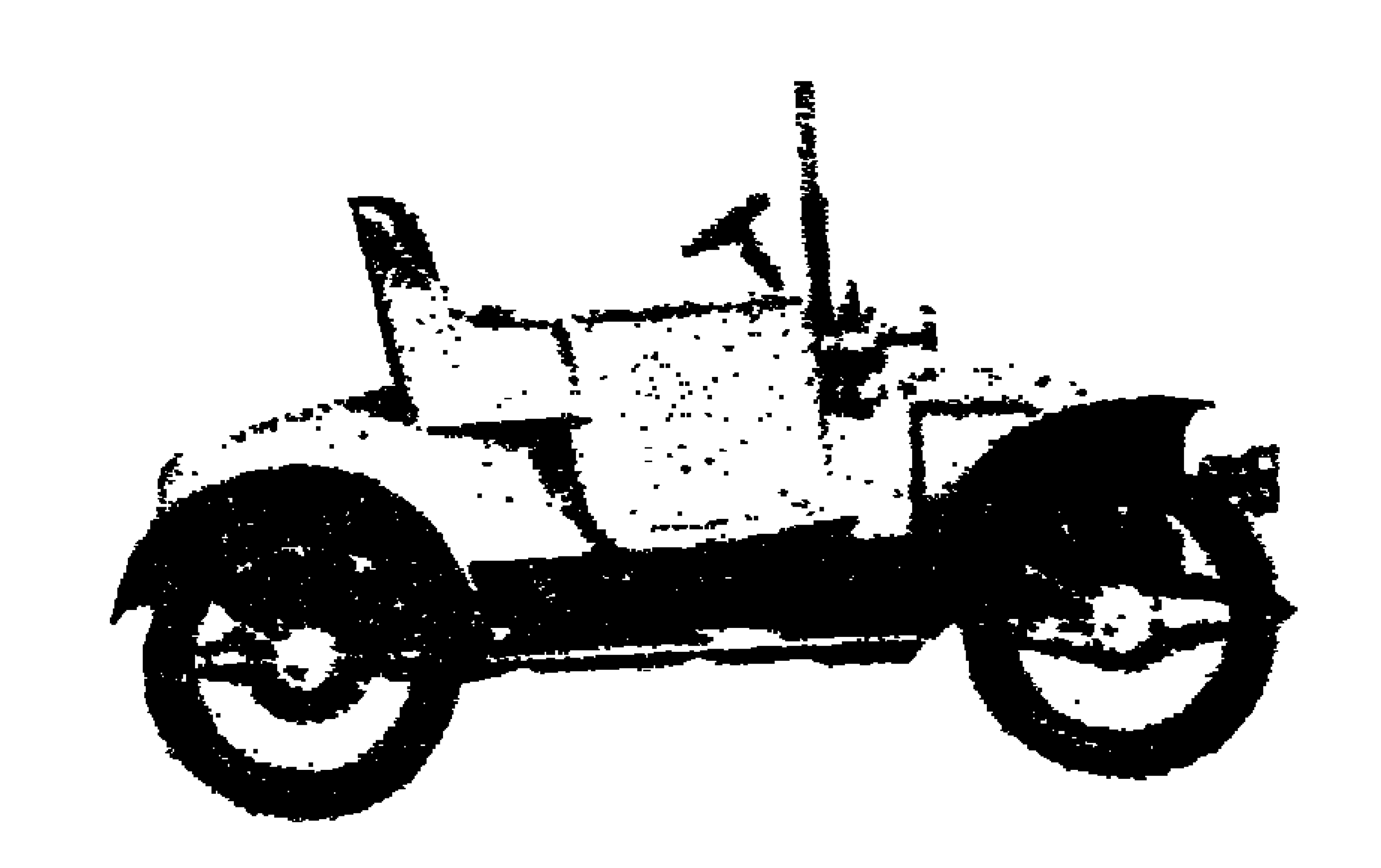
موجز دراسة التاريخ (ارنولد توينبي)

تدهور الحضارة الغربية (ازوالد اشنبنغلر)

أصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة (فريدرك انجلز)

من مقدمة ابن خلدون (سياسة واقتصاد) سهيل عثمان ومحمد درويش

مجلة البحث التاريخي ـ حمص ـ العدد (١) ١٩٧٧



البعثات الأثرية وتل الحديدي

بقلم الأستاذ: محمد الخولي
محافظ متحف الآثار الاسلامية بدمشق

هـذا هو المقال الثاني في سلسلة اخبار منطقة أعـالي بحيرة الاسد من حوض الفرات ، وكنت في المقـال الاول الذي نشر في العدد الاول من هـذه المجلة قدمت فكرة سريعة عن المنطقة من النواحي التاريخية والاثرية والجغرافية وعن المقدمات التي استهوت البعثة الامريكية للسعي بالترخيص للعمل في هذا التل ، ثم تحدثت عن المدافن التي اكتشفت في تل الحديدي بأنواعها وعن المدافن الاخرى الموجودة في المنطقة وعن سرقة المدافن وسأقصر حديثي في هذا المقال على البعثة التي نقبت في تل الحديدي ثم عـلى جزء المرتفع وهو الجزء الاهم في التل مع استعراض مقتضب لعمليات التنقيب وأهم الاكتشافات . (١)

---

(١) إن المعلومات الاثرية التي اوردتها في المقال السابق وفي هذا المقال ومايليه هي ماثقفته من مرافقتي للبعثات الاثرية كممثل للمديرية العامـة للآثار والمتاحـف . وهـذه الوظيفة تقتضي ملازمة دائمة لهذه البعثات خلال مراحـل العمـل الميدانية وبطبيعـة الامر كنت على صلة بجميع المباحثات النظرية الاولية . هذا بالاضافة الى ممارستي شخصياً العمل الميداني فكنت لا أضيع اية فرصة من المناقشات العلمية التي تـدور مابـين رئيس البعثة وأعضائها الآخرين من ذوي الاختصاصات المتنوعة ، وكذلك حضرت تقريباً جميع المناقشات التي جرت خلال الزيارات العلمية للموقع من قبل البعثات الاثرية الاخرى العاملة في الموقع الآخر من حوض الفرات ، ولم تفتني الزيارات الخاصة التي يقوم بها بعض المختصين الذين يحضرون خصيصاً لمعاينة الموقع ومشاهدة مكتشفاته ، وشهدت جميع المحاضرات التي قدمها المختصون في مدينتي دمشق وحلب حول هذا الموقع وكنت اقوم بالترجمة الفورية لهذه المحاضرات كما أسهمت بترجمة بعض الابحاث الأثرية والمحاضرات للاختصاصيين الذين عمـلوا في مـواقع هذه المنطقة من الهولنديين والامريكيين،

بعثة تل الحديدي :

إنها بعثة امريكية تنتمي الى متحف ميلووكي وجامعـــة ميتشغن يرأس البعثة الدكتوررودولف دورنمان Dr. Rudolph H. Dornemann محافظ دائرةالاثار الشرقية في متحف ميلووكي وتحتوي في عضويتها التي تصل في بعض المواسم إلى عشرين شخصاً شخصيات علمية كبيرة تنتمي الى جامعات ومعاهـــد علمية امريكية شهيرة ، كجـــامعتي ميتشغن وديسكاونسن امثـــال الدكتور جورج مندنهول والدكتور بوب روس والدكتور توماس ماكليلان . اما بقية الاعضاء فهم من ذوي الاختصاصات الفنية والتقنية العلمية التي تحتاجها البعثة كالمصورين والرسامين والطبوغرافيين والمرممين ، بالاضـــافة الى مجمـوعة من الطلاب الجامعيين الذين أسهموا في أعمال البعثة المختلفة لان ذلك من مقتيضات دراستهم الجامعية . وقد صحب البعثة عالم انتروبولوجي كما اعتمدت البعثة في بعض المجالات الاخرى كدراسة العظام ونماذج التربة والعناصر النباتية على خبرات الجامعات والمخابر في هولندا .

أسلوب البعثة في التنقيب :

اعتمدت البعثة في التنقيب الاسلوب الكلاسيكي التقليدي في الكشف الافقي عن الطبقات حسب طريقة المنقب الانكليزي مـــورتيمر هويلر Mortimer wheeler (١) . ومن الناحية العلمية اعتمدت أسلوب التشابه والتماثل وذلك بربط الاكتشافات بنتائج الاكتشافات السابقة التي درست وصنفت وعرضت نتائجها بالمتاحف والكتب ، وتعطي مكتشفاتها تعريفاتها على هذا الاساس ، لذلك اعتنت بالدرجة الاولى بدراسة الاشكال Typology وهي تختلف

---

(١) للاستزادة انظـر د . عـدنان البني ـ التنقيب الاثري الحـديث ـ منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق ١٩٧٦

في هذا المجال عن بعض البعثات التي تعتمد أسلوب البحث والتحري الحر الاصيل غير المنتمي معتمدة في سبيل ذلك الوسائل التقنية الحديثة من تحاليل مختبريـــة وفحوص مجهرية تساعد على معرفة عصر الموضوع بعيداً عن الاختلاطات التي يوقع بها أسلوب دراسة الاشكال . وعيب الطريقة الكلاسيكية في أنها تستقري الاكتشافات والمعلومات من الاعلى الى الاسفل شأن من يقرأ كتاباً مبتدئاً من صفحاته الاخيرة ، وعلى عكس ذلك المدرسة الحديثة التي تأخذ مربعات من التل وتقوم بتنقيبها طبقة اثر طبقة حتى تصل الى الارض الحرة وفق الأسلوب المعروف بالستراتيغرافي Strtigraphy وميزة هـــذه الطريقة أنها تساعد على تبين تأثير الحضارات المتتالية على الموقع ابتداء من أقدمها وانتهاء بآخرها ، وعيبها صعوبة الاطلاع على قطاع سكني واسع يعود لطبقة واحدة .

طبيعة البعثة ومصادر تمويلها :

تختلف طبيعة البعثات الاثرية بحسب الجهات العلمية المنتدبة لها ، والاهداف التي تسعى إلى تحقيقها وتتأثر أحياناً بانتماءاتها القومية والعقدية ومصادر تمويلها فإن كانت هذه الجهات مؤسسة علمية كالجامعة فإنها تلتزم غالباً بالاساليب المنهجية النموذجية ولاتبالي كثيراً بموضوع الاكتشافات واللقى ، فإن وجدت شيئاً ابتهجت وسعدت به ، وربما أقامت حفلة شراب تتبادل خلالها الانخاب . وإذا لم تعثر على شيء ذي اهمية كالكسرات الفخارية والمصنوعات الحجريـــة البسيطة فهذا لايحزنها لانه يكفيها ان تكتشف آثاراً تساعد على تأريخ أو تعريف السوية أو الطبقة التي تعمل بها . ويكفي ان تكون الكسرات الفخارية تساعد على استكناه الاشكال وعناصر الزخرفة والتعرف على طبيعة الصناعات وميزاتها الفنية ، هذا النوع من البعثات هو اصلح الانواع اذ أنه لايضطر الى الخروج عن

الأسلوب العلمي المنهجي الذي يساعد على استمزاج الموقع الاثري بتؤدة وروية ولا يضيع الفرصة في التعرف على الدقائق في شتى المجالات . هنا يحضرني موقف لاحد علماء الآثار في هولندا (١) إذ سأله مدير مركز الابحاث في هولندا (هذا المركز الذي يعد ويمول جميع البعثات الهولندية التي تنقب في هولندة وخارجها) سأله هل اخترت موقعك الذي تود العمل فيه ؟ فأجاب نعم ، سأله ثانية ماذا تتوقع ان تكتشف فيه ؟ ؟ فأجاب العالم أتوقع الايخيب املي في ان أجد تراباً كان للإنسان في القديم صلة به . ثم اضاف إذا كنتم تقبلون مني نتيجة بهذه الحدود فأنا ذاهب إلى عملي ، وإذا كنتم تحلمون باكتشاف النفائس الباهرة والاكتشافات النادرة فإني اعتذر عن المهمة .

هناك بعثات تختار مواقع معينة أملاً في ملاحقة افكار محددة ربما كانت ذات مغزى حضاري بحت ، وربما كانت ذات مغزى تاريخي اوقومي ، وربما كانت للحفاظ على تقاليد مؤسسة علمية اعتادت ان يكون لها شأن في مجال السبق العلمي ، وأخيراً وليس آخراً هناك بعثات تضع نصب عينيها اكتشاف النفائس والآثار القيمة النادرة لتبرهن للجهات الممولة عن جدوى مهمتها وغالباً ما تكون هذه الجهات الممولة لاتستطيع ان تقدر المشروع الابقدر مردوده الملموس ، وهؤلاء لاتجدي معهم الاكتشافات العلمية مهما كان شأنها مالم تقترن باللقى الثمينة التي تساعد على اخراج مطبوعات هامة تخلد ذكر المسهمين كما تساعد على إقامة محاضرات جذابة تعجب الجميع ، لذا يضطر العاملون في البعثة حرصاً على إذكاء حوافز الممولين والفوز برضاهم الى اتباع أساليب غير علمية احياناً وتلك

---

(١) هو الدكتور فرانكين مدير معهد الدراسات الفلسطينية في جامعة لايدن وهو رائد مدرسة حديثة في التنقيب اسلوبها الكلي هو الستراتيغرافي .

هي أسوأ انواع البعثات لان قلقهم على اكتشاف اللقى يكون على حساب التنقيب العلمي المنهجي الجاد ، وكثيراً مايكون العلماء والمسؤولون في هذه البعثات لايشاطرون االمولين نظرتهم للأمور ولكنهم لايجدون خياراً آخر إذا ماأرادوا الاستمرار في متابعة كشوفهم وابحاثهم ،والممولون في هذه الاحوال لايحلمون بالحصول على الآثار نفسها كما يتبادر الى الذهن ، بل ستكون الاكتشافات الهامة وسيلة للتحدث عن مآثرهم في تمويل المشاريع العلمية ، وستكون كذلك مادة للصحافة ودور النشر التي تشيد بذكرهم وترفع من شأنهم . ومعلوم مالهذا العلم من جاذب شديد لدى المجتمعات المتطورة الراقية . وإذا كان للمعاهد والمتاحف شأن لدى مثل هذه البعثات فستكون فائدتها كبيرة إذ سيكون لها نصيب ـ في بعض الاحوال ـ من اللقى تشغل فيه جانباً من معروضاتها ويساعدها على تقديم ابحاث جديدة تحملها مطبوعاتها إلى مكتبات العالم ، بالاضافة إلى انها تغتنم مثل هذه الفرص لإعداد كادر علمي وفني إعداداً ميدانياً يكون عائده للمؤسسة والوطن .

أما بعثتنا التي نحن بصدد التعريف بها فإنها على مذهب البعثات الامريكية الاخرى التي تنقب في منطقة الشرق الاوسط ، وهي تدين بتمويلها إلى عدد من المصادر أهمها مجلة (ميلودكي) ثم جامعة (ميتشغن) ثم المجلة الجغرافية في الولاية ، ولا ادري فيما اذا كان لبعض الشخصيات البارزة في الولاية دور في التمويل . ومما تجدر الاشارة اليه أن رئيس البعثة يقـــوم بالدعاوة بشكل حثيث لموقعه من حين انتهاء موسمه وحتى يبدأ الموسم الجديد لدى الهيئات التي يتوقع منها الدعم المادي ، لذا فهو يعلم تماماً أيستطيع أن يتابـــع التنقيب في الموسم القادم املا ؟ لانه لا يستطيع ان يقدر نتيجة مساعيه سلفاً .

برنامج البعثة اليومي والاسبوعي :

اتبعت البعثة في الموسمين الاخيرين اسلوباً مشوقاً ومفيداً جداً من اجل تثقيف عناصرها فنظمت زيارات دورية يومية إلى مربعــات العمل تقوم بها جميع عناصر العمل الميداني ، ويقدم المسؤول عن المربع المزار شرحاً عن سير العمل في مربعه ، ويطرح مشاكله التي يتناقش بها الجميع ويخلصون إلى حل معقول لكل مشكلة ،وفي اليوم التالي يقصدون مربعاً آخرا ، وهكذا يكون جميع مشرفي المربعات على اتصال تام بالمعلومات التي تعطيها هــذه المربعات ، وهذا مايجعلهم قادرين على المشاركة في المناقشات التي تدور حول مشاكل العمل التي تحدث كل مساء بعد تناول العشاء . هذا بالاضافة إلى برنامج ثقافي يومي تقدمه عناصر البعثة الذين توزع عليهم مواضيـع من أجل إعدادها وتقديمها كل بدوره ، وهذه المواضيع ينبغي ان تكون ذات صلة بالعمل ، مثلاً كلف احدهم باعداد محاضرة عن (إبلة) وآخر عن (ماري) وآخر عن (نوزي) وآخر عن (الالاخ) ، تقدم هذه المحاضرات بعد العشاء حيث يتواجــد الجميع فـوق سدة تشرف من ناحية على نهر الفرات ومن جهة ثانية على سهل رحيب ، هذا بيده كأس وآخر يلوك سيجاره وآخر ينفث دخان غليونه . وهناك يجلسون على الارض وبعد سماعهم للمحاضرة يتصدى المحاضر للاجابة عن الاسئلة وبعد الانتهاء من المحاضرة يقومون بالاستماع إلى أشرطة تحتوي مواد فنية متنوعة تذكرهم بالوطن ، وأحياناً يقوم الجنس اللطيف المرافق للبعثة بتقديم أغنيــات أو رقصات ، ومما يــدعو للدهشة ان بعضهن يجدن الرقص العربي بشكل يلفت النظر . ويحدث ان تجهز مراكب صيد السمك في بعض الامسيات وتزين بالشموع وتقوم البعثة مــع بعض المواطنين بقضاء سهرة فوق صفحة الفرات لايخالط سكونها سوى صوت المجاذيف

تصفع سطح المـــاء برفق وصوت غنـاء رخيم يصدر من هنـــا وضحكات مرحة تصدر من هناك .

في نهاية كل اسبوع من العمل الجاد تعد البعثة رحلة للاستجمام والراحة ومزيد من الاطلاع والفائدة وتستهدف رحلاتهم المواقع الاثرية بالدرجة الاولى



« زيارة اعضاء البعثة الى موقع السلنكحية من حوض الفرات »

وبشكل اخص المواقع التي تعـــود لنفس الحقبة الزمنية التي يعملون ضمنها ، فيقومون بجمع الكسرات الفخارية واللقى الاخرى ، ويلتقون مـــع رئيس البعثة ويضعون كل ماجمع أمامه ويشرعون في مناقشة النواحي الاثرية والتاريخية معتمدين على المعطيات التقنية والفنية لمـــا جمعوا من مـــواد . وعندما يحين وقت الغداء يبحثون عن مكان ترتاح اليه النفس ويجلسون لتناول الطعام الذي يكون غالباً بشكل سندويشات وبعد قضاء وقت من اللهو والاستمتاع يشدون رحالهم ويعودون إلى الموقع .

وعندما يشعر بعضهم ـ وغالباً يكون هؤلاء من الشباب اليافعين ـ انه لم يعد شيء يغني عن إقامة ليلة في فندق مريح ، والتمتع بمباهج المدينة ولذائذ

الحياة فيها او قضاء سحابة نهار في احد المسابح ، او على شاطىء بحري ، يحدث ذلك ، ولكنه لايخلو في أية حال من الاحوال من زيارات اثرية ؛ ففي حلب يقصدون القلعة أو المتحف او الاسواق وفي اللاذقية يقصدون اطلال مدينة رأس شمرة او إحدى القلاع الاثرية القريبة .

من خلال معايشتي لهم وللبعثات الاخرى أستطيع ان أعمم انه لاأثري من غير ما مهمة اخرى ، إما ان يكون مكلفاً بها أو يكلف نفسه بمهمة حتى لايضيع وقته سدى ، وبعض هذه المهمات نافع جداً ومكمل لاعمال التنقيب مثل الدراسات الاجتماعية والفولكلورية للمجتمع الذي يقيم الى جوانب الموقع ، وكثيراً ماتساعد هذه الدراسات على التعرف على بعض مظاهر الحياة لدى الاقدمين وبالتالي يكتسبون ثقافة قد تساعدهم في ميدان عملهم ، مثلاً طريقة اعداد الخبز وبناء التنور لم يطرأ عليها تغير جوهري فهي نفس الطريقة تقريباً ، ومعظم المنازل في المواقع الاثرية القديمة لاتخلو من مثل هذه الضروريات وكذلك عملية خزن الحبوب في المنازل ، اضف الى ذلك الاوعية التى تحفظ بها مواد البيت مثل جرار الماء وجرار الزيت ، المطاحن ، الاجران ، ادوات الزينة الخاصة بالمرأة ، ديكورات المنازل ومادة العمارة ـ كالاحجار غير الموجهة ـ والطوب ـ والاخشاب . جميع هذه المظاهر تجد لها صلة ما بحياة المجتمعات القديمة ، لذا توزع على الاعضاء المهمات فقد يكلف احدهم بإعداد دراسة عن الزواج وحفلات الافراح والأتراح ، ويكلف آخر بإعداد دراسة عن حياة الحل والترحال وما يتبع ذلك من تقاليد مختلفة ، ويكلف عضو آخر بإعداد دراسة عن سكن المواطنين قرية ـ مجمع ـ بيت ، مع ديكورات المنازل وأنواعها المختلفة ، وهم يشفعون هذه الدراسات بالصور واشرطة التسجيل . ومهمة ناجحة من هذا القبيل

يمكن ان تساعد على إقامة معرض رائع في بلد البعثة يمثل قطاعاً مــــن حياة المجتمع المذكور تشترك فيه الصورة والجسم والصوت وبعض الادوات والاوعية والملابس ، وعندما تقصر الصورة الفوتوغرافية عن اداء المهمة تقوم الكاميرا السينمائية بإكمال المهمة . وبمثل عنايتهم بالحياة الاجتماعية تكون عنايتهم بالحياة الاقتصادية من رعي وزراعة وصيد أسماك وتربية الحيوان الى غير ذلك .
وبكلمة اخرى عندما تنتهي مهمة البعثة من التنقيب في الموقع يكون الاعضاء قد أنهوا عملية مسح شاملة ودقيقة لقطاعات الحياة المختلفة ، ولكي ينجح هؤلاء الاعضاء بمهاتهم هذه تراهم يتحلون باستعدادات نفسية عجيبة تتجلى في سرعة تكيفهم مع المجتمع الذي يحلون فيه ، فلايلبث الفرد منهم إلاالوقت القصير حتى يتعلم شيئاً عن تقاليد القوم ويمرس نفسه على مجاراتهم فيلبس ملابسهم ويتعرف على فنونهم ويشاركهم في رقصاتهم الشعبية فينضم الى حلقات الدبكة ويؤاكلهم على طريقتهم بيده ومن المنسف ، لذلك ترى هؤلاء الاعضاء خلال وقــــت قصير يصبحون في قلب القوم .



« اختلاط افراد البعثة مع المواطنين والمساهمة في افراحهم »

مما يلفت النظر ان نجد مجموعة مؤلفة من عشرين شخصاً تتحرك بارادة واحدة وتتبادل فيما بينها الاحترام المتبادل علــى الرغم من تفاوت السن وتباين الامزجة واختلاف المستويات ، علـــى الرغم من ان الفرد منهم قد لا يكون على معرفة مــع اي مــن عناصر البعثة الآخرين ولكننا نلاحظ كأنهم قدموا من بيت واحد ، وإن اختلفوا في أمر يصلحون ذات بينهم بطريقة عجيبة حتى لايكاد الغريب يشعر ان خلافاً حدث فيما بينهم .



« اليزابيت سافج »

تمنت لو تتاح لها فرصة لقضاء بقية حياتها في الوطن العربي .

تقوم الآن بدراسة اللغـــة العربية في جامعة القاهرة

وأملها ان تصبح قادرة في المستقبل القريب على الاطلاع على تراث امتنا الحضاري

ان معظم هؤلاء الذين يقدمون الينا من الغرب يحملون في أذهانهم صوراً مشوهة عن حياتنا ، فهم يتصوروننا شعباً يتخبط في ظلام الجهل والهمجية وليس لنا أي نصيب من حياة التمدن والرقي . إنها الصورة التي ترسمها ريشة اعدائنا عنا في ديار الغرب . اعتقد أنه لاخيرة للمجتمع الغربي لانهم يستمعون لكلمة الاعداء فقط ، اما كلمتنا فهي ضعيفة خافتة إن وجدت ولاتكاد تصل إلى آذان احد .

سأضرب لكم مثلاً بأحد اعضاء البعثة الهولندية العائدة لجامعة (لايدن) ويدعى ماريشال مارتن من أصل تكساسي من الولايات المتحدة كان قدم إلى هولندا ليحصل على درجة الدكتوراه من جامة لايدن وشاءت الظروف ان يختار للعمل مع البعثة في بلدنا . كان اول لقاء لي به في مطار دمشق عام ١٩٧٤ ، عندما كنت استقبل البعثة الهولندية هناك ، وكان عضواً جديداً لم تسبق له زيارة اي من الاقطار العربية بعد . أثناء عودتنا من المطار ركب هو في المقعد الاول من السيارة إلى جوار السائق وكان مقعدي خلف مقعده تماماً . لاحظت خلال الطريق انه كان يحرف وجهه بحذر وانا اتبادل الحديث مع الآخرين ، تكرر ذلك منه عدة مرات وكانت كل مرة تسهل نظرته إلي ، وعندما وصلنا البلد ذهبنا إلى بيتي اولاً للتعرف ـ بشيء من الراحة ـ الى الاعضاء الجدد ثم غادروا جميعاً الى الفندق . في اليوم الثالث مضينا إلى موقع العمل في «تل الحديدي» وقد رافقتهم بصفتي ممثلاً للمديرية العامة للآثار والمتاحف لدى البعثة شأن الاعوام السابقة وبعد بضعة أيام من اقامتنا هناك دعينا خلالها إلى عدة ولائم من قبل المواطنين ، وجدت هذا الإنسان بالذات « مارشال » يحاول الدنو مني أكثر فأكثر ، وذات أمسية بعد تناول العشاء ترك

مقعده الى كرسي مجاور لي ومـال إلي يرجـو ان أتريـث قليـلاً بعد ذهاب الجميع ، فأجبته الى ذلك . أحضر الى الطاولة بعض الشراب وأحضر الى زجاجة من الاشربة الملونة وببعض الارتباك قال انني أود ان أعرض عليك صداقتي ، ولكن بعد ان أعتذر اليك عما كنت اكنه لك ولقومك في نفسي وتابع حديثه قائلا : قبل قدومي الى بلدكم اتصل بي اكثر من صديق ممن أعرفهم واوصوني ان اكون حذراً جداً منكم ، وأكثر من ذلك اوصاني احدهم ان اودع ميلودي « زوجته » وآدم « ابنه » وكانا في مدينة جرونتكن (البعيدة عن لايدن) عندما همت بالقدوم مع البعثة ، فذهبت فعلا اليهم وكنت في أثناء وداعي لهم أشعر بخوف يملأ قلبي مما جعلني أهم بالاعتذار اكثر من مرة لولا ان اعتذاري يربك البعثة ولاسيما وهي في اللحظات الاخيرة من عزمها قبل السفر ، وقد حضرت وأنا اكتم ذلك في نفسي وحينما جلست أمامك في السيارة العائدة من المطار كان شعوري انك ستغمد سكيناً في نقرتي في أية لحظة ولكن حديثك مع الآخرين وانفتاح قلبك للبعثة بدأ يبدد مافي قلبي ويضفي برد الراحة إليه شيئاً فشيئاً وبعد خروجنا من بيتك بت اعتقد ان ماتفعله من اجلنا لايمكن ان يكون تمثيلا ولاخداعاً ، وانما هو عطاء كريم يدل على اصالة . والان بعد ان التقيت بمجتمعكم ايضاً في الحديدي لم اعد أبرىء ساحتك وساحة مجتمعك مما يقولون عنكم في الغرب فقط بل اصبحت افكر في تعلم لغتكم فأجبته انني على استعداد لتقديم العون الممكن مقابل مزيد من المعرفة باللغة الانكليزية واتفقنا على ذلك ، واستطاع الرجل بعد مضي شهر على مقدمه ان يتحدث بالعربية الى العمال الذين يعملون في مربعه في معظم مايحتاج إليه منهم في شؤون العمل ، وذات يوم ذهبت إليه في مربعه خلال فترة راحة العمال فلم أجده وقد ملكتني الدهشة

عندما رأيته يحاول التوضؤ من القرات مع العمال ولم تكد تمضي ثلاثة الشهور ـ مدة موسم العمل ـ حتى أصبح اسم «ابو آدم» يتردد على السن الكبار و الصغار كاسم أبي علي وأبي جاسم وأبي حسين ، وأصبح أبو آدم يمازح القوم ويمازحونه ، وفي



« مارشال مابين العمال فكأنه واحد منهم »

الايام الاخيرة لم يكن يغيب عن مجالسهم أبداً وكان هذا شأن اعضاء البعثة الآخرين الذين أخذو يطوفون على بيوت العمال ليودعوهم وليتبادلوا معهم الهدايا الرمزية كقرطبقرص وسكين بمسبحة وكوفية بقلم ، وعند ساعة الوداع الاخيرة رأيت الاعين تفيض بالدمع من كلا الجانبين وسمعت من بعضهم صوت البكاء المرتفع عندما كان بعضهم يعانق بعضهم الآخر . واثناء الغياب اصبحت سفير الجانبين أقوم بايصال رسائل بعضهم الى بعضهم الآخر وكنت مسؤولاً عن الترجمة ومازلت مسؤولاً حتى الان عن بعض العلاقات .

هناك مثل ثان أسرده بسرعة وهو عن احد الهولنديين ويدعى (ياب) الذي قام بضرب أحد الهولنديين في هولندا بقبضة يـــده فأسقط له سنين ونال الجزاء القانوني في بلده على فعلته ، وذلك لأنـــه سمع ذلك الشخص يسب

العرب في احدى المناسبات ، فأجابه (ياب) ان العرب افضل منه ومن مجتمعه وذلك لانه لوغرق هو وسيارته في هولندا لعز عليه أن يجد من يبادر إلى انقاذه من المواطنين كما فعل العرب في حوض الفرات ، وملخص الحادثة أن هذا الرجل كان يجتاز بسيارته منطقة واطئة تقع مابين السلنكحية ومحطة المياة الثانية وهطل المطر بغزارة فائقة وما ان وصل إلى منتصف هذه المنطقة حتى ارتفع الماء ولم تعد السيارة قابلة للسير ، وانتظر خمس دقائق فقط راجياً ان يسكن المطر أويخف ولكن العاصفة اشتدت اكثر فأكثر وأصبح المطر يتدفق كانه من أفواه القرب ــ على حد تعبيره ــ وانحدرت السيول من سفوح الجبال القريبة ، وصارت تدخل من باب السيارة وتخرج من الباب الثاني وأيقن الرجل ألامفر من الهلاك ، وفي تلك اللحظات العصيبة لاحت سيارة« لاندروفر » قادمة من محطةالمياه وأصبحت تدنو منه حتى وصلت رأس المنطقة المنحدرة وخرج منها رجل مدني أخذ يقوم بتوجيه ثلاثة رجال كانوا إلى جانبه ، فربط احد الرجال نفسه بطرف حبل وربط الطرف الآخر بالسيارة وألقى نفسه مع الماء واخذينحرف والتيار يجرفه حتى وصل إلى السيارة الغارقة ، وهناك ربط (ياب) معه بالحبل وقاما بربط السيارة الغارقة ، وبعد انأنقذ الرجلانسحبت السيارة الغريقة ، ولم يكد الجميع يغادرون المنطقة حتى ارتفع الماء الى حد لايمكن معهان تثبت السيارة لوبقيت مكانها ، وذهب الجميع إلى بيت الاستاذ محي الدين النوري مدير محطة المياه وهو الرجل الذي قاد عملية الانقاذ وهناك غير«ياب»ملابسهوتدفأوأخذشراباً ساخناً وعادإلى بعثته بعد ان اعيدت سيارته من طريق عال ، ونفسه مترعة بالتقدير والاعجاب بهؤلاء الناس الذين انقذوه وانقذوا سيارته على غير معرفة .

لوكان المجال يتسع لحدثتكم عـــن أمثلة أخرى ، ولكن اكتفي بما اوردت لاشير إلى أن لهذه البعثات منافع غير المنافع التي تجنيها مـــن استخراج آثارنا من باطن الارض ، وهنا قد يخطر ببال بعضنا أن يكون لبعض هـــذه البعثات أو الاعضاء دور مشبوه ، إنني لاأنفي احتمال وجـــود بعض المغرضين ولكنني أجزم بأن الممثل الكفء الذي يصحب هذه البعثات يمكن أن يحول تماماً مابين المغرضين وبين مايصبون اليه وذلك بقليل من اليقظة والحـــذر وربما نجح بلباقته في كسب هؤلاء إن وجدوا وجعلهم أصدقاء يعملون لنـــا بدل أن يكونوا علينا .

الاعمال الاثرية :

أولاً يحسن أن نأخذ فكرة عـــن هذا الجزء الهام من الموقع الذي نحن بصدد التعرف إليه ، يقـع التل الاعلى في الجهة الغربية مـــن الموقع ويمتد إلى مسافة (١٥٠٠ م) طولاً مصاقباً لنهر الفرات وإلى مسافة (٥٠٠ م) عرضاً ، أي تبلغ مساحته حـــوالي ٥ر٧كم٢ ويرتفع عن سطح البحر حوالي (٣٢٥ م) وعن سطح النهر بحوالي (٢٥ م) ، تتوضع الذرا العليا من التل في الجهة الشمالية منه وينحدر نزولاً نحو الجنوب إلى النهر محدداً بأودية حفرتها سيول الامطار التي تنصب على التل في مواسم الشتاء .

يبدو التل للرائي من عل كشامة توضعت على الخد الثاني من حوض الفرات محاطة بسوار من الجبال الكلسية ، يقطعه النهر من فجوة ضيقة عند مدخله ويخرج منــه منفتحاً على مساحة عريضة تتخللها الجزر الخضراء (الحوائج) باللهجة المحلية (١) . يجاور الموقع مباشرة من الجهة الشامية سهـــل لحقي

(١) مفردة حويجة وهي تعني باللغة العربية الفصحى الحديقة ويقصد بها المواطنون هناك الرقعة اليابسة من الارض في وسط الماء

خصيب مما أعطى الموقع أهمية اقتصادية بالإضافة إلى أهميته الستراتيجية لتوضعه على رأس منحن قاس لمسار النهر ، الامر الذي يجعل النهر تحت اشراف الموقع إلى مدى بعيد في اتجاهي الشرق والجنوب . واعتقد أن شعوب المنطقة القديمة قد فطنت إلى هذه الاعتبارات الهامة فكان الموقع محط أنظارهم ، لذا أغنيت طبقات الاستيطان فيه التي امتدت من الألف الخامسة قبل الميلاد وحتى القرن ١٢ بعد الميلاد . وكذلك فإن الاعتبارات الآنفة الذكر جعلت من التل هدفاً لبعثات التنقيب تتسابق إلى العمل فيه . وقد توالت على التل بعثتان الاولى هولندية وقد حصلت على امتياز بإجراء أسبار في جنبات هذا التل وقد شملت



« تل السويحات »

مشهد لأحد الاسبار الذي تستعرض من خلاله طبقات التل .

هذه الاسبار الارتفاعات المختلفة ، ودلت على أن التل كان معموراً في بعض أجزائه منذ الالف الخامسة قبل الميلاد ، وتوالى العمران عليه حتى العهد الايوبي ، مع حدوث بعض الفجوات الزمنية التي قد لاتكون فيما لو نقب التل بكامله . وكان الهدف من هذه الاسبار التي أجرتها البعثة الهولندية التابعة لجامعة لايدن مع الاسبار الاخرى التي قامت بها في منطقة حوض الفرات

الواسعة ، هو إعداد دراسة كرنولوجية للصناعات الفخارية تكون بمثابة أبجدية لصناعة الفخار في هذه المنطقة الهامة جداً وسيكون لهذه الدراسة شأن هام في تأريخ المواقع الاثرية التي تجري فيها عمليات التنقيب ، بالاضافة الى أنها تساعد في التعريف بالمواقع الاخرى من خلال مقابلة محتوياتها من الفخار بالنماذج التي شملتها هذه الدراسة ، ومن المعلوم ان الفخار يتواجد بوفرة في معظم المواقع لانه يمثل المادة الشعبية الرخيصة والصناعة اليومية الدائمة التي تعبر عن ذوق المجتمع وعن تقدمه الحضاري ، وهو المادة التي تحتل المكان الثاني في تأريخ السويات والطبقات إذا ماغابت الوثائق المكتوبة مثل الرقم ، الاختام ، النقود.

هذا يعني ان البعثة الامريكية عندما قدمت في الموسم الاول عام ١٩٧٤ وجدت ان جزءاً هاماً من مهمة العمل قد أنجز من قبل البعثة الهولندية مثل المسح الطبوغرافي ، المسح الاثري ، عمل المخططات واجراء الاسبار ، والاهم من ذلك أنها تمكنت أن تضع إشاراتها على النقاط الهامة من التل ، وكان على البعثة الامريكية أن تباشر التنقيب الفعلي منذ اللحظات الاولى من وصولها ، وقد أبقت على المربعات الواعدة التي بدأت بها البعثة الهولندية وتابعت العمل فيها ، وفتحت مربعات جديدة حتى بلغ عدد مربعاتها حوالي ثمانية مربعات استخدمت في كل مربع حوالي ستة من العمال المحليين يعملون تحت إشراف عضو منها يدعى المشرف (Plat Supperviser) . كانت البعثة تنسحب من بعض المربعات عندما لاتتأمل منها خيراً وتفتح مربعات جديدة بديلة ، حتى استقرت على عدد منها تتوزع كمايلي : ثلاثة فوق أسوار المدينة ، اثنان في سويات هلنستية ، واحد في منطقة الافران الخاصة بصنع الفخار ، اثنان في مناطق لم تؤثر بها عوامل التعرية كثيراً ولم يصبها اضطراب من جراء احداث حفر اوحفر



« تل الحديدي »

« مشهد العمل في احد المربعات »

قبور حديثة ، وذلك من أجل القيام بدراسة استراتيتغرافية منظمة للتوضعات الحضارية التي تناوبت على التل المذكور ، هنا اسمح لنفسي بتجاوز التفصيلات التي تمر بها مراحل العمل في المربعات المختلفة ، والتي تعني المختصين فحسب لاقوم بالتحدث عن حصائل الاكتشافات ملخصة بمايلي :

١ - إن التوضعات السكنية في المواقع خلال العصور التي سبقت عصر البرونز الاول لم تكن هامة ، لانها على مايبدو كانت تشغل مكاناً محدداً من التل مجاوراً للنهر وفق نموذج الاستيطان العشوائي غير المنظم .

٢ - بلغ الموقع ذروة أهميته في عصر البرونز الاول ، عندما قامت مدينة هامة ذات اسوار تجاوز عرضها في بعض النقاط ثلاثة الأمتار وهي مبنية من الاحجار غير الموجهة ، وخلال تفحص أحجار السور المذكور تبين أن بعضها يعود لعمران سابق ، إذ وجد بينها اجزاء من مطاحن او أجران وثقالات كانت تستعمل في أنوال النسيج ٠ وقد تميز ظاهر السور بأنه كان مطيناً

بطبقة طين سميكة ممزوجة بالحشائش ومسيعاً بالحوار الابيض الذي مازال المواطنون حتى الآن يعرفون مصدره الكائن في سفح جبل (عرودا) ويستعملونه في تسييع دورهم . وقد أوجدت مابين السور والمنحدرات المحيطة بالتل خنادق عميقة لم تكن تملأ بالماء كماهي الفكرة عن الخنادق لانها كانت اعلى بكثير من مستوى النهر وإنما استحدثت لاعاقة تدافع اعداد المهاجمين للأسوار ، وجعلت بشكل مسنمات ذات انحدار نحو الخارج وانحدر مثله نحو الداخل ، وقد غطيت هذه المنحدرات بالحصى لتنزلق تحت اقدام المتسلقين وسنابك خيلهم (١) .شغل مدخل المدينة الشمالي ببرجين أقيما بشكل يسد ثلمتي الخندق من الجانبين ولوظيفة الدفاع المطلوبة ، ولكن الملاحظ أن البرجين المذكورين لم يكونا من الاتقان بمستوى بناء السور . لقد عفت مخلفات هذا العصر بسبب استعمال مواد بنائه من قبل سكان العصر اللاحق ، وأهم ماتبقى من معالم العمران في الداخل هو جزء صغير من سوق كان يتبع المدينة ٠ وقد عثرنا في الدكاكين وعلى المساطب التي تشتمل عليها على مواد الخرز والقار والصدف والمصنوعات العظمية بالاضافة إلى بعض الادوات البرونزية .

٣ ـ في عصر البرونز الوسيط أقام السكان سوراً غير السور الآنف الذكر الذي هدمته صروف الدهر ، والمرجح ان الاعداء هدموه لان تأثيراتهم تتمثل في تباين نقاط الارتفاع والانخفاض ، كما عثر تحت بعض انقاضه على جثه إنسان متجمعة ربما قتل صاحبها اثناء الهجوم ثم انهدم السور

---

(١) الخيل كانت معروفة منذ غزوة الهكسوس فقط الى هذه المناطق وقبلها كان يعرف حيوان شبيه وحجمه مابين الفرس والحمار ويدعى بالاونجر Oneger

فوقها وبقيت حتى يومناهذا ، ومما يشجع على الاخذ بهذا الراي ان اصول الدفن تختلف عن الوضع الذي وجدت عليه الجثة المذكورة . وأما السور الخاص بهذا العصر فقد بلغ في أعرض نقاطه ١٫٢٠ م وقد انحسر نحو الداخل في معظم اجزائه مسافة مترين وفي بعض النقاط ركبوا به السور الاول ،



« مشهد لمقطع من سور عصر البرونز الوسيط وخلفه عمران من نفس العصر »

وقد استفادوا من احجار السور القديم في بناء سورهم وأساسات دورهم اما بقية الدور فقد بنيت بالطوب المخلوط بالتبن والاعشاب ، وليست هناك مظاهر عمرانية متميزة في هذا العصر . اما الظاهرة الاجتماعية التي تلفت النظر فهي ان مجتمع هذا العصر ذو تقاليد هيكسوسية ، وقد تجلى ذلك في دفن الاطفال في جرار وقد عثرنا في أرض احدى الغرف المصاقبة للسور جرة تحتوي على ثلاث جثث لاطفال لاتتجاوز اعمارهم ست سنوات اما مكتشفات هذا العصر من اللقى فهي متنوعة جداً ، ويكفي لاخذ فكرة ان نعلم ان البعثة الهولندية رممت من بقايا قبر منهوب يتوضع



« قاع جرة يحتوي على ثلاث جماجم لاطفال ، وقدر فخارية تمثل تقاليد الهيكسوس في المنطقة . »

في الزاوية الغربية الجنوبية من هذا التل ، ويعود لنفس هـــذه الحقبة ـ مئتا قطعة منها (٩٠) شكلاً فخارياً متنوعاً مابين قدر وصحن وطاس وقارورة وفأس .

من خلال المشابهة مابين محتويات طبقات الموقع ومحتويات الطبقات المعاصرة فيالسلنكحية وماري وآشور وإبلة ، يمكن أن نستدل على وجود وحدة حضارية مابين منطقتي مابين النهرين وسورية . وهـــذا بدون شك سوف يغير فيالنظريات التي تفصل بين حضارة مابين النهرين وحضارة سورية ويقود إلى نظرية جديدة تعرف حضارة المنطقة بالحضارة الرافدية السورية او العكس .

٤ ـ اما الكشف الهام جداً فهو في طبقات عصر البرونز المتأخر ، فقد عثر خلالها على مدينة ميتانية ضائعة تعرف بمدينة « آزد » كانت ذكرت في رقم نوزي وهو موقع عراقي وفي رقم الالاخ وهو موقع تركي ونظراً لطول البحث سوف ندخر الحديث عن هذا الاكتشاف الهام الى مقال قادم إن شاء الله .

محمد الخـــولي

محافظ متحف الآثار الإسلامية بدمشق

المعالم العامة لتاريخ سورية في العصر الهلنستي

الدكتور : مفيد رائف العابد

نظراً لقصور الدراسات العربية عن تعريف القاريء العربي بالمـــراحل السياسية الرئيسية لتاريخ سورية في العصر الهلنستي ، ونظراً لأهمية الإلمام بهذه المراحل قبل البدء في عرض أهم المعالم الحضارية للعصر نفسه ، يبدو من المناسب أن نمهد لدراستنا عن تاريخ سورية في العصر الهلنستي بصورة خاصة او تاريخ الإمبراطورية السلوقية عامة بالتعرض بإيجاز إلى إنشاء الامبراطورية المقدونية ذلك أن سلوقس (مؤسس الامبراطورية السلوقية) كان أحد الضباط الذين شاركوا الإسكندر في بناء الامبراطورية المقدونية فضلاً عن أنه كان مـن أبرز الذين أسهموافيا بعد في فصم عراها . هذا إلى أن تتبعنا الموجز لبناء هذه الامبراطورية يتيح لنا إلقاء نظرة عاجلة على المسرح الذي جرت عليه أحداث تأسيس سلوقس الامبراطورية ،كما يهيء لنا الفرصة لأن نبسط أفكار الإسكندر السياسية ولأن نتبين إلى أي مدى سار ملوك سورية من خلفاء الاسكندر على نهجه أوخرجوا عليه .

أولاً ـ تأسيس الامبراطورية المقدونية :

كان من نتيجة إيمان الاغريق في بلاد اليونان القارية بأفضلية نظام المدينة الدولة (Polis) على غيره من الانظمـة السياسية الأخـــرى ، وشـدة تعلقهم

بحريتهم الشخصية أولاً ، واستقلال مدنهم الذاتي والخارجي ثانياً ، أن تعاظمت مشاكل التشيع الحزبي داخل المدينة الواحدة وبين المدن المتعددة ، كما عزف الجميع عن القيام بأية خطوة جادة على طريق الوحدة السياسية وانجلت بعض أنانياتهم التي غلفوها بستار من وهم الحرية المزيفة عن تحطيم الاحـــلاف المرحلية التي أقاموها تحت ضغط الظروف الخارجية (١) . وفي النهاية كانت نتيجة المغالاة في التمسك بالحرية الوقوع في عبودية دولة ناشئة شمال بلادهم ، كانوا حتى فترة قريبة يعدونها دولة تدخل في دائرة دول البرابرة (غير الاغريق) رغم بعض روابط اللغة والدم التي ربطتهم بها ، وهذه الدولة هي (مقدونية) .

والمقدونيون كما تبين مصادرنا أفراد من القبائل الهندية الأوروبية عاشوا في بلاد البلقان وشابهوا في أنظمتهم السياسية والاجتماعية المتخلفة الاغريق في العصر الهومري ، من حيث وجود الامراء الاقطاعيين والنظام العقاري الوسط الذي يجمع بين الملكية المشاع والفردية ، في حين لم يكن حكمهم الملكي يرتبط بقانون يحدد الخلافة ، كما لم تكن قوتهم الجسديـــة وشجاعتهم تلتزم بأي انضباط أو تخضع لاي تدريب .

ولا يعرف الكثير عن تاريخ المقدونيين قبل فيليب والد الاسكندر الذي تذكر المصادر أنه كان ابنا للملك أمونتاس « Amyntas » الذي توفي عام ٣٦٩ (٢) عن ثلاثة أولاد انجلت منازعاتهم الخاصة عن استيلاء اصغرهم فيليب على العرش (٣) . وكان فيليب الذي تسلم الملك وهو لم يتجاوز بعد العشرين من عمره شاباً مقتدراً

---

(١) أنشأ الاغريق خلال تاريخهم الطويل عدداً من الاحلاف أشهرها (حلف ديلوس حلف البلوبونيز ــ والاتحاد الكونفدرالي والحلف الايتولي والآخي) انظر :

Oxford Classical Dictionary . S. V. Leagves.

(٢) جميع التواريخ الواردة في هذا البحث سابقة للميلاد مالم ينوه صراحة بغير ذلك

(٣) W. Pickard, "The Rise of Macedonia" C. A. H., VI, p. 203

في الحرب والسياسة ، تتلمـــذ في أثناء اقامته في مدينة طيبة على أيدي مشاهير القادة الطيبيين ، وتعرف في اثناء تجواله بعـــدد من أشهر مثقفي الاغريـــق وفلاسفتهم منهم أفلاطون وايسوقراط وأرسطو . كما تمكن بعد التغلب على جميع منافسيه في المجال الداخلي من إعداد جيش قومي محترف على أسس مبتكرة قوامها نظام الفيلق « Phalanx » الذي أثبت قدراته القتالية ضد أعداء مقدونية شمالاً وشرقاً ، ومن إعـداد أسطـــول ينافس فيه الاسطول الأثيني فيما لو دعت الحاجة (٤)

وكانت أثينا في الواقع من أقوى الاعداء الذين خشي فيليب شرهم ، وذلك نظراً لقوتها البحرية المتميزة وقوة الحزب المناوىء لفيليب داخل المدينة العريقة ، وعلى الرغم من ذلك فقـد استغل فيليب انشغال الاغريق في حربهم المقدسة الثالثة (٥) ، وحالف اسكندر ملك « ابيروس » (٦) وتزوج اخته أولمبياس ، وقام بتأكيد سيطرته على أصقاع بلاد الاغريق الشمالية كافة ، وعندما حاولت أثينا الانتصار لبعـــض حليفاتها التي هاجمها فيليب والتصدي له أوقع بجيشها وجيوش حليفاتهـا في مـــوقعة خايرونيه « Chaeronia» عام ٣٣٨ ق . م ، وهي الموقعة التي شارك فيها الاسكندر الاكبر قائداً لميسرة جيش أبيه . (٧)

وفي عام ٣٣٧ ق.م لبت جميع المدن الاغريقية باستثناء إسبرطة دعوة

Pickard, on cit , pp. 204- 9 (4

(٥) جرت الحروب الثلاثة متقطعة خلال الفترة (٥٩٠ - ٣٤٧) بين بعض أهم دويلات بلاد اليونان وذلك نتيجة للخلاف بين مدينة (دلفي) المقدسة ومينائها (كيرها) حول أحقية الميناء في فرض رسوم على الحج القادم عن طريقه .

(٦) ابيروس مملكة تقع في الشمال الغربي من بلاد الاغريق « البانية حالياً » ، لعبت دوراً سياسياً بارزاً في تاريخ بلاد الاغريق بعد اسكندر سابق الذكر .

Pickard , on cit , pp. 209 - 63(7

فيليب إلى مؤتمر عام ، كانت من أهم مقرراته إقامة حلـف هيليني بزعامة مقدونية ، وتكليف الاخيرة بالاعداد لحرب الإمبراطورية الفارسية للرد على الاهانة التي لحقت بالاغريق في الحروب الفارسية « ٤٩٠ ـ ٤٧٨ » ، وحدد المؤتمر مساهمة كل عضو من أعضاء المؤتمر . وعلى هذا حقق فيليب أول هدف من أهدافه وهو توحيد بلاد الاغريق وإرغامها على تأييده ، ولكن القدر لم يمهله . الهدف الثاني وهو محاربة الفرس إذ اغتيل في عام ٣٣٦ وخلفه ابنه الاسكندر ملكاً على مقدونية وزعيماً للحلف الهيليني وكان لايتجاوز العشرين من عمره (٨)

ثانياً ـ الاسكندر الاكبر :

ورغم السمعة العسكرية الكبيرة التي خلفها فيليب الثاني ، فإنه ما إن قضى حتى استهانت معظم المدن التي خضعت له سابقاً بخبرة ابنه الاسكندر وثارت عليه في محاولة للتخلص من التزاماتها تجاه مقدونية بموجب المعاهدات المبرمة معها . وأثبت الاسكندر للجميع مالم يكن أحد يتوقعه من حزم في معالجة الامور وكفاءة عسكرية هائلة . وبعد جولة عسكرية مثمرة في الشمال والجنوب قضى فيها على ثورات القبائل المتمردة شمال مقدونية وثورة تساليه وثورة طيبة عاد إلى مقدونية لاستكمال استعدادات أبيه لغزو الشرق (٩) .

والواقع أن فكرة قيام ملك غربي ولاول مرة في التاريخ بغزو الشرق على رأس جيش صغير نسبياً كانت خرافية الطابع في أذهان الكثيرين ، ولهذا فإن محاولة إيجاد مسوغ لهذا الغزو تبدو منطقية للحفاظ على التسلسل الموضوعي للبحث . فمن المؤكد أن الاسس القوية التي أقام عليها فيليب صرح مقدونية

---

8) Pickard, on cit , pp- 268 - 9

9) Arrian. , Anabasis, 1 - 2 - 8 , Diodorus,, xvii , 14 , 4 , W . Tarn , Alexander the Great (Cambridge 1951) pp.4 - 6

والاستعدادات التي جهزها قبل اغتياله قد سهلت كثيراً من المصاعب العسكرية أمام الاسكندر ، وكانت عاملاً مادياً هاماً جداً يضاف إلى عامل فوزه برئاسة حلفي تساليه وكورنثة ـ وكانا من اقوى الاحلاف العسكرية في بلاد اليونان ـ ولاشك أن الاسكندر ورث فيما ورث عن أبيه عزمه على محاربة الفرس تحقيقاً لدعوة معظم فلاسفة وخطباء الاغريق بما فيهم افلاطون وأرسطو وكذلك ايسوقراط ، وكان من أشهر فلاسفة وخطباء الاغريق في القرن الرابع ذلك ان هذا الفيلسوف اتجه إلى فيليب مطالباً اياه تحقيق دعوته التي رددها على مدى نصف قرن تقريباً ولكنها ذهبت وسط انهماك المدن الاغريقية في صراعاتها التقليدية . وفحوى هذه الدعوى أن خير وسيلة لانقاذ بلاد الاغريق من صراعاتها كانت تكاتف الاغريق للثأر من البرابرة وحكمهم بحق سمو الحضارة الاغريقية على ماعداها . والواقع أنه إذا كان الاسكندر قد تأثر بأفكار إيسوقراط من حيث انه يمكن علاج مشاكل الاغريق بمحاربة الفرس ، فإننا سوف نلاحظ كيف انه اي الاسكندر طرح أفكار أفلاطون وارسطو وايسوقراط بوجوب معاملة الشرقيين معاملة قاسية (١٠)

ولاشك في ان رغبة الاسكندر في الاطلاع وحب المعرفة وهي التي بثها في نفسه استاذه ارسطو ، قدكونت دافعاً هاماً من دوافع الحملة بدليل اصطحابه عدداً كبيراً من الادباء والعلماء المتخصصين في مختلف فروع المعرفة وهو الامر الذي لم نعهده في حملات من سبقه من الغزاة (١١) . ولايفوتنا هنا

(١٠) مفيد رائف العابد ، عصر سلوقس الاول ، رسالة جامعية غير مطبوعة « القاهرة ـ ١٩٧٥ » ص ٧

(١١) جورج سارتون ، تاريخ العلم « القاهرة ـ ١٩٥٩ » ج ٣ ، ص ١٨٠ - ١٨١ ؛ ص ٢٥٨ - ٢٦٠

أن نذكر ان موارد الامبراطورية الفارسية من الاموال والرجال كان يقلل من شأنها افتقارها إلى القادة المجربين وما احرزه الاغريق والمقدونيون من تقدم هائل في فنون القتال خلال النصف الاول من القرن الرابع (١٢) . وإذا كان بعض المؤرخين المتعصبين لغربيتهم يهونون من قيمة هـــذه النقائص في محاولة لإضفاء المزيد من صفات العظمة الخارقة على انتصارات الاسكندر السريعة ، فإن أي منطق سليم يجعلنا ننكر على هؤلاء اعتقادهم ، فمن غير المعقول إطلاقاً ان يقوم غاز مهما تبلغ درجة تهوره بتدبير هجوم على دولة تتفوق عليه عدداً وعدة دون الوقوف على مايؤكد له انه يكمن في هذه الدولة مـــن عناصر الضعف مايهيء له فرصاً معقولة للانتصار (١٣) .

ثالثاً ـ الحمـــلة :

تذكر المصادر القديمة أن الاسكندر تحرك في ربيع عام ٣٣٤ ق.م باتجاه آسية الصغرى على رأس جيش بلغ تعداده ثلاثين الف من المشاة وخمسة آلاف فارس ، وان الملك الفارسي « دارا » لم يقدر الخطر الذي وفد عليه من وراء البحر فكلف عدداً من ولاته في آسية الصغرى بصد هجوم الغزاة ، وعهد الى احد المرتزقة الاغريق ويدعى ممنون « Memnon » بقيادتهم . والتقت في معركة نهر «جرانيكوس » قلة الكفاءة العسكرية والاستهانة في مواجهة احدث التقنيات العسكرية والخبرة المشوبة بالكثير من الحماس ، ولم تفلح المقاومة اليائسة التي ابداها الفرس في تقليل حجم الخسائر التي منوا بها فعادوا شرقاً يلمون

---

(١٢) ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة « القاهرة ـ ١٩٦٦ » ج١ ، ص ١٦

(١٣) لطفي عبد الوهاب يحيى ، دراسات في تاريخ مصر « البطالمة » « الاسكندرية ١٩٦٧ » ص ٦٣

اذيال الخيبة ويمنون النفس بنصر في معركة قادمة يكونون فيها اكثر استعداداً (١٤)

وكان الفرس يعتمدون في حكمهم مدن آسية الصغرى على الطغاة (١٥) والحكومات الاوليجاركية « = حكومات الأقلية » ، وبحكم الصوالح المتبادلة ، فقد قام الاسكندر بتأييد الدمقراطين الذين تمكنوا بسهولة من السيطرة على مقاليد الامور في مدن آسية الصغرى كافة وبذلك ضمن الاسكندر مؤخرته وتابع المسير باتجاه الجنوب . وفي معركة « اسوس » عام ٣٣٣ ق . م بالقرب من انطاكية أثبت الفيلق المقدوني مرة أخرى قدراته القتالية ضد الانماط التقليدية للحرب القديمة وهزم الجيش الفارسي مرة اخرى هزيمة قاسية وتفرقت فلوله في كل حدب وصوب (١٦) .

ودلل الاسكندر مرة أخرى على كفاءته العسكرية بعدم تعريض اسطوله لمجازفة الاشتباك مع الاسطول الفارسي وكان ثلاثة اضعاف أسطوله ، بل قرر الاستيلاء على قواعد هذا الاسطول في آسية الصغرى وسورية ومصر . وبعد استيلائه على أهم موانىء آسية الصغرى سرح اسطوله المرافق وتابع مسيره مساحلاً الساحل السوري الذي فتحت مدنه أبوابها باستثناء صور ، فحاصرها

---

(14) Arrianus. , Anabasis , I , 13 - 14 , Diodorus . , xvll ; Quintus Curtius . , Alexander . II ; Justin . , xl , xll

(١٥) كان الاغريق يطلقون على كل من يستولي على الحكم بالقوة أو يفرض نفسه حاكماً مطلقاً كلمة (Tyrannos) أو طاغي ، وكان الطغاة يظهرون عادة بتعقد امور الحياة نتيجة انتفاضة اقتصادية معينة وينصبون انفسهم اوصياء على الطبقات المستضعفة ليكسبوا من اعداد افراد هذه الطبقات دعماً . وكان معظم الطغاة حكاماً مستنيرين حققوا الكثير من الانجازات الاجتماعية لصالح الجماهير في حين كان بعضهم (وبخاصة العملاء لدولة أجنبية) دموياً وعنيفاً ارتكب مجازر شنيعة حتى اصبحت كلمة طاغية في المفهوم الحديث تعني الحاكم الذي لايتورع عن القيام بأي عمل لا أخلاقي في سبيل دوام حكمه .

(16) Arrian . , I , 17 - II 11 ; Diodorus . xvll,Curtius. , II - III

الاسكندر سبعة اشهر ثم استسلمت له كما استسلمت فيما بعد غزة التي قاومته مدة شهرين كاملين غير متعظة بمصير صور المفجع (١٧) . وفي خريف عام ٣٣٢ ق . م وصل الإسكندر إلى مصر التي استقبلته أيضاً استقبال المنقذين . وبعد تقديمه فروض الاحترام للآلهة المصرية في العاصمة « ممفيس » اتجه إلى موقع الاسكندرية حيث وضع أساسات أعظم مدينة حملت اسمه ، وبعد زيارة سريعة قام بها إلى معبد آمون في واحة سيوه في صحراء مصر الغربية اتجه الاسكندر شرقاً لملاقاة الجيش الفارسي ثالثة ، بعد ان أعاد تنظيمه وتولى قيادته الملك الاكبر بنفسه (١٨) .

وفي دمشق عين الاسكندر والياً عاماً على سورية الكبرى ، وجعل له معاونين في إدارة المال والجيش ، لكنه قبل أن يبرحها خشي من طموح من يحكم مثل هذه الرقعة الهائلة من الارض ، فجعل من أراضي الجزيرة « الحالية في سورية » ولاية جديدة واستبقى للمدن الفينيقية حكمها ونظامها الذاتي ونظامها الملكي (١٩) .

وفي صيف عام ٣٣١ لحق الاسكندر بقواته الاستطلاعية التي كانت قد عبرت الفرات ثم اتجه صوب قرية صغيرة تدعى جاو جميلا « Gaugamela » عسكر بالقرب منها جيش دارا . ولم يكن صعباً على الاسكندر استغلال المعنويات المرتفعة التي تمتع بها جنده بعد نصرين سابقين ، ولا الإمكانات العسكرية الممتازة لفيالقه فاحرز بالتالي نصراً كبيراً بعد معركة ضارية فر على أثرها دارا وزحف الاسكندر إلى مدينة بابل « مستودع التجارة الهندية »

---

(17) Arrian., II, 13 - 26

(١٨) نصحي ، المرجع السابق ، ص ص ١٨ - ٣٦

(19) Curtius., IV, I, 19 ; Justin.., xi, 10 ; F. Eiselen, Sidon, A Study in Oriental history (N. Y. 1907) P. 70 ff.

فاستسلم قائدها كما استسلمت بعد ذلك مدينتا برسبوليس واكباتانا والعواصم الفارسية الاخرى كافة ويبدو أن قواد دارا يئسوا من قتال الاسكندر فتآمروا على ملكهم وقتلوه في خريف العام نفسه (٢٠) وبذلك طويت آخـــر صفحة من صفحات الإمبراطورية الفارسية « القديمة » وبدأ حكم جديد في الشرقين الادنى والاوسط تحت رعاية ممثلين جدد يحملون رايات حضارية جديدة .

وبعد جـــولة عسكرية تلامس أحداثها أحداث المغامرات الشائقة في مناطق الهضبة الإيرانية ومناطق شمال الهند وبخاصة منطقة البنجاب استغرقت الفترة مابين ٣٣٠ ـ ٣٢٤ تمكن الاسكندر من فرض سيطرته على الاقاليم التي لم تخضع له سلماً ، كما عقد معاهدات مثمرة مع بعضها الاخر وبخاصة معاهدته مع بوروس « Poros » حاكم البنجاب ، عـاد الاسكندر إلى الشرق وسط تهليل جنده الذين لم يجدوا مسوغاً لحملتهم الهندية بعد تحطيمهم الامبراطورية الفارسية وكانت غايتهم الرئيسية (٢١) . وفي مدينة « سوسا » أقام الاسكندر وليمة كبرى احتفالاً بإتمام غزو الإمبراطورية الفارسية ، وفي الحفل نفسه عقد قرانه وقران عدد من ضباطه على نبيلات فارسيات ، كما عقد قران عدد كبير من جنوده على فارسيات . وكان هـــذا الاجراء أكبر خطوة من الخطوات التي خطاها الاسكندر في سبيل تقوية أواصر الرباط بين الشرق والغرب عـــن طريق المصاهرة التي لم يكتب لها النجاح بوجه عام ، نظراً لعدم إيمان معظم إن لم نقل كل الذين تزوجوا ـ باستثناء سلوقس ـ بجدوى مثل هذه الفكرة (٢٢).

وفي ربيع عام ٣٢٣ وصل الاسكندر إلى مدينة بابل وأنقذ هراكليدس

---

(20) Arrian., III ; 7 , 21 ; Diodorvs, , xvii , 56

(21) Tarn , Alexander , pp. 99 ff

(22) Arrian., Vii ; 4 ; 2 - 7 ; G. H. Macurdy , Hellenistic Queens (Oxforq 1932) pp. 77 ; E. Bevan . The houseof Seleucus (Chicago 1902) lVol I , p , 31

« Heraklides » لمحاولة التأكد أية النظريتين أصح : نظرية أرسطو القائلة بأن بحر قزوين لم يكن إلابحيرة كبيرة ، أم النظرية القديمة القائلة بأن هذا البحر ليس إلاخليجاً في محيط كبير (٢٣) . وحين كان معنياً بوضع مخططاته الحربية لغزو بلاد العرب (٢٤) دهمه مرض أقعده عن الحركة وأدى إلى وفاته في تموز من العام نفسه وكان وقتها يناهز الثالثة والثلاثين من العمر .

رابعاً ـ الصراع بين القادة :

وعقب وفاة الاسكندر عقد قادته في بابل مؤتمراً لبحث مشكلة وراثة العرش والنظم الواجب اتباعها في حكم الامبراطورية ، وقدتفتحت امام كل منهم الآمال والمطامح بموجب الموقف الجديد والمفاجيء .وبعد بحث مشكلة ولاية العرش بحثاً مستفيضاً تم الاتفاق على ان يرتقي المعتوه فيليب « ارهيدايوس » أخ الاسكندر غير الشقيق والطفل اسكندر بن الاسكندر العرش مشاركة تحت وصاية أحد الضباط ويدعى كراتروس « Krateaos » كما قرر المؤتمرون تعيين القائد برديكاس في منصب القائد العام للجيش ، وتوزيع ولايات الامبراطورية على القواد الكبار لحكمها باسم العرش المقدوني (٢٥) . وعندما انصرف كراتروس الوصي من بابل إلى مقدونية اغتصب برديكاس القائد العام للجيش الوصاية لنفسه وأخذ يصدر الاوامر إلى حكام الولايات باسم العرش ويطلب إليهم الامتثال إلى هذه الاوامر . ولما كان معظم هؤلاء الحكام ينتمون الى اعرق الاسر المقدونية النبيلة ويعتزون أشد الاعتزاز بأصلهم العريق وانتصاراتهم الباهرة وكان بعضهم يعتبر نفسه جديراً بأن يخلف

---

23) nraT , op cit , p. 118

24) Diadorus. , xviii , 3 - - 48

(٢٥) مفيد رائف العابد ، المرجع السابق ، ص ٣٥

الاسكندر بل إن اقلهم اعتزازاً بنفسه كانلا يمكن أن يسمح بأن يعامل غير معاملة الندللند . ولما كان لكل من هؤلاء الحكام أطماع شخصية فإنه لم يكن هناك مفر من أن يؤدي تضارب الاطماع إلى صراع عنيف . ولم ينقض وقت طويل حتى خرج كثير من حكام الولايات على طاعة برديكاس (٢٦) وبدأت سلسلة من المحالفات والمعارك استغرقت الفترة مـــابين ٣٢٣ - ٣٠٢ برز فيها قادة من الصف الثاني على مسرح الاحداث التي انجلت عن سيطرة ثلاثة قواد من قواد الاسكندر على امبراطوريته فحكم بطلميوس مصر وليبية وبعض جزر آسية الصغرى ، في حين حكم دمتريوس بن أنيتجونوس - وكان الاخير من اقوى القواد نفوذاً في فترة الصراع الرهيب بين القادة - بـــلاد اليونان ومقدونية . وآلت منطقة آسية الغربية بكاملها من البنجاب حتى البحر المتوسط ومــن البحر الاسود حتى الصحراء العربية إلى سلوقس الاول .

خامساً - سلوقس الاول مؤسس الامبراطورية السلوقية :

هو واحد من الشباب المقدوني الذينصاحبوا الاسكندر في حملته الشرقية ، ولكنه لم يلعب دوراً في أثناء الحملة يضاهي الادوار التي لعبها بقية القادة الذين شاركوا في الصراع السابق . ولد سلوقس في مدينة يوروبوس « Europos » في مقدونية بين عامي ٣٥٨ - ٣٥٤ ، وهو ابن لانطيوخس ولاوديكي . قاد اثناء حملة الاسكندر بعض الفرق الصغيرة التي اثبت في قيادتها كفاءة عسكرية دعت القادة المجتمعين في بابل بعد موت الاسكندر إلى أن يسندوا إليه قيادة فرقة « الفرسان الرفقاء » وكانت تضم نبلاء مقدونية ، وتعد قيادتها شرفاً عظيماً وتكسب شاغلها مكانة سامية لاتفوقها إلامكانة القائد العام للجيش . ولاشك

(٢٦) نصحي ، المرجع السابق ، ص ص ٤٦ - ٥٨

في أن رجلاً مثل سلوقس عريق الاصل ومحارباً شجاعاً كان واسع الأطماع ويعد نفسه جديراً بأن تسند إليه واحدة من الولايات الهامة في الامبراطورية . ويبدو أن قناعته بعدمؤتمر بابل بتولي قيادة فرقة الفـــرسان الرفقاء لم ترض هذا الطموح فبدأ يعمل حثيثاً حتى اعترف له القادة في مؤتمر تريباراديسوس « Triparadisos » عام ٣٢٠ (٢٧) . بولايـــة بابل وكانت من أهم ولايات الامبراطورية ، واستمر في حكم هذهالولاية حتى عام ٣١٦ حيث أجبرته ظروف الصراع على الهروب منها إلى صديقه بطلميوس والي مصر ، وبدأ من هناك العمل علىاسترداد ولايته السليبة حيث تمكن في عام ٣٢١ من استعادتها بتأييد من أهاليها وبمساعـــدة عسكرية متواضعة قدمها له بطلميوس . ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام ٣٠٢ صرف سلوقس جهوده لاعداد قواه لمواجهة الصراع المتوقع بين القادة لامتلاك سورية ، وبعد احتلاله معظم مقاطعات الهضبة الايرانية عقد معاهدة مع الملك الهندي تشاندراجوبتا « Chandragaputa » حصل بموجبها على فوائد اقتصادية جمـــة وعلى عدد مـــن الافيال الحربية ، وفي معركة ابسوس « Ipsos »عام ٣٠٢ حقق سلوقس نصراً على أقوى هؤلاء القادة وهو انيتجونوس وآلت إليه سورية بكاملها . وكان سلوقس قد عقد اتفاقاً مسبقاً مع بطلميوس عـلى ان يحصل الاخير على سورية الجنوبية لقاء مشاركته سلوقس في معركته ضد انيتجونوس ، ولما لم يشترك بطلميوس في معركة أبسوس فقد اعتبر سلوقس اتفاقه السابق معه وكأنه لم يكن وانكر عليه زعمه في الحصول على أية مكاسب إقليمية . ولكن بطلميوس تجرأ رغم خيانته صديقه في أحلك ساعات الحاجة إلى مساعدته واحتل منطقة جوف سورية (٢٨) تمشياً

---

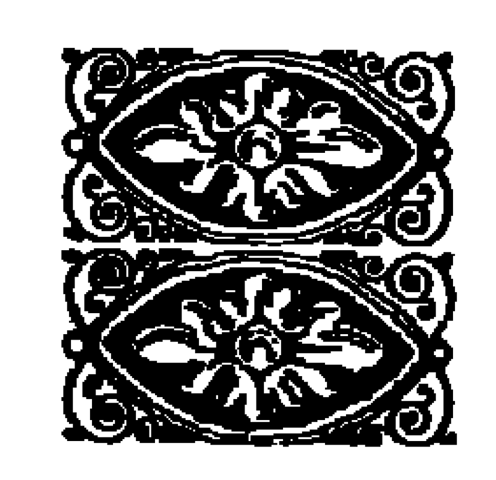
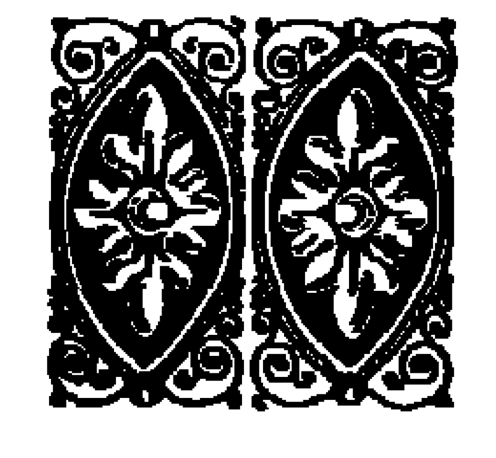
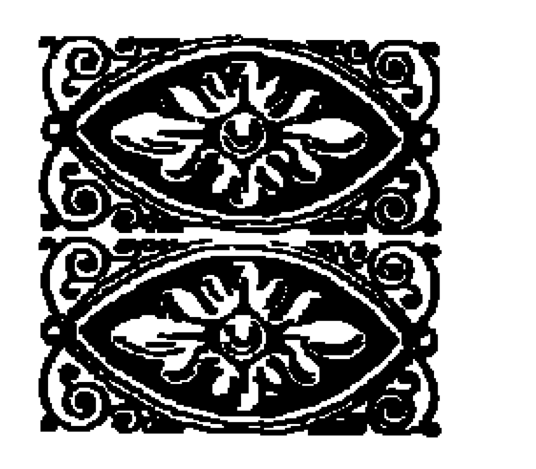
(٢٧) وهو مؤتمر عقد في فاتحة الصراع بين القادة في احد مواقع جنوب لبنان .

(٢٨) (Coele Syria) وتشـمل سوريـة الجنوبية والسـاحلية حتى نهر الكبير الشمالي جنوبي اللاذقية .

مع اتفاقه السابق الذكر . بيد أنه رغم استياء سلوقس من تصرف بطلميوس واتجاهه على رأس جيشه جنوباً للرد على عمله ، فإنه وقد كان يدين لبطلميوس بماقدمه من مساعدة مكنته من استرداد بابل على نحو ما أسلفنا رفض الاشتباك معه مكتفياً بالتصريح بأنه « من اجل الصداقة فقط سيؤجل البت في هذه القضية وسيأخذ بعين الاعتبار فيما بعد كيف يعامل صديقاً اقتنص أكثر من حقه (٢٩) . وسنرى فيما بعد كيف سيؤدي تعليق البحث في هذه المشكلة إلى نتائج وخيمة على البيتين المالكين في سورية ومصر . ورغم النجاح الذي حققه سلوقس في السنوات التالية في مجال السيطرة على منطقة آسية الصغرى وإقليم تراقية « شرق البلقان » فإنه لم يتمكن من العودة مـــرة أخرى إلى مقدونية وضمها إلى امبراطوريته إذ اغتيل في عام ٢٨٠ عن عمر يناهز الخامسة والسبعين بعد ان خلف امبراطورية امتدت من الهند الى البلقان ومن البحر الاسود حتى العقبة جنوباً وحكمها مـــن ذريته سبعة وعشرون ملكاً قسم المؤرخون فترة حكمهم الى عصرين : التوسع والقوة ثم التفكك والانهيار وهذا ماسنتناوله في القسم الثاني من هذا البحث بإذن الله .

دكتور مفيد العابد

جامعة دمشق

---

(٢٩) مفيد رائف العابد ، المرجع نفسه ، ص ص ٣٩ - ٨٢

اسم استانبول أقديم أم جديد

الأستاذ عدنان قيطاز

القسطنطينية مدينة تربط بين حضارتين ، وجسر يصل بين قارتين ، تربط بين حضارة الشرق والغرب ، وتصل بين آسية وأوربة . وقد بنيت في موقع بيزنطوم (١) القديم على سبعة تلال تطل علـى القرن الذهبي ذراع البوسفور عـام ٣٢٤ م ، تماماً كما بنيت مدينة روما على سبعة تـلال وأطلق عليها أول الامر اسم « روما الجديـدة » . وهـذه التسمية أقـدم تسمية عرفت بها مدينة القسطنطينية ، غير أن هذه التسمية لم تدم أكثر من اثنتي عشرة سنة ، أي حتى سنة ٣٣٦ م (٢) .

ويرى المؤرخ « مير » في كتابة « التاريخ العام » أن اسم بيزنطة تحول إكراماً لبانيها إلى اسم القسطنطينية نسبة الى الامبراطور قسطنطين ، وهو أول من تنصر من أباطرة الرومان . وقد دفعه لبنائها اسباب متعددة :

أ ـ دينية : وتتلخص في اعتناقه دين النصرانية ونبذه آلهة روما الوثنية ،

ب ـ حربية : لان أشد أعـداء الامبراطورية خطراً كانوا في الشرق ، وهم الفرس .

جـ ـ اجتماعية وسياسية : وتتعلق بالفتوح الرومانية في الشرق ، والتي

---

١ ـ نسبة الى مؤسسها الأسطوري بيزانس ، (الموسوعة الفرنسية) .

٢ ـ انظر الموسوعة الفرنسية ـ مادة استانبول

نقلت غنى الامبراطورية وآدابها إليه (١) .

وقد طغى على القسم الشرقي من الامبراطورية الطابع اليوناني ، والذي أصبح يعرف فيما بعد باسم الإمبراطورية البيزنطية ، وهي التي وردت في المصادر العربية باسم « دولة الروم » وكانت القسطنطينية عاصمة لها ، وقد وأخفقت في العصور الإسلامية كل محاولات العرب المتكررة لفتحها وبسط سيادتهم عليها أيام الامويين والعباسيين ، وبقيت القسطنطينية مدينة شامخة طوال احد عشر قرناً من الزمن كعاصمة للإمبراطورية البيزنطية وكمركز ديني للطوائف المسيحية وكانت اكبر مدينة أروبية في العصور الوسطى حتى تضاءل شأنها إثر هجمات الاتراك العثمانيين مما أدى الى هجرة الاغريق عنها ونزوحهم إلى ايطالية ، وبخاصة علماؤهم . . فكانت هجرتهم عاملاً من عوامل النهضة الاوربية . وما كاد عام ١٤٥٣ الميلادي يسطع حتى سقطت المدينة بيد السلطان العثماني محمد الثاني الذي اصبح يعرف في التاريخ باسم محمد الفاتح تخليداً لهذا الفتح المبين . وكان سقوطها إيذاناً بانتهاء العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة ، على رأي بعض المؤرخين ، وآخر أباطرتها قسطنطين الحادي عشر (١٤٤٨ – ١٤٥٣) م الذي سقط صريعاً على ارض المعركة دفاعاً عن القسطنطينية .

لكن المدينة سرعان ما ازدهرت في ظل سلاطين بني عثمان ، واصبحت مركزاً سياسياً وتجارياً عظيماً في أوربة ، كما ازدهرت عمرانياً ، فهي تزخر بالعمائر الإسلامية من مساجد ومدارس وأضرحة أهمها المسجد السليماني وهو اجمل وافخم مساجدها ، ومسجد السلطان سليم . . ويعد منبره ومحرابه آيتين في فن النحت الاسلامي ، ومسجد السلطان أحمد وهو اعجوبة في فن العمارة العثمانية . . كما يتفرد بين مساجد تركية بآذنه الست ، ويعرف بالمسجد

---

١ – التاريخ العام – مير ص ١٨٣

الازرق لان جدرانه مغطاة بالقاشاني الأزرق والاخضر (١) .. بالاضافة الى مسجد أبي أيوب الانصاري الذي جرت العادة فيه ان كل من يتولى السلطنة من آل عثمان يتقلد سيف عثمان خان الغازي الاول بهذا المسجد تيمناً وبركة ، وهذا الاحتفال يعد بمثابة التتويج عند ملوك الافرنج (٢) . ولم تزل هـــذه العادة متبعة حتى انقضاء عهد السلطنة وقيام الجمهورية وانتقال العاصمة إلى أنقرة ايام مصطفى كمال أتاتورك عام ١٩٢٣ .

ولفظة « القسطنطينية » تعرف حينا وتنكر حيناً آخر ، فقد ذكرها الطبري في تاريخه بـدون « أل » التعريف ، وذكرها المسعودي في « التنبيه والاشراف » معرفـــة . بينما نجدياقوتاً الحموي في معجم البلدان يعرفها تارة وينكرها أخرى . ووردت عنـــد أبي الفداء في « تقويم البلدان » معرفة . و « أل » التعريف هنا زائدة غير لازمة كزيادتها في بعض اسماء الاعلام كقولنا : النعمان والرشيد . . ولذا يجوز فيها الحذف والاثبات .

وهناك اعتقاد سائدلدى طائفة من الباحثين العرب ان اسم « استانبول » هو الاسم الجديد لمدينة القسطنطينية ، ولم تعرف به إلا بعـــد الفتح العثماني عام ١٤٥٣ م حتى أن الموسوعة الفرنسية تذكر بأن القسطنطينية هي الاسم القديم لمدينة استانبول .

كما يرى بعضهم أن السلطان محمد الثاني بعد انهيار الإمبراطورية البيزنطية وسقوط القسطنطينية على يديه قد عمد إلى تغيير ملامح المدينة القديمة وإضفاء الطابع الإسلامي حتى على اسمها فأطلق عليها « اسلام بول » أي مدينة الاسلام ، ومع الزمن تحورت التسمية وانقلبت إلى استانبول اواسطنبول .

غير أن هذا الاعتقاد لايقوم على حقيقة ، ولم يثبت أمام الادلة التاريخية

---

١ ـــ الموسوعة العربية الميسرة ـ مادة استانبول

٢ ـــ انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٥٩

التي عثرت عليها في بعض المصادر العربية القديمة والاجنبية الحديثة :

١ ـ يذكر المسعودي (٣٤٦) هـ في تاريخه « التنبيه والاشراف » : ان الروم يسمونها إلى وقتنا هـذا المؤرخ به كتابنا (بولن) واذا أرادوا العبارة عنها أنها دار الملك لعظمها قالوا (استن بولن) ولايدعونها القسطنطينية ، وإنما العرب تعبر عنها بذلك .. » (١)

٢ ـ ويذكر ياقوت الحموي « ٦٢٦ » هـ في كتابه « معجم البلدان » مانصه : « اصطنبول بسكون النون وضم البـاء الموحدة وسكون الواو هو اسم لمدينة القسطنطينية » (٢)

ويشير ياقوت في مكان آخر بأن قسطنطين الاكبر انتقل الى بيزنطة وبنى عليها سوراً وسماهـا قسطنطينية ، وهي دار ملكهم الى اليوم ، واسمها اصطنبول . (٣)

٣ ـ كما يذكر أبوالفداء صاحب حماه « ٧٣٢ » هـ في كتابه « تقويم البلدان » بأن القسطنطينية هي اسطنبول · (٤)

وقد أخذت بعض المصادر الحديثـة بهذه المقولة ، إذ جـاء في الموسوعة البريطانية ان القسطنطينية أطلق عليها اسم « استانبول » قبل عام ١٤٥٣ م أي قبل الفتح العثماني للمدينة (٥) خلافاً لما ورد في الموسوعة الفرنسية التي تقول بأن القسطنطينية هي الاسم القديم لمدينة استانبول كما مر آنفاً (٦) .

---

١ ـ انظر التنبيه والاشراف ص ١٢٠
٢ ـ انظر معجم البلدان ج ١ ـ ٢٧٧
٣ ـ المرجع السابق ج ٧ - ٩٤
٤ ـ تقويم البلدان ص ٣٢
٥ ـ المجلد الثاني عشر ـ مادة استانبول
٦ ـ المجلد السادس ـ مادة استانبول

ويستفاد من عبارة المسعودي أن كلمة « استانبول » مركبة من لفظتين :

ـ « استن أو استان » وهي فارسية دخيلة على اليونانية وتعني « موضعاً أو مكاناً أو بلاداً » . وقد ورد في تاريخ الطبري أكثر من مكان باسم «استان » فهناك «استان العال » قرب المدائن (١) « و استانبهرسير »إلى جانب دجلة(٢) .

ـ « بولن » وهي من أصل يوناني وتعني « مدينة » .

وبذلك يكون معنى كلمة « استانبول » مدينة البلاد ، وفي هذه التسمية إعظام للمدينة ، ومثل هذه التسميات أمر مألوف ، فنحن نقول مثلاً عن مكة المكرمة أم القرى ، في القرآن الكريم قوله تعالى « لتنذر أم القرى ومن حولها »(٣) أو نقول عن لندن عاصمة المملكة المتحدة عاصمة العواصم .

وفي الموسوعة البريطانية خلاف ذلك ، فهي تقول بأن كلمة استانبول تحريف للكلمة العامية اليونانية « استنبولي Stinboli » وتتألف من ثلاث مقاطع « Eis - Tin - Polin » ولاتعني أكثر من « في المدينة in the City » كأن نقول لأحدهم إذا حضر من غياب أوسفر : أين كنت ؟فيجيب في المدينة .. مشيراً بذلك إلى مكان معلوم ولايحتاج إلى تسمية لشهرته .

وقد نقل العرب عن اليونان اسم « استانبول » ووردت في آثارهم كما ذكرت سابقاً . وهذا يعلل قول المسعودي ' . . وإنما العرب تعبر عنها بذلك .

وسواء أصدقت عبارة المؤرخ والجغرافي العربي المسعودي ام عبارة الموسوعة البريطانية فإن اسم « استانبول » مرافق لاسم القسطنطينية منذ القديم

---

١ ــ تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ــ ١٢٢

٢ ــ المرجع السابق ج ٥ - ٢٠٤

٣ ــ سورة الشورى الآية ٧

وليس اسماً جديداً شاع بعد الفتح العثماني . والخطأ التاريخي أولى بالتصويب .

نعم .. هناك حقيقة تاريخية لابد من ذكرها ، وهي أن السلطان العثماني محمداً الثاني فاتح القسطنطينية أطلق على المدينة اسم « اسلام بول » أي مدينة الإسلام حسب ماذكر محمد فريد بك في تاريخـــه (١). ومن كلمة «استانبول » أخذ العثمانيون كلمة «الآستانة » ، كما أطلق عليها في العصر الحميدي اسم «فروق» ودار السلام وقبلاً كانوا يسمونها دار السلطنة ودار الخلافة .

قال أمير الشعراء أحمد شوقي وهو في طريقه الى الآستانة قادماً من أوربة :

تاهت (فروق) على العواصم وازدهت

بجـــلوس أصيد باذخ المقـــدار

أخذت على (البوسفور) زخرفها دجى

وتلألأت كمنازل الأقمـــار (٢)

وقال الشاعر اللبناني الدكتور نقولا فياض في حريق الآستانه عام ١٩٠٨ وفي قوله إشارة إلى أن استانبول هي « إسلام بول » مدينه الإسلام ودار السلام:

أحريق (إسلام بول) هجت لواعجاً

وجعلت أيام السرور قصـــارا

دار السلام سلمـــت للعليا ولا

أخلى الزمان من الرضى لك دارا (٣)

---

١ ــ تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٦١

٢ ــ الشوقيات ج ٢ ص ٣٩

٣ ــ ديوان رفيف الاقحوان ص ٣١

وسوف تبقى استانبول مدينة مجيدة ومركزاً عالمياً ، وسوف يظل صوت الشاعر الفرنسي جيلياس « Gyllias » في أنشودته القادمة إلينا عبر القرون :

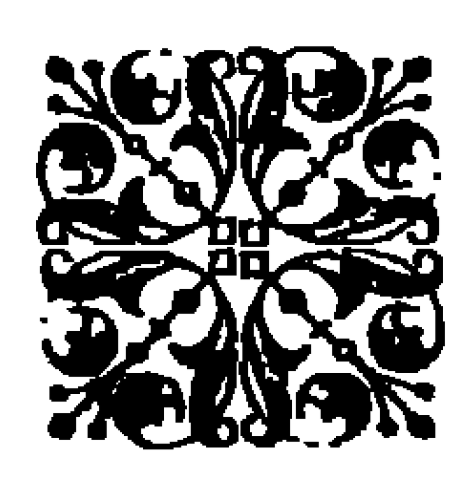
« بعض المدن يمكن أن تموت ، أما استانبول فستبقى مابقي على الارض بشر » .

عدنان قيطاز ـ حماة



★ مصادر البحث ★

- تاريخ الرسل والملوك للطبري : تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - الطبعة الثانية دار المعارف بمصر - ١٩٦٧
- تاريخ التنبيه والاشراف للمسعودي : طبعة دار التراث بيروت - ١٩٦٨
- معجم البلدان لياقوت الحموي : الطبعةالأولى - مطبعةالسعادة بمصر ١٩٠٦
- تقويم البلدان لأبي الفداء : طبعة مصورة عن الطبعة الباريسية - ١٨٤٠
- تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك : الطبعةالثانية - مصر - ١٨٩٦
- السلطان محمد الفاتح للدكتور محمد مصطفى صفوت : دار الفكر العربي مصر - ١٩٤٨
- التاريخ العام للمؤرخ الامريكي فيليب فان‌نس مير - ترجمة المرسلين الامريكيين في بيروت - الطبعة الاولى - المطبعة الامريكية - ١٩١٢
- الموسوعة البريطانية - المجلد الثاني عشر - ١٩٧١ مادة استانبول Istanbul
- الموسوعة الفرنسية - المجلد السادس - ١٩٧٤ مادة استانبول Istanbul
- الموسوعة العربية الميسرة - الطبعة المصورة - دار الشعب -مصر ١٩٦٥
- ديوان الشوقيات - الجزء الثاني - طبعة مصرية - ١٩٥٨
- ديوان رفيف الاقحوان للدكتور نقولا فياض - المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٠
- مجلة العربي الكويتية : العدد ٢٣٢ آذار ١٩٧٨



مع رواد اليقظة القومية العربية

الشهيد
عبد الحميد الزهراوي

الدكتورة

سهيلة زكية الريماوي

يعد الشهيد عبد الحميد الزهراوي (١) ، من اوائل الذين عرفهم الوطن العربي في عصر اليقظة القومية .

فقد شهد النور في مرحلة « التفتح » الفكري العربي ، بل والنهضة في مجالاتها المختلفة ، في القرن التاسع عشر .

كما عاش وساهم في ازدهار مرحلة « التكون » الثوري القومي العربي التي بدأت مع مطلع القرن العشرين ، وقدم روحه الطاهرة لتثبيتها ونموها .

فعصره اذاً هو العصر الذي شهد تفاعل الحركتين التاريخيتين الضخمتين :

الاولى . حركة اليقظة العربية من مواجهة التسلط والاستبداد والتخلف التي كان

---

(١) عبد الحميد الزهراوي ، ولد بحمص عام ١٢٧٢ هـ ١٨٥٥ م ودرس على علمائها ، وقاوم السياسة الحميدية قبل الدستور العثماني ، وسافر الآستانة فنفته السلطة إلى دمشق ثم عاد الى حمص وفر منها الى مصر ، وعاد بعد اعلان الدستور ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٨ م الى سورية وانتخب مبعوثاً عن « حماة » فذهب الى الآستانة واشترك في تأسيس احزاب مناوئة للاتحاديين . أعدمه جمال باشا السفاح في قافلة الشهداء الثانية في دمشق عام ١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م وله مصنفات منها رسالة في الفقه والتصوف وكتاب عن خديجة وقد طبع له المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ماوجد من مقالاته بعنوان « الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي عام ١٩٦٣ .

« هيئة التحرير »

الحكم العثماني قد فرضها على ربوع هذه الامبراطورية .

والثانية : حركة نشوء و نمو الرأسمالية الاوربية وتطورهـــا السريع الى حركة استعمارية ، تبحث لاهثة عن المواد الخام والاسواق لتستغل - بمنجهية العصر الفيكتوري - الثروات الطبيعية والبشرية اسوأ استغلال .

لذلك فانه امر طبيعي ، أن نجد نشاط هؤلاء الرواد الفكري أو السياسي والصحفي . . تجسيماً لتفاعل الحركتين التاريخيتين الرئيسيتين .

وغير غريب أن نجد انعكاس هذا التفاعل في انتاج هؤلاء الرواد الثوار منهم والمصلحين ، فنراه في ادبياتهم ، وفكرهم السياسي ، بـــل وفي الصيغ والشعارات التي رفعت ، سواء أكانت اصلاحية ام ثورية ، تدعو للانفصال عـــن جسم الدولة أوتطالب بحقـن هـــذا الجسم بمعاني التقدم ليصبح قادراً على مواكبة حركة التطور . .

لذلك فان تحرك هؤلاء الرواد ، كان يتسم بسمة التحرك التاريخي دون شك ، ويتجه بشكل مباشر « للتراث » بحثاً عـن اسس الثورة أوالاصلاح وقيمها ، فيحاول ان يجد في هذا التراث ، مضامين الحياةالسليمة ودوافع التمرد والثورة على ماهو قائم من الجمود الحياتي والحضاري ، وما كانيتجسم من تسلط وتأخر واستبداد من جهة ، وان يصمد لمقاومة الاستعمار الغازي الذي بـــدأ يتسلل تسللاً خبيثاً الى بعض اجزاء الوطن العربي .

ويتجه الباحث عن « الرواد » من مفكرين وصحفيين ومصلحين وقادة سياسيين إلى المصادر التي تزود البحث والباحث بالحقائق الموثوقة عن كل منهم ، وهذه المصادر نوعان :

اولاً : السيرةالسياسية وماتنطوي عليه من فعاليات ونشاطات ومسالك ،

ذات على دلالة الفكر السياسي سواء في الاهداف أو في الأسلوب عند هذا المفكر.

ثانياً: آثاره الكتابية التي يتحدث فيها عن افكاره السياسية بصور مباشرة أوضمنية، سواء أكانت هذه الآثار في صورة مؤلفات أومقالات أو رسائل.

ونجد من تتبع سيرة عبد الحميد الزهراوي انه اختار الصحافة ميداناً لافكاره، وتقلدمراكز ذات مسؤوليات سياسية – كعضو في «مجلس المبعوثان» العثماني – فاتخذ من ساحـــة المجلس ميداناً لنشر افكاره السياسية، كما ادرك قيمة «التنظيم» فكان عضواً في عددمن المنظمات التي التزم بميثاقها وافكارها بل كان من الاعضاء المؤسسين لهذه المنظمات في كثير من الاحيان، ولذلك يتطلب منا البحث، ان نلقي نظرة على هذه الساحات، ونتابع –بقدر الامكان– فعاليات ونشاط الزهراوي من خلالها.

عبد الحميد الزهراوي والصحافة السياسية:

لقـــد ثار الزهراوي على الاوضاع التي كانت تتجسم في الدولة العثمانية، واختار الصحافة ميداناً للدعوة إلى افكاره والتعبير عنها، فكان من رواد الصحفيين السياسيين المناضلين العرب.

وكانت جريدة «المنير» التي أنشأها في مدينة حمص، من اوائل الصحف العربية السرية التي تحدت السلطان عبد الحميد وسياسته الاستبدادية، إذا كانت ابحاثها تتناول موضوعات متعلقة بشخص السلطان نفسه وتعالج القضايا التي تدور حولها محاور العصر، كقضية الامامة والخلافة والاستبداد... وغيره.

وكانت الصحافة في سوريا خاضعة «للمكتوبجي» – مراقب المطبوعات بلغة عصرنا – ولذلك لم يطـــل الامر بهذه الجريدة الثورية، فقد شددت السلطة الحصار عليها، ووضعت المراقبين لمصادرتها، وعاقبت بشدة كل مـــن وجدت

لديه نسخة منها ، فاضطر الزهراوي إلى التوقف عن اصدارها ، وفضل الهجرة إلى مصر سنة ١٩٠٠ تعبيراً عن تحديه لهذا الموقف الغاشم وطلباً لموقع يتمكن من خلاله ان يعبر عن فكره السياسي ، الذي يتركز اساساً في دعوته للاصلاح والتقدم . ومقاومة الاستبداد سبيلا لتحقيقها .

وقد ساهم الزهراوي بتحرير جريدة « المؤيد » في القاهرة ، ثم تولى تحرير جريد « الجريدة » وظهرت مقالاته الى جنب عدد كبير من مقالات الصحفيين العرب الاحرار من السوريين والمصريين ، وحذا حذو الذين سبقوه الى الكنانة امثال عبد الرحمن الكواكبي ورشيد رضا وغيرهما . .

ومن أهم المقالات التي كتبها الزهراوي ، مقالة بعنوان « الى اليقظة ياقومي » نشرتها جريدة المفيد البيروتية بتاريخ ١٨/١/١٩١٢ كان الزهراوي ينبه فيها الى خطر الغزو الاوربي الذي تسلل إلى المغرب العربي ، وعلا صوته منادياً . « لكم ايها الاخوة العرب » انتم في هذه المملكة جزء عظيم فانظروا ماشأنكم فيها أمس ومـــا خطبكم فيها اليوم وامركم فيها غداً . . ويشير الزهراوي الى الواقع المؤلم في الوطن العربي بقوله : (أمس لم يكن في مصر وتونس يد اجنبية وهما من امهات بلادكم ، واليوم فيهما تلك اليد ، أمس كانت طرابلس الغرب آمنة مطمئنة واليوم يفعل فيها الاجنبي ماقد سمعتم ، أمس قد كانت سواحل نجـــد والعراق خالية واليوم هي شجية به ، وقولوا لي : هل سوريا اليوم هنيئة البال فارغة الفكر من المخاوف ؟ ؟ .)

واضح بغير عناء ان الرواد العرب كانوا يؤمنون بوحدة الاقطار العربية ، وانها تمثل بمجموعها وطناً عربياً واحداً ، بالرغم من كونها تقع في اطـــار الامبراطورية العثمانية ، وهـــذا ماتؤكده دساتير الاحزاب والتنظيمات التي قام

على تأسيسها وصياغة دساتيرها هؤلاء الرواد ، وفي مقدمتهم عبـــد الحميد الزهراوي ، الذي شرح في جريدة الحضارة التي كان يصدرها في الآستانة مبادىء حزب الحرية والائتلاف . فقد وجدناها في وثيقتين منشورتين في العددين (٨٦) و(٨٧) المؤرخين ٣٠ تشرين الثاني و٧ كانون الاول ١٩١١ . وهما من أهم الوثائق الصحفية التي عثرنا عليها (١) وهما تقدمان لنا فكرة عن جرأة الزهراوي الصحفية وايمانه العميق بمبدأي الحرية والمساواة بالاضافة إلى الاسلوب الصحفي الذي كان يتميز به رائدنا ، وسأقدم شرحاً وافيا عنهما في الصفحات التالية .

عبد الحميد الزهراوي والتنظيمات الحزبية :

ساهم الزهراوي في التنظيمات الحزبية التي تأسست إثر الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ ، ومناداة الاتحاديين – بعد تسلمهم الحكم – بعودة الحياة البرلمانية إلى البلاد ، وفي الوقت نفسه بامتصاص جميع الاحزاب التي وجدوها امامهم او حلها مثل حزب الشورى العثماني ، وحزب التثبت الشخصي واللامركزية الادارية الذي كان ينادي باللامركزية ، وجمعية النهضة العربية ، التي يدل اسمها على عروبتها وقوميتها .

وكان اول هذه الاحزاب حزب الإخاء العربي العثماني الذي تأسس في (٥ آب اغسطس سنة ١٩٠٨) وقام على تأسيسه عدد من العرب في مقدمتهم عبد الحميد الزهراوي وصادق المؤيد وشفيق المؤيد من سوريا ، وشاكر الالوسي وعبد الله الحيدري من العراق ، والشريف جعفر باشا من اشراف الحجاز ، وشكري الحسيني من القدس ، ونجيب الاسعد من لبنان ويوسف شتوان من

---

(١) الوثيقتان المذكورتان منشورتان في كتاب « الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي» ص ٤٨٠ - ٤٨٢ والاولى بعنوان « حزب الحرية والائتلاف » والثانية بعنوان « الحزب الجديد الحرية والائتلاف » وقد نشرتا في الحضارة من غير توقيع ، ويرجع أنها للزهراوي . « هيئة التحرير »

طرابلس الغرب . . وغيرهم .

ولابأس مـــن سرد ماقصه علي السيد احسان الجابري لوضع القارىء في الصورة وفي الظروف التي تأسس فيها هذا الحزب قال :

بعد يومين من اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ اجتمع عدد كبير من العرب الموجودين في الآستانة وقرروا أن يوجهوا دعوة يطالبون فيها اخوانهم العرب بعقد اجتماع في تياترو (١) « الفاريتي » وكان نص البرقية التي نشروها ووزعوها كالآتي :

« اخوانكم العرب يرجون حضوركم في الساعة الحادية عشرة إلى تياترو الفاريتي » ثم يضيف السيد الجابري قائلاً « لم أر في حياتي حشداً عربياً هائلاً مثل هـــذا الحشد » وامتلأ الفاريتي الذي يسع اكثر من الفي شخص ، وقام ندرة مطران وألقى كلمة شكر فيها الحضور ثم قال : لقد قررنا ان نشكل جمعية عربية نطلق عليها اسم جمعية الاخاء العربي العثماني .

وتوالى الخطباء مؤيدين فكرة تشكيل الجمعية ، واخيراً قام عبد الحميد الزهراوي ليعلن مبادىء الحزب . .

ويؤكد الجابري ان ماشاهده في ذلك اليوم يفوق أي وصف قائلاً : لأول مرة في حياتي سمعت الهتافات التي تعالت في ارجاء المكان ، كنا نعرف اننا جميعاً عثمانيون ، ولكن كانت هـــذه هي المرة الاولى التي نقول فيها تحيا الامة العربية ويحيا العرب . . وكأن اعلان الدستور قد فجر فينا عروبتنا وقوميتنا وحبنا الدفين لامتنا .

---

(١) Theater ، المسرح

ماذا قال الزهراوي في خطابه ؟

أعلن الزهراوي في كلمته ، تأسيس « جمعية الاخاء العربي العثماني » ونص دستورها على انها مؤلفة من ابناء العرب العثمانيين على اختلاف مللهم وعلمهم ومصادرهم ، وانه يحق لكل فرد من أبناء العرب أن يكون عضواً فيها .

وعرف العربي بقوله : هو كل من انتسب الى العرب مولداً وموطناً . .

وان هدف الجمعية هو المحافظة على الدستور والحريات وضرورة حمايتها .

وعلى الرغم من ان مؤسسي الجمعية لم يعلنوا عـــن مطالبتهم بتحقيق اللامركزية أوالاستقلال ، ولم يطرحوا هـــذا المفهوم صراحة ، ولم يتخذوا لجمعيتهم العلنية اسماً عربياً قومياً ، فإن دستور الجمعية نادى « باعلاء شأن الامة العربية واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر انوار العلوم والمعارف بـــين ابنائها كتأسيس المدارس وطبع الكتب والجرائد وغير ذلك .

فإذا انتبهنا جيداً الى هذا الاستدراك ، والى اشتراط الجمعية ان يكون اعضاؤها من «ابناء العرب » ادركنا ان جمعية الاخاء كانت أول خطوة على طريق نشوء احزاب عربية علنية « قومية التكوين والهدف » وان مؤسسيها كانوا يؤمنون بأن حماية الدستور والحريات ، السبيل السليم لتحقيق اعلاء شأن الامة العربية .

وقد خاض اعضاء الجمعية معركة الانتخابات ، وفاز منهم ـ بعد معركة انتخابية مريرة ـ يـــوسف شتوان مبعوث طرابلس الغرب ، وعبد الحميد الزهراوي مبعوث حماة ، ونافع المؤيد ورشدي الشمعة مبعوثا مدينة دمشق ، هذا الى جانب عدد كبير من ابناء العرب الاتحاديين . .

❖ ❖ ❖

يصف احسان الجابري استقبال العرب في الآستانة للمبعوثين العرب بقوله : كنت في هذه الفترة من انصار الاتحاديين بسبب وظيفتي - مفتش شرطة - دعيت لحضور الجلسة الاولى لمجلس « المبعوثان » حيث كان السلطان عبد الحميد سيد شنه ، ودهشت عند حضوري للمنظر الذي رأيته قبل الاجتماع ، فقد كان العرب متكتلين في ناحية واحدة ، والاتراك في ناحية ثانية « أي بدأنوع من الانقسام القومي » حسب رأيه ، وسمعت نداءات واقاويل تلح على المبعوثين العرب بتحقيق المطالب القومية ، فرجوت اخي نافعاً - مبعوث حلب - ان يدعوهم للاجتماع في مكان ما ، ليتمكنوا من تنسيق مطالبهم ووضع خطة يسيرون عليها في اثناء الاجتماعات فلبي طلبي . . .

نستدل من كل ماتقدم ، انه في هذه الفترة، لم يكن هناك ازمة بين الاتحاديين والعرب ولكن كان هناك ريبة وعدم ثقة وتربص اوبالاحرى صراع من وراء ستار ، كشفت عنه الحوادث تحت قبة البرلمان .

وكانت البداية ان طعن الاتحاديون في شرعية انتخاب نائب البصرة «طالب النقيب » ، و « شفيق المؤيد » نائب دمشق ، ولما احتج « يوسف شتوان » نائب ليبيا قام في وجهه النواب الترك وطردوه من المجلس ، فانسحب معه النواب العرب وآزرهم عدد من نواب القوميات الاخرى ، وعندما تنبه الاتحاديون الى هذا التكتل بين ابناء القوميات تساهلوا في تثبيت انتخاب النواب العرب . .

وعندما أخفق الانقلاب المضاد في ٣١ مارس سنة ١٩٠٩ ، عاد الاتحاديون الى الحكم في ١٣ ابريل نيسان سنة ١٩٠٩ وهم أشد شراسة واتهموا نواب القوميات الاخرى في المساهمة بهذا الانقلاب واغتنموها فرصة واعلنوا حل

جميع الاحزاب السياسية ، وفي مقدمتها حزب الاخاء العربي العثماني ، وبقي المجلس للاتحاديين ، بينما كان يسود الوجوم نواب القوميات الاخرى الذين كانوا يتربصون ريثما يستقر مناخ الامبراطورية بعد اضطرابه إثر الانقلاب المضاد .

وجاء أول اصطدام في البرلمان بعد الانقلاب ، عندما بحث المجلس اعادة انتخاب « جامي بيك » مبعوث الفزان ــ بطرابلس الغرب ــ فلما استشير ناخبوه مرة ثانية انتخبوه فثبتت مبعوثيته بينما رفض الاتحاديون تثبيت مبعوثية النائب العربي يوسف شتوان نائب بنغازي ، بالرغم من ان ناخبيه اعادوا انتخابه مرة ثانية عندما استفتوا . . .

اجتمع النواب العرب ، وسأل عبد الحميد الزهراوي الاتحاديين عن معنى تصرفهم هذا ، ولماذا تحفظ اوراق يوسف شتوان العربي ، ابن المنطقة العربية ، دون عرضها على المجلس للتصديق بينما تثبت مبعوثية جامي بيك وهو ليس من ابناء المنطقة ؟ ؟ .

وتطورت المناقشة عندما التف حول الزهراوي المبعثون العرب ، وتكلم عدد من النواب الاتراك قائلين بأن العثماني ينتخب في أي مكان تابع للدولة ، وبدأت خطورة الموقف تتجلى عندما بدأت المناقشة تأخذ صيغة قومية بين العرب والترك ، فما كان من طلعت بك ــ وكان نائباً لرئيس المجلس ــ إلا أن أمر بانهاء البحث واقفاله ، دون اخذ رأي المبعوثين ، وهنا هدد النائب العربي خضير بك نائب دير الزور بالخروج من الجلسة وأيده سائر النواب العرب بالاحتجاج معه على هذا التصرف . .

أما الاصطدام الثاني فكان في جلسة ٧ / ٧ / ١٩٠٩ ، حيث أثيرت مناقشة المادة الرابعة من نظام الاجتماعات العامة وتنص على انه : « يمنع قيام الجمعيات

ذات الاهداف السياسية والتسمية القومية في الدولة العثمانية » .

وقد ناقش هذه المادة عدد من المبعوثين الارمن والاغريق والعرب وبرهن الجميع على تمسكهم بجنسيتهم ، وتساءل المبعوث العربي عبد الحميد الزهراوي فيما اذاكانت الاجتماعات العنصرية مجحفة بحقوق الوطنية ؟ ؟ فأجابه مستشار الداخلية بأن الحكومة لاتريد مساس لغة او طبائع عنصر من العناصر الوطنية غيرانها تريد أن يسلك الوطنيون سياسة واحدة ، وهي ترى أن الجمعيات تبالغ في محافظتها على سياسة الجنس ـ أي القومية ـ .

ولكن الزهراوي اجاب باسم المبعوثين العرب ، بأن الجمعية العربية لاتتبع طريقاً خفية ، كما ذكرت الجرائد المحلية ، مؤكداً أنه لم يسمع قبلا بأن شعباً أنكر لسانه وطبائع عنصره ، حتى يجـــوز للعرب أن ينكروا لغتهم ويغيروا طباعهم .

كان الزهراوي يدافع عن لغة قومه وطبائعهم ، ويؤكدكما أكده غيره من مبعوثي الاجناس الاخرى « ان الامة العثمانية تتألف من عناصر كثيرة ذات صفحات في التاريخ كلها مجد وسؤدد » كما كان الزهراوي بنفس الوقت يرد على تخرصات الجرائد التركية التي اتهمت العرب بأنهم يسلكون طريق الجمعيات السرية لمقاومة الحكومة .

وبالرغم من هذه المقاومة ، فإن المادة الرابعة فازت عندما عرضت على الاقتراع ـ فنالت اكثرية ٩٠ ـ ٦٠ صوتاً .

وهذا أمر بدهي ، فإن المجلس في هذه الاثناء لم يكن فيه مـــن احزاب وتكتلات سوى حزب الاتحاد والترقي ، لذلك قرر نواب القوميات الاخرى تأسيس احزاب برلمانية ، الغاية منها توثيق روابط الاتحاد بين العناصر المختلفة

مع المحافظة على شخصية كل عنصر ومميزاته ، لتتمكن من مقاومة حـــزب الاتحاد والترقي العنصري .

وكان أهم الاحزاب البرلمانية التي تأسست ، حزب الاحرار المعتدلين أو « الحزب الحر الدستوري المعتدل » وحزب الاهالي ، وقد ساهم مبعوثو العرب في وضع دساتير هذه الاحزاب وكان في مقدمتهم عبد الحميد الزهراوي ورشدي الشمعة واشترك في عضويتها المبعثون العرب وغيرهم من مبعوثي القوميات الأخرى .

أما السمات المميزة لهذه الاحزاب فكانت سمات مشتركة أهمها : من حيث المبدأ : المناداة باللامركزية ، ومن حيث اسلوب العمل : العمل العلني ، ومن حيث التكوين : عثمانية شاملة ، ومن حيث موقفها من الحزب الحاكم : المعارضة.

وفي ٨ تشرين الثاني سنة ١٩١١ اشترك الزهراوي مـــع طاهر خير الدين (التونسي) بتأسيس حزب الحرية والائتلاف حيث امتص الاحزاب البرلمانية السابقة جميعها ، وجاء من حيث التنظيم ، محصلة لجميع هذه الأحزاب ، وكان بحق نداً لحزب الاتحاد والترقي ، وانضم اليه نواب الاحزاب السابقة الى جانب الاعضاء الذين انشقوا عن حزب الاتحاد والترقي ، من العرب والقوميات الاخرى فجاء هذا الحزب تعبيراً مهماً عـــن الاحزاب العثمانية التي قامت في مواجهة الاتحاديين وسياستهم العنصرية المركزية .

تناول الزهراوي شرح مبادىء الحزب في جريدة الحضارة التي كان يصدرها في الآستانة ، وهي بنفس الوقت تلقي ضوءاً ساطعاً على مضمون الفكر السياسي عند الزهراوي ، يقول :

أ ـ عزمنا على تأليف فرقة سياسية على أشد « الأسس » التصاقاً بالحرية .

ب ـ واعظم الاسس لبروغرام الفرقة ـ اي الحزب ـ المحافظة على الحرية

والمساواة بين الافراد والجماعات دائماً .

هـ ـ ان « الروح الاصلي » في هذا البروغرام هو صون حرية الافراد وحفظ حقوق العناصر وتأييد الدستور فهذا لايتغير .

وواضح من عبارات « الاسس » ثم « اعظم الاسس » ثم « الروح الاصلي » ان عبد الحميد الزهراوي يريد أن يؤكد بأن الحزب الذي انتمى اليه وساهم في صياغة دستوره ، يتبنى المبدأين اللذين يؤمن بهما ، وهما مبدأ الحرية والمساواة وان مضمون الحرية والمساواة ، كان ينصرف للأفراد والجماعات ، أو للأفراد والعناصر ، ـ القوميات ـ وان نوع الحكم اللازم لإمكانية قيام الحرية والمساواة هو الحكم الدستوري ، وان هذين المبدأين ـ بهذا المضمون وفي ظـــل الحكم هما مبدآن ثابتان لايتغيران ، كما يبدو في تعبيري « دائماً » وتعبير « فهذا لايتغير » .

واستناداً الى هذه المبادىء يحدد الزهراوي اهداف الحزب بقوله (١) :

الغرض الاعظم لهذا الحزب شيئان :

أ ـ مقاومة الاستبداد ولاسيا الاستبداد تحت ستائر القانون .

ب ـ إصلاح ذات البين بين جميع العناصر .

وجدير بنا أن نلاحظ في تحديد الهدف عبارة : ولاسيا الاستبداد تحت ستائر القانون ، فهي تشير الى أنه من الممكن أن يقوم الاستبداد على الرغم من وجود القانون بل وتحت ستاره ، كما أنه يقصد واقعياً حكم حزب الاتحاد والترقي .

وفي بيان المضمون العملي التطبيقي لهذا الهدف أو « الغرض الاعظم » على الاوضاع القائمة في الامبرطورية العثمانية ، نجد أن حـزب الحرية والائتلاف كما يقول الزهراوي يسعى « لاصلاح ذات البين بين جميع العناصر » .

---

(١) الارث الفكري ، ٤٨١ . «هيئة التحرير»

ويحدد هـذه العناصر في ثلاثة أنواع : عنصر الجنسية ، وعنصر الدين ، وعنصر الفكر والاجتهاد والاجتماعي .

ويتضح لنا من ذلك ان الزهراوي ورفاقه ، كانوا يدركون ثلاثة انواع من التناقضات القائمة في الإمبراطورية العثمانية حينئذ هي : التناقضات القائمة على أساس الجنسية – وتعني هنا « القومية » – والتناقضات القائمـة على أساس « الدين » وتعدده ، والتناقضات القائمة على أساس الفكر الاجتماعي .

ويطالب الزهراوي بالحرية والمساواة لهذه العناصر ، في حدود عـدم الاضرار بالعثمانية فيقول : (٢)

« والمقصود أن يكون كل عنصر من هذه العناصر حراً ليس مضغوطاً عليه ، ولامضايقاً في رغائبه بما يعود لمصلحة عنصره ، ممـا لاتضر بالعثمانية ، وان تكون هذه العناصر كلا متآلفة مع التخالف ، متعارفة متعاطفة مع التغاير » .

ودرءاً لكل الشبهات حول هدف الحزب أو غرضه ، فإن الزهراوي يصفه قائلاً : « هذا ولأننا لانسعى الى غاية شخصية ، أو قومية ، وإنما نسعى لادامة حياة هذه الدولة واعلاء شأنها ، وسعادة الامة ، وترقية عمرانها ..الخ » .

فواضح ان الزهراوي ورفاقه من مؤسسي الحزب كانـوا يعدون سكان الإمبراطورية العثمانية امة واحدة – رغم قومياتها المتعددة – وان الدولة العثمانية هي دولة هذه الامة ، وقد ترتب على هذا المفهوم ان كانت عضوية الحزب مفتوحة لجميع المناصر . أو على حد قول الزهراوي :

« لذلك يضم هذا الحزب ضماً حقيقياً المسلم وغير المسلم ، والتركي وغير التركي من سائر الأجناس ، والمتعصب ديناً وغير المتعصب ديناً . .

وانسجاماً مع تلك المبادىء والاهداف التي شرحها عبد الحميد الزهراوي ،

---

(٢) الارث الفكري ، ٤٨١ . « هيئة التحرير »

فقد كان حزب الحرية والائتلاف ينادي باللامركزية الإدارية التي آمن مؤسسو الحزب واعضاؤه بضرورة تطبيقها .

ولابد لنا من الاشارة الى ان عبد الحميد الزهراوي من الرواد العرب الذين كانوا يؤمنون بضرورة الوفاق ، بين قوميات الامبراطورية العثمانية ، والابقاء على هذه الإمبراطورية ، رغم مناداته باللامركزية ،فالإستقلال شيء واللامركزية شيء آخر ، أضف الى ذلك المادة الرابعة التي شهرها الاتحاديون في وجه التنظيمات الحزبية ، ومن الجائز ان يكون المبدأ الثالث لحزب الحرية والائتلاف الذي ينص « على وحدة الامة والدولة العثمانية » تكتيكاً حزبياً ليضمن بقاء الحزب وانتشاره .

أمام هذا التكتل تمكن الاتحاديون من حل مجلس (المبعوثان) في اواخر شهر كانون الثاني يناير سنة ١٩١٢ ، وبعد ثلاثة اشهر جرت معركة الانتخابات الجديدة ، وكانت معركة حامية الوطيس بين الاتحاديين والائتلافيين ولكن تمكن الاتحاديون من الفوز على الائتلافيين بالتزوير ، مما دعا إلى ثورة ضباط الجيش احتجاجاً على تزوير الانتخابات بقيادة اليوزباشي الالباني طياربك ، وطالبوا بحل المجلس وتشكيل حكومة من غير الاتحاديين ، وقد تجاوب مع هؤلاء الضباط وبياناتهم ضباط حاميات « ازمير ودمشق وحلب » وغيرها ، واطلقوا على انفسهم اسم ضباط الإنقاذ ، فاضطرت حكومة الاتحاديين الى تقديم استقالتها في ٩ تموز « يوليو » سنة ١٩١٢ ، ليتسلم انصار حزب الحرية والائتلاف زمام الحكم في الامبراطورية العثمانية .

❋ ❋ ❋

نشاط الزهراوي خارج المجلس

اتفق عدد من العرب في (الآستانة في مقدمتهم عبد الحميد الزهراوي عزة الجندي (١) وعبد الكريم الخليل (٢) وغيرهم على تأسيس « منتدى أدبي » تلتقي في ارجائه الشبيبة العربية والاحزاب والكتل العربية ، وكأنه « جبهة » تسعى لبلوغ الاغراض السياسية في رفع شأن العرب وتأمين حقوقهم • عن طريق التوعية الثقافية ، وافتتح المنتدى في الآستانـــة بتاريخ ٨/٢ سنة ١٩١٠ بمظاهرة عربية رائعة ، والقى معروف الرصافي قصيدة جاء فيها :

وإن تكن عربي الاصل لا كذباً ... فمت لإحياء مجد كان للعرب

دع المجامع في لهو وفي طرب ... واجعل مقرك هذا المنتدى الادبي

بقي المنتدى الادبي حتى عام ١٩١٥ «بيتاً قومياً عربياً ، يجمع شمل ابناء العروبة في العاصمة العثمانية من انحاء الوطن العربي » فكان « قبلة العروبة في عاصمة الدولة » وكانت خطته نشر الدعوة للقضية القومية الوطنية ، وبالرغم من هذه الصفات التي اطلقها عليه المعاصرون ، وبالرغم من ان فكرة القومية العربية كانت واضحة

(١) عزة الجندي ، هو عزة بن محمد بن سليمان الجندي العباسي ، طبيب من العاملين في القضايا العربية ولد في حمص عام ١٢٩٩ هـ = ١٨٨٢م وتعلم بها وبدمشق ودرس الطب في الآستانة ثم في المعهد الطبي العثماني بدمشق وعمل في ثورة طرابلس الغرب على الايطاليين ثم اقام مدة في مصر شارك خلالها بحركة اللامركزية ثم عاد الى سورية واستدعاه جمال باشا السفاح عام ١٩١٦ من حمص الى دمشق فكان آخر العهد به ، قيل ان السفاح قتله في احدى غرف الفندق ودفنت جثته بمكان مجهول .

عن الاعلام ٤/٢٣٠ الطبعة الرابعة « هيئة التحرير»

(٢) عبد الكريم بن قاسم الخليل ، محام ، من شهداء العرب في عهد الترك ولد عام ١٣٠١ هـ ١٨٨٤ م واعدم ببيروت عام ١٣٣٤ هـ = ١٩١٦ م

عن الاعلام ٤/ ٥٤ الطبعة الرابعة « هيئة التحرير»

في احاديث اعضائه ، إلا أن كتاباتهم كانت تدور ـ في بادىء الامر ـ في اطار الرابطة العثمانية ، التي كان الأعضاء حريصين عليها .

كتب الزهراوي في جريدة الحضارة بتاريخ ١٠ نيسان ابريل سنة ١٩١١ مقالاً بعنوان « تربيتنا السياسية » يدعوفيها إلى الاتحاد النافع : « الذي يبقى فيه العربي عربياً والرومي رومياً ولايسيء أحد بأحـــد الظن حين يريد خدمة لسانه ويسعي في ترقية افكار قومـــه ، ويظهر تمنيه بأن يكثر بينهم العلماء والأدباء ، وان يتعارف شعبه فيما بينهم ، ويتعاضدوا على تحسين أحوالهم الاجتماعية سواء فعل ذلك العرب ام غيرهم (٣) .

ولكن في عام ١٩١٣ بدأ أعضاء المنتدى الادبي يدعون جهراً وعلانية إلى قوميتهم العربية رداً على التعصب التركي وسياسة التتريك التي طبقها الاتحاديون

كتب الدكتور عزة الجندي في جريدة الاهرام بتاريخ ٢٢ / ٤ / ١٩١٣ مقالاً جاء فيه : « إن المسلم عربي ، والمسيحي عربي ، اننا عرب قبل كل شيء وقد تركنا مسألة الديانات أوالعبادات إلى الجوامع والكنائس ، فإذا كنا عرباً قبل أن نكون مسلمين أومسيحيين ، فالاولى أن نكون عرباً قبل ان نكون عثمانيين . »

وهكذا نرى أن مؤسسي المنتدى الادبي قد تخطوا الطائفية ، وتخطوا صيغة التنظيم الحزبي إلى صيغة جديدة هي الصيغة الجبهوية ، ومجال سياسي جديد هو المجال غير المباشر لمواجهة ظروف الضغط التي تحرم العمل الحزبي الصريح واوضاع الاخطار القومية التي تتطلب الجهد الموحد .

---

(٣) الارث الفكري ، ١٦ « هيئة التحرير »

الزهراوي ومؤتمر باريس العربي :

ترأس عبد الحميد الزهراوي المؤتمر العربي الذي عقد في باريس من ١٨/ ٥ ـ ٢٣ / ٥ عام ١٩١٣، وجاء هذا المؤتمر خطوة إلى الامام في العمل الجماعي العربي .

والمؤتمر العربي يحتاج إلى دراسة خاصة ، ولكن من المهم هنا الاشارة إلى أن صاحب فكرة عقده هو حزب العربية الفتاة السري ، وفي مقدمتهم الاعضاء الذين كانوا يتلقون العلم في فرنسا ، على ان توجه الدعوة ـ باسم الجالية العربية في باريس ـ الى حزب اللامركزية في مصر ليتبناه بشكل عملي .

وعندما أقرت اللجنة العليا لحزب اللامركزية في جلستها المنعقدة في ١١ / ٤ / ١٩١٣ قبول اقتراح لجنة المؤتمر ، عينت وفداً ليمثلها وكان يتألف من عبد الحميد الزهراوي صديق الحزب ، واسكندر عمون (١) ، ويشغل منصب وكيل لجنة الحزب .

وقد انتخب الزهراوي في الجلسة الاولى رئيساً للمؤتمر ، كما انتخب عضواً في لجنة الاطلاع على الخطب وإجازة القائها مع اسكندر عمون وغيرهما . (٢)

وقد افتتح الرئيس الزهراوي المؤتمر بخطبة كان عنوانها «تربيتنا السياسية» ابتدأها بلمحة تاريخية لوضع البلاد العربية ، وتاريخ الحكم التركي في البلاد

---

(١) اسكندر عمون ١٢٩٢ - ١٣٣٨ هـ = ١٨٥٧ - ١٩٢٠م عالم بالحقوق ، له اشتغال بالادب ، ولد في دير القمر « بلبنان » وسكن مصر ، كان من البارزين في حزب اللامركزية الادارية العثماني » . دعي الى دمشق في عهد الحكومة العربية « ١٣٣٧ هـ » فتولى فيها وزارة العدلية ، ومرض ، فاستقال وعاد الى القاهرة فتوفي فيها .

عن الاعلام ٣٠٢/١ ط ٤

وكتاب رواد النهضة الادبية في لبنان الحديث : ١٩ « هيئة التحرير »

(٢) جمعت محاضر جلسات المؤتمر وما دار فيه من مناقشات وما القي من خطب في كتاب بعنوان « كتاب المؤتمر العربي الاول » وطبع في مصر عام ١٩١٣ « هيئة التحرير »

والعلاقة بين العرب والترك .

ودعا الزهراوي إلى نقطة مهمة ، حيث ينبه العرب « لواجب عظيم كان الترك والعرب جميعاً غير مهتمين به كما ينبغي ، وهو وجوب اشتراك الفريقين بسياسة البلاد . » اي أنه جعل العرب والترك بمثابة الند للند ، وبين الزهراوي بوضوح أنه «لاالعرب انتفعوا بتحملهم وحدهم تبعية ذلك العبء الثقيل .» ثم اشار الزهراوي « إلى أن هذا الاشتراك لاينافي الإخاء ، بل الذي ينافي الاخاء هو عدم هذا الاشتراك » وطالب أن يكون أساس « تربيتنا السياسية » بث هذه الفكرة والتعصب لها » وعندما أخذ يشرح الوسائل التي تؤدي إلى مافيه خير البلاد قال : « لقد وجدنا اللامركزية من خير الوسائل لظهور أثر هذا الاشتراك خارج العاصمة » .

وعندماالقى اسكندرعمون خطبته بعنوان «الاصلاح على قاعدة اللامركزية » علق الزهراوي وأكد :« بأن اللامركزية هي الطريقة السياسية التي أجمعت جماهير أمتنا على أنها خير الطرق لادارة ممالك متعددة كالممالك العثمانية ».

وهكذا حقق دعاة اللامركزية ، في مؤتمر باريس ، هدفهم وبينوا أن الامة العربية تنادي باللامركزية ، وهاجموا مفهوم المركزية الذي يحصر ادارة أمور الامة ـ السلطة ـ في عنصر واحد ، وأن الحكم المركزي يتناقض مع الحكم الدستوري ، وبينوا أن هذا التناقض « هو السبب الحقيقي في خيبة الأمال التي كانت معلقة باعلان الدستور » وبالتالي قاموا بشرح مبادىء حزب اللامركزية وأهدافه أمام اعضاء المؤتمر وكان حزباً حديث العهد .

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن حزب العربية الفتاة السري تبنى شرح مبدأ القومية العربية ، أما مبدأ الطائفية واللاطائفية فقد أثاره وتناوله

اكثرية اعضاء المؤتمر .

وكان عبد الحميد الزهراوي قد أكد لمندوب جريدة « الطان » الفرنسية قبل انعقاد المؤتمر قائلا : « بأن المؤتمر ليس له صفة دينية وكل اعماله تنحصر في الدائرة المحددة له من البحث في شؤوننا الاجتماعية والسياسية ، ولذلك ترى عدد اعضائه المسلمين والمسيحيين متساوياً ».

وقد اصدر المؤتمر قراراتـــه وملاحقه ، ويهمنا هنا بالنسبة لهذا البحث الملحق الاول وينص : « على أنه إذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هـــذا المؤتمر ، فالاعضاء المنتمون إلى لجان الاصلاح العربية ، يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية ، الابموافقة خاصة من الجمعيات المنتمى اليها » .

ولم يأخذ المؤتمر العربي بسياسة القطيعة مع حزب الاتحاد والترقي الحاكم في الآستانة ، من أجل تحقيق مقرراته بل أخذ بسياسة الاتصال والتفاوض والحوار مع ذلك الحزب وحكومته ، وقـد تم التوصل فعلا إلى اتفاق وقع عليه عبد الحميد الزهراوي بالنيابة عن المؤتمر العربي ومدحت بك شكري بالنيابة عن جمعية الاتحاد والترقي ، وهو اتفاق يعرف « باتفاقية باريس » .

وبالرغم من أن بنود هذه الاتفاقية ، كانت دون المطالب العربية ، كما يبدو من مقارنة بنودها بمقررات المؤتمر العربي ، فقد وقع عبد الحميد الزهراوي هذه الاتفاقية تدليلا من قادة المؤتمر عن حسن نواياهم تجاه الدولة العثمانية ، وتعبيراً منهم عن مرونة سياسية أرادوا بها أن تعطي حزب الاتحاد والترقي فرصة اخيرة للتفاهم مع العرب .

واتفق أن يعود عبد الكريم الخليل ، مـــع ممثل الاتحاديين إلى الآستانة لعرض الاتفاقية على اللجنة المركزية للحزب ، وان يبقى رئيس المؤتمر – الزهراوي –

مع عدد من المندوبين في باريس كهيئة متابعة تنتظر نتائج مباحثات عبد الكريم الخليل في الآستانة وتتأهب للاشتراك في تنفيذ الاتفاق إذا ماأقره الاتحاديون

وسرعان ماكشف الاتحاديون عن سياستهم التي تستهدف ضرب الحركة العربية وتفتيت جبهة مؤتمر باريس على الشكل التالي :

أ ـ بعد توقيع الاتفاقية من قبل وزير الداخلية الاتحادي طلعت باشا باسم الحزب ، وعبد الكريم الخليل عن المؤتمر ، طلب طلعت باشا أن تبقى الاتفاقية سرية حتى يتم تنفيذها .

ب ـ اتصل الاتحاديون باعوانهم من البشوات والاعيان العرب وطلبوا منهم مواصلة الهجوم على مؤتمر باريس وهيئاته وقادته .

جـ ـ عندما اعلن رفيق العظم(١) رئيس حزب اللامركزية شروط الاتفاقية بعد أكثر من شهر من توقيعها ، نتيجة التباس صنعته وكالة رويتر الإنكليزية ، ثار الاتحاديون وذهبت جريدة (طنين) التركية إلى درجة انكار وجـــود الاتفاق ، وانكار ان سفر مدحـــت شكري إلى باريس كان من أجل التفاوض مع رجال المؤتمر العربي .

د ـ وعندما قررت حكومة الاتحاديين تنفيذ ماأسمته « الإصـــلاح » استصدرت ارادة سنية ، وتراجعت عن أهم بنود الاتفاقية وهو البند الثاني عشر الذي يقضي بأن تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللغة العربية .

وهكذا بينما كان النشاط السياسي في الإمبراطورية يدور مـــن ناحية

---

(١) رفيق العظم « ١٢٨٤ - ١٣٤٣ هـ = ١٨٦٧ - ١٩٢٥ م »
عالم بحاث من رجال النهضة الفكرية في سورية . ولد في دمشق ، زار مصر ثم استقر فيها عام ١٣١٦ هـ واشترك في كثير من الاعمال والجمعيات الاصلاحية والسياسية والعلمية وتوفي بالقاهرة . عن الاعلام ٣/٣٠ ط ٤ ، « هيئة التحرير »

الشكل باسم المؤتمر وفي صيغة التعاون الجبهوي التي أقامهـا ، اصبح النشاط يدور من ناحية المضمون حول تحقيق مقررات المؤتمر وما تعبر عنه من ارادة عربية عامة ، تمكن الاتحاديون من خلال هذه الخطوات ، أن يبذروا بين صفوف الجبهة العربية المتحدة ، خصوصاً عندما رغبي عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي بخطوات الاتحاديين ، وفتح بذلك ثغرة في موقف الجبهة العربية ، بـــل اكثر من ذلك بدأ يحاول اقناع عبد الحميد الزهراوي بالتوجه نحو الآستانة .

ولكن الزهراوي ارسل واحداً مـــن اعضاء هيئة المتابعة إلى الاستانة للمشاركة في اقناع الاتحاديين بتنفيذ بنود الاتفاقية ، وبقي الوفد عدة أسابيع شهد أعضاؤه خلالها تلاعب الاتحاديين ، وتأكدوا بأن الاتحاديين نقلوا النزاع والمطاحنة إلى العرب أنفسهم ، العرب الاتحاديون والعرب الثوريون ، واخيراً قـــرر أعضاء الوفد العودة .

مكث الزهراوي مدة خمسة أشهر في باريس ، كان خلالها على اتصال بحزب اللامركزية في مصر ، وعندما أرسل له عبد الكريم الخليل برقية يدعوه فيها إلى الاستانة ، استأذن حزب اللامركزية ، ويقول محمد رشيد رضا (٢) في مجلة المنار ، ان الحزب خيره بين مصر والاستانة وكان هو يفضل الاستانة ، بينما الحزب يفضل حضوره إلى مصر .

وهكذا وصل الزهراوي عاصمة الامبراطورية في ٢٨ / ١٠ / ١٩١٣

---

(٢) محمد رشيد رضا « ١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م » من كبار رجال الاصلاح في العصر الحديث ، تتلمذ على الشيخ محمد عبده ، واصدر مجلة « المنار » في مصر لمدة (٣٤) عاماً ترأس المؤتمر السوري ثم عاد الى مصر بعد دخول الفرنسيين الى سورية ولد في القلمون وتوفي بالقاهرة . وله مؤلفات كثيرة .

عن الاعلام ٦ /٢٦ ط ٤ — هيئة التحرير

فاستقبلته الشبيبة العربية في المحطة بالهتاف للاصلاح وزعمائه ، وزعماء العرب . . واتجه إلى المنتدى الأدبي حيث تبودلت الكلمات وعلت الهتافات

وفي ٣٠ / ١٠ بدأت مفاوضات الزهراوي بصورة رسمية ، مع مدحت شكري ولم يمض اسبوع ونصف على بدء المفاوضات ، حتى ادرك الزهراوي تسويف الاتحاديين ومماطلتهم لتحقيق الاتفاقية ، وحاول العودة إلى مصر غير أن عبد الكريم الخليل وانصاره الحوا عليه بالبقاء واعطاء فرصة اخرى للاتحاديين ، ولكن الزهراوي شرح موقفه في الصحف مؤكداً أن الحكومة تعده وعوداً دون تنفيذ ، وانه قرر مغادرة البلاد « إذ مافائدة الوعود ونحن نريد أعمالاً لااقوالاً » وعندما سأله مندوب احدى الصحف ولكن « ماهو السبب في مماطلة الحكومة قال : أظن السبب خلافاً بين أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، فإن فريقاً من اعضائها يؤيد مطالبنا ويريد معاملتنا بالحسنى ، وفريقاً يرفض مطالبنا كل الرفض ، ويشير باستعمال الشدة معنا . ولانعلم أي الفريقين يرجح ، فإن استطاع اولهما اقناع ثانيهما كان لنا ماطلبنا ، والا ساءت العاقبة كثيراً . »

واخيراً تمكنت حكومة الاتحاديين من اقناع عبد الحميد الزهراوي بأنها في الطريق إلى إقامة مدرستين سلطانيتين « ثانويتين » في دمشق وبيروت اساتذتها من العرب ، وجعل اللغة العربية رسمية في المحاكم والدواوين العربية ، وأنهم بحاجة الى المال لتحقيق بقية المشروعات التي تم الاتفاق عليها ، .

وفي ٤/ ١ / ١٩١٤ صدرت الارادة السنية بتعيين سبعة من العرب اعضاء في مجلس الاعيان ، كان عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر العربي ، هو الوحيد بينهم من دعاة اللامركزية ، وكان ثلاثة من الاتحاديين وثلاثة من الحياديين . .

وقد قبل الزهراوي هذا التعيين مخالفاً للقيد الذي وضعه مؤتمر باريس

حول قبول مثل هذه التعيينات وقبله من غير ان يستشير حزب اللامركزية الذي كان على صلة وثيقة به واصبح متفقاً في الرأي مــع عبد الكريم الخليل في أنه من الضروري أن يمد طلاب الاصلاح العرب ايديهم الى الاتحاديين . .

لقد ارسل الزهراوي بعد ذلك رسائل مفصلة الى حزب اللامركزية ،



شهيد العرب وفقيد الفضل والشهامة والادب

العلامة عبد الحميد الزهراوي

تدور حول هذا الموضوع ـ وجدتها بين اوراق محب الدين الخطيب (١) في مكتبه بالقاهرة وكلها بخط عبد الحميد الزهراوي ـ يبرر فيها وجهة نظره مؤكداً .

« ان الاتحاديين ناوون نية قاطعة ان يجددوا شباب الدولة بقدر ماتسمح بـه الظروف ، ويشتهون ان يخلص إليهم العرب ويساعدهم فضلاؤهم في هذا السبيل» .

وتشير الرسائل المتبادلة بين الزهراوي وحزب اللامركزية إلى وجود أزمة حزبية كادت تؤدي به الى الانشقاق ، كما ان موقف حزب اللامركزية أمام الاحزاب الاخرى ، كان موقفاً لايحسد عليه ، اذكان موقف الاحزاب موحدا يرفض خطة الاتحاديين ويشجب انشقاق الخليل والزهراوي ، بـل ان الجمعيات العربية في المهجر طلبت التمسك بقرارات مؤتمر باريس ، واتهمت الزهراوي وحزب اللامركزية بمسايرتهم للاتراك وان الاتحاديين اشتروا تأييدهم ورضاءهم ببعض المراكز والمناصب .

وكان هناك من انصف الزهراوي مثل الضابط الكبير سليم الجزائري عندما كتب في ١٥ / ١ / ١٩١٤ قائلا . . . أيجوز لنا ان نخطىء الزهراوي وننقده على هذا الاتفاق ؟ انا لست على هذا الرأي ، لان الزهراوي لولم يتفق مع الحكومة لكنا الآن في أشد المآزق حرجاً . . »

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا تجاه تعيين الزهراوي (٢) : « اما أنا فكان يغلب على ظني ان جعله من الاعيان احبولة يريدون بها اصطياد المخلصين من طلاب

---

(١) محب الدين الخطيب « ١٣٠٣ - ١٣٨٩ = ٢٨٨٦ - ١٩٦٩ م » من كبار الكتـاب الاسلاميين ، ولد في دمشق ، وتعلم بها وبالاستانة وشارك في النضال السياسي . حكم عليه الاتراك بالاعدام غيابياً . استقر في القاهرة بعد دخول الفرنسيين دمشق واصدر عدداً من المجلات والكتب . عن الاعلام ٥/ ٢٨٢ ط ٤ « هيئة التحرير »

(٢) انظر كلام محمد رشيد رضا في مجلة المنار المجلد ١٩ ص ١٧٤ «هيئة التحرير»

الاصلاح في خارج المملكة ، ليفتكوا بهم بعد جلبهم اليهم جملة واحدة . » وهو رأي لم تلبث الاحداث ان أكدت صحته خلال الحرب العالمية

ومهما كانت قيمة التفسيرات والمسوغات التي تتجسد في كل من تصرفات عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي ، فاننا نرى انهما لم يكونا منتسبين ـ في أثناء انعقاد المؤتمر ـ لاي حزب يمارس عليهما أي ضغط انضباطي سواء في تكوين « الرأي » اوفي « المسلك » ، وانهما كليهما كانا يقيمان في الآستانة ، ويلمسان عن كثب اتجاهات الاتحاديين وما يضمرونه للقوميات الاخرى ، ثم ان الزهراوي ، كان أقرب في عقليته وتكوينه إلى تغليب أمل التفاهم والوفاق مع الدولة العثمانية على ضرورة النزاع معها وإلى تغليب اسلوب الحوار على أسلوب الصراع كما تـدل رسائله التي وجهها إلى حزب اللامركزية ، بعكس ما كان عليه رجال حزب العربية الفتاة وحزب العهد السريين . .

ومهما تكن الامور فان حقد الاتحاديين على أبناء الامة العربية قـد كشر عن انيابه ، ونال من روادها في اول فرصة سنحت لهم ، سواء أكان هؤلاء الرواد ممن حسن ظنه بالاتحاديين اوممن قاومهم ، وكان اعضاء مؤتمر باريس في المقدمة ، وكان عبد الكريم الخليل من القافلة الاولى للشهداء التي قدمتها الأمة العربية بتاريخ ٢ آب أغسطس سنة ١٩١٥ ، وكان عبد الحميد الزهراوي من قافلة الشهداء الثانية في ٦ أيار مايو سنة ١٩١٦ .

الدكتورة

سهيلة ياسين زكية الريماوي ـ عمان

النظم الإدارية في بلاد الشام

من سنة ١٣٢ - ٣٥٨ هـ/ ٧٥٠ - ٩٦٩ م

الدكتورة أمينة بيطار
استاذة التاريخ الاسلامي بجامعة دمشق

كانت بلاد الشام في الفترة الواقعة بين سنتي ١٣٢ - ٣٥٨ هـ/ ٧٥٠ - ٩٦٩ م ولاية تابعة للخلافة العباسية ، ولكنها كانت من الولايات التي احتاج العباسيون إلى بذل جهد كبير لفرض طاعتهم فيها . فقد تسببت في إثارة الكثير من المشاكل للخلافة العباسية ، كما اضطرت العباسيين لتسخير قسم من قوتهم لتهدئة الاحوال فيها والسيطرة على الامن .

وعلى وجه الاجمال فإن خلفاء العباسيين اهتموا بشؤون بلاد الخلافة إدارياً اهتماماً كبيراً ووجهوا جل اهتمامهم لاختيار ولاة الاقاليم . فاختاروا ولاتهم ممن يثقون بهم .

وعلى الرغم من ذلك فإن ولاة الاقاليم في العصر العباسي الاول لم تكن لهم سلطة مطلقة كتلك التي كانت لنولاة في عهد الأمويين . فلم يسمح للوالي بالبقاء في ولايته مدة طويلة ، لئلا تسنح له الفرصة بالاستغلال والاستبداد بالأمور .

كما كان عليه ان يقدم بياناً مفصلاً عن شؤون ولايته بعد عزله ، وقد يتعرض لمصادرة أمواله إذا احتاج الأمر إلى ذلك (١) .

وكان على رأس كل ولاية الأمير وهو قائد الجيش وإمام المسلمين في

---

١ - محمد جمال الدين سرور ، الحضارة الإسلامية في الشرق ، ص ٩٥

الصلاة ، ثم يليه العامل ويسمى صاحب الخراج ، لأنه يختص بحمل خراج الولاية إلى خزانة الدولة والانفاق عليها مما يحصله من الاموال . وكان الامير يخاطب في المراسلات بما يخاطب به العامل (١) وأخشى ما كان يخشى منه ان يتضافر الأمير والعامل في الولاية ، ليفعلا مايحقق مصلحتهما دون مصلحة الولاية . او ان يختلفا فيتسببا في قيام الفوضى في البلاد . ففي سنة ٢٢٦ هـ/ ٨٤٠م حدث خلاف في دمشق بين أميرها علي بن اسحق بن يحيى بن معاذ ، وعامل خراجها رجاء بن أبي الضحاك فقتل الاخير (٢) .

أما إذا تقلد رجل واحد المنصبين معاً ، فيصبح كالحاكم المستقل بولايته . وهذا مافعله كل من ابن طولون والاخشيد (٣) . ومن الواضح أن الولاية كانت تتضرر إذا كثر عدد العمال فيها ، لان كلاً منهم كان يعمل على اثراء نفسه على حساب الرعية . ففي سنة ٢٢٩ هـ/ ٨٤٣ م كان في مدينة الرقة قاض ، وكاتب سلمة يعرف بالبذار لجمع الخراج ووجوه المال ، وصاحب جند ، وصاحب بريد ينهي أخبار الولاية للخليفة ، ومتول للضياع السلطانية (٤). وكان هؤلاء يعينون من قبل الوزير ويعزل كثير منهم بعزله . مما ادى إلى كثرة التعطل وإثارة الفتن والاضطرابات (٥)

ولم تجمع بلاد الشام تحت حكم وال واحد إلا فيما ندر . ففي أغلب الاحوال كان يعين وال لكل جند من أجنادها . وفي احيان كثيرة يجمع لوال واحد اكثر من جند . وقد أدى هذا الامر في النهاية إلى صعوبة التنقل من جند إلى

---

١ ـ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٩٧

٢ ـ الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١١

٣ ـ ادم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧ م جزء ١ ص ١٢٩

٤ ـ ادم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٢٩

٥ ـ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٩٧

آخر . كما أدى إلى تعقد الاعمال التجارية . ومما يؤكد أن كل قصبة في الشام كانت مستقلة عن الاخرى ، ماتذكره كتب التاريخ عن ارتفاعات كل قصبة على حدة (١) . ومما لاشك فيه أن هذا الوضع الإداري الجديد لم يرق الاهالى الشام بعد أن كانوا نواة الدولة العربية الإسلامية .

وقد أورد ابن المقفع في كتابه الى الخليفة المنصور نصيحة يبدي فيها رأيه في إدارة الشام وأهله. فذكر انهم اشد الناس مؤونة ، وأخوفهم عداوة وبائقه . ونصح بأن يختص منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً ، أو يعرف منه نصيحة او وفاء . وأكد بأن هؤلاء لايلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى . وان يدخلوا فيما حملوا عليه من امرهم وأورد مثالاً عملياً عن نتائج سوء معاملة الامويين لاهل العراق . وما على العباسيين إلا ان يعتبروا بمن سبقهم ، وأن لايجعلوا فيء أهل الشام إلى غيرهم . بل يصرف فيهم ، و وان لايبعدوا عـــن المنابر والمجالس والاعمال . كما نصحه بأن يستفيد ممن عنده قدرات خاصة منهم دون أن يفضل أحداً منهم على غيره ، إلا على خاصة معلومة . وقدم عذراً على نزوات أهل الشام ، فهم كغيرهم من الناس حين يخرج الملك من بينهم (٢) .

وكان الخلفاء العباسيون في بداية الامر على قدر كبير من القوة والسلطان ،

---

١ - انظر الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ قدامة بن جعفر ، نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، طبعة ليدن ١٨٨٩ ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ وص ٢٥١ - المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ١٨٩ - ابن خرداذبه ، المصدر السابق ، ص ٧٥ - ٧٩ ابن حوقل : صورة الارض ، ص ١٨٨ - ١٨٩ - ابن خلدون ، مقدمة، منشورات الاعلمي ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٥١ - جرجي زيدان ، المرجع السابق « جزء ٢ ، ص ٥٤ ، ٥٩ ، ٦١ ، ص ١٠٧ - ١١١

٢ - كرد علي ، الاسلام والحضارة العربية ، جزء ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦
- الادارة الاسلامية ، ص ١٣٢ - ١٣٣

مكنهم مـــن السيطرة على الولاة . فقد عزل الخليفة هارون الرشيد واليه على دمشق حين لمس منه عــدم مقدرته على تسيير أمـــور البلاد ، ولاحظ تدهورها اقتصادياً .

وقد بدأ فساد الولاة منذ أن ظهر إلى الوجود نظام الضمان . ويعني هذا النظام ان يوظف على العامل مال معين يدفعه في السنة إلى بيت المال في بغداد ، مقابل ان يتولى هو قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب . وان ينفق ماينفقه كما يشاء ، وفي ذلك مافيه من الضرر على الولاية .

ويبدو ان هذا النظام نشأ في العصر العباسي الثاني ، عندماساءت الاحوال المالية والاقتصادية وإن بدأت فكرة التضمين للولايات قبل ذلك ، فقد تولى ابراهيم بن الأغلب ولاية افريقية وبذل ان يحمل كل سنة أربعين ألف دينار للخلافة ، وان يتنازل عن المعونة التي كانت تدفع لها من مصر وقدرها مائة ألف دينار (١) وكان الهدف من هذا التضمين إقامة حكم محلي يعتمد في حماية الولاية وتقويتها على موارنها الخاصة وأن يقف حائلا في وجه الأدارسة والدولتين الخارجيتين دون انتظار القوات العباسية .ولكن الامر أسيء استعماله فيما بعد .

وفي الشام اخذت بعض مناطقه تضمن تضميناً إلى من يدفع أكثر . فقــد عقدت فلسطين لنواب كافور بخمسمائة ألف دينار ، وكذلك جند دمشق .

وكثيراً ما كان كافور يطلب من عماله على سبيل القرض ، وقبل ان يحين موعد الدفع . وكان يدع عماله مقابل ذلك يجبون مايشاؤون من المال ارضاء لهم ، إذ كان يرى ان أولياءه يجب ان يتنعموا لئلا تنتقل النعمة الى الاعداء (٢) . كما لجأ البعض الى تعيين ارزاق لقوم لايؤدون عملاً ، وأرزاق لآخرين ليس لهم وجود

---

١ ـ زيدان ، التمدن الاسلامي ، جزء ٢ ، ص ٤٦

٢ ـ ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ١٧٣

على قيد الحياة (١) .

وكثيراً ما كانت أموال بلاد الشام تحمل خارجها مع الثائرين او مع البيزنطيين في غزواتهم على البلاد مما أنهك البلاد اقتصادياً . فقد حمل لؤلؤ مولى بن طولون معه الى بغداد زهاء ثلاثمائة خزانة (٢) وكذلك استولى الامبراطور البيزنطي على ٣٩٠ بدرة دراهم من قصر سيف الدولة عدا ماأخذه من خزائن السلاح ، ومن البغال (٣) .

ويبدو انه كان يوجد في قصر كل ولاية في الشام اوكل جند من اجنادها دار لضرب النقود . ففي سنة ١٤٦ هـ/ ٧٦٣ م ضربت فلوس بمدينة حلب باسم صالح بن علي وفي سنة ١٥٧ هـ/ ٧٧٤ ضربت فلوس أخرى باسم مولى أمير المؤمنين (٤) . كما كانت تضرب النقود في دمشق في قصر الخضراء في القرن الرابع . فقد اصبح هذا القصر مجلساً للشرطة وداراً للضرب (٥) .

كما كان في كل قصبة بيت مال يعلق على اعمدة في مسجدها الجامع. فبيت مال دمشق كان فيصحن الجامع الأموي مرفوعاً على ثمانية أعمدة ، وكانت حيطانه مرصعة بالفسيفساء (٦). وبعد ان كان ديوان الخراج الرئيسي في دمشق في العهد الأموي انتقل إلى بغداد . ولم يعد في دمشق الادواوينها الخاصة . وكانت الاموال

---

١ ـ محمد جمال الدين سرور ، المرجع السابق ص ١٠٠

٢ ـ ابن العديم ، زبدة الحليب ، جزء ١ ، ص ٨٠

٣ ـ ابن العديم . المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩

٤ ـ ابن العديم ، المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٠

٥ ـ انظر مجلة معهد المخطوطات العربية لسنة ١٩٥٨ م ، مجلد ٤ ، جزء ١ ، مقال عن عصر المؤرخ المهلبي المتوفى سنة ٣٦٧هـ، ص٦٥

٦ ـ المقدسي ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ و ١٥٧

تجمع في بلاد الشام من الخراج والجزية والمكوس على التجارة (١) وما كان يجبى من الفنادق وبخاصة في بيت المقدس (٢) ، فيصرف منها على العمال وحاجات البلد ، ثم ينقل الباقي إلى دار الخلافة ليوضع في بيت المال . (٣)

ولثقل الضرائب عمل صغار ارباب الضياع على الإفلات من عبء الخراج العادي بإلجاء ضياعهم الى الكبار الاقوياء . فكانت تجري بأسمائهم ليخفف عن اهلها الخراج ، فيدفعون العشر فقط كما هو الحال في الاقطاعات ، ولكنها كانت تبقى في ايدي أهلها يتبايعونها ويتوارثونها وهي بأسماء من ألجؤوها إليهم . ويقال إن هذه التلجئة كانت موجودة في عهد الأمويين (٤) .

وتجلى في هذا العصر كثرة مصادرة اموال العمال والكتاب . فقد صادر محمد بن طغج عماله مراراً ، وإذا أفلت احد من المصادرة حياً لم يكن يسلم من أخذ امواله بعد وفاته ، فكان يتعرض ابن طغج لورثته ويأخذ منهم ويصادرهم . وكان العامل إذا صودر وثقل عليه عبء المصادرة تبرع له اصحابه ، وجمعوا له الاموال للتخفيف عنه . وكذلك كان يفعل مع التجار والاغنياء (٥)

ومن القصص التي تذكر في هذا المجال ان الاخشيد كان في احد الايام خارجاً للصيد بظاهر دمشق ، فرأى حماماً فأرسل عليه الجارح فأخذه فإذا مع الحمام كتاب الراشدي إلى بعض الدمشقيين يقول فيه : قد حصل عندك تمام

---

١ ـ آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ٢١٣

٢ ـ المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٩

٣ ـ آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢١٣

٤ ـ آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٩٧ .
ان نظام التلجئة هذا كان بداية لنشأة نظام الحمايات الذي شاع في الدولة الاسلامية في الفترة المتأخرة .

٥ ـ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٠٠ ـ احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ص ١٢٢ وجزء ٢ ص ١٠

ثمانين ألف دينار . وانصرف الاخشيد إلى داره واحضر الرجل وطالبه بالمال واخذه منه (١)

وسار الحمدانيون على نفس الطريقة. فقام سيف الدولة بمصادرة الاموال ، كما كان يصادر التركات . وكان قاضيه ابو حسين الرقي يقول : التركة لسيف الدولة وليس لابي الحسين إلا اخذ الجعالة . وشاع بين الناس القول : من هلك فلسيف الدولة ماملك .

وأدت سياسة سيف الدولة في المصادرة الى كره اهالي دمشق له ، وتفضيل حكم الاخشيديين على حكمه ، وبخاصة حين ادركوا مطامعه في غوطة دمشق لاعجابه بها من الحديث الذي دار بينه وبين احد رجالات دمشق والمسمى العقيقي ، إذ صرح له بقوله ـ بعد ان اوضح له الاخير بأن غوطة دمشق تعود ملكيتها الى اسر مختلفة ـــ ، بأنهم سيتر كونها اذا استولت عليها القوانين السلطانية (٢) وقد أدت هذه الحال الى ضعف مركز رؤساء الدواوين وعمالها لكثرة ماتعرضوا له من مصادرات .

وكثيراً ماكانت الولاية تعطى للأقوى ، كما انها كانت مجال مساومة بين العمال . فقد ولي طريف حلب سنة ٣٢٤ هـ/ ٩٣٥ - ٩٣٦م ، ثم بلغه ان الخليفة قلد بدراً الخرشني ولاية المدينة ، فاتصل طريف بالوزير ابن مقله ، ودفع له عشرين ألف دينار ليتوسط له لدى الخليفة لابقائه والياً على حلب. ولكن طلبه جاء متأخراً إذا أن الخرشني كان قد وصل الى حلب ، وجرى قتال عنيف بين الطرفين

---

١ - ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ص ١٥٥

٢ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢١٨ - ابن الوردي ، المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٧٩

CANARD Sayf al Doula - ,pp 31 - 32

انتهى بانهزام طويف ، واستيلاء الخرشني على المدينة (١) .

وبالاضافة الى ذلك كان ولاة حلب يتبدلون بسرعة ، فأدى ذلك الى عدم استقرار الاحوال في المدينة . ففي ولاية مؤنس الخادم على مصر والشام الخليفة المقتدر ، اناب عنه في حلب أبا العباس احمد بن كيغلغ ، ثم ابا قابوس الخراساني ثم وصيفاًالبكتمري الخادم ، ثم هلال بن بدر ، ثم وصيفاً مرةأخرى وهكذا(٢).

واكثر ما كان يهم الخلفاء العباسيين وصول أنباء الولايات الاسلامية اليهم ، ولذلك لقي ديوان البريد اهتماماً خاصاً منهم . فمما يذكر ان أهم ما كان يشغل الخليفة المنصور معرفة أحوال الناس ، وقد تمكن بفضل نظام عمال البريد عنده من معرفة أنصاره واعدائه ، فساس الرعية وهو من معرفتها على مثل وضح النهار (٣) . وكان عمال البريد يكتبون للخليفة المنصور في كل يوم عن سعر القمح والحبوب والادم ، وسعر كل مأكول ، وبكل مايقضي به القاضي في نواحيهم ، وبما يعمل به الوالي ،وبالمال الجبي ، وبكل مايهمه . وعند ورود كتبهم إليه ينظر فيها ، فإذا رأى تغيراً في الاسعار كتب الى الوالي والعامل هناك وسأله عن السبب في ذلك (٤) .

وكان الرشيد أيضاً من أشد الخلفاء بحثاً عن أسرار رعيته ، وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً . وعلى نحو هذا كان المأمون . والدليل على ذلك رسالة المأمون إلى اسحق ابراهيم في الفقهاء وأصحاب الحديث وهوبالشام ، والتي

---

١ ـ سامي الكيالي : سيف الدولة : ص ٦٦

٢ ـ سامي الكيالي : سيف الدولة ، ص ٦٥

٣ ـ الجاحظ . التاج في اخلاق الملوك ، ص ١٦٩ - ١٧٠

صلاح الدين المنجد . بين الخلفاءوالخلعاء ، ص ٨٧ - ٩٢ - ٩٣

٤ ـ محمد جمال الدين سرور . المرجع السابق ، ص ١٠٢

خبر فيها عن عيب واحد واحد وعن حالته وأموره التي خفيت او اكثرها عن القريب والبعيد (١) .

ومن شدة اهتمام العباسيين بالبريد أنهم كانوا يكتبون لصاحبه عهداً عند توليته يوضحون له فيه الخطة التي يجب عليه ان يحتذيها في عمله ، فقد كان عليه ان يعرف حال عمال الخراج والضياع ، وحالة عمارة البلاد ، وماهي عليه من الكمال والاختلال ، ومايجري في أمور الرعية ، وان يعرف ماعليه الحكام في حكمهم وسيرهم ، وأن يعرف حال دار الضرب ومايضرب فيها من العين والورق وان يكون ماينهيه من الاخبار شيئاً يثق بصحته. وأن يفرد لكل مايكتب فيه من اصناف الاخبار كتباً . فيفرد لاخبار القضاة وعمال الخراج والضياع ، وأرزاق الاولياء ونحو ذلك كتباً ليجري كل كتاب في موضعه (٢) .

وقد راج استعمال الحمام في نقل الرسائل السريعة ابتداء من عهد الخليفة المنصور (٣) . وقد استعمله الخليفة المعتضد لسرعة وصول الاخبار إليه . فقد ارسل احد رجاله إلى اليرموك ، ليعاقب أحد الاعراب الذين تطاولوا على رجال دولته . وطلب من الرجل ان يرسل إليه الخبر مع الطير (٤) . وقد استخدم القرامطة وعامة دعاة الاسماعيلية الطير في مراسلاتهم . ومما يذكر في ذلك أن دعاة المهدي كتبوا له على اجنحة الطيور من بغداد يخبرونه بما فعله والي سلمية التركي . وانه اخبر الخليفة عن وضع المهدي في سلمية مما اضطر المهدي معه

١ ـ الجاحظ : التاج في اخلاق الملوك ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠
ـ صلاح الدين المنجد : بين الخلفاء والخلعاء ، ص ٨٧ وص ٩٢ ـ ٩٣
٢ ـ محمد جمال الدين سرور . المرجع السابق ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣
٣ ـ كرد علي . الاسلام والحضارة الاسلامية ، جزء ٢ ، ص ٢٠٠ ـ الادارة الاسلامية ص ١٢٦
٤ ـ كرد علي . الادارة الاسلامية ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩

إلى ترك سلمية والتوجه إلى الرملة (١) .

وكان للبريد محطات تسمى السكك ، تتشعب من مركز الخلافة الى أطرافها ، وينقسم كل طريق إلى محطات أومواقف أفراس . فيستبدل عمال البريد افراسهم بأفراس مستريحة في كل موقف التماساً للسرعة (٢) . ومن أهم طرق البريد التي تمر بالشام :

١ ـ الطريق من بغداد إلى الشام عن طريق الضفة الغربية للفرات ماراً بالأنبار وهيت ودمشق . وقد استخدم العباسيون هذا الطريق لنقل البريد إلى مصر بالجمازات (المراكب السريعة) . وحين عزم الفاطمون غزو مصر سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ ـ ٩٤١ م ليقفوا على حقيقة الحال في كل يوم (٣) .

٢ ـ الطريق الممتد من بغداد الى المغرب ويمر بالموصل ، ثم يخترق ارض الجزيرة الى سنجار ونصيبين والرقة ومنبج وحلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية واللجون . ومن اللجون الى الرملة ومنها الى القاهرة فالمغرب (٤) .

وكان لطريق البريد أثر كبير في تسهيل انتقال قطر الندى ابنة خماروية الى العراق عند زواجها من الخليفة المعتضد . وقد أمر خمارويه عمال بريد مصر باعداد الطريق بين القطائع وبغداد ، فبنوا لها على رأس كل مرحلة قصراً تنزل فيه (٥) .

---

١ ـ محمد بن محمد اليماني . سيرة جعفر ، ص ١١٠

٢ ـ زيدان . التمدن الاسلامي ، جزء ١ ص ١٨٢

٣ ـ محمد جمال الدين سرور . المرجع السابق ، ص ١٠٤ ـ حسن ابراهيم حسن . المرجع السابق ، جزء ٣ ص ٢٧٥

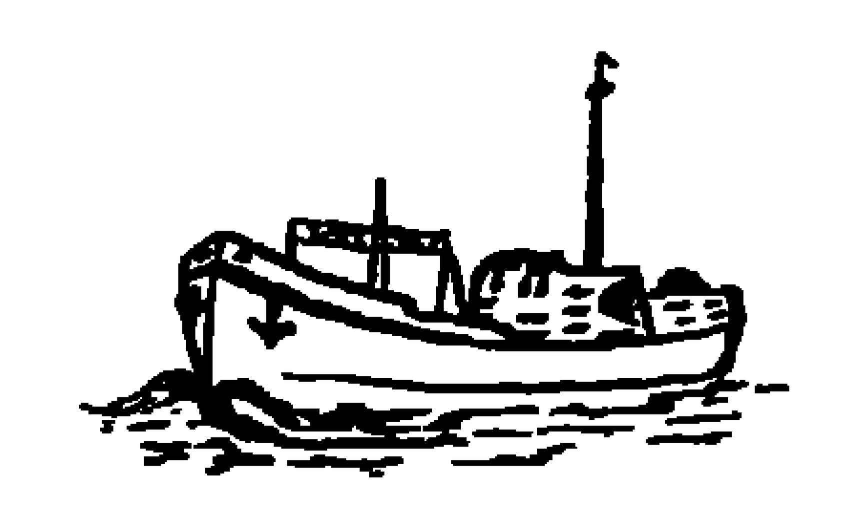
٤ ـ محمد جمال الدين سرور . المرجع السابق ، ص ١٠٤ ـ آدم ميتز . المرجع السابق ، جزء ٢ ص ٤٠٦

٥ ـ حسن ابراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسي والثقافي . جزء ٣ ، ص ٢٧٧

وهكذا يبدو أن الادارة في بلاد الشام في هذه الفترة كانت إدارة شديدة من حيث اشراف الخلافة على البريد والاخبار ، وخاصة في الدور العباسي الاول . كما كانت الاخبار تصل بسرعة الى خلفاء هذا الدور فيجرون مايلزم . ومايشوب الادارة في هذه الفترة ، عدم توحيد الشام تحت سلطة وال واحد ، إلا في بعض الفترات البسيطة .

أما في الدور العباسي الثاني ومنذ قيام الدول المستقلة فإن الاوضاع الإدارية ساءت إلى حدما لضعف سلطة الخليفة في مركز الخلافة . ولذلك ساد تضمين الولايات وانتشرت المصادرات ، واصبحت الولاية لصاحب الساعد القوي .

الدكتورة
أمينة بيطار ـ جامعة دمشق



ملاحظات حول
صلة علوم الانثروبولوجيا بعلم التاريخ

(تاريخ صلات العلوم الانسانية بعلم التاريخ)

ماجد الموصلي
مدير آثار حمص

القسم (٢) (١)

١ ـ الحقيقة ان القارىء العربي الذي اطلع على بعض ماترجم حول موضوع علم الانثروبولوجيا والمجالات التي يتطرق اليها ذلك العلم ، لاشك انه قد تعرف ايضاً على بعض المصطلحات الاخرى المعربة والمتعلقة بعلوم مثل علم الاتنوغرافيا وعلم الاتنولوجيا وعلم السوسيولوجيا ، لذا اجـــد من الضروري اولا التعريف بهذه العلوم قبل الانتقال الى ملاحظة علاقتها بعلم التاريخ .

طبقاً للتقاليد المعروفة حتى الان لمجالات علم الانثروبولوجيا يمكننا تحديدها على الشكل التالي : علم الانثروبولوجيا الطبيعية (دراسة الانسان وتاريخ نشوء السلالات والاعراق من الناحيه الفيزيائية) ، عـــلم الانثروبولوجيا الاجتماعية (دراسة المجتمعات والشعوب ماقبل الصناعة ودراسة بنيتها الاجتماعية) ، علم الانثروبولوجيا الاقتصادية (دراسة اقتصاد السلالات وخاصة تلك التي مازالت

---

١ ـ نشر القسم الاول من هذاالبحث في العدد الاول من مجلة البحث التاريخي ص ٦٣

بعيدة عن الاندماج في الحياة الصناعية الحديثة والعالمية) وعلم الانثروبولوجيا الثقافية وهو العلم الذي يدرس ثقافات وحضارات الشعوب والسلالات البشرية لما قبل العصر الصناعي الحديث . وعلى كل حال فإن مجال علوم الانثروبولوجيا يبقى في حـــدود الانسان البدائي وحضاراته وذلك من وجهة نظر المدارس والجامعات الناطقة باللغـة الانجليزية ، أما علم الاتنولوجيا فيدرس تاريخ نشوء الشعوب وتشكلها وهو مايعرف بعلم السلالات المقارن ويتعرض هـــذا العلم في مجالات ابحاثه الى ماتتعرض له الانثربولوجيا بمختلف فروعها التي أشرنا اليها اعلاه . يدرس علم الاتنوغرافيا السلالات البشرية وحضاراتها وثقافاتها وهو العلم الذي يعرف بعـــلم وصف السلالات البشرية ، وأخيراً تدرس السوسيولوجيا المجتمعات البشرية في العصر الصناعي وبشكل خاص المجتمعات المدنية ومواضيع الاوربانيزم .

١ ـ ١ الحقيقة ان موضوع صلة علم الانثربولوجيا بعلم التاريخ شائك للغاية وذا تشعبات عديـــدة والسؤال الذي يطـــرح نفسه اولاً هو : ما وظيفة علم الانثروبولوجيا وما وظيفة علم التاريخ ؟ بعد الاطلاع على الأدب الانثروبولوجي يتبين للقارىء ان الخط العام لهذا العلم هـــو اغناء المعرفة البشرية بمعلومات عـن الشعوب التي تفتقد بشكل خاص لتاريخ مكتوب مع الاصرار على ان لها جذوراً حضارية ذات مستوى محدد وعليه فإن الشعوب المعالج موضوعها من قبل الانثروبولوجيا هي جميع الشعوب التي عاشت وتعيش جغرافياً خارج القارة الاوربية مع استثناء دراسة الحضارات ذات البعد التاريخي التى عاشت في بلاد العالم القديم (الصين والهند وبلاد مابين النهرين ومصر) فهذه الاخيرة هي من صلب موضوع الدراسات التاريخية والتاريخ الحضاري ، هذا وقد ساهمت الاتنولوجيا بمنهجها

التاريخي بايضاح مسائل تشكل الشعوب الاوربية وحضاراتها .

هل الوظيفة التقليدية لعلم التاريخ هي فقط استعراض تقييمي لما سجل حتى يومنا هذا في الوثائق التي ندعوها بالوثائق التاريخية وللمعلومات التي يمكن لعلم الآثار أن يفيد بها علم التاريخ ؟

لقـــد ورد في الكتاب المترجم الى العربية والذي يحمـــل عنوان الانثروبولوجيا البنيوية (١) مايلي : (ولكن التوازي المنهجي الذي يراد رسمه بين الاتنوغرافيا والتاريخ لمقارنتها هو تواز وهمي : ذلك أن الاتنوغرافي يجمع الوثائق ويقدمها (اذا كان اتنوغرافيا جيداً)وفقاً لمقتضيات المؤرخ ذاتها . وانما يقوم دور المؤرخ على استخدام هذه الاعمال ، عندما تسمح له بذلك ملاحظات مـــوزعة على فترة زمنية كافية ، ويقوم دور الاتنولوجي على استخدامها ، عندما تيسر له ذلك ملاحظات من الطراز نفسه ، تتناول عدداً كافياً من المناطق المختلفة في جميع الحالات ، يضع الاتنوغرافي وثائق يمكن ان تفيد المؤرخ . واذا وجدت قبل ذلك بعض الوثائق واختار الاتنوغرافي دمج خلاصتها في دراسته افلا ينبغي على المؤرخ - شريطة اتباع الاتنوغرافي ، بالطبع ، منهجاً تاريخياً جيداً - ان يحسده عـــلى مزية كتابة تاريخ مجتمع يملك عنه تجربة معاشه ؟

يؤول النقاش ، اذاً ، الى العلاقات بين التاريخ والاتنولوجيا بمعناها الضيق ونحن سنثبت ان الفرق الاساسي بينهما ليس فرقاً في الموضوع ولا في الهدف ولا في المنهج ، ولكنهما (باعتبار أن موضوعهما واحد ، هو الحياة الاجتماعية وهدفهما واحد ، هو فهم الإنسان فهماً ممتازاً ، ومنهجهما يتغير فيه تقدير طـــرق

١ - ص ٣٦ مـــن كتاب الانثروبولوجيا البنيوية لمؤلفـــه كلود ليفي ستروس ترجمة د . مصطفى صالح ، دمشق ١٩٧٧ (حفاظاً على العلمية فقـــد اوردت الاستشهاد بحرفيته) .

البحث فقط ـ يتميزان على نحو خاص باختيار الآفاق المتممة .)

١ ـ ٢ (ترتبط العلوم الانثروبولوجية بعلاقات وثيقة مع بقية العلوم الأخرى فمنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر تقوم علاقات وثيقة بين علم الآثار باختصاصاته في ماقبل التاريخ والتاريخ القديم والتاريخ المبكر وبينها، والهدف من تلك العلاقات اعادة النظر في تقييم المفاهيم حول التطور الحضاري من البدايات الدنيا وحتى بدايات التاريخ الموثق بمصادر مكتوبة ، وعليه فإن علم الآثار بخاصيته المبنية على البعد الأفقي الواسع للتطور الانساني يزودنا بإمكانية تصور لموضوع الانتشار المتقدم للحضارة البشرية (٢) وبكلمة اوضح نستطيع القول إن علم الآثار يفيدنا بالمعلومات حول ماطمر تحت التراب من حضارة بشرية وبالمقابل يزودنا علم الانثروبولوجيا بالمعارف المتعلقة بالحضارة البشرية التي مازالت تعيش فوق التراب ، ولاشك أن علم التاريخ سوف يعتمد على العلمين في نتائج ابحاثهما لابالضرورة اعتماد طريقتهما المنهجية . (ينتج عن العمل المشترك بين علم الآثار وعلم الانثروبولوجيا البرهان على استمرارية التطور الحضاري لمنطقة محددة جغرافياً وبالتالي الوصول الى اساس متين يعتمد في البحث عن التاريخ الاثني والسلالي) (٣) كذلك الحال بالنسبة لعلم اللغات المقارن والوثائق التاريخية التي يدور موضوعها حول وصف الشعوب قديماً ، فهذه العناصر سوف تعتمد من قبل الانثربولوجيا للوصول إلى فهم افضل للديناميكية الحضارية الحاضرة ولاعادة فهم التاريخ المكتوب نفسه من جديد . وتنعكس علاقة الانثروبولوجيا ببقية العلوم وخاصة بالتاريخ على مدى ما أكملت به مادتها اوعلى مدى السرعة

---

٢ ـ ص . / ١٦ من كتاب Voelkenkunde Puen Tedermann leipzig 1967

٣ ـ ص . / ١٦ / نفس المصدر السابق

التي تحتاجها إلى اكالها ، وحيث ان علوماً مثل علم تاريخ الاقتصاد وعلم تاريخ الفن وعلم تاريخ القانون كانت قد نشأت قبل ظهور علم الانثروبولوجيا الا ان تلك العلوم تراجعت عن بعض مواقفها بسبب استشهادها بالمعلومات الجديدة التي وفرهالها كل من العلمين الجديدين (الانثروبولوجيا) و (السوسيولوجيا) وعلى كل حال يبدو وكأن الانثروبولوجيا قد تمكنت من الوصول إلى بناء قاعدة متينة ادت بدورها إلى فهم أفضل للبنية الاجتماعية للشعوب والحضارات كما ادت بالتالي الى توفير امكانية اعادة كتابة وفهم أفضل للتاريخ المكتوب حتى الان .

١ – ٣ ورد في كتاب علم الشعوب لكل انسان (Voelkenkunde fuen Tedermann) (٤) الذي صدر في لايبزغ عام ١٩٦٧ عن علم الشعوب ، مقطع يدور حول تطور المعرفة البشرية ونظراً لاهميته بالنسبة لموضوعنا لذا ارتأيت ترجمة بعض ماورد فيه (اذا عدنا قليلاً الى الوراء نجد ان التاريخ يفيدنا بوجود علاقات بين سكان البلاد المختلفه فمن خلال العلاقات التجارية والغزوات الحربية والهجرات تم الاتصال بين ممثلي الشعوب المختلفة بعضهم مع بعض ، وتعلم كل منهم أساليب معيشة الاخر وقد وثقت شعوب عرفت الادب موضوع علاقاتها مع الشعوب الأخرى ، منها التي كانت تعرف الكتابة ومنها التي كانت تجهلها . . . ونتيجة للتطور التاريخي العالمي في القرن الماضي فقد احتكت الثقافات وتبودلت المعرفة ، وبعدان تم الكشف من خلال أعمال التنقيبات الاثرية عن الوثائق الكتابية القديمة وجرى سبر محتواها وترجمتها إلى اللغات الحية ، ازدادت معرفتنا عن الشعوب واصبحت تلك المعلومات الأساس والمنطلق للكثير من تحليلاتنا حول تاريخ وحضارات وشعوب الأرض . . . .

فاللوحات الطينية المكتشفة في تل العمارنة والمشهورة برسائل تل العمارنة

---

٤ – ص . ١٧ نفس المصدر السابق

اوتلك المكتشفة في بوغا سكوى (آسيا الصغرى) والمعروفة بارشيف الملوك الحثيين أفادتنا بالكثير عن الشعوب والحضارات التي عاشت قبل الميلادواصبحت تعتمد ركيزة للبحث في تاريخ وحضارات الشعوب عند بداية الكتابة) (٥) وبالطبع فإن اكتشاف أرشيف ايبلا الذي يعد حوالي ١٥ ألف رقيم طيني مكتوب سيقلب الموازين بالنسبة لاعادة كتابة تاريخ سوريا ومعرفة الشعوب واللغات في زمن تسجيلها (الألف الثالث ق . م) .

١ ـ ٤ صـلة علوم الانثروبولوجيا بمجموعة علوم اثار ماقبل التاريخ والباليونتولوجيا هي صلة وثيقة جداً ، فمن المعروف ان الحضارات البدائية التي اصطدم بها الاوربيون الغزاة عند بداية الاستعمار كانت قدصنفت من قبل العلماء الانثروبولوجيين طبقاً لنفس النظام المتبع في تصنيف الاثار التي عثر عليها تحت التراب والتي تمثل حضارات العصور الحجرية وما قبل التاريخ.ومن الجدير بالذكر هنا القول بأن أعمق سوية حضارية صنفت على اساسها حضارات شعوب بدائية معزولة جغرافياً حتى اليوم هي سوية العصر الحجري الوسيط ، وهكذا فإن كتابة تاريخ ماقبل التاريخ لشعوب بدائية انقرضت هي وحضارتها (مع مراعاة الاستمرارية) الى مراحل لاحقة اولشعوب بدائية حافظت على حضارتها نظراً لاسباب تأتي في مقدمتها العزلة الجغرافية ، اعتمدت نفس الطريقة المنهجية في التصنيف الحجري للحضارات الابتدائية ونفس النظام العلمي التطوري وعليه فقد أثرت تلك الطريقة بالتالي على أسلوب البحث والطرائق العلمية المستخدمة في الدراسات الانثروبولوجية .

كذلك الحال بالنسبة لكتابة التاريخ السلالي والعرقي فإن الابحاث

---

٥ ـ ص . ١٧ نفس المصدر السابق

الحديثة المتعلقة بالتطور السريع لعلم الباليونتولوجيا سوف تؤثر تأثيراً ملحوظاً على علم التاريخ وسوف يسبب تراكم المعلومات الجديدة التي أفادنا بها هذا العلم الجديد الأخذ بمزيد من الحذر عند كتابة تاريخ الانسان القديم .

١ ـ ٥ توضحت صلة علم الاتنولوجيا بعلم التاريخ و التاريخ القديم عندما انجز فريتز هنزيل كتابه (مسائل البحث فيما قبل تشكل الشعوب) وذلك في عام ١٩٤٠ (٦) .

يعزو هنزيل تطوير طرائف البحث في أمور وصلات الاتنولوجيا مع علم ماقبل التاريخ الى البروفسور ريتشاد موكي ، وقد حدد ماركوفيتش الذي تعرف على أعمال ونظرية موكي بعد وفاة الاخير بعدة سنوات ، طريقة موكي بمايلي : اعتماد كلي على البحث في الحياة البدائية للشعوب وتحديد اتجاه الهدف بدقـــة وتعتمد نظرية موكي على بندين الاول : نظرية العلاقات المشتركة للانسان وهي مبنية على تطور شكل القوم والعائلة في ماقبل التاريخ . ثانياً : التاريخ القديم للزراعة والرعي وضمنا تاريخ الحرف اليدوية ، ترتبط النظريتان إحداهما بالاخرى ارتباطاً وثيقا وتوضحان من منطلقها الابتدائي الموحـــد موضوع تشعب اشكال الظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، كما وتعتمدان على ملامح الظواهر الاتنوغرافية وقد أدى عرض هاتين النظريتين الى ظهور كتاب مسألة القرابة بين الشعوب الذي صدر في (غرايفسفالد) عام ١٩٠٥ وبالتالي ولد العلم الجديد ألا وهو علم اتنولوجيا ماقبل التاريخ ، وانطلق باستقلالية بعيداً عن استخدام ماعرضته بقية العلوم من نظريات حول مسائل التاريخ القديم وماضي الشعوب والقبائل وذلك بغية اعادة كتابة التاريخ وبغية حـــل مسائل موضوعها نشوء الشعوب

---

٦ ـ اسم الكتاب Probleme der - Vor - Voelker Forschung
F. Haensell . Frank furt - main - wien 1955

والقرابة بين الشعوب وغيرها (٧) .

يعتبر هنزيل الاختلاف في ظواهر الشعوب موضوع أساس البحث في اتنولوجيا ماقبل التاريخ وعلى الرغم من اشتراك الاتنولوجيا مع بقية فروع العلوم الانسانية بموضوع البحث الاساسي إلا انها تختلف عنهم باتباع منهج خاص وبالانقياد إلى البحث من خلال الاطار التاريخي للعناصر المعالجة وقد ادت ابحاث هنزيل الى معالجة مسائل معقدة مثل نشوء القبائل ، والبنية الاجتماعية المتعلقة بنظام القرابة تبعا للأم ، ونشوء الاقتصاد القبلي والاشكال البدائية لاقتصاد ماقبل التاريخ ، ونشوء اللغات وموضوع الاختلاف الاثني عند نشأة الشعوب ومسألة الشعب والعرق وصلة الاتنولوجيا بعلم آثار ماقبل التاريخ وغيرها .

١ ـ ٦ تماثل صلة علم الاتنوغرافيا بعلم التاريخ صلة علم الفولكلور او كما يدعوه الالمان بعلم الشعب (فولكس كونده) هو علم التراث الشفوي والمادي لشعب واحد يعيش ضمن منطقة جغرافية واحـــدة والاختلاف بين الاتنوغرافيا الفولكس كونده هو اختلاف فقط من ناحية توجيه البحث إلى الشعب الذي يعيش فيه الباحث (في حالة الفولكس كونده) أوتوجيهه إلى الشعوب الاجنبية (في حالة علم الاتنوغرافيا) الا ان كلا من العلمين يشتركان في استخدام نفس المنهج الميداني وعليه فإن الفولكس كونده في ابحاثها المتعلقة بموضوع دراسة العناصر الثقافية الشفوية والمادية هي في الوقـت ذاته علم تاريخ الحياة الثقافية والاقتصادية لشعب ما في حاضره و (بالمقارنة) في ماضيه .

٢ ـ بناء على ماورد اعلاه يمكننا أن نخلص إلى النقاط التالية :

١ ـ علم الانثروبولوجيابفروعه الثلاثة (الانثروبولوجيا الثقافية والانثروبولوجيا الاجتماعية والانثروبولوجيا الاقتصادية) هو علم جـديد يتصف بالمنهج

---

٧ ـ ص . ٢٧ نفس المصدر السابق

الميداني ويعتبر المعطيات التاريخية جانباً ثانوياً يمكن أن تفيد في توضيح الخلفية والبعد الزمني لمواضيع البحث .

٢ ـ علم الاتنولوجيا هو علم يقوم بدور الوسيط بين المعطيات التاريخية واللغوية من جهة والمعطيات الاتنوغرافية من جهة اخرى ، وينبغي حل المسائل الاثنية الغامضة مع اعتماد مناهج متغايرة وطبقاً لموضوع البحث .

٣ ـ علم الاتنوغرافيا هو علم وصفي يستخدم المعطيات التاريخية لإكمال وصف العناصر الثقافية المبحوثة مع اعتماد المنهج الميداني في البحث .

٤ ـ علم السوسيولوجيا هو علم الاجتماع بحرفية الكلمة ويعتمد على المعطيات التاريخية الاتنولوجية والاتنوغرافية كبعد زمني مع الاصرار على اعتماد المنهج الميداني فقط في ابحاثه .

٥ ـ يعتمد علم التاريخ على جميع المعطيات العلمية التي تنتج عن ابحاث العلوم المنوه عنها اعلاه .

٦ ـ تعتبر المعلومات العلمية التاريخية الناتجة عن أبحاث علم آثار ماقبل التاريخ مفيدة جداً بالنسبة للعلوم الانثروبولوجية .

٧ ـ تعتبر الاتنولوجيا من أقرب العلوم الانثروبولوجية إلى علم التاريخ لسبب اعتماد المنهج التاريخي المقارن والواحد في البحث

٨ ـ ان الاختلاف في اعتماد المنهج الواحد في البحث العلمي بين كل من علم التاريخ وعلوم الانثروبولوجيا يمكن أن يؤدي إلى تناقض في علاقة الكم والكيف للنتائج المستخلصة عن بحث موضوع واحد .

٩ ـ لاشك ان المعلومات الناتجة عن الابحاث الانثروبولوجية يمكن ان تكون معياراً محترماً لعملية اعادة كتابة تاريخ منطقة ما .

١٠ـ من أفضل الامثلة عن العلاقة الوطيدة بين التاريخ والانثروبولوجيا هـو ظهور كل مـــن المدرستين الانثربولوجيتين (المدرسة الثقافية التاريخية الالمانية (٨) ومدرسة التاريخ الثقافي الامريكية (٩) .

للبحث صــلة

ماجد الموصلي



---

٨ ـ تدعى هذه المدرسة باللغة الالمانية Die Kulturhistorische - Schule

٩ ـ تدعى هذه المدرسة بـ Histony Of Cuerure وتنسب الى مؤسسها فرانتز بواس لذا تعرف بـ Boas Schule

حمص

قلعتها - أسوارها القديمة - أبوابها

إعداد الأستاذين

محمد الشاطر - منذر حمودي

عندما حاولنا البدء بكتابة تاريخ حمص برزت أمامنا عدة صعوبات واقعة ، أهمها ان ما كتب عن حمص قديماً وحديثاً من القلة والتبعثر بحيث لايساعد على كتابة أبحاث منظمة مختصة . وأيضاً فإن الآثار القديمة قد زالت أو ازيل معظمها . فاجتمعت عليها قلة الكلام و كثرة النسيان ، وكلما مرت الايام على هذا المنوال زادت الصعوبات فما كان قائماً مفيداً اضحى اليوم في حكم المجهول يتساءل عنه الناس . ومعول الهدم مازال مستمراً وهكذا نغوص في المجهول اكثر فأكثر ، فوادي القلعة وبقايا السور في الشرق وحي الاربعين كلها الآن في طريق الزوال ، من هنا كنا في الجمعية التاريخية أمام مهمة دقيقة وعاجلة لرصد ماتبقى واستطلاع ماغاب ، ومهما بذلنا من جهد وأوتينا من عزيمة فإننا لن نبلغ المستوى المطلوب الامثل مع حرصنا على اتباع المنهج التاريخي الصحيح ، حسبنا أننا بدأنا الرحلة ونأمل من الاخوة والزملاء المعنيين بهذا النوع من الكتابة أن يقدموا للمجلة مالديهم من بحوث وموضوعات جديدة حول المدينة وتوابعها ليصار إلى نشرها (١) . وسنبدأ بالاطار الخارجي للمدينة (القلعة الأبواب

١ - ان مجلة البحث التاريخي تفتح صدرها لكل بحث تاريخي اوميداني يتعلق بمدينة حمص وترجو السادة الباحثين والعلماء والقراء ان يتفضلو بابداء ملاحظاتهم وتصحيحاتهم حول مانشر من هذه البحوث ليصارالى استدراكه في أعداد قادمة .

الأسوار) مراعين في البحث النواحي الثلاث التالية :

أ ـ ماورد في المصادر القديمة حول القلعة والأبواب والأسوار

ب ـ وصف الوضع الراهن لهذه المعالم

جـ ـ ربط حاضر هذه المعالم بماضيها

د ـ ورد في فتوح الشام للواقدي (١) ص ٩٧ عن فتح حمص مايلي :

وقسم الامير ابو عبيدة (٢) عسكر المسلمين أربع فرق فبعث فرقة مع المسيب بن نجية الفزاري (٣) فنزل بهم على باب الجبل ممايلي الباب الصغير . وبعث فرقة أخرى مع المرقال هشام بن عتبة بن أبي وقاص (٤) فنزل بهم على باب الرستن وبعث فرقة أخرى مع يزيد بن ابي سفيان (٥) فنزل بهم على باب الشام ونزل الامير أبو عبيدة وخالد بن الوليد (٦) رضي الله عنهما على باب الصغير والعرب قادمون هنا من بعلبك بعد فتحها .

وعلى هذا فلحمص أربعة أبواب « باب الجبل ـ باب الصغير ـ باب الشام باب الرستن » .

---

١ ـ الواقدي : محمد بن واقد السهمي من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم ، ولي قضاء بغداد أيام الرشيد . فقال الزركلي وينسب إليه كتاب « فتوح الشام » وأكثره مما لاتصح نسبته إليه . توفي الواقدي عام ٢٠٧ هـ ـ ٨٢٣ م .

عن الأعلام ٦ / ٣١١ ط . ٤

٢ ـ ابو عبيدة بن الجراح : عامر بن عبد الله بن الجراح ، وهو احد العشرة المبشرين بالجنة توفي بعمواس قرب الرملة عام ١٨ هـ

أسد الغابه ٣/ ١٢٨

٣ ـ ورد اسمه في تاريخ الطبري المسيب بن نجبة « بالباء » ٤ / ٤٨٨ وفي مواضع أخرى

٤ ـ هشام بن عقبة بن ابي وقاص المرقال أسلم يوم الفتح ، وكان من الشجعان الابطال والفضلاء الأخيار ، شهد صفين مع علي بن ابي طالب .

أسد الغابة ٥ / ٣٧٧

٥ ـ يزيد بن ابي سفيان ، كان أفضل بني سفيان ، وكان يسمي يزيد الخير . من الابطال الفاتحين ، توفي بطاعون عمواس سنة ١٨ هـ .

أسد الغابة ٥/ ٤٩١

٦ ـ خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، سيف الله ، الفاتح الكبير ، قاتل الردة وشارك في فتح العراق ، وقاد الفتح في الشام ، توفي في حمص عام ٢١ هـ ـ ٦٤٢ م

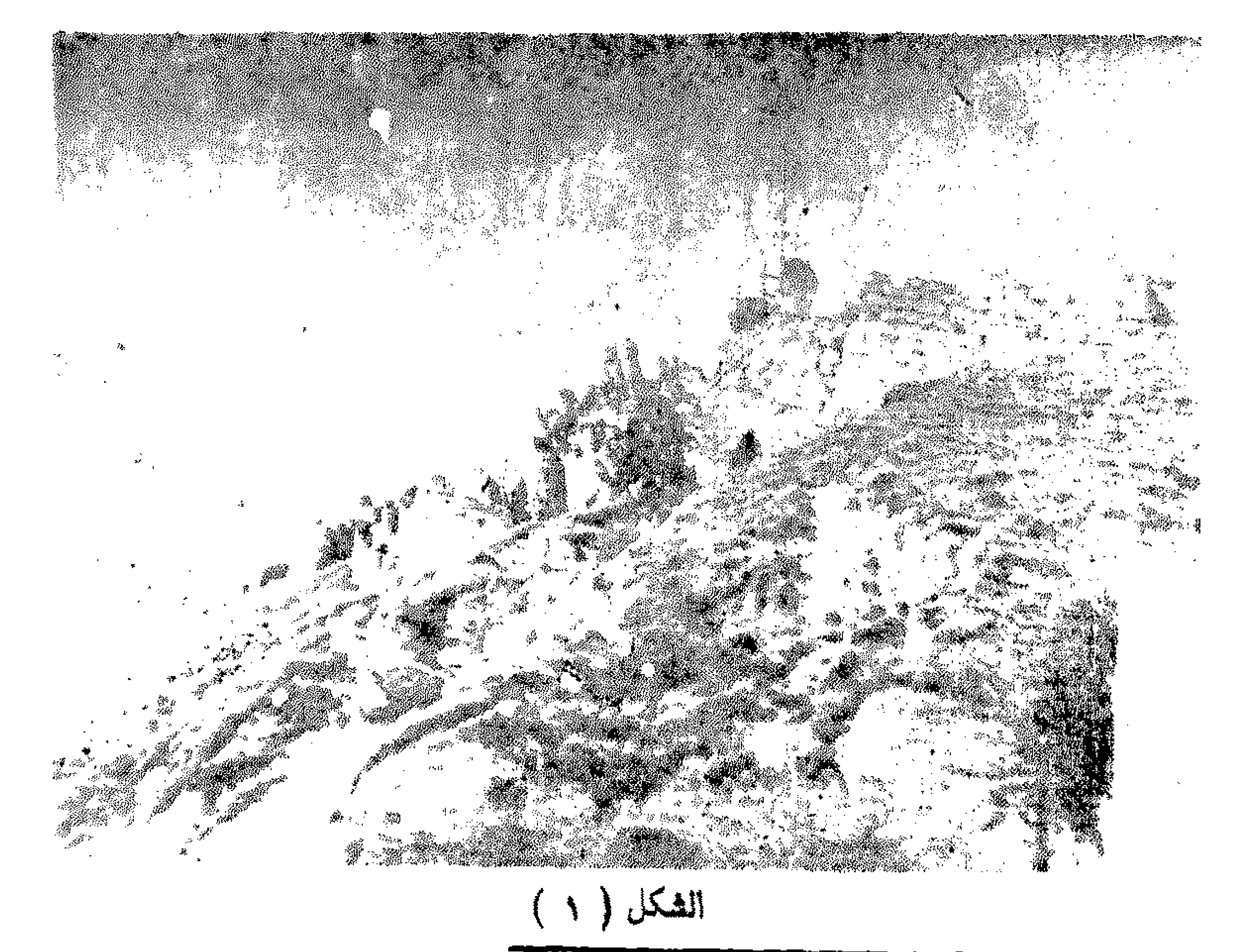
عن الاعلام ٢/ ٢٠٠ ط ، ٤

وعن القلعة جاء في مجلة الحوليات الاثرية (٧) . ولدينا في كتاب « الرحلة الشائقة إلى مصر وسوريا » للرحالة كساس صور تمثل قلعة المدينة دون أسوارها وتبدو القلعة المذكورة في هذه الصورة على شاكلة القلاع الايوبية والمملوكية المعروفة والتي بنيت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادية والتي لدينا نماذج متعددة منها كقلاع حلب وحماة وشيزر ودمشق والنمرود وغيرها.

وقد ظهرت أبراجها المربعة فوق منحدرها الذي يحيط به الخندق على اشكال منشآت قلعة حلب ، ولاشك أن هذه القلعة كانت كمدينة ملكية يقيم فيها سلطان حمص وترتفع على ماحولها بنحو ٣٢ م » .

وفي نفس المصدر السابق ص ٢٧ جاء حول الاسوار والابراج مايلي :

« اما أسوارها وأبراجها فزالت ايضاً ولم يبق منها الا الشمالي الذي يحوي كما أسلفنا الكتابتين الاثريتين وقد انصرفت المديرية العامة للآثار والمتاحف الى ترميم هذا البرج الشمالي وكشف مايحيط بالبرج المذكور من سور ، كما اكتشفت وتحته باباً مدخلاً كان ينفذ منه الى القلعة ولعل هذا الباب كان باب القلعة



الشكل (١)

٧ ـ انظر المجلد العاشر ص ٢٦

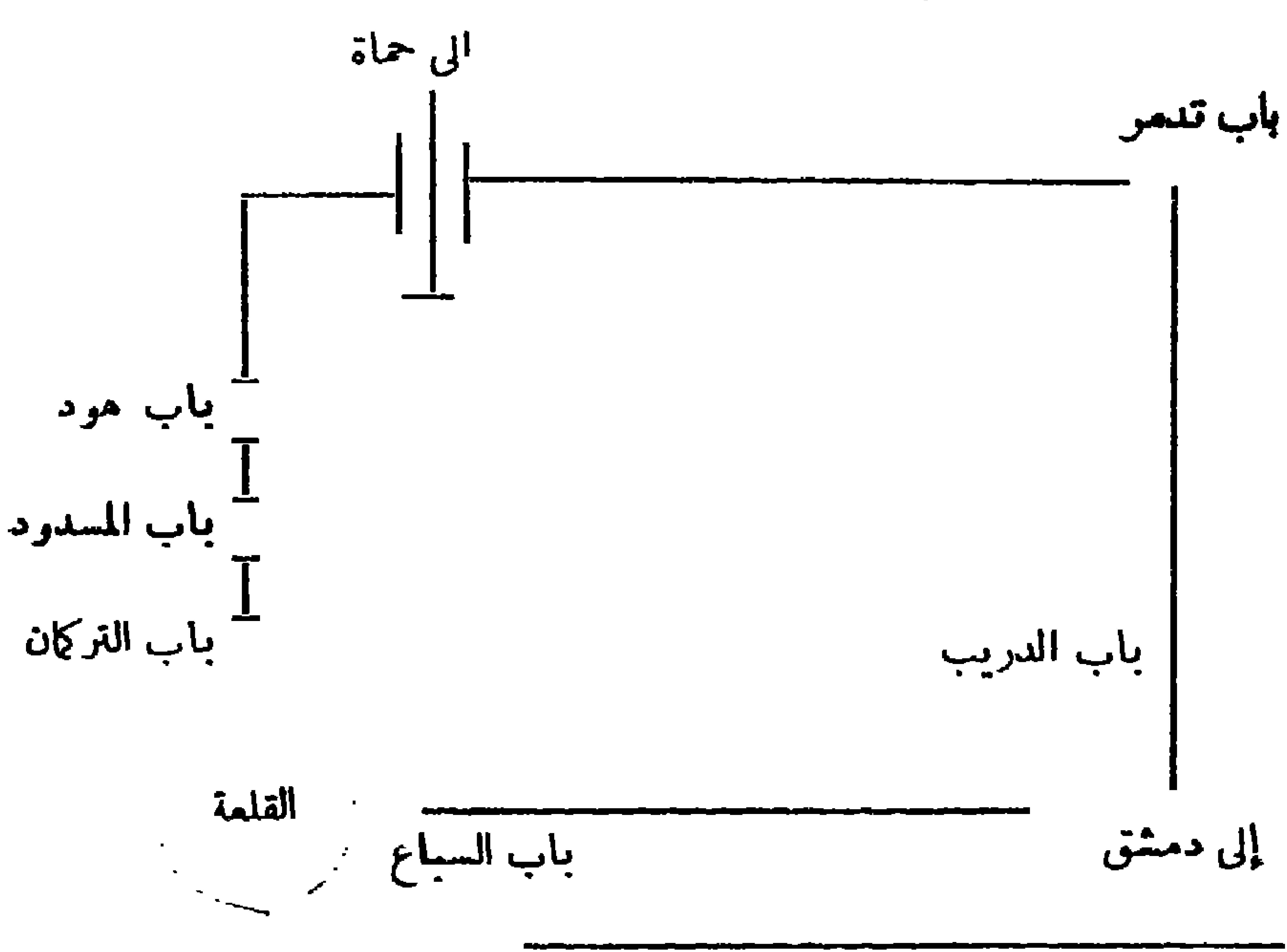
الرئيسي القديم . »

وعـــن تهدم المدينة واسوارها جاء في كتاب الحروب الصليبية في الآثار السريانية للقس اسحق أرملة للسرياني ص ١٤٢ مايلي :

وفي هـــذه السنة ١١٥٧ حدثت زلازل شديدة أخربت بلاداً شتى في سوريا كحماة وسلامية وحمص وحلب وكفر طاب وأفاميا وحصن الاكراد وعرقا وأغلب بلد انطاكية وطرابلس ، وأتلفت الزلزله في شيزر أربعين الف نسمة ، وانهار مضف جبلها الذي تعلوه قلعتها المشهورة » .

كما أن معبد اله الشمس « ايبلا غابال » الذي كان الحجر الاسود موضوعاً فيه والذي كان يعد ملاذاً مقدساً يحرم مس من يلجأ اليه بسوء وكان مكانه موضع الجامع النوري الكبير الحالي (١) . « الحوليات الاثرية » ص ١٧ .

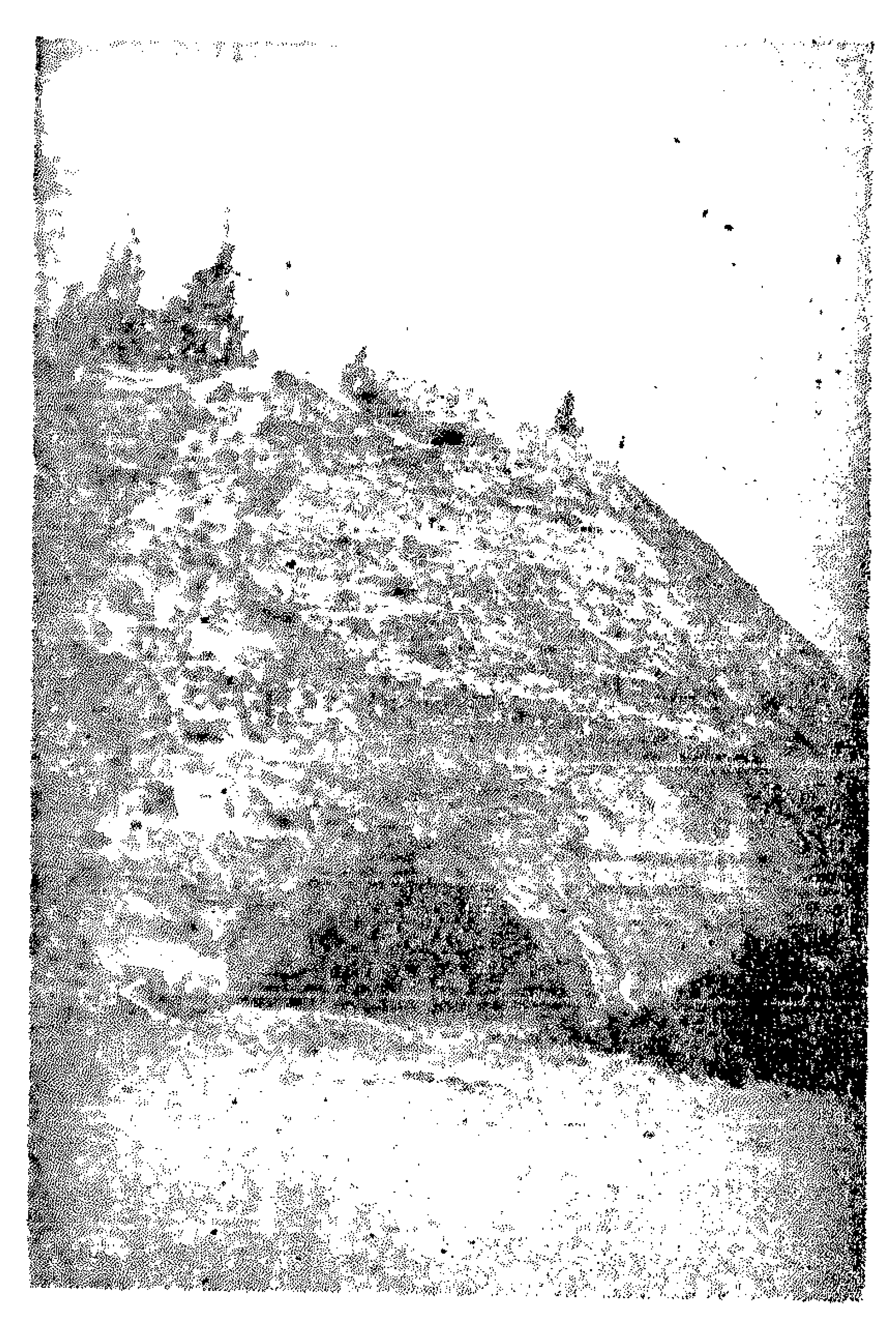
وقد وضع الدكتور ساطع محلي في كتابه عن حمص مخططاً للمدينة يعود تاريخه إلى عام ١٨٠٠ م وإليك المخطط (٢) .



١ ـ الحوليات الاثرية ١٠ / ١٧
٢ ـ حمص أم الحجار السود ، ١١٦

بعد استعراضنا ماورد في المصادر القديمة ننتقل الى البحث الميداني للقلعة والاسوار :

تقع القلعة ضمن الحي المعروف باسم « باب السباع » وهي عبارة عن تل طبيعي حفر ماحوله ورد التراب الى القلعة فازداد حجمها وعلى ذلك يكون القسم الأدنى منها طبيعياً والاعلى اصطناعياً .

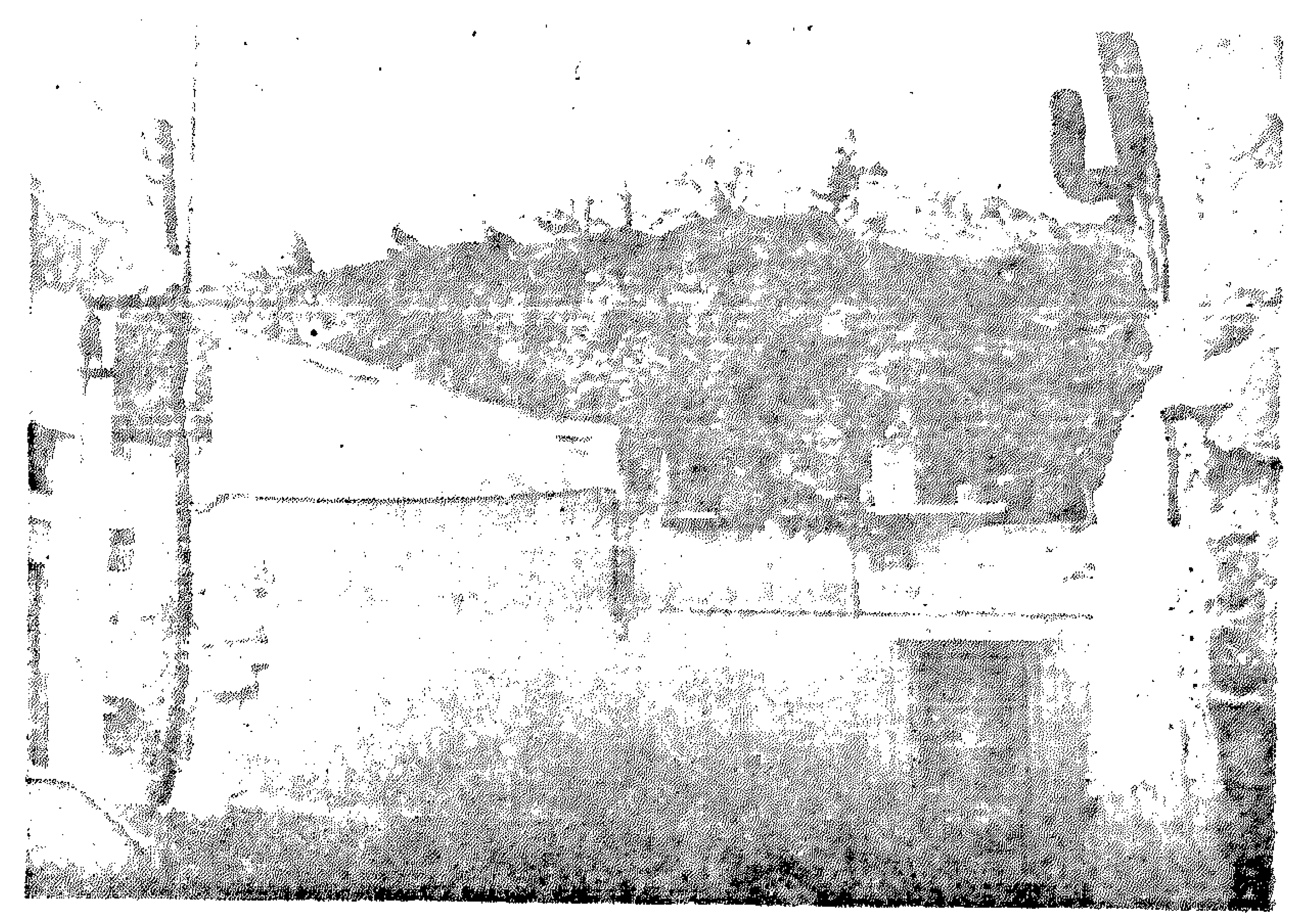


الشكل (٢)

سور حمص وخندقها في الجنوب :

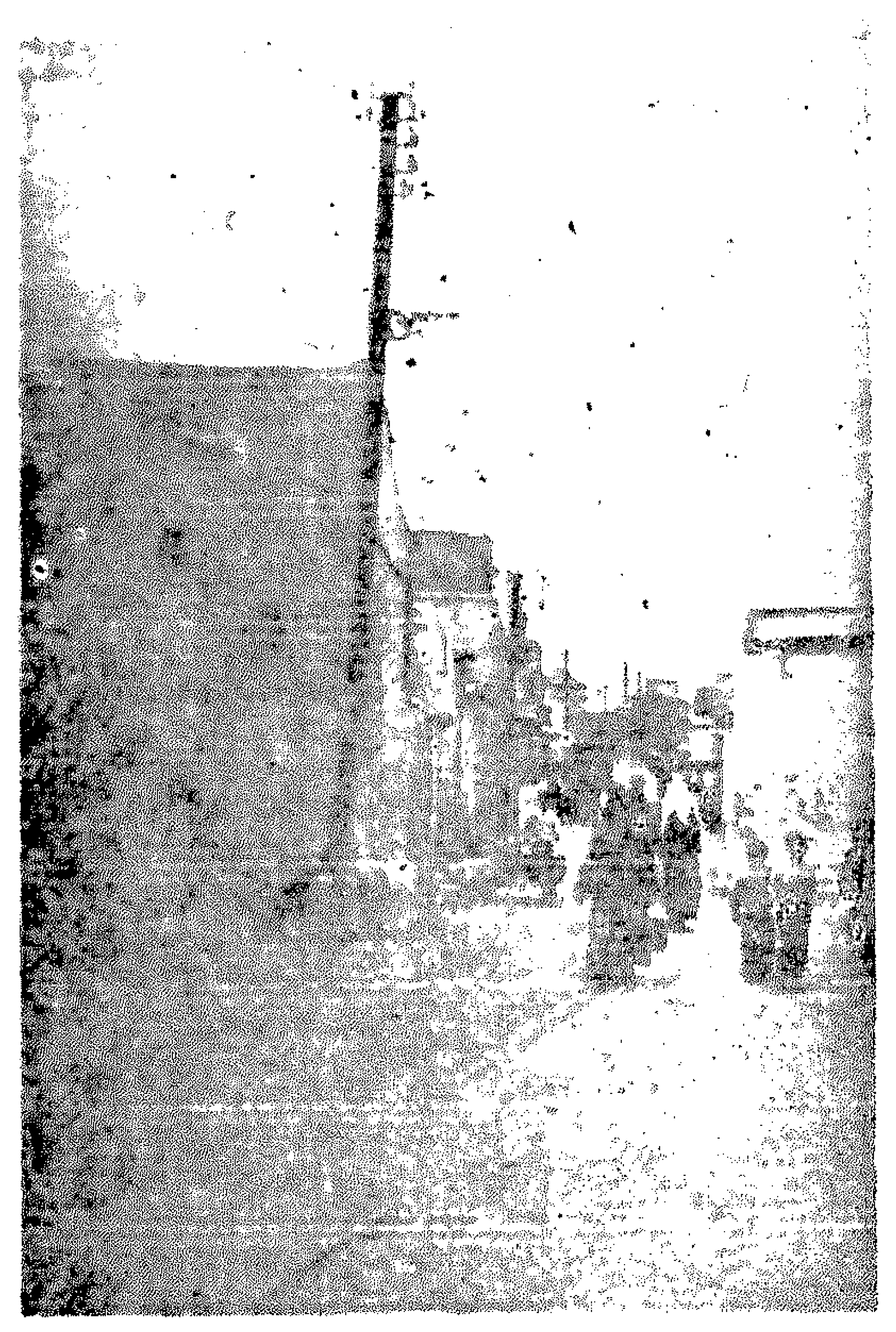
فإذا وقفت في الشرق في الشمال الغربي من حمام الفرج حالياً على الطريق النازل الى سوق الحشيش ونظرت إلى القلعة لوجدت جداراً مبنياً من حجارة سوداء

وبيضاء كبيرة هابطاً نحو الشرق ليطل في اسفل القلعة بحجارة كبيرة مازال بعضها قائماً حتى الآن على نفس الطريق ، هذه الحجارة هي بقايا السور القديم .



الشكل (٣)

والحجارة الموجودة على الطريق هي بقايا الباب الجنوبي القديم لمدينة حمص والمعروف حالياً باسم باب السباع (انظر الشكل ٤) والقلعـــة كلها محاطة بخندق اصطناعي يسير ليحيط بالاسوار والابواب كلها فيحدق بالبلد من جوانبها الاربعة. فإذا ما اتجهنا من باب السباع شرقاً مقابل السور الهابط من القلعة وجدنا آثار الخندق القديم واضحاً بينما لا أثر للسور حيث تهدم واقيمت مكانه الابنية المختلفة ، تظل هـذه الحال قائمة حتى نصل إلى مايعرف اليوم باسم مقام كعب الاحبار الواقع إلى الزاويه الجنوبية الشرقية للمدينة مقابل الجهة الغربية حيث نجد بقايا احجار مشابهة لتلك التي وجدناها في باب السباع وسور القلعة العلوي هي بقـــايا الباب الثاني أو مايعرف اليوم باسم « باب الدريب »

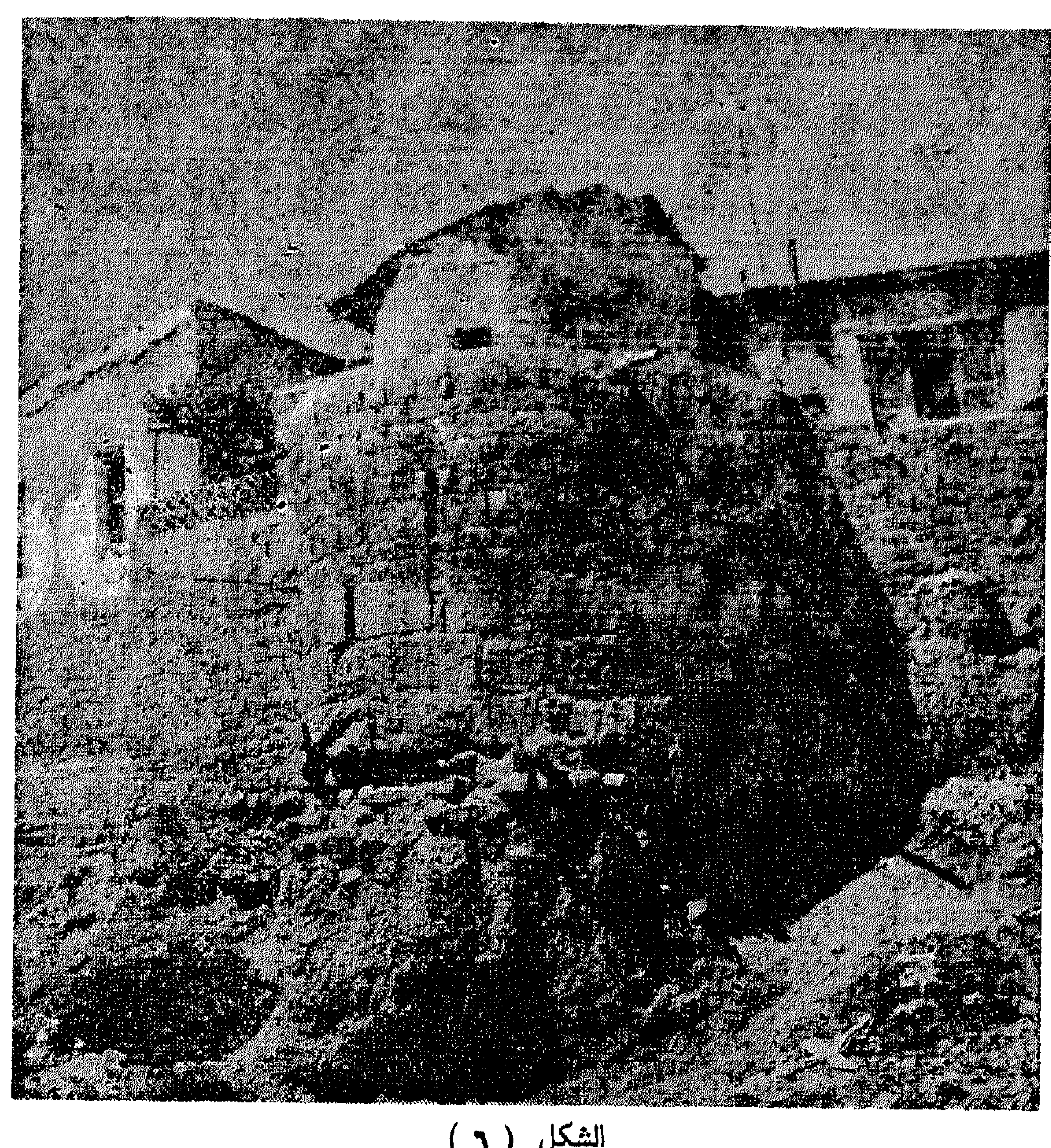


الشكل (٤)



الشكل (٥)

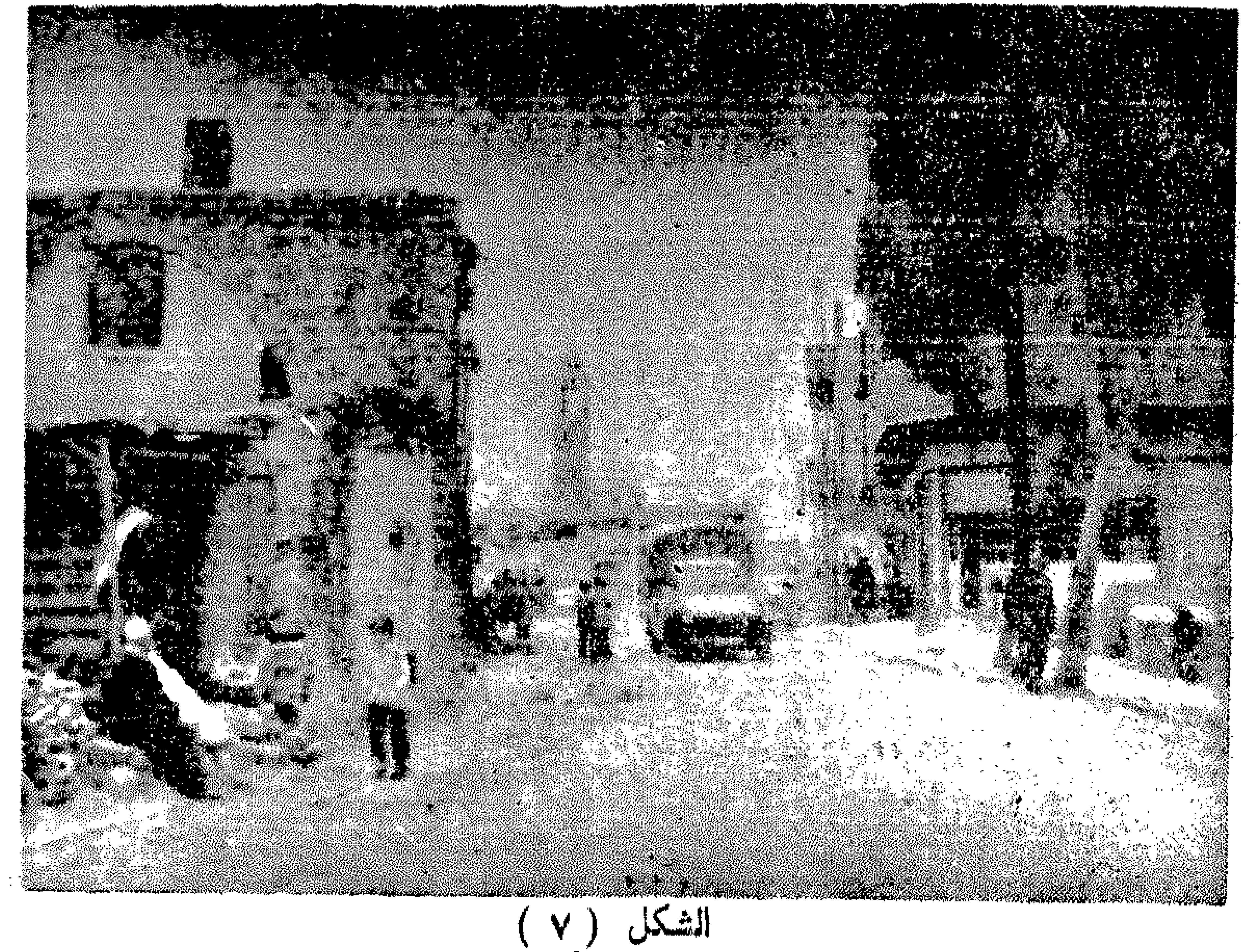
إلى الشمال يبدأ الوضوح حالياً في كل من الخندق والسور حيث تجد بقايا السور بعرض « ١٫٥ م » وعلى السور مازالت بقايا بعض الابراج المبينة من حجارة



الشكل (٦)

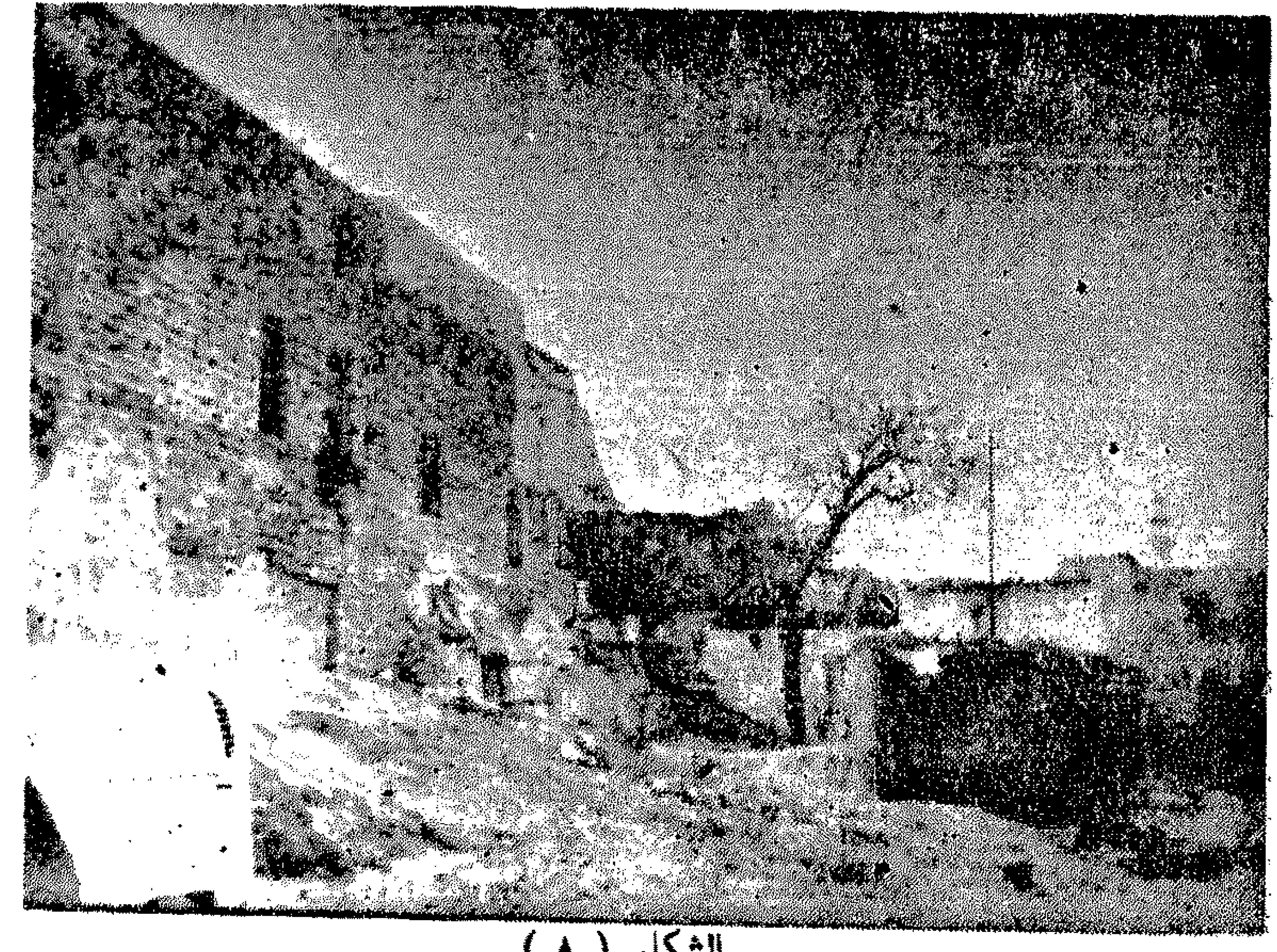
مختلفة ومتباينة بعضها مشابه لحجارة ابراج القلعة نفسها وبين البرجين القائمين الآن ومقابل اعدادية عزة الجندي يقع المكان المعروف باسم طاقة أبي جرس، ومن هذه الطاقة دخل المسلمون إلى المدينه خلال عمليه الفتح، ومن الطاقه يمكن رؤية جرس ماراليان ، حتى إذا ماوصلنا الى النهاية الشرقية لشارع الحميدية وبعد أن نسير

غرباً بطريق صاعدة قرابة عشرين متراً وعلى امتداد السور نفسه نلاحظ ايضاً بقايا احجار قائمة وملقاة على الارض هي بقايا الباب الثالث المعروف اليوم باسم « باب تدمر » وهنا يسير الخندق باتجاه الغرب حاعلاً سوق الحميديه الحالي



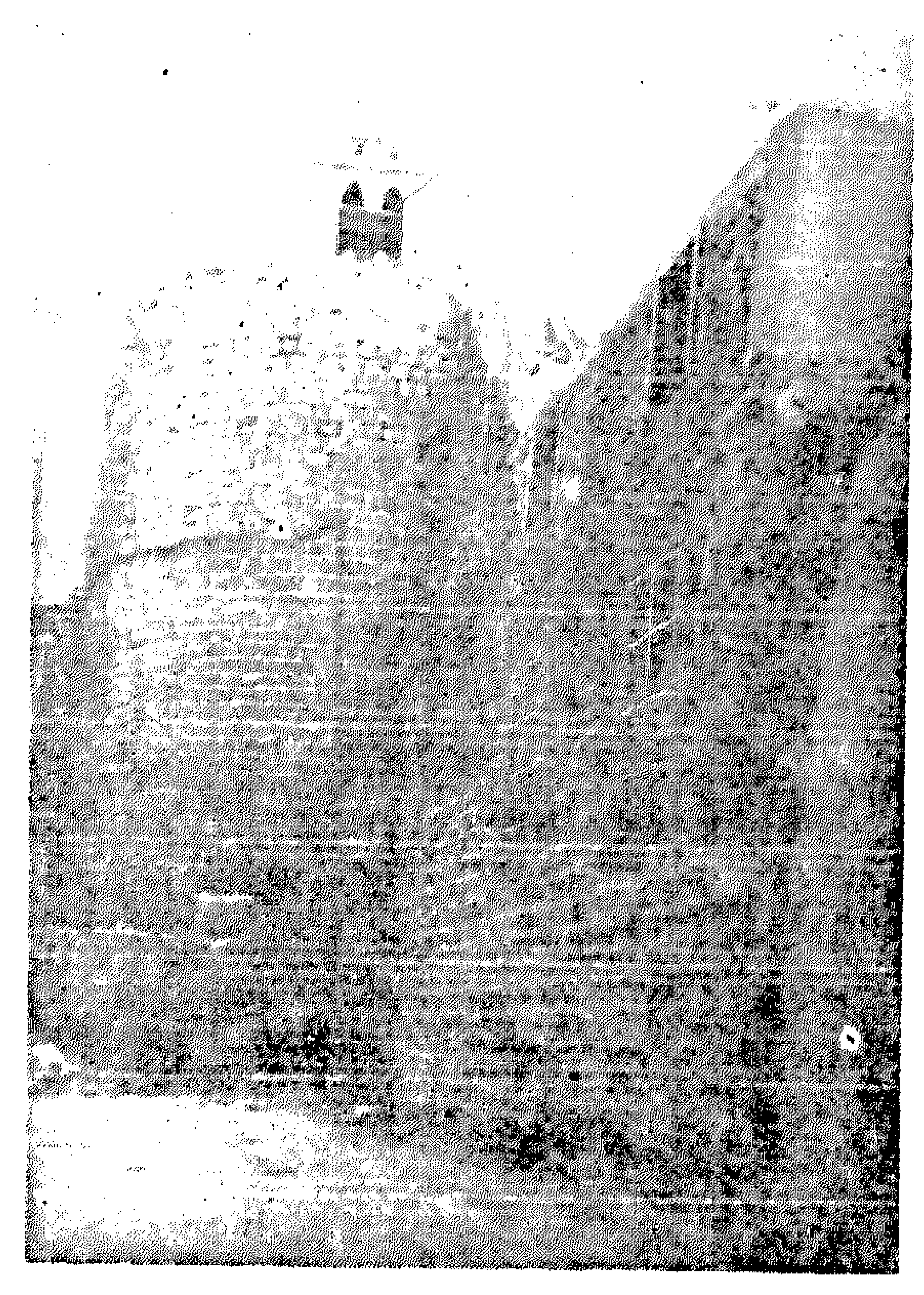
الشكل (٧)

بجانبه خارج السور ، ولمسافة ١٠٠ م باتجاه الغرب تظهر بوضوح بقايا السور والخندق وبرج من نفس النمط الشرقي بعدها تزول معالم السور والخندق حيث



الشكل (٨)

لاتجد لها أثراً الا في حي لأربعين خلف المجمع الحكومي الحالي حيث آثار السور والابراج واضحة في غرب المدينه القديمة ٠



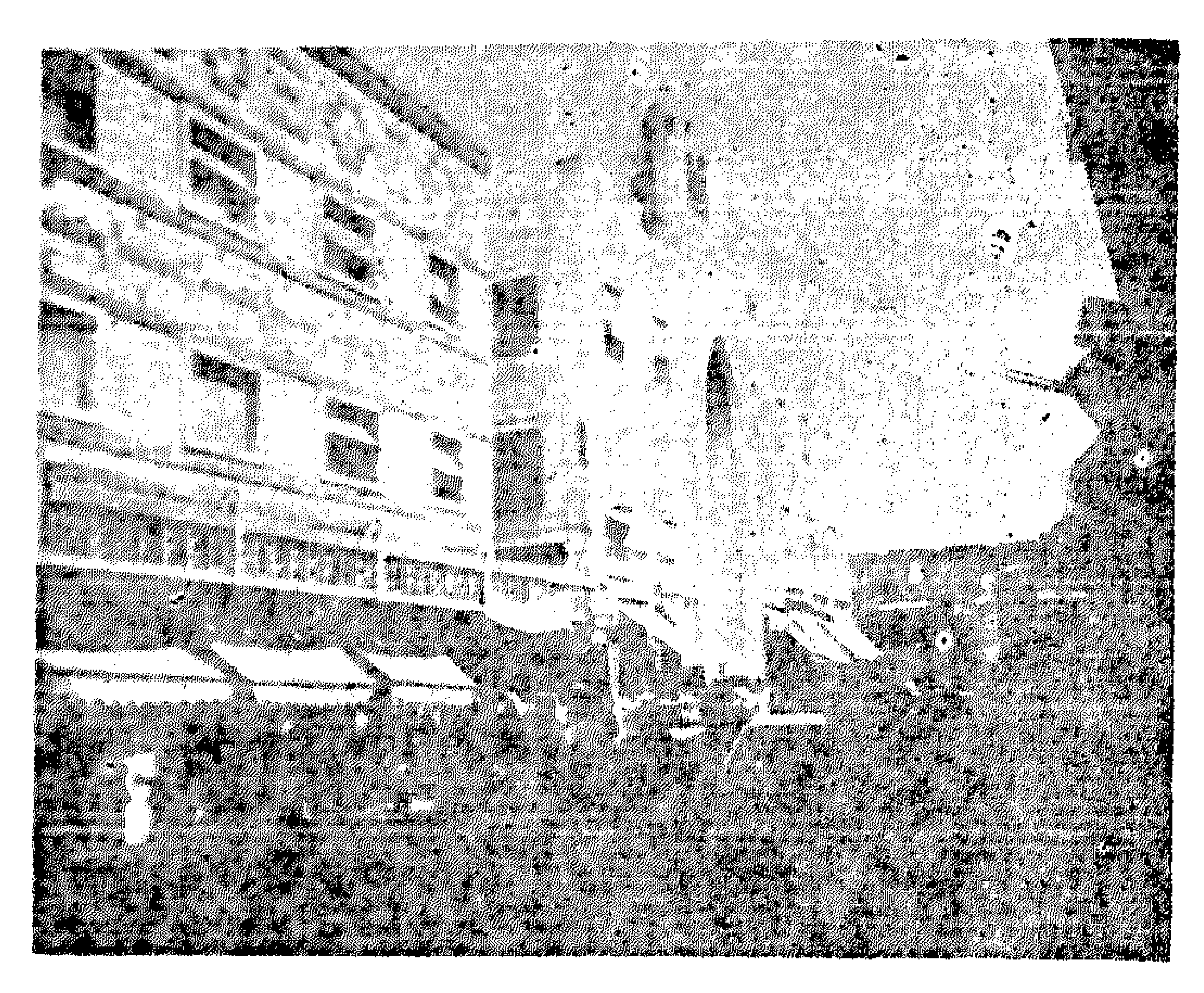
الشكل (٩)

جـ ـ أما الباب الرابع الذي عرف باسم « باب السوق » فلا اثر له ومن اقوال القدماء صح لدينا بانـــه يقع مقابـــل الزاوية الشمالية الغربية لبناء الاوقاف الحالي كما هو مبين في الشكل . (١٠)

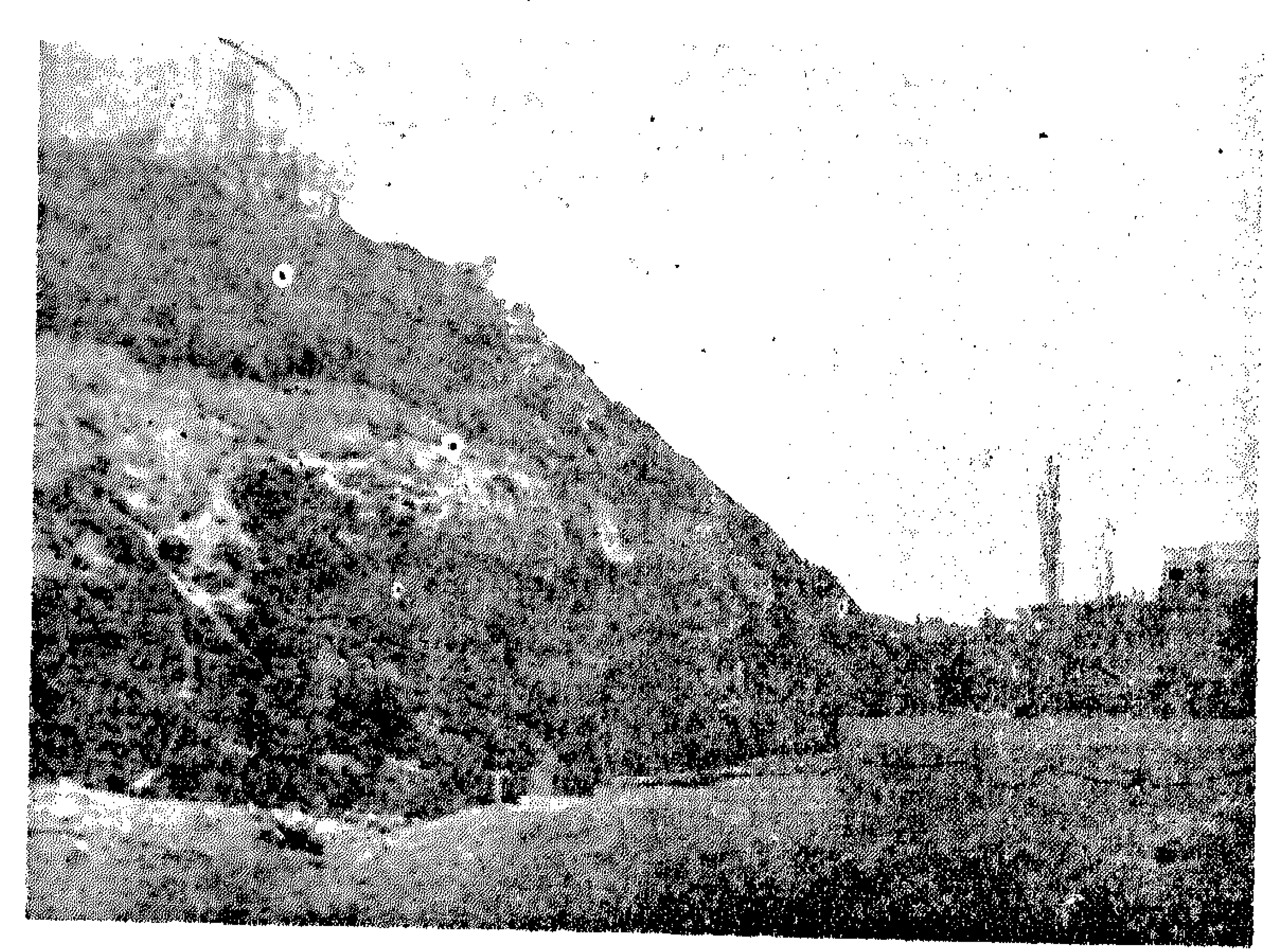
وهذا الموقع يقابل السور الثاني الهابط من القلعة من الشمال ليصبح شكل البلد مستطيلاً ذا أربعة ابواب متقابلة ومتناظرة تماماً . **أنظر الشكل ١١**

أما الابواب (باب التركمان ـ باب المسدود ـ باب هود) فهي من الابواب

أنظر الشكل ١٢ و ١٣

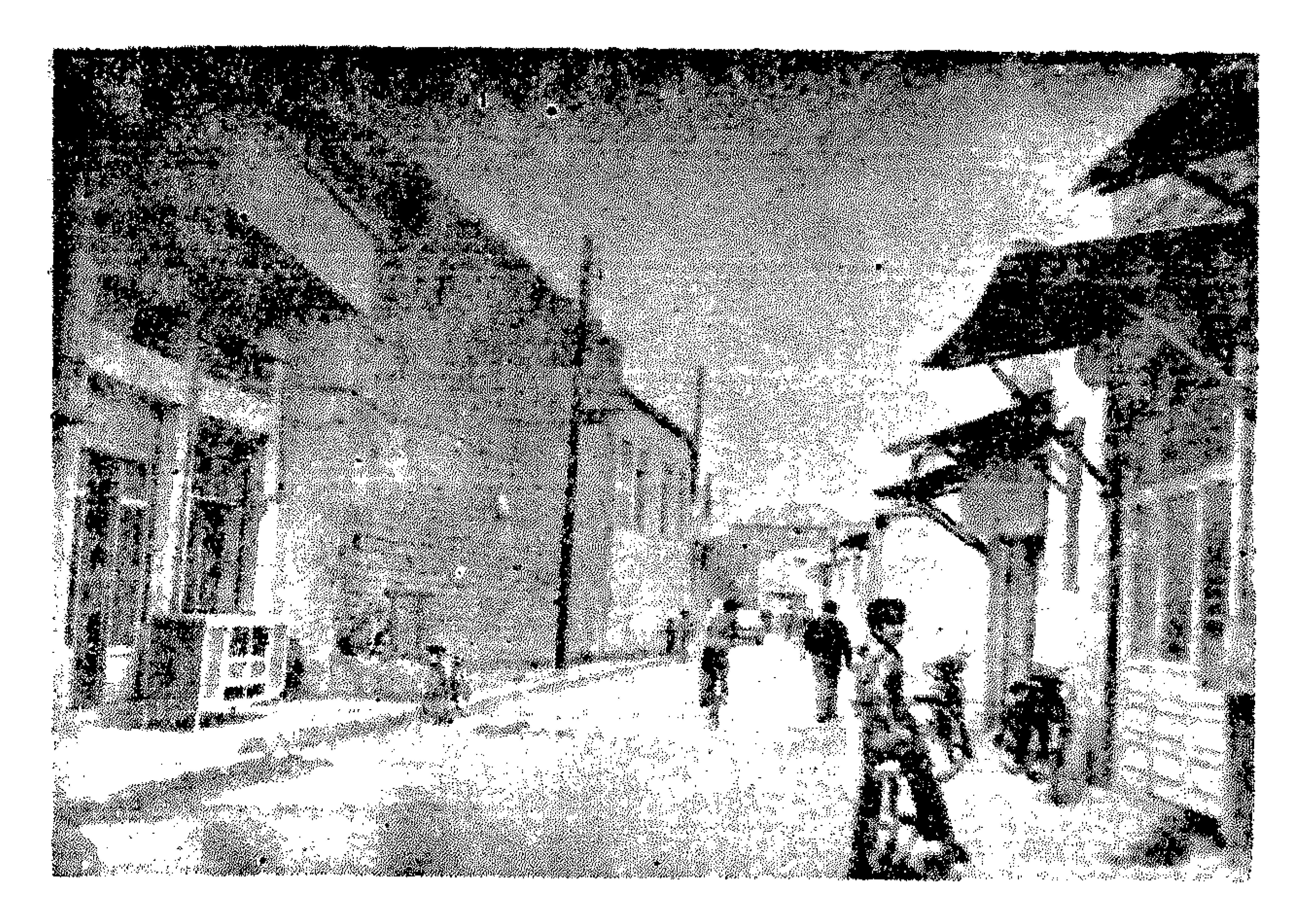


الشكل (١٠)



الشكل (١١)

الملحقة غالباً في العصر الايوبي وهـــذه الظاهرة تجدهـــا واضحة في الباب المسدود القائم بشكل واضح حتى الان . اذ نجد خليطاً من أحجار متعددة غير متجانسة مما يدل على أنها جمعت جمعاً من ابنية مهدمة .هذه الابواب تجد سورها



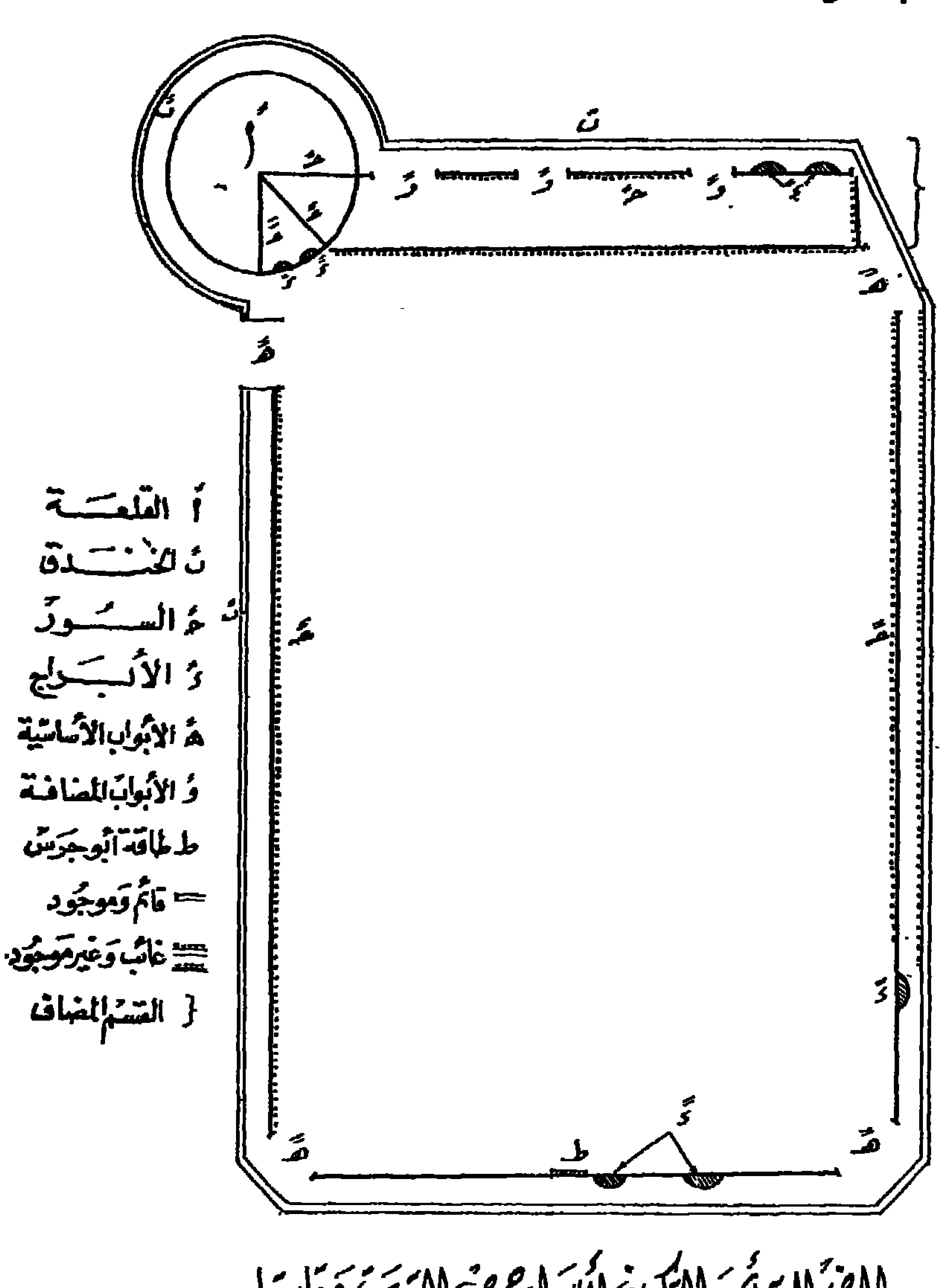
الشكل (١٢)



الشكل (١٣)

هابطاً من أعلى القلعـــة ليتصل بباب التركان كما في الشكل ٧ ثم الى الباب المسدود لينتهي اخيراً في حي الاربعين حيث بقايا الاسوار وايتجه شرقاً ويلتقي

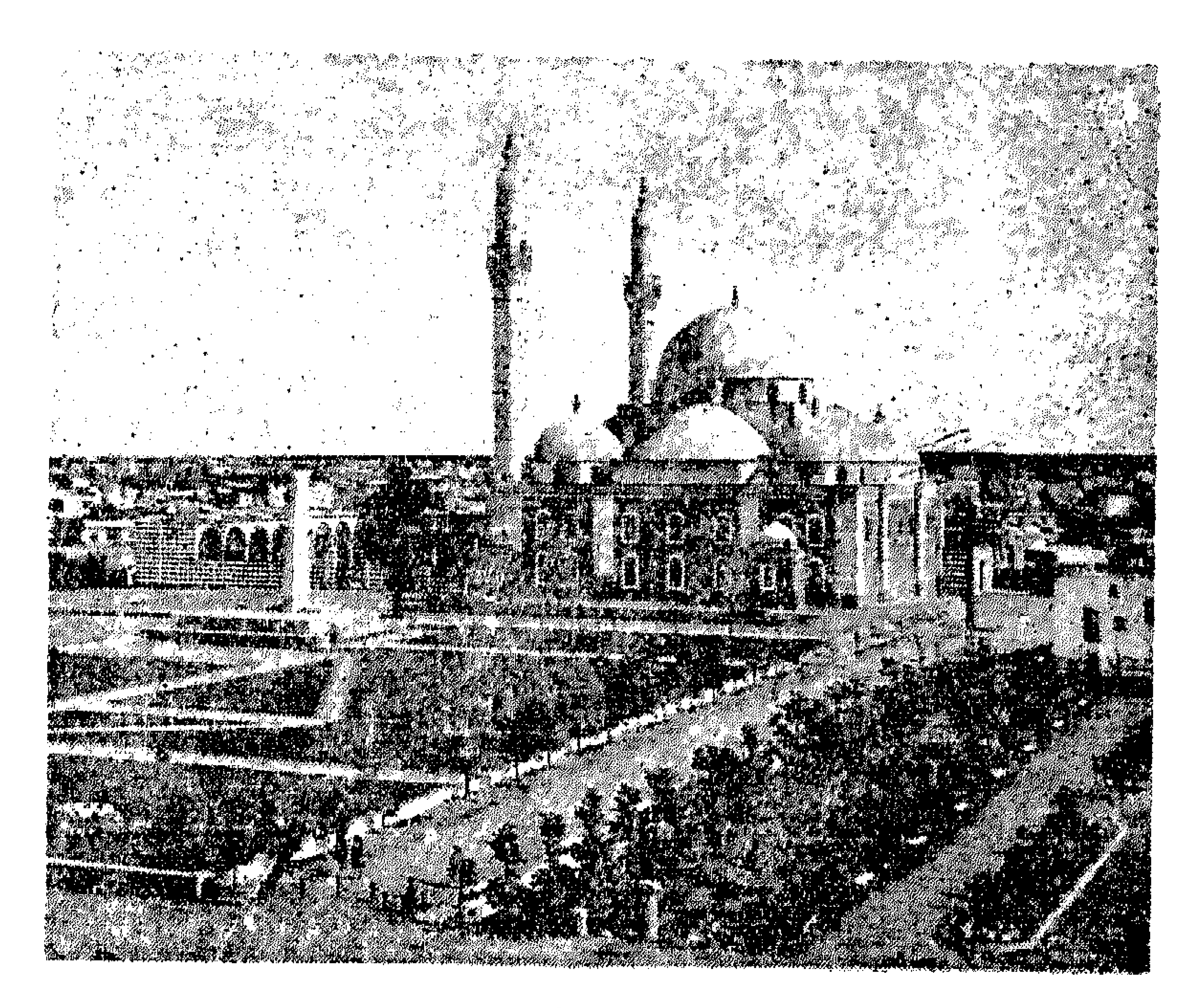
بالباب الرابع (باب السوق) كما هو مبين في الشكل ١٠ اذن هـــذا هو القسم الجديد وخندق باب هود هو الخندق الحالي لهذا القسم من السور . أما الخندق المحيط بالسور الاساسي من جهة الغرب فقد زال وتجد بقاياه في الارض المنخفضة او الممتدة مابين جامع النوري ونهايـة باب التركمان حيث يلتقي مـــع السور الهابط من القلعة .



الوضع القائم والتكويني لأسوار حمص القديمة وقلعتها

مسجد خالد بن الوليد

للأستاذ رياض البدري



تعرف حمص (١) بمدينة بن الوليد لأن تربتها تحتضن رفات القائد العربي المظم خالد بن الوليد الذي سنتحدث في هذه المقالة عن تاريخ المسجد المسمى باسمه وقبل أن ندخل فى صلب الموضوع لابـــد لنا من أن نلم إلمامة سريعة بحياة

١ - مدينة قديمة يعـود بناؤها الحالي الى ما قبل ميلاد السيد المسيح بحوالي ٢٣٠٠ سنة . ذكرت قديمـا باسماء عـدة (حامـات - صوبات - أميـا - أميز - حومـوس) وهي المدينة الثالثة بعد دمشق وحلب ، وتقع وسط الجمهورية العربية السـورية ، شرقي نهر العاصي نحو ٢ - ٤ كم وترتفع عن سطح البحر حوالي ٥٠٠ م ، وقد شغلت من تاريخ سورية مكاناً ممتازاً لما تتمتع به من ميزات ولما شهدته من احداث .

الفاتح العظيم (١) .

هو خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي . كان من أشراف قريش في الجاهلية ، يـلي أعنة الخيل ، وشهد مـــع مشركيهم حروب الإسلام إلى الحديبية ، وأسلم قبل فتح مكة سنة ٧ هـ ، فسر به الرسول ﷺ وولاه الخيل ، ولما ولي أبو بكر وجهه لقتال مسيلمة ومن ارتد مـن أعراب نجد . ثم سيره إلى العراق سنة « ١٢ هـ » ففتح الحيرة وجانباً عظيماً منه . وحـــوله إلى الشام وجعله أمير فيها من الأمراء ، ولما ولي عمر عزله عن قيادة الجيوش بالشام وولى أباعبيدة بن الجراح ، فلم يثن ذلك من عزمه واستمر يقاتـــل بين يدي أبي عبيدة إلى أن تم لهما الفتح سنة « ١٤ هـ » فرحل إلى المدينة ، فدعاه عمر ليوليه فأبى . ومات بحمص في سورية وقيل بالمدينة . (٢)

وكانت وفاته عـــام ٢١ هـ = ٦٤٢ م . كان مظفراً خطيباً فصيحاً يشبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلقه وصفته . قـــال أبو بكر رضي الله عنه عجزت النساء أن يلدن مثل خالد .

تاريخ الجامع

تذكر المصادر التاريخية بأن قبر خالد بن الوليد شمله الاصلاح سنة ٦٦٤ هـ ولم يكن قبر خالد آنذاك إلا مقاماً مـــن المقامات التي كثرت بحمص في ذلك العصر . إلا أنه لم تذكر أوصاف عن بناء هـــذا القبر ، واكبر الظن انه كان

---

١ ـ اعتمدنا على كتاب الاعلام في سرد خلاصة مركزة لحياة ابن الوليد .
الاعلام ٢/٢٠٠ ط ٤

٢ ـ قال ابن الاثير في أسد الغابة ٢ / ١١١ :
وتوفي (خالد) بحمص من الشام ، وقيل بل توفي بالمدينة . وانظر أيضا العبقريات الإسلامية للعقاد : ٨٩٩

« هيئة التحرير »

كالمدارس والمدافن الايوبية والمملوكية التي نشأت آنذاك .

وقد أدرك الظاهر بيبرس ضريحه فبنى فوقه مسجداً صغيراً ، وكان المسجد تابعاً لضاحية المدينة ، التي كانت تسمى قريـــة سيف الله خالد بن الوليد ، وتبعد عن حمص نحو ميل ، لكنه حالياً الى الشمال في ظاهر مدينة حمص بحي الخالدية ، نظراً للتطور العمراني الكبير الذي حظيت به المدينة .

وكان تجديد الملك الظاهر بيبرس لمقام خالد اثناء عبوره حمص للاغارة عـلى مدينة سيس (١) وماحولها في كيليكيا .وتشير الى حادثة مرور الملك الظاهر بحمص كتابتان اثريتان هامتان ، وهما مكتوبتان بخط نسخي جميل سنأتي على ذكرهما فيما بعد .

وبعد ان كان بناؤه القديم قوياً ذا ركائزضخمة وسقف عقد متين ، قام ناظم باشا احد ولاة الشام في عهـــد عبد الحميد الثاني واستحصل على مبلغ / ٦٠٠٠ / دينار عثماني اكملها بثمن الحلي التي كانت على الضريح ، وهـدم البناء القديم كله وشرع بإقامة البناء الجديد على نسق جامـع القسطنطينية (جامع السلطان احمد) فجاء عند ختامه في سنة ١٣٣١ هـ آية في الجدة والروعة ، وهو احدث المباني الاثرية في حمص إذ بني مكان المقام المملوكي الذي تقدم ذكره ، وقد انتهى ناظم من بناء الجامع المذكور في سنة ١٩١٢ م .

« وقد جرى تكليف عبد الحميد باشا الدروبي بالاشراف على مراحل البناء واجراء مـايلزم بوصفه رئيساً للبلديـة آنذاك . فأذاع الباشا الدروبي نداء

---

١ ـ سيس عاصمةأرمينيا الصغرى (كليكيا) وكانت مدينة كبيرة ذات أسوار ، وتقع على جبل وتحيط بهـا بساتين ونهـر صغير (أبو الفداء ص ٢٥٧) هي الآن بـلدة صغيرة جنوبي الاناضول .



إلى الاهالي للتبرع بالعمل والحفر ورفع الانقاض والقبور الدارسة . فكان في كل يوم تذهب محلة (حي) من المحلات للعمل هناك بالتناوب ... وهكذا شاركت حمص بشبابها ورجالها بهذا العمل . . . ، علماً بأن رئيس البلدية وقف بنفسه مراقباً لايترك العمال من الصباح حتى المساء إلا عندما تدعوه الضرورة للذهاب إلى مكتبه لتسيير بعض الاعمال الادارية . وقد بنى إلى جانب المسجد تكية تقدم الخبز والحساء الممزوج باللحم الى فقراء المدينة ، ويصرف المصروف من واردات

الجامع باعتباره اغنى جامع في ذلك الوقت . وفي أوائل العشرينيات تقرر الغاء التكية وصرف مصروفاتها على تأسيس كلية شرعية في الجهة الشمالية من باحة المسجد » . (١)

كتابات أثرية وتاريخية

الكتابة الاولى على باب خشبي ، وهي مؤلفة من خمسة أسطر من الخط النسخي المملوكي ونصها : « بسم الله . . . أمر بانشائه على حرم قربة سيف الله وصاحب رسول الله خالد بن الوليد رضي الله عنه مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة قاهر الخوارج والمتمردين محيي العدل في العالمين مالك البحرين صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك اسكندر الزمان صاحب القرآن بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين أعز الله سلطانه عند عبوره حمص للغزاة ببلاد سيس وذلك في شهر ذي الحجة سنة اربعة وستين وستمائة » . (٢)

الكتابة الثانية على حشوة خشبية ، وهي مؤلفة من خمسة اسطر من الخط النسخي المملوكي الجميل ونصها :

« بسم الله . . . أمر بانشائه على ضريح سيف الله وصاحب رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين محيي العدل في العالمين ملك البحرين صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين وارث

---

١ ـ تكرم الاستاذ الفاضل المؤرخ قاسم الشاغوري بسرد واعطاء هذه المعلومات ، فله شكري واحترامي وتقديري .

٢ ـ عن الحوليات الأثرية السورية ١٩٦٠

الملك سلطان العرب والعجم والترك اسكندر الزمان صاحب القرآن بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين أعز الله سلطانه عند عبوره على حمص للغزاة ببلاد سيس وذلك في شهر ذي الحجة سنة اربعة وستين وستمائة » . (١)

والكتابة الأثرية الاخرى ، على لوح خشبي تذكر بانتصار آخر أحرزه المماليك على الصليبيين في عهد السلطان الملك الاشرف خليل بن السلطان سيف الدين قلاوون سنة ٦٩١ هـ وتتألف هـذه الكتابة من ثمانية اسطر مدرجة على لوح خشبي بالخط النسخي وهي كما يلي :

« بسم الله . . جدد هذا الشباك المبارك في هذا المشهد الخالدي رضي الله عنه في أيام مولانا السلطان الاعظم الملك الأشرف العادل المجاهد المرابط المثاغر المظفر المنصور الهمام مالك الانام صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ناصر الملة المحمدية محيي الدولة العباسية ملك البحرين صاحب القبلتين ووارث الملك سلطان العرب والعجم والترك مالك رقاب الأمم جامع فضيلتي العلم والسيف ابي الفتح خليل خـلد الله سلطانـه وافاض عليه الرعاية كافة عدله واحسانه ابن مولانا السلطان الشهيد المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون قدس الله روحه ونور ضريحه وذلك عند توجهه الى فتح قلعة الروم سنة احدى وتسعين وستمائة » . (٢)

التابوت الاثري

ولزام علينا أن نشير الى تابوت اثري (ضريح) من الخشب المحفور ، مزين بكتابات قرآنية من الخط الثلث والخط الكوفي المعقدو دبزخارف نباتية متداخلة:

« أمر بصنعه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي سنة ٦٦٤ هـ =

---

١ - ٢ - عن الحوليات الاثرية السورية ١٩٦٠ م

١٢٦٥ / ١٢٦٦م احياء لذكرى البطل الفاتح خالد بن الوليد في حمص وذلك بمناسبة انتصار المسلمين على المملكـــة الارمينية في كيليكيا وفتحهم مدينة سيس » (١) .

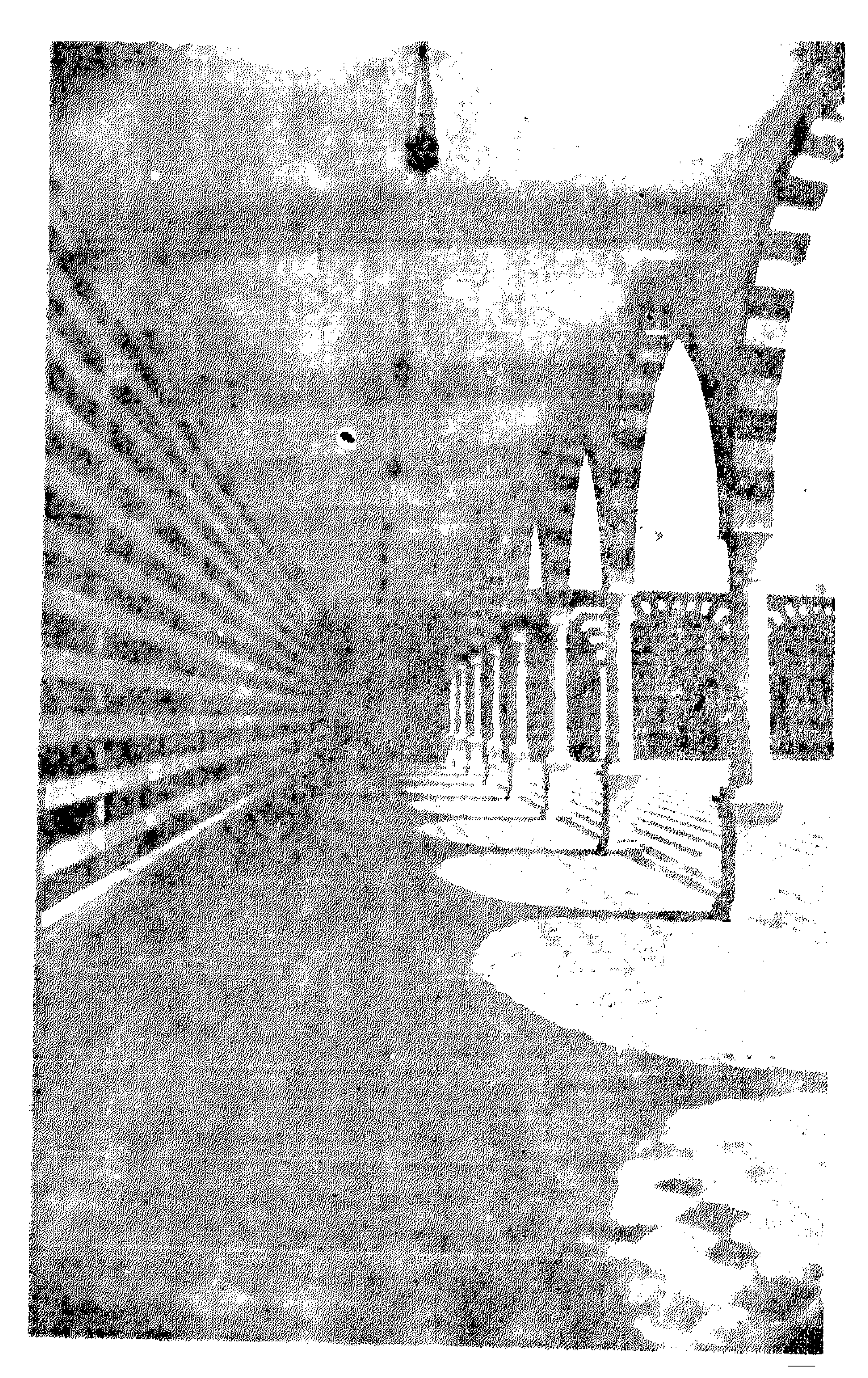
والتابوت المذكور هو من مقتنيات المتحف الوطني بدمشق ـ فرع الآثار العربية الاسلامية ـ معروضات القسم الثاني من قاعة الخشب . وقدأصلح هذا التابوت في المعمل الفني التابع للمديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق ، وأنقذ من التلف ويتألف شكله من موازي المستطيلات ، وله قاعدة سفلية يقوم فوقها صف من ستة محاريب ضامرة في كل مكان من الجانبين العريضين ، وثلاثة في كل من الجانبين الضيقين وكل هذه المحاريب مملوءة بالزخارف الهندسية والنباتية البارزة ، ثم يأتي فوقها صف من الزخارف الكتابية الكوفية وفوق هذه صف آخر من الزخارف الكتابية النسخية .

مخطط الجامع

يتألف من ثلاثة مداخل ، الرئيسي منها بالوسط ، تعلوه لوحة رخامية دون عليها مايلي :
لااله الا الله محمد رسول الله .. هذا جامع الصحابي الشهير سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه ومقامه الثابت بالتواتر ، شيد بناءه القديم السلطان الظاهر بيبرس عام ستماية وثلاثة وخمسين هجرياً ، ثم صدرت ارادة السلطان عبد الحميد الثاني العثماني عام ألف وثلاثماية وثمانية عشر بتجديد بنائه بعد هدمه وذلك بمساعي أرباب الفضل ، من ريعه الخاص واحسانات السلطان المذكور فتم بناؤه عام الف وثلاثماية وثلاثة وستين من هجرة سيد المرسلين ﷺ وعلى اله وصحبه اجمعين . .

---

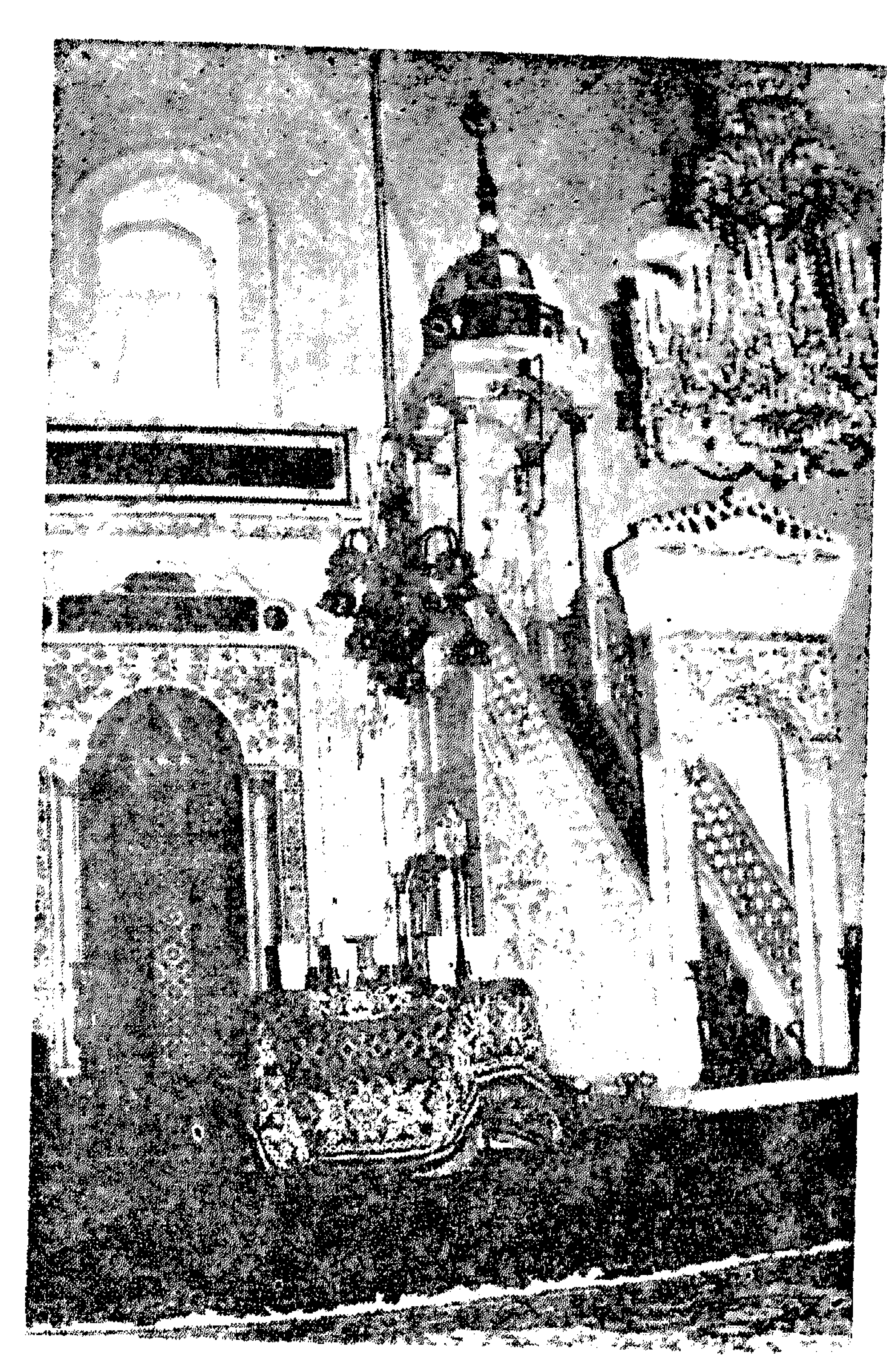
١ ـ عرفت هذه المعلومات من الالواح المكتوبة التي وجدت مع الضريح في مدفن خالد بن الوليد بحمص . والمحفوظة في المتحف الوطني بدمشق .



« الرواق الشرقي للمسجد »

تم بناؤه ١٣٦٣ هـ » .

وشكل الحرم مربع تقريباً ٥ر٣٠ × ٥ر٣٠ م ، يقوم سقفه المؤلف من خمس قباب نصف كروية ، الوسطية مرتفعة وكبيرة جدا (قطرها ١٢ متراً ، وترتفع الى ٣٠ متراً) ، وأربعة انصاف بيضوية الشكل تحملها جميعاً أربع دعائم مربعة ومقواة بعضائد ، وفي صدر الحرم ثلاثة محاريب . وفي زاوية الحرم الشمالية الغربية



« المنبر والمحراب »

ضريح خالد بن الوليد « وهو على شاكلة قبة سيدنا يحيى في الجامع الاموي بدمشق » . وفي زاوية هـــذا الضريح ، ضريح صغير لعبدالرحمن بن خالد، وفي الزاوية الشمالية الشرقية ضريح ثالث لعبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وهو عبارة عن تابوت خشبي محاط بشبك حديدي ومغطى بقماش أخضر .

اما المحراب فمرصوف بفسيفساء رخـــامية ملونة بشكل هندسي ، والمنبر من

الرخام أيضاً ، زخرفته النافره حديثة من انواع الركوكو . كما يوجد المنبر الخشبي المزخرف والمرمم من قبل المديرية العامة للآثار والمتاحف ، ويعود عهده الى أواسط العصر العثماني قبل ٢٠٠ سنة تقريباً وفي اعلاه كتابة .

وصحن الجامع واسع ، أبعاده (٣٦ × ٤٧ متراً) يطل عليه رواقان من شماله وشرقه ، وفي الاخير غرفة استعملت مدرسة شرعية وغرفة ميضأة . وتقوم مع بناء الحرم مئذنتان رشيقتان ، ويلاحظ بأسفل البناء أحجار اثرية كبيرة الحجم استخدمت قواعد لما فوقها .

النصب التذكاري

يوجد في حديقة المسجد الغربية ، نصب تذكاري دون عليه مايلي :

«بسم الله الرحمن الرحيم ـ شيد هذا النصب التذكاري للصحابي الجليل خالد بن الوليد من أموال معونة الشتاء بأمر من قيادة الجيش العربي السوري ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م كما دونت العبارة المأثورة المشهورة لخالد بن الوليد وهي : لقد شهدت مائة زحف أوزهاءها ومافي بدني موضع شبر الاوفيه ضربة بسيف أورمية بسهم أوطعنة برمح وهاأنذا أموت على فراشي حتف أنفي ، فلا نامت أعين الجبناء » .

شهرة الجامع

يتمتع جامع خالد بن الوليد بشهرة واسعة بين السياح العرب والاجانب ، يحظى بزيارته كل سائح يؤم حمص عابراً أو مقيماً ، وقد زادت شهرته بموقعه الذي أصبح رئيسياً بعد ان قامت محافظة حمص سنة ١٩٦٠ برفع

المقابر الموجودة غربي الجامع وتنظيم المنطقة وتجميلها وأزالت المرتفع القائم في حمص الشمالي وأحالت المنطقة الى حديقة جميلة مزينة بالاشجار والزهور باتساق فني بديع يليق بقدسية الجامع وروعته .

الاستاذ رياض البدري

مديرية آثار حمص



مصادر البحث ومراجعه

١ - أسد الغابة في معرفة الصحابة - ابن الاثير

٢ - الاعلام - خير الدين الزركلي - طبعة رابعة

٣ - تاريخ حمص ١١٠٠ - ١١٣٥ هـ . تحقيق عمر العمر

٤ - تقرير الأستاذ كامل شحادة ١٩٦٣

دائرة اثار حماة

٥ - حمص أم الحجار السود - ساطع محلي

٦ - الحوليات الاثرية السورية - المجلد العاشر ١٩٦٠ - المديرية العامة للاثار والمتاحف

٧ - دليل السياحة بحمص ١٩٧٥ - ١٩٧٦ - دائرة السياحة بحمص

٨ - دليل المتحف الوطني بدمشق ١٩٦٩ . المديرية العامة للآثار والمتاحف .

٩ - سيف الله خالد بن الوليد - الجنرال أكرم ترجمة العميد الركن صبحي الجابي

١٠ - العبقريات الاسلامية . عباس محمود العقاد

مارغريغوريوس يوحنا ابو الفرج بن العبري
مفريان المشرق (١)
١٢٢٦ - ١٢٨٦م

سيادة المطران ملاطيوس برنابا

مطران حمص وحماة وتوابعها للسريان الارثوذكس

• • •

فيلسوف كبير غاص في أعماق العلوم الفلسفية وعلامة لوذعي ، بل مؤرخ مدقق ، وشاعر من الطراز الاول ، ولغوي محقق ومشرع له اليد الطولى في القانون الكنسي والمدني وطبيب حـاذق ، وعالم في الطبيعيات والرياضيات والمساحة ، وخطيب مصقع ومحدث لبق يأخذ بمجامع القلوب ويسيطر على سامعيه ببلاغته واسلوبه الاخاذ ، ومرشد حكيم ، وعلم من اعلام الدين ، وعبقري يشار اليه بالبنان في الادارة والحكمة ، ونعني به المفريان مارغريغوريوس يوحنا ابن العبري . « ابو الفرج »

كان ابوه الشماس اهرون الطبيب ابن توما الملطي الملقب بتاج الدين (٢) وهو حكيم زمانه من أعظم أهل عصره تقوى وورعاً وعلماً وفضلاً وهو ينحدر من

---

١ - مفريان المشرق : رتبة كنسية تلي البطريرك ، وهو رئيس أساقفة المشرق

٢ - اللؤلؤ المنثور للبطريرك افرام برصوم

اسرة ملطية (١) عريقة وكانت امه ايضاً من فضليات النساء في زمانها ، وملطية منبت رهط كبير من علمائنا السريان وفلاسفتنا ومؤرخينا امثال البطريرك ميخائيل الكبير ، وابن صليبي ، وسعيد ابن الصابوني ، وأخيه باسيليوس أبي غالب ، وابن وهبون وغيرهم . (٢)

وكان والده الطبيب اهرون عريقاً بالمسيحية لا كما توهم بعض المستشرقين انـــه كان يهودياً فتنصر ، منخدعين بالاسمين اهرون وابن العبري . اما اسم اهرون فكان مستعملا عند المسيحيين كثيراً حتى ان بعض الاساقفة كان يسمى - اهرون - مثل البطريرك ابن المدني . واما الاسم الثاني « ابن العبري » فليس دلالة على اليهودية وقد نفى هذا الظن ابن العبري نفسه في بيت شعر له مشهور ، واليك قوله عن نفسه بالسريانية ماترجمته :

إذا كان الرب قد سمى نفسه سامرياً ، فـــلا غضاضة عليك اذا دعوك بـ « ابن العبري » فهذه التسمية متأتية من نهر الفرات ، ولم تتخذ عن دين مشين اولغة عبرية (٣) وقــد دحض العلامة البطريرك افرام برصوم(٤) الاول وهم المستشرقين هذا بمقال مستفيض نشره في مجلة الكلية الامريكية في بيروت

١ - ملطية ، مدينة في ولاية معمورة العزيز (تركيا) كانت مشهورة عظيمة مذكورة واقعة قريباً من نهر الفرات على الضفة اليمنى منه ، من امهات مدن السريان كان لهم فيها ست وخمـــون كنيسة سنة ١٠٤٩ موهي موطن نخبة من اقطاب علمائهم ، امست اليوم بليدة .

٢ - يعقوب ابن الصليبي مطران آمد ١١٧١
ابو غالب اسقف جيحان ١١٧٧
ابن وهبون بطريرك دخيلا ١١٩٣
البطريرك ميخائيل الكبير بطريرك السريان ١١٩٩
البطريرك يوحنا ابن المورني ١٢٦٢
سعيدابن الصابوني مطران ملطية
باسيليوس ابو غالب مطران ملطية ١١٢٩

٣ - ديوانه بالسريانية ص ٧١

٤ - افرام برصوم بطريرك السريان الانطاكي ١٩٣٣ - ١٩٥٧

سنة ١٩٢٧ وفي مجلة الحكمة السريانية في القدس وفي كتابه اللؤلؤ المنثور (١) وهكذا فعل المرحوم المطران بولس بهنام (٢) . وقداسة البطريرك يعقوب .

ابصر نور الوجود في مدينة ملطية سنة ١٢٢٦ وابواه من علت وجاهة وثقافة وتقوى ، وسمي في المعمودية يوحنا ، فتدرج في بيئة علم ودين وادب ونشأ منذ نعومة اظفاره على حب الفضيلة وحب العلم لنباهة وذكاء خارق تميز بهما ، فوطد العزم على طلب العلم والادب منذ طفولته ، وراح يتلقن اصول العلم واللغات في وطنه . وحـــذق طقوس الكنيسة والكتاب المقدس وشرحه وتفاسير ائمة المسيحيين الاولين ، ثم قرأ الطب على ابيه مقتفيا اثاره فيه وهـــو حكيم زمانه ، كما درس عليه ايضاً علوم الفلسفة حين اشتد ساعده في درس المعارف البشرية .

ويحدثنا كاتب سيرته المنظومة انه كان ينتجع موارد العلم اينما كانت فيبحث عن مهرة العلماء يأخذ عنهم ويرتاد البلدان طلباً للمعرفة فتشبه بالنحلة التي ترتاد الازهار لتجمع الشهد (٣)

وفي سنة ١٢٤٣ رحل مع ابيه الى انطاكية وكانت نفسه تتوق الى العلا والحياة الروحية وسيرة الكمال فانزوى في مغارة منقطعة في دير مجـــاور لانطاكية ، وقضى في هذه العزلة سنة كاملة حيث هبط على نفسه الطاهرة صفاء الايمان وزاره في منسكه هذا البطريرك اغناطيوس داود (٤) .

ولكن نفسه التواقة الى العلم لم تشبع فترك صومعته الهادئة وانتجع مع رفيق

---

١ ـ اللؤلؤ المنثور ـ طبعة اولى ص ٤١٣

٢ ـ بولس بهنام : مطران بغداد والبصرة للسريان الارثوذكس

٣ سيرته المنظومة

٤ ـ اغناطيوس داود : بطريرك السريان ١٢٥٢

له يدعى صليبا (١) مدينة طرابلس الشام حيث انهى دراسة الطب والبيان والمنطق على الاستاذ يعقوب النسطوري (٢) وحذق هذا العلامة من اللغات السريانية والعربية والفارسية والارمنية ـ وكان في جميعها من الكتاب المبرزين حتى نعت بـ « بحر الحكمة » ونور المشرق والمغرب ، وملك العلماء واكبر الحكماء والاب القديس ، والاب العارف بالله ، وزينة المؤلفين ، واكليل المفارنة وتاج الرؤساء ودائرة معارف القرن الثالث عشر (٣) .

اسقفيتــــه

ولما اشتهرت فضيلته ، وظهر علمه اختاره البطويرك أغناطيوس داود ، ورسمه اسقفاً على بلدةجوباس القريبة من ملطية في ايلول ١٢٤٦ ولم يكن قـــد جاوز العشرين من عمره ، فاهتم بأمور رعيته التي سعدت به ولكن لم يطل الامر به اكثر من سنة واحدة فقط ، حيث نقل إلى اسقفية لاقبين على اثر استقالة اسقفها اهرون (٤) . فمكث في ابرشيته هذه الجديدة خمس سنوات يفرغ قصارى جهده في رعايتها واعـــلاء شأنها من النواحي العمرانية والروحية .

وفي سنة ١٢٥٢ نقل الى مطرانية حلب على اثر ارتفاع باسيليوس صليبا (٥) إلى رتبة مفريانية المشرق باسم اغناطيوس ، وكان حظ حلب سعيداً بهذا المطران الهمام فمكث فيها زهاء اثنتي عشرة سنة كان فيها مثلا اعلى في السهر على رعيته والاهتمام بها .

وفي سنة ١٢٥٨ حاصر هولاكو مدينة حلب فخرج المطران يوحنا ابن العبري

---

١ ـ اللؤلؤ المنثور ص٤١٣ . وصليبا المذكور هو رفيق ابن العبري ومعاهد له

٢ ـ يعقوب النسطوري ، استاذ المنطق سنة ١٢٤٠ م

٣ ـ ترجمة بقلم الاب دولباني في ديوانه السرياني

٤ ـ اهرون اسقف لاقبين ١٢٣٩ م وجوباس ولاقبين مدينتان مجاورتان لملطية وقد خربتا

٥ ـ باسيليوس صليبا ؟

الى الفاتح المغولي يستعطفه لسكان المدينة غير ان شفاعته لم تأت بطائل لان الجند اقتحموا المدينة وانتشروا في ارجائها يعملون السيف في رقاب اهلها ، فقتل خلق كثير مــــن المسلمين والنصارى (١) حتى ان الذين قتلوا في حلب كانوا اكثر من الذين قتلوا في بغداد (٢) .

وفي اثناء رئاسته على حلب بنى فندقاً كبيراً بجانب الكنيسة لفائدتها ونال حظوة كبرى عندهولاكو بواسطة الطب الذي كان يتفوق فيه على كثيرين من اطباء زمانه ـ وكانت له هيبة كبرى واحترام جزيل في البلاط سواء عند رجال البلاط أو عند ملك الملوك نفسه .

اما روحه السليمة فتتجلى في كونه اخلص المودة للبطريركين المتنازعين على الرئاسة في زمانه . فإن دينيسيوس (٣) عنجور كان صديقاً لاسرته منذ كانت في ملطية فرعى له حرمة هذه الصداقة وبعد وفاته عاد إلى نده البطريرك يوحنا بن المعدني (٤) فصار من اكثر الاساقفة تأييداً له ، وقدادى بذلك حق شخصية ابن المعدني وقداسته وعلمه ، حتى انـه رثاه عند وفاته بقصيدة ، فخلع عليه اوصافاً فائقة لايمكن أن يصورها شاعر مالم تكن منبعثة من نفس تجيش بالالم الشديد على فقده من جهة وتقديسه وتعظيمه مــــن جهة اخرى فقد سماه فيها ـ شمس الزمان وضياء الكنيسة وعمودها وتاج الامة الرفيع (٥) .

مـفريانتـه

طارت للاسقف العلامة ابن العبري شهرة واسعة في جميع أنحاء الكنيسة السريانية وذاع عبير فضله وعلمه في كل الاقطار وعرف عنه أنـــه مثال للراعي

١ ـ تاريخ الدول السرياني ص ٥١٠

٢ ـ نفس المصدر

٣ ـ دينيسيوس عنجور ؟ بطريرك السريان

٤ ـ يوحنا بن المعدني ؟ بطريرك السريان

٥ ـ ابن العبري الشاعر للمطران بولس بهنام ص ٢٢

العالي . فوضع البطريرك ابن العبري وكتب عنه إلى أبناء كنيسة المشرق يصف منزلته العالية ومناقبه التي أهلته ليكون أبا عاما لكنيسة المشرق الارثذكسية . وفي هذه الاثناء توفي ابن المعدني وخلفه البطريرك يشوع عام ١٢٦٤ فاجتمع البطريرك الجديد بأساقفته في مدينة سيس (كيليكية) ودعا المترجم لمفريانة المشرق لما عرف عنه من الحكمة والادارة والمنزلة العلمية والدينية واللاهوتية ، وكانت حفلة تنصيبه في كنيستنا بمدينة سيس وحضرها حاتم ملك كيليكية وأولاده والأمراء وأعيان دولته ورؤساء أساقفة الارمن وعلماؤهم وشعب غفير منهم فضلا عن الجماهير الغفيرة من شعبنا السرياني واساقفتنا ومطارنة معظم ابرشياتنا ، وكان ذلك في ١٦ كانون الثاني سنة ١٢٦٤ . وفي نهاية حفلة التنصيب ارتقى المفريان الجديد منبر الخطابة والقى خطبة بليغة في رئاسة الكهنوت (١)

وأول عمل جليل قام به المفريان العلامة بعد تنصيبه سعيه المشكور في توطيد سلطة البطريرك مار اغناطيوس يشوع . فقد سافر هذا البطريرك صحبة المفريان ابن العبري برهط من الاساقفة إلى مدينة أرزنجان من حواضر الارمن للمثول بين يدي هولاكو المعروف بملك الملوك . وقد سبق المفريان البطريرك إلى ملك الملوك ، وكان يستعين بطبه في السفر فيساعده الولاة والعمال حتى بلغ هولاكو نفسه . فدخل بلاطه موفور الكرامة ، ومثل بين يديه ومهد الطريق للبطريرك القادم فاصدر ملك الملوك أوامر ملوكية سامية لمساعدته حتى اذا ماوصل ادخله المفريان حالا . فسر به الملك وحادثه طويلا وأكرم مثواه ومنحه براءة سامية ، أردفها بكتاب آخر اثنى فيه على المفريان واطرى محامده

---

١ - تاريخ كنيسة المشرق وترجمته

ومنحه براءة مذكية أيضاً (١)

قدومه إلى المشرق

بعد ان انهى المفريان الجديد مهمته بتأييد سلطة بطريركه جاءت البشائر بقدومه إلى بلاد المشرق فاستبشرت به فرحاً هذه الكنيسة العريقة وكانت الموصل اول مدن العراق التي تشرفت بطلعته القدسية فلما دخلها استقبلته بأبهة رائعـــة بأعيانها واشراف دولتها وسكانها من المسلمين والمسيحيين عــلى اختلاف طبقاتهم (٢) .

ان حظ كنيسة المشرق كان سعيداً جداً بهذا الحبر العلامة لانها كانت منذ عهد طويل متعطشة الى عالم جليل مثله ، ويخبرنا كاتب سيرته المنظومة ، ان كنيسة المشرق لم تر لاهوتيا ومفسراً مثله منذ عهد سويريوس موسى ابن كيفا المطران اللاهوتي الكبير عام « ٩٠٣ » ، اردف قائلا ان الله الذي انار به كنيسة المغرب لم يرد ان يحرم كنيسة المشرق انوار تعاليمه الساطعة ، ولم تكن فائدته خاصة بكنيسته فقط بل كانت عامة للجميع . وكانت هناك بغضاء شديدة بين الارثوذكس والنساطرة في بلاد العراق منذ القرن السادس فازالها هذا المفريان القديس بروحه الطيبة وسياسته الحكيمة وادارته الرشيدة (٣) .

ثم توجه الى دير مار متى فاحتفل رهبان الدير ورئيسه بتنصيبه شرعياً لرئاسة ابرشيات المشرق حسب التقاليد القديمة المرعية في تنصيب المفارنة . وكانت حفلة التنصيب في الدير بالغة حد الروعة والابهة ، وبعد حفلة التنصيب في دير مار متى قفل راجعاً الى الموصل ليهتم بامور الرعية فيها فوجدها في حالة يرثى لها

---

١ ـ تاريخ كنيسة المشرق ـ مترجم
٢ ـ المصدر نفسه وابن العبري الشاعر
٣ ـ المصدر نفسه

من جراء الظروف القاسية التي مرت بها منذ اربع سنوات خلت فكانت سبباً في معظم نزوح أُسرها الى مدينة اربيل وتوطنهم فيها وبنائهم هناك كنيسة فخمة رغماً عن حالتهم المالية الضيقة ، وكان لقدوم هذا الراعي الصالح تأثير عظيم بتحسين حالة شعبه فقد طلب الى ذوي الأمر أن يخففوا عنهم فنجح في ذلك ونال حظوة معتبرة عند الجميع ويقول كاتب سيرته المنظومة : انه رفع رأسنا بعد ان أن كنا اذلاء ، ومنح المشرق الحكمة والعلم بعد ان كانت كنيسته صفراً من كل ذلك وصار تلامذته ملافنة (١) وعلماء في بلادنا ، ونشر الايمان بوعظه في مدننا وقرانا (٢)

كان في كنيسة المشرق إبان مجدها الاول اثنتا عشرة ابرشية تخضع بادارتها الروحية العليا لمفريان تكريت « العراق » وقد رتب هذه الابرشيات في القرن السادس المفريان ماروثا في مجمعه الاقليمي الذي جمعه في دير مار متى ، وحضره اساقفة المشرق الارثوذكسيون جميعاً ، ثم اضيف اليها ثلاث ابرشيات اخرى جديدة في عهد ماروثا نفسه وذلك في بلاد فارس ، على اثر نزوح جماعات كثيرة من الرهاويين الارثوذكس الى مقاطعتي سجستان وخورسان فبلغت ابرشيات المشرق الخاضعة للمفريان خمس عشرة ابرشية ، ماعدا ابرشيتي مار متى ونينوى بما فيها الموصل الخاضعتين مباشرة لمطران دير متى نفسه (٣) .

ظلت هذه الابرشيات بين مد وجزر حتى القرن الثالث عشر حيث ارتقى غريغوريوس ابن العبري كرسي مفريانية الشرق فوجد بين يديه عشر ابرشيات فقط ، ولكنها كانت عامرة بكنائسها واساقفتها وكهنتها وشعبها ، وقد

١ - ملافنة : علماء - اصلها سريانية
٢ - سيرته المنظومة بقلم جبرائيل البرطلي - بالسريانية
٣ - تاريخ كنيسة المشرق ، ترجمة المفريان ماروثا

فضلها المفريان ابن العبري نفسه علــى ابرشيات المغرب الخاضعة للبطريرك بقوله : انني اتمتع براحة كبرى في ابرشيات المشرق ولايعوزني شيء لكي اهرب منها وانتقل إلى غيرها كما فعل اسلافي المرحومون ، وان كان زماننا صعباً غير ان الراحة التى لاقتني في المشرق لم تلاق غيري .

اما هـــذه الابرشيات فهي : ـ ١ ـ مار متى ـ ٢ ـ وبيت صيدا ـ ٣ ـ بغداد ٤ ـ بانوهوار ـ ٥ اذربيجان ـ ٦ ـ تبريز ـ ٧ـ سنجـــار ـ ٨ ـ نصيبين ـ ٩ ـ الجزيرة ـ ديارربيعة ـ ١٠ ـ جزيرة ابن عمر ـ ١١ ـ اربيل

رحلاته الراعوية

لما كانت الابرشيات التي يدبرها المفريان ابن العبري كبيرة وواسعة فكان لابد له من تعهدها بيقظة وهمة عالية ، وقد قضى أيام رئاسته متنقلاً من بلد الى آخر يعظ ويرشد ويشجع ويبني الكنائس والاديرة ، ويؤيد المؤمنين في ايام كانت قاسية جداً ، ولكنه كان يضفي عليها حياة بعلمه وفضله وحظوته العظمى عند الملوك والامراء والحكام والعلماء والرؤساء ، واهم رحلاته الراعوية هي :

١ ـ الرحلة إلى بغداد : بعـــد ان نظم الامور في نينوى وابرشيات الموصل ودير مار متى ، ونصب رسميا في الدير التاريخي ـ رحل إلى بغداد سنة ١٢٦٥ لزيارة هذه الابرشية الهامة مركز الخلافة وموطن العلوم والادب، وهي لازالت متأثرة بجراحها بسبب الاهوال التي نزلت بها يوم اجتاحها المغول بخيلهم ورجلهم (١) .

فرحت بغداد بقدوم المفريان العلامة ، فابتهجت الكنيســة ورفعت رأسها لتباهي بهذا الرئيس الجهبذ وخرجت لتستقبله بابهة منقطعة النظير ، كما يليق بمثله

---

١ ـ ابن العبري الشاعر ـ ص ٢٨

من الرجال الكبار ـ وكان يتقدم المستقبلين الارخد ياقون (١) « رئيس الشمامسة »وطبقةصالحة من أشراف السريان البغداديين وبينهم وفد معتبر من اشراف النساطرة من قبل الجاثليق (٢) ما ر مكيخا (٣) يتقدمه ابن أخت الجاثليق وابن أخيه ، دخل هذا الموكب الفخم بالمفريان الضيف الى مكيخا الجاثليق فاستقبلته استقبالاً حاراً واعجب بمواهبه وشخصيته الفذة ثم ودعه وجاء الى الكنيسة السريانية الكائنة في باب موحول فاستقبله هناك جميع افـــراد شعبه بشوق واكبار وارسل الجاثليق في هذه الاثناء وفده ثانية الى الكنيسة يحمل للمفريان هديته التقليدية ، وهي حلة حريرية بيضاء فألبسوها المفريان ، فأرسل بدوره ايضاً هدايا سنية للجاثليق (٤) .

وصـــل المفريان بغداد في ايام الفصح فترأس الحفلات الدينية الرائعة في الكنيسة واضفى عليهـــا جلالاً وأبهة جديدين من شخصيته العظيمة وهيبته الرائعة : فتقاطرت جموع غفيرة لمشاهدة هذه الاحتفالات الدينية المؤثرة ، وبينهم كثيرون من النساطرة الذين لم ترق لهم هذه الامور كلها خوفاً من أن يطغى المفريان على جاثليقهم ولاسيما بعد ان شاهدوا ما كان عليه المفريان من الخصال العالية والمزايا الفريدة ، واخذ شعبه يعطيه حقه من المدح والاطراء اللائق بمنزلته العلمية السامية .

احتفل المفريان في خميس الفصح بتقديس الميرون (٥) في بغداد ، وحدثت

١ ـ الارخيد ياقرن كلمة يونانية تعني رئيس الشمامسة

٢ ـ الجاثليق : كلمة يونانية . مرتبة رئيس اساقفة النساطرة

٣ ـ : مارمكيخا : جاثليق النساطرة

٤ ـ ابن العبري الشاعر

٥ ـ الميرون : كلمة سريانية وتعني : الزيت المقدس

اعجوبة (١) باهرة على يده يذكرها التاريخ وهذا ما رفع منزلته في اعين شعبه وعند الغرباء الذين شاهدوا تلك الاعجوبة باعينهم فتحدثوا بها في المجالس والانديـــة .

وفي مدة قليلة حاز المفريان في اوساط بغداد مالم يحرزه غيره من الرؤساء السابقين حتى توجس النساطرة منه خوفاً ، فشرع الجاثليق في طرده من بغداد ، غير أن الجاثليق توفي في هذه الايام نفسها ١٢٦٥ ، قبل ان يستطيع ان يؤذي المفريان

الذي اضحى في بغداد النصف كله يتمتع بمنزلة رفيعة جداً عند الجميع ، فرسم هناك شمامسة كثيرين ثم عاد في الى نواحي نينوى .

٣ ـ رحلته إلى المغرب : وفي سنة ١٢٦٨ قام المفريان برحلة إلى سورية لزيارة اهله بعد أن رتب شؤون ابرشيته الواسعة .

وفي الطريق لقي البطريرك متوجهاً إلى ملك الملوك لتقديم شكاية على الطبيب القسيس شمعون الذي اغتصب دير مار برصوم (٢) ولكن المفريان لم يكن يرغب في هذه الطريقة وحاول ان لايقابل البطريرك وتبع رحلته ، وفي « سيس » « كيليكية » اصابه مرض خطير كاد يودي بحياته لولا رحمة الله فتلقى من البطريرك رسالة رقيقة يشكر الله على شفائه ، ولما ابل المفريان زار البطريرك في دير مار برصوم ، ثم غادر من هناك عائداً الى المشرق فحط رحاله في تبريز فمراغة ، وكان يشتغل بتفسير كتاب « اقليدس » ثم عـــاد الى نينوى .

وفي صيف عام ١٢٧٢ رحل المفريان ثانية إلى مراغة فبنى دار اسقفية

---

١ ـ هي فيضان الزيت في اثناء تقديسه كما يذكر التاريخ .

١ ـ دير مار برصوم : بالقرب من مدينة ملطية على جبل

ومصلى كبيراً في بيعتها الجديد ومكث فيها سنة كاملة يشتغل بتفسير كتاب « الجسطي » لبطلميوس .

وفي سنة ١٢٧٣ لبى طلب الطبيب القس شمعون وتوجه إلى كيليكية فصالح اسرة القس شمعون الطبيب مع البطريرك ، واصطحب معه القسيس شمعون الطبيب وشقيقه القس يعقوب والشماس نمرود ابن أخيهما ، وعربوناً لهذا الصلح رسمه البطريرك قسيساً ثم مطراناً لملطية وعادالمفريان إلى ملطية ثم نينوى محموداً سعيه .

وكانت رحلته الثانية الى بغداد سنة ١٢٧٧ للاشراف على تجديد الكنيسة التي كانت تبنى بهمة الرئيس « صفي الدولة سليمان بن جملا » (١) بالقرب من دار الخليفة ، وترأس ايضاً حفلات عيد القيامة في بغداد ، ورسم شمس الدولة بن توما شماسا ومعه كثيرين من ابناء الملـــة وقدس ميرونا في كنيسة مار توما الكاتدرائية في بغداد ورسم شمامسة ايضاً في كنيسة العذراء

ونال المفريان اكراماً لائقاً بمقامه الكبير من الجاثليق النسطوري ماردنحا، فقبل وصوله الى بغداد أُخبر رئيس الشمامسة بذلك فأخبره الاخد ياقون بدوره الجاثليق ، فارسل من قبله اساقفة واشرافاً من ابناء طائفته ، فذهبوا مع ابناء الكنيسة السريانية ووجوهها لاستقبال المفريان ولما زار الجاثليق في دار الجثلقة التفت الجاثليق الى الجمهور الغفير من السريان والنساطرة وأطرى المفريان وقال : طوبى للشعب الذي له مثل هذا (٢)

وبعد أن بقي في بغداد الصيف كله تركها متوجهاً الى مدينة تكريت ودخلها فيهذه السنة ١٢٧٨ بعد أن لم يدخلها مفريان منذ ست سنوات ، ففرح به

---

١ - وهو احد اعيان السريان في بغداد ، ووزير ؟

٢ - تاريخ كنيسة المشرق - سيرته -

اشراف تكريت وأعيانها وشعبها فوحاً لايوصف وزار كنائسها الاثرية الفخمة ومكث فيها شهرين يتعهد شؤون الكنيسة هناك ثم عاد إلى نينوى .

وفي سنة ١٢٧٩ رحل المفريان الى مدينة مراغة ليتعهد شؤون كنيستها الصغيرة ، وبعد مكوثه فيها مدة غادرها الى تبريز في أيام الربيع لانهاء بيعتها الجديدة ، وهناك بلغه نبأ وفاة الملك « اباقا » المغولي وجلوس ابنه على عرش المملكة ، فسافر اليه لتهنئته فادخله وزراء المملكة ،وبعد انقدم له آيات الدعاء نال منه براءة سامية تؤيد رئاسته على اذربيجان وآثور ومابين النهرين .

ثم عاد الى تبريز فاكمل بناء الكنيسة . ومـــن هناك عاد إلى نينوى في ايام الصيام الكبير سنة ١٢٨٤ .

<u>رحلته الاخيرة إلى مراغة</u> : في سنة ١٢٨٦ وهي السنة الستون لولادته كان يتخيل الموت يقترب اليه مسرعاً ، استناداً الى تكهنات علمية أبرزها امام اخيه الصفي ، وكان يتشاءم من هذه السنة كثيراً وكان يقول بيته المشهور : ياشبكة العالم في سنه ١٥٣٧ يونانية صادني شركك واظن اني في سنة ١٥٩٧ لن أكون موجوداً فيك (١) .

وكانت في هذهالسنة قدكثرت الغوائل والمصائب في ديار نينوى والمشرق ، وكثر اللصوص في المدن والقرى فأصر برصوم الصيفي على اخيه المفريان بالسفر الى مراغة وكان المفريان يأبى الرحيل غير انه اطاع رغبة أخيه وشد الرحال الى تبريز ثم مراغة وكانت هذه الرحلة خاتمة لحياة هذا الرجل العظيم ، ففي مدينة مراغة انهى المفريان العلامـــة رسالته وذهب الى ربه محموداً سعيه مشكوراً فضله .

---

١ ـ السنتان يونانيتان والسنة اليونانية تبدأ عام ٣١١ ق . م

اساقفتـــه :

منذ ان وصل المفريان الهمام ارض المشرق صرف كل همته في ملء جميع الشواغر بالاساقفة والكهنة والشمامسة فرسم لابرشياته الواسعة عدداً لايحصى من الكهنة والشمامسة بجميع درجاتهم(١) ثم عاد الى هذه الابرشيات فملأ كراسيها الشاغرة بالاساقفة الاكفياء وكان ينتخبهم من افضل الرهبان واقدسهم وأوسعهم علماً وابعدهم صيتاً في المقـدرة وفي المواهب الروحية (٢)، وقـــد رسم اثني عشر اسقفاً لتلك الابرشيات . وهم :

١ ــ اثناسيوس بهنام ابن سمانة ـ لابرشية بانوهورا ١٢٦٥

٢ ــ طيمثاوس يشوع لابرشية بغداد ـ ١٢٦٥

٣ ــ ايونيس دنحا بن حمزة ـ لابرشية اذربيجان ـ ١٢٦٥

٤ ــ يوحنا وهب ـ رسمه سنه ١٢٦٦ لابرشية جزيرة ابن عمر

٥ ــ سويريوس يشوع ، لابرشية اذربيجان ـ وتوفي عام ١٢٧٧

٦ ــ ديونيسيوس يوسف ـ وخلف خاله الاسقف سويريوس على ابرشية اذربيجان

٧ ــ ميخائيل مخلص ـ لابرشية بارمان ـ وهي البوازيج

٨ ــ باسيليوس ابراهيم لابرشية بيت صيدا ـ القريبة من اربيل

٩ ــ ايونيس نعمه رسمه لابرشية باعربايا

١٠ ــ يوحنا دنحا ـ رسمـــه اسقفاً لابرشية دير مــــار سرجيس في الجبل المطشان (القاحل) .

١١ ــ ايونيس ايوب الملفان ـ رسم سنة ١٢٨٥ لابرشية بانوهورا

---

١ ـ سيرته المنظومة

٢ ـ اللؤلؤ المنثور

١٢ ـ ديوسقورس جبرائيل البرطلي : رقاه المفريان الى رتبة الاسقفية - مكافأة لفضيلته وعلمه وتقواه ـ لابرشية جزيرة ابن عمر وكان شاعراً وقد نظم سيرة استاذه المفريان شعراً ، وهي احدى مصادر هذا المقال .

علاقاته بالبطريركية :

كانت علاقاته بالبطريركية مثل كل المفارنـــة الذين سبقوه وكانت البطريركية ترعى جانبه اكثر من الجميع لما كان له من المنزلة العليا في الكنيسة عامة ، وكان غالباً مايبدي لها النصح والارشاد في تسيير دفة الامور وكانت آراؤه في هذا المضمار صائبة جداً . كما حدث بينه وبين البطريرك يشوع ، ولما توفي هذا البطريرك اقام بعض الاساقفة فيلكسينوس نمرود بطريركا بتأثير عمه القس يعقوب الآنف الذكر سنه ١٢٨٣ ـ كادت الكنيسة تتخلى عن البطريرك الجديـــد لمخالفته القوانين المرعية في رسامات البطاركة ، وحاول البطريرك استمالة المفريان اليه بشتى الوسائل ولكنه ابى وبعد محاولات اخرى من القس شمعون الطبيب وهو عم البطريرك نمرود ، زاره تلميذه تاج الدولة ابن القس شمعون وكان يحبه وطلب اليه الاعتراف بالبطريرك نمرود ، فلم يشأ المفريان ان يعيد تلميذه خائباً بل نزل عند رغبته وكتب رسالة مطولة الى البطريرك يعترف به بعد ان أنبه على تسرعه بالجلوس على الكرسي البطريركي بدون اجماع الاساقفة والمفريان .

اعماله العمرانية :

كان عهد المفريان الهمام نشاطاً متواصلا ، وعملا دؤوباً في خدمة الكنيسة والتفكير بمصالحها وحاجاتها ، ولم يكن محباً للمال بل كان يستخدمه لخير رعيته ، حدثنا أخوه الصيفي عنه قال : اني لم اره أربعين سنة يتناول درهما او فلساً بيده . ولما كان يقدم المؤمنون له شيئاً للبركة كانوا يلحون عليه أن يأخذ بيده فيأبى فيضعون

امامه - فيبقى هناك حتى يأتي أحد تلاميذه فيأخذه وكان بعضهم قد اعتاد وضع المال تحت فراشه عند تقبيل يديه ، وعند انتقاله من محل إلى آخر كانوا يجدون تحت الفراش ربطات كثيرة من المال ، ولما كان يجتمع لديه شيء كان يفكر في طريقة مفيدة ينفقه فيها (١) .

وقد قام باعمال عمرانية كثيرة افادت كنيسته فوائد كثيرة اهمها :

أنه بنى كنيسة في مراغة ، وأقام بجانبها غرفاً كثيرة وانفق عليها من جيبه الخاص ، كما اهتم بتوسيع كنيسة تبريز وملحقاتها . ودير مار يوحنا في برطلي - (الموصل) وزين الكنيسة الجديدة وبذل في سبيلها جهوداً كبيرة من اموال والقاب .

كنيسة العذراء في بغداد التي جددت بهمته وهي الكائنة يومئذ بالقرب من دار الخلافه عام ١٢٧٤ بالاشتراك مع الوزير صفي الدولة سليمان بن جملا - أحد اعيان السريان في بغداد .

وفاتـــه :

كان عام ١٢٨٦ عاماً قاسياً فقد اختل فيه حبل الامن وكثر اللصوص وتكررت الغارات ، وفقد الأمن فخاف الصيفي برصوم على أخيه المفريان واقنعه بضرورة السفر إلى اذربيجان بينما كان هو يمانع بغية البقاء بين شعبه الذين احبهم واحبوه ليلقى ربه بين ظهرانيهم ولكنه استسلم إلى رغبة اخيه ورحل إلى إذربيجان وحط رحاله في مراغة . فطلب اليه فضلاء المسلمين ان يعرب تاريخه السرياني المدني لفائدتهم ففعل واتى عليه خلال شهر واحد فألبسه حلة قشيبة مـــن العربية ، وسماها « تاريخ مختصر الدول » .

---

١ - ذيل التاريخ الكنسي بقلم اخيه برصوم الصيفي

وفي ليلة السبت ٢٨ تموز من عام ١٢٨٦ شعر بحمى خفيفة تتغلغل بين مفاصله ، ثم زاد عليه لهيبها في أواخر الليل ، وفي صباح الاحد تألب حوله اطباء البلدة واشاروا عليه بشرب الدواء فأبى وقال ، قد اعيا الداء عن الدواء والساعة الرهيبة قد دنت ـ وقبل ان تغيب شمس هذا النهار كانت شمس حياة هذا الفيلسوف الكبير والاب البار القديس تتسارع نحو المغيب فشعر الرجل العظيم بدنو الساعة وطلب قلماً ليكتب وصيته الاخيرة غير ان انامله الطاهرة التي خطت الحكمة و الفلسفة من بشرية وروحية لم تستطع كتابة كلمة واحدة . فشعر الجميع بالخطب الجلل ـ واطلقوا العنان لدموعهم ، ولكن المفريان القديس كان يشجعهم ويقول تشجعوا ولاتحزنوا اكثر من الواجب فالموت ليس جديداً في العالم ، ثم دعا احـــد تلاميذه واشار اليه ليكتب وصيته فشرع يقول والتلميذ يكتب :

« الانسان مثل العشب ايامه كزهر الحقل هكذا تزهر مز ١٠٣ ـ وبعد ان انهى وصيته ، ثم ادى الاعتراف القانوني واوصى اخاه بتدبير قلايته (١) وسلمه محتوياتها . ثم نظر الى تلاميذه بابتسامة هادئة . وقال لهم : اوصيكم ان يحب بعضكم بعضاً . فالمحبة ياأبنائي رباط السلام ، سأغادركم الى دار الخلود واحظى برؤية الرب وادعو لاجلكم . وهكذ انطفأ مصباحة الوهاج في ٣٠ تموز عام ١٢٨٦ ريعت مراغة بالخطب الجلل وبكته جميع الملل والنحل في تلك المدينة وتتالت الجموع الغفيرة لتنال بركته يتقدمهم الجاثليق يابالاها ـ وبعد ان صلى عليه جميع الكهنة واحتفلوا بدفنه احتفالا مهيباً وضع في مذبح كنيستنا الصغيرة الذي كان يصلي فيه ويقدس كلما حضر الى مراغة ـ واصدر يابالاها الجاثليق اوامره الى جميع مسيحيي مراغة ان يمتنعوا عن العمل ويلبسوا الحداد على ركن النصرانية ونورها الساطع (٢) .

---

١ ـ غرفته الخاصة ٢ ـ تاريخ كنيسة المشرق سيرته

منزلته ومؤلفاته :

لقد حاز المفريان منزلة سامية عند الملوك والامراء والرؤساء والعلماء ، وجماهير الشعب لزهده وترفعه عن المادة وعلومه الغزيرة ومعارفه الواسعة ، وقد اطلق عليه العلماء ونعتوه بدائرة معارف القرن الثالث عشر ، وقد ترك لنا ذخيرة روحية عظيمة من كتاباته وتآليفه القيمة التي أربت على خمسة وثلاثين كتاباً في شتى العلوم :

وهي في تفسير كتاب الله ، «مخزن الاسرار ، اللاهوت ، « منارة الاقداس والفلسفة والطبيعيات وماوراء الطبيعة والفقه والشرع « كتاب الهدايات » والاخلاق « الايثقون » واللغة ـ كتاب اللمع ـ والارجوزة النحوية « مدخل النحو » قال المستشرق الاميركي مارتان سبرنكلن : «ان ابن العبري اكبر كاتب في تاريخ الادب السرياني باجمعه فضلا عن كونه من اعلم رجال عصره بأسره وقد سخر لكتاب الله العزيز علمه بأسره في « مخزن الاسرار » وكل من اللاهوتي والمؤرخ والباحث في علم الانسان وفي النفس والفيلسوف يجد ذخراً لابحاثه في هذا المصنف الجامع الذي دبجه رجل القرن الثالث عشر (١) وقد ألف كتباً في الطب ـ وترجم كتاب الاشارات والتنبيهات لابن سينا الى السريانية .

أما في التاريخ فقدألف اربعة مجلدات ، اثنان منها في التاريخ الكنسي يشمل المجلد الاول تاريخ بطاركة انطاكية من عهد مار بطرس الرسول حتى أيامه ـ وثانيها تاريخ جثالقة المشرق ومفارنته من أيام القديس توما الرسول وختمه بترجمة مسهبة لنفسه إلى سنة وفاته اكمله اخوه الصيفي .

تاريخ الزمان : من اول الخليقة حتى سنة ١٢٨٥ ضمنه تاريخ العالم والدول

---

١ ـ مقدمة الكتاب بالانكليزية . في ليبغ ـ

والعلماء بغاية مايكون من من الضبط والدقة . طبعه الاب بيحان ١٨٩٠ (١)

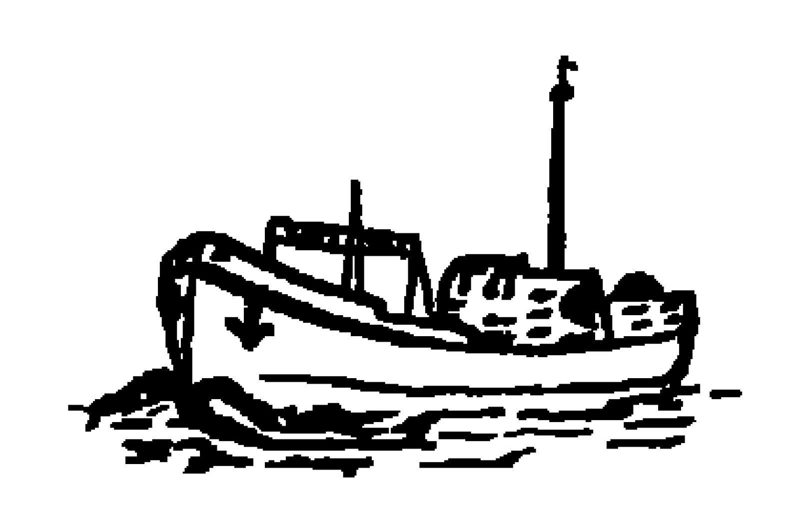
ثم تاريخ مختصر الدول : وهو تاريخ الزمان نقله بتصرف من السريانية إلى العربية قبيل وفاته اجابة إلى رغائب بعض علماء المسلمين في مراغة وانجزه الاثلاث صفحات في مدة شهر واحد .

وضمنه فوائد تتعلق بعلماء العرب المسلمين نقلاً عن تواريخ عربية أورد بعضها بنصها وفصها ، وبحث في دول الاولياء الاولين وقضاة بني اسرائيل وملوكهم وملوك الكلدانيين والفرس واليونان والافرنج والرومان واليونانيين المتنصرين والعرب والمغول وصفحاته ٥٢٢ طبع في بيروت ، سنة ١٨٩٠ -

وله ديوان شعر نفيس يحوي غرر القصائد في الحكم والمدح والتقريع والفلسفة والمحبة الالهية ، والكمال الروحاني ، نشر في القدس عام ١٩٢٩ -

وكان ابن العبري يتقن اللغات السريانية والعربية واليونانية والفارسية والارمنية .

قال في حقه البطريرك افرام برصوم بعد ترجمة ضافية : ويلذ لك في امهات مصنفاته الفواتح المبتدعة والديباجات المشرقة التي تحمل القارىء على مطالعتها مشغوفاً بكلام حلق في أعلى سماء البلاغة ، وكلما غاص في بحر الكتاب وقعت يده على درة يتيمة ولؤلؤة نفيسة وطرفة نادرة وانتهى باحناء هامته اجلالاً لامير الكتاب وملك العارفين واشهر علماء السريان على الاطلاق (١)



---

١ - اللؤلؤ المنثور ص ٤٢٠

وصف كتاب تاريخ مختصر الدول
ومقتطفات تاريخية منه

كتاب ضخم يشمل ٥٢٢ صفحة، طبع في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٨٩٠م وقد سبق لبعض المستشرقين ان طبعوه في أوروبا ونقلوه إلى اللغات الاجنبية، أضاف اليه الطابع مقدمة ثم ترجمة للمؤلف لاتخلو من أخطاء بالنسبة إلى اعتقاد ابن العبري في تجسد السيد المسيح - وأضاف في نهاية الكتاب جدولاً بأسماء الاعلام التي وردت في متن الكتاب وايضاحات اخرى .

وكما قلنا فقد نقل المؤلف العظيم كتابه هذا من السريانية إلى العربية بانشاء على جانب من البلاغة والتهذيب، وضمنه اموراً كثيرة لاتوجد في المطول السرياني ولاسيما فيما يتعلق بدولتي الاسلام والمغول وتراجم العلماء والاطباء، فإنه افرد لهم فصولاً خاصة فيها حوادث نادرة ونوادر ممتعة .

بحث المؤرخ الكبير في تواريخ الدول المتداولة الثانية بحسب تقسيمه فجاءت بمائة وسبع وخمسين صفحة اما بقية الكتاب فقد ضمنه اخبار دولة العرب المسلمين ودولة ملوك المغول، حتى سنة وفاته ١٢٨٦، الامر الذي يدل على تبسطه في إيراد اخبار الدول العربية التي تعاقبت منذ الخلفاء الراشـــدين ثم الامويين فالعباسيين ثم المغول، وقد بلغت صفحاته ٣٦٥ صفحة .

يبتدىء المؤلف العلامة مقدمته بعد الحمد له بقوله :

وبعد فهذا مختصر في الدول قصدت في اختصاره الاقتصار عـلى بعض ماأوتي في ذكره اقتصاص احدى فائدتي الترغيب والترهيب من امــــور الحكام

والحكماء غيرها وشرها على سبيل الالتقاط من الكتب الموضوعة في هذا الفن بلغات مختلفة سريانية وعربية وغيرها مبتدئاً من اول الخليقة ومنتهياً إلى زماننا (١٢٨٦ م)وهو مرتب على عشر دول داولها الله تعالى بين الامم فتداولتها تداولا بعد تداول .

الدولة الاولى : دولة الاولياء من آدم أول البرنساء (١) أي الناس .

الدولة الثانية : الدولة المنتقلة من الاولياء إلى القضاة ، قضاة بنى اسرائيل .

الدولة الثالثة : الدولة المنتقلة من قضاة بني اسرائيل إلى ملوكهم .

الدولة الرابعة : الدولة المنتقلة من ملوك بني اسرائيل إلى ملوك الكلدانيين .

الدولة الخامسة : الدولة المنتقلة من ملوك الكلدانيين إلى ملوك المجوس .

الدولة السادسة : الدولة المنتقلة من ملوك المجوس إلى ملوك اليونانيين الوثنيين .

الدولة السابعة : الدولة المنتقلة من ملوك اليونانيين الوثنيين إلى ملوك الافرنج (٢)

الدولة الثامنة : الدولة المنتقلة من ملوك الافرنج إلى ملوك اليونانيين المتنصرين .

الدولة التاسعة : الدولة المنتقلة من ملوك اليونانيين المتنصرين إلى ملوك العرب المسلمين .

الدولة العاشرة : الدولة المنتقلة من ملوك العرب المسلمين إلى ملوك المغول .

وإليك بعض مقتطفات مما جاء في فصول الكتاب :

الدولة الاولى ص ٤

للاولياء قبل الدخول الى ارض الميعاد

قال من عني بأخبار الامم وبحث عن سير الاجيال : ان اصول الامم في سالف الدهر سبعة : الفرس والكلدانيون واليونانيون والقبط والترك والهند والصين ،

---

١ ـ برنساء معربة عن كلمة برنوشو السريانية ومعناها الانسان .

٢ ـ يريد بملوك الافرنج ـ ملوك الرومانيين .

ثم تفرعت كل واحدة من هذه الامم إلى امم وتشعبت اللغات وتباينت الاديان ، وكانوا جميعاً صابئة يعبدون الاصنام تمثيلا للجواهر العلوية والاشخاص الفلكية وهم على كثرة فرقهم وتخالف مذاهبهم طبقتان : طبقة عنيت بالعلوم كالكلدانيين والفرس وسائر من يأتي ذكره في موضعه ، وطبقة لم تمن بهذا كأهل الصين والترك والصقالبة والبرابر والحبشة ومن اتصل بهم . امـــا الصين فأكثر الامم عدداً وأفخمهم مملكة وأوسعهم دياراً ، ومساكنهم محيطة باقصى مشارق المعمورة مابين خط الاستواء الى أقصى الاقاليم السبعة في الشمال، وحظهم من المعرفه التي بزوا فيها سائر الامم إتقان الصنائع العملية واحكام المهن التصويرية العملية، واما الترك كثيرة العدد ايضاً فخمة المملكة وفضيلتهم التي برعوا فيها معاناة الحروب ومعالجة آلاتها ، فهم احذق الناس بالفروسية وابصرهم بالطعن والضرب والرماية ، وأما سائر هذه الطبقة التي لم تعن بالعلوم فهم اشبه بالبهائم منهم بالناس ، لان من كان موغلا في الشمال فإفراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برد امزجتهم وفجج اخلاطهم فعظمت ابدانهم وابيضت الوانهم واسدلت شعورهم فعدموا بهذا دقة الافهام وثقوب الخواطر فغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم الغي والغباوة كالصقالبة ومجاوريهم . ومن كان منهم قريباً من معدل النهار وخلفه إلى نهاية المعمورة في الجنوب لطول مقاربة الشمس رؤوسهم ، سخنت امزجتهم واحترقت اخلاطهم فاسودت الوانهم وتفلفلت شعورهم فعدمـــوا بهذا الاناة وثبوت البصائر كالحبشة وباقي السودان الا الهند ، فان الله فضلهم على كثير من السمر والبيض وهم معدن الحكمة وينبوع العـــدل الا انهم يثبتون أزال العالم ويبطلون النبوات ويحرمون ذبح الحيوان ويمنعون ايلامـــه . وجاء في صفحة ٢٠٧ مايلي :

« أبو جعفر المنصور » هو عبد الله بن محمد الامام بن علي بن عبد الله بن العباس ، بويع له سنة سبع وثلاثين ومائة .وفي هذه السنة قتل ابو مسلم الخراساني ، قتله المنصور بسبب انهما حجاماً في أيام السفاح وكان ابو مسلم يكسو الاعراب ويصلح الآبار والطرق ، وكان الذكر له ، فحقد ابو جعفر ذلك عليه . ولما صدر الناس عن الموسم تقدم ابو مسلم في الطريق على أبي جعفر فأتاه خبر وفـــاة السفاح فكتب إلى أبي جعفر يعزيه عن أخيه ولم يهنه بالخلافة ولم يقم حتى يلحقه ولم يرجع اليه ، فخافه ابو جعفر المنصور واجمع الرأي وعمل المكايد وهجر النوم الى ان اقتنصه ثم يورد خبر مقتل ابي مسلم الخراساني .

الى ان يأتي على ذكر بناء بغداد فيقول :

وفي سنة خمس واربعين ومائة ابتدأ المنصور في بناء عمارة مدينة بغداد وسبب ذلك انه كان قد ابتنى الهاشمية بنواحي الكوفة . فلما ثارت الراوندية فيها ، كره سكانها ، لذلك ولجوار اهل الكوفة أيضاً فإنه كان لايأمن اهلها على نفسه وكانوا قد افسدوا جنده . فخرج بنفسه يرتاد موضعاً يسكنه هو وجنده فقال له اهل الحذق إنا نرى ياأمير المؤمنين أن يكون على الصراة (١) ، وبين انهار لايصل اليك عدوك الا على جسر فإذا قطته لم يصل اليك ، وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد ، ودجلة والفرات والصراة خنادق مدينتك . وتجيئك الميرة فيها من البر والبحر فازداد ، المنصور حرصاً على النزول في ذلك الموضع ولما عزم على بناء بغداد امر بنقض المدائن وايوان كسرى ، ونقله إلى بغداد فنقضت ناحية من القصر الابيض وحمل نقضه ، فنظر وكان مقدار مايلزمهم له اكثر من ثمن الجديد ، فأعرض عن الهدم .

١ ـ قال ياقوت : الصراة نهر . . .

وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس اقرب الى السلطان من بعض ، وعمل لها سورين الداخل اعلى من الخارج ، وبنى قصره في وسطها والمسجد الجامع بجانب القصر وقبلته غير مستقيمة يحتاج المصلي ان ينحرف باب البصرة ، وكانت الاسواق في مدينته فجاءه رسول لملك الروم فأمر الربيع فطاف به في المدينة ، فقال : كيف؟ قال : رأيت بناء حسناً الأأني رأيت اعداءك معكوهم السوقة فلما عاد الرسول عنه امر باخراجهم إلى ناحية الكرخ وأمر ان يجعل في كل ربع من مدينته بقال يبيع البقل والخل . . . .

ومما يدل على ان مؤرخنا المدقق قد تناول الاخبار التي ضمنها كتابه هذا ، من مصادر ثقة يعول عليها ويركن اليها ، ماجاء في صفحة ٢٣٥ من الكتاب نفسه

« فصل »

قال القاضي صاعد بن احمد الاندلسي ان العرب في صدر الاسلام لم تعن بشيء من العلوم الا بلغتها ومعرفة احكام شريعتها حاشا صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً اليها ، فهذه كانت حال العرب في الدولة الأموية ، فلما أدال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك اليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من ميتتها ، وكان أول من عني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور ، وكان مع براعته في الفقه كلفا بعلم الفلسفة وخاصة بعلم النجوم . ثم لما افضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد تمم مابدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه ماحضرهم فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت له على غاية ماأمكن . ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم

في تعليمها ، فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده لانهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يرغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس في دقة الصنائع العملية والتباهي باخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى الشهوانية اذ علموا ان البهائم تشركهم فيها وتفضلهم في كثير منها . أما في احكام الصنعة فكالنحل المحكمـــة لتسديس مخازن قوتها ، واما في الجرأة فكالاسدوغيره من السباع لايتعاطى الانسان اقدامها ولايدعي بسالتها . وأما في الشبق كالخنزير وغيره مما لاحاجة الى ابانته . فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر واوحشت الدنيا لفقدهم . فمن المنجمين في ايام المأمون حبش الحاسب المروزي الاصل البغدادي الدار ، وله ثلاثة ازياج . . . .

ومنهم احمد بن كثير الفرغاني صاحب المدخل إلى علم هيئة الافلاك يحتوي على جوامع كتاب بطلميوس باعذب لفظ وابين عبارة ، ... إلى ان يقول : ومن الحكماء يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون كان اميناً على ترجمة الكتب الحكمية حسن التأدية للمعاني . . . وكانت الفلسفة اغلب عليه من الطب . ومن الاطباء سهيل بن سابور ويعرف بالكوسج ، . . وتقدم في الطب في أيام المأمون وكان اذا اجتمع مع يوحنا ابن ماسويه وجيورجيوس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفوري قصر عنهم في العبارة ولم يقصر عنهم في العلاج . . . .

إلى ان يقول : ومن اطباء المأمون جبريل الكحال وكانت وظيفته في كل شهر الف درهم وكان اول من يدخل اليه كل يوم . . . .

ومن هذه الصفحات القليلة يمكن القارىء أن يطلع على الجهود الكبيرة والاتعاب الجسيمة التي كابدها مؤرخنا الكبير في تأليف الكتاب وترجمته والتقاط الاخبار الثابته من اصدق مظانها ، فيقدر له ابحاثه التاريخية ودقته في هذا المصنف الثمين.

المراجع :

١ تاريخ كنيسة المشرق لابن العبري بالسريانية الجزءان ١ و ٢

٢ ـ سيرته المنظومة للمطران جبرائيل البرطلي بالسريانية

٣ ـ تاريخ البطاركة بالسرياني لابن العبري

٤ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري

٥ ـ اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والاداب السريانية للبطريرك افرام برصوم

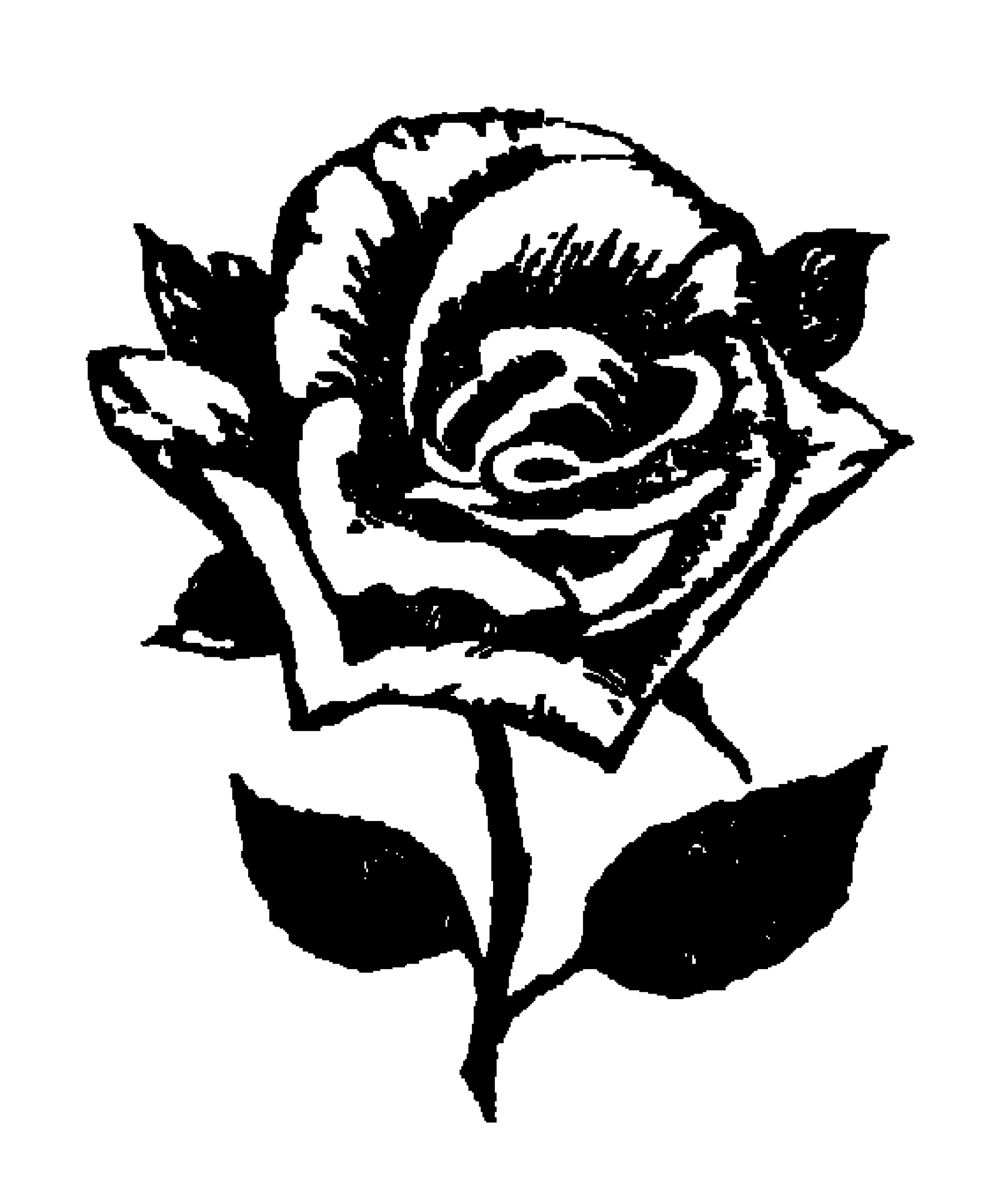
٦ ـ كتاب الحمامة ـ لابن العبري ـ طبعة دولياني ـ

٧ ـ ابن العبري الشاعر : للمطران بولس بهنام . .

٨ ـ ديوان ابن العبري بالسريانية طبعة دير ماروقس بالقدس .

٩ ـ كتاب الايثيقون ـ لابن العبري ـ ترجمة المطران بولس بهنام ١٩٦٦

١٠ ـ الحقائق الجلية ـ في الابحاث التاريخية ـ للبطريرك يعقوب الثالث



رجال الفتوح

السمح بن مالك الخولاني
وعنبسة بن سحيم الكلبي

الاستاذ محمد كمال الطفي

بعد أن فتح العرب إفريقيا ورسخوا أقدامهم فيها ، فكروا في عبور بحر الزقاق الفاصل بين أفريقيا وأوربا سنة ٩١ هـ ٧١٠ م فأرسلوا سرية مؤلفة من أربعمائة فارس بقيادة فارس عربي أبو زرعة طريف بن ملوك حيث نزلوا في جزيرة صغيرة تسمي بالوماس على مقربة من المكان الذي سيحمل اسم بلدة طريف وعادوا محملين بالغنائم الكثيرة .

في ربيع عام ٩٢ هـ ٧١١ عبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد المضيق بين المغرب واسبانيا ونزلوا في اطراف الجبل الذي سمي فيما بعد باسم جبل طارق ، حيث تقدموا في البلاد بعد عدة انتصارات باهرة . لحق موسى بن نصير والي افريقيا مدعماً بالنجدات والرجال بعد ان امر طارقاً بالتريث حتى يقدم . . .

سار موسى بن نصير بطريق غير التي سلكها طارق حيث التقيا في وادي

الأوركامبو في مكان يسمى المعرض بين ماردة وطليطلة (١) ، ثم تابع الاثنان سيرهما بقيادة موسى عبر جبال البرت الى بلاد الغال (٢) التي يطلق عليها العرب اسم الارض الكبيرة (٣) .

يذكر المقري في كتابه نفح الطيب ان هدف موسى من التقدم في بلاد الغال هو ربط بلاد الفرنج بالشام عن طريق البر . . . كان ذلك سنة ٩٥ هـ ٧١٤ م إذ احتل أربونه وانطلق من هناك في حملة خفقة على أفينيون ووادي الرون الأعلى (٤) .

ويذهب بعض المؤرخين إلى ان موسى وطارقاً استوليا على برشلونة ثم عبرا جبال البرت وفتحا أبورنة وأفينيون وواصلا التقدم حتى بلغا ليون الا ان الدكتور حسين مؤنس في كتابه فجر الاندلس يقول : « ليس بين ايدينا دليل واحد يؤيد مثل هذا الزعم » .

خشي الخليفة الوليد بن عبد الملك ان يغتر موسى بنصره فيدفع بالمسلمين في أرض واسعة مجهولة فاستدعاه وطارقاً إلى دمشق ، فلاطف موسى مبعوث الخليفة الوليد مغيثاً الرومي وسأله إنظاره حتى يتم فتح الاندلس على ان يكون شريكه في الاجر والغنيمة فمشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو وحصن لك فاقام هناك وبعث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي . . . وبينا موسى كذلك قدم رسول آخر من الخليفة يتعجله في القدوم الى دمشق . . . فترك موسى مدينة لك وخرج الى الفج المعروفة باسم فج موسى ، ووافاه طارق في الطريق

---

١ ـ فجر الاندلس . د . حسين مؤنس ص ٩٨

٢ ـ بلاد الغال : فرنسا

٣ ـ نفح الطيب : المقري

٤ ـ الاسلام في الغرب : جان‌بول رو ـ مترجم ص ٤٧

منصرفاً من الثغر الاعلى فأقفله معه مع الرسولين واحتلوا اشبيلياء فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امارة الاندلس سنة ٩٥ هـ ٧١٤ م . اتخذ عبد العزيز من مدينة اشبيليا عاصمة للامارة وتابع سيرة والده في الفتح واستطاع اخضاع جنوب شرقي شبه الجزيرة الاندلسية حتى اقليم مرسية الذي كان يحكمه اميرقوطي اسمه تدمير فصالحه على دفع الجزية وتقديم المعونة للعرب المسلمين والصدق والنصح . . . اما في المنطقة الغربية فقد احتل لبلة وبايرة حتى قلمرية .

خلف عبد العزيز بعد مقتله أيوب بن حبيب الذي تابع سيرة خلفه بالغزو خلال ولايته القصيرة التي دامت شهوراً . . . وفي ذي الحجة عام ٩٧هـ ٧١٦ م تولى الحر بن عبد الرحمن الثقفي الولاية وكان ذا نشاط ملحوظ في متابعة الغزو في غالة وماوراء البرت إلا انه لم يظهر كفاءة عالية في تدبير أمور الولاية إذ كانت البلاد في حاجة إلى شخص قدير يرتب أمورها ويضع اسس الادارة العربية فيها .

كانت ولاية الاندلس مرجعها القيروان في افريقية ، وولاية افريقية مرجعها دار الخلافة في دمشق ، فلم يكن من الممكن في سلطة موزعة هذا التوزع أن يستقر فيها النظام وأن تقيم على الطاعة رجالا نشؤوا في ظلال السيوف . . . إضافة الى النزاع الذي وقع بين العرب والبربر وبين المسلمين وغير المسلمين بسبب أراضي المسيحيين التي دخلت في حوزة الفاتحين وقد صارت إلى عدد من ذوي الاطماع ، حيث حرم عدد كثير من المستحقين للفيء هذا إذا استثنينا النعرات العصبية بين القيسيين واليمنيين . . . كل ذلك أدى الى القتال بين الاطراف إذ سالت الدماء ومشت الصفوف بعضها الى بعض (١) .

---

١ ـ تاريخ غزوات العرب ، شكيب ارسلان ص ٧٠

تولى الخلافة الاموية في دمشق عمر بن عبد العزيز المتميز بالتقوى و الفضل والعكوف على رضى الله وطاعته والتقرب اليه بخدمة الاسلام والمسلمين ومن يساكنهم في دولتهم (١) . . . وقد وجد نفسه بعد سنة ونصف من ولايته يتفرغ لأمور الاندلس حيث كان أمامه أمران اثنان . اما اخلاء الاندلس أو تنظيمها واعمارها . . . فاختار للولاية الجديدة رجلا من أفاضل عرب إفريقية وهو السمح بن مالك الخولاني وأمره ان و يحمل الناس على طريق الحق ولايعدل بهم عن منهج الرفق وان يخمس ماغلب عليه من ارضها وعقارها ويكتب اليه بصفة الاندلس وانهارها (٢) وعين الى جانبه رجلاً يقال له جابر لتنظيم شؤون خراج الولاية ، وكان ذلك سنة ١٠٠ هـ ٧١٩ م . . .

كان السمح مدبراً ، حكيماً مقاتلاً باسلاً ،وسائساً حازماً ذا دراية ادارية واسعة فأصلح الامور ، ورمم الثغور ، ورتق الفتوق ، ووازن بين الدخل والخرج ، وانصف الجند في الاعطيات ووزع على المجاهدين جانباً من الاراضي ، وعهد بما بقي منها إلى وكلاء من ذوي الامانة ورد ريعها إلى بيت المال .

كان الخليفة قد طلب من السمح أن يقدم له بياناً عن البلاد المفتوحة وما فيها من النفوس والجبايات ليبرم فيها رأياً . . . فقد كان شديد الخوف على المسلمين ، حيث هاله بقاء ذلك العدد الكبير من أبناء البلاد الاصليين . . ففكر في إجلاء مسيحيي اسبانيا وجنوبي فرنسا الى افريقية حيث لايكون من وجودهم تهلكة على الدولة ، إلا أن السمح طمأن الخليفة وأرسل اليه أن الاسلام ينمو وينتشر وتمتد شماريخه بسرعة في الاندلس ، وأنه لايبعد اليوم الذي تصير فيه

---

١ ـ التاريخ الاندلسي : عبد الرحمن علي الحجي ص ١٨٩

٢ ـ البيان المغرب : ابن العذاري ج٢ ص ٢٦

تلك البلاد بأجمعها تابعة لدين محمد (١) .

اتخذ السمح قرطبة عاصمة لولايته ، وعمل جاهداً على تحسينها واعمارها ، فترك فيها عملاً خالداً هو بناء القنطرة على نهر الوادي الكبير . . . فعندما فتح العرب قرطبة وجدوا فيها فيها آثار قنطرة فوق نهرها من تأسيس الامم الغابرة قد هدمتها مدود النهر على مر الازمان ، فاستأذن السمح الخليفة لاعادة بنائها فورده جواب الخليفة عام ١٠١ هـ يأمره ببناء القنطرة بصخور السور وبناء السور باللبن ، ثم عمل السمح على اخراج خمس قـرطبة ، فخرج من الخمس البطحاء المعروفة بالربض فاتخذها مقبرة للمسلمين بناء على أمر الخليفة . . .

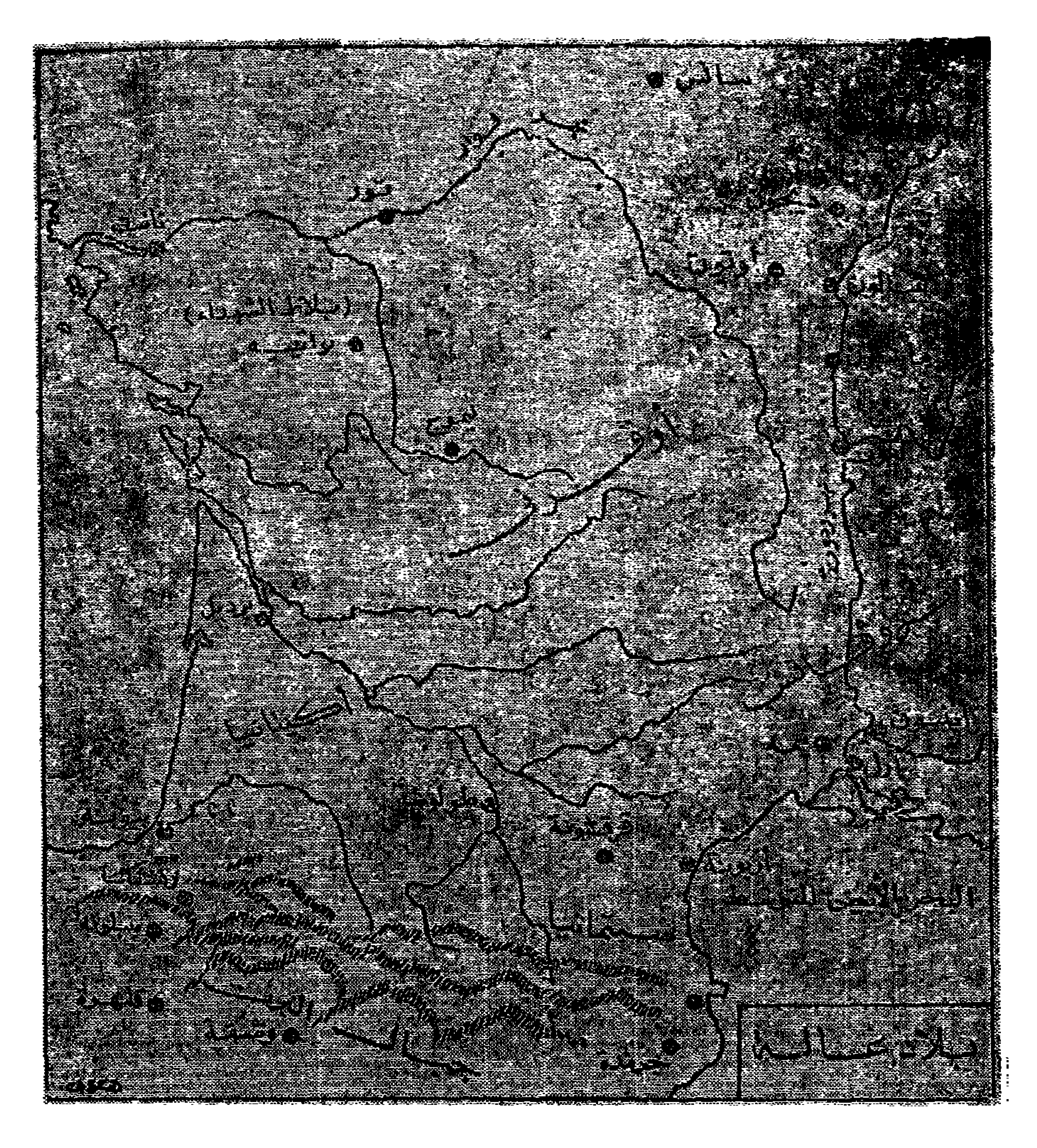
استقرت الامـور في الاندلس ، فأعمل السمح همته في الجهاد ليستأنف المسلمون اندفاعتهم الاولى وليجددوا من عزائمهم ففي سنة ١٠٢ هـ ٧٢١ م ، وفي خلافة يزيد بن عبد الملك عمل السمح على تحقيق الفكرة التي دارت في رأس موسى بن نصير من قبل وهي ان يصل الى بلاد الشام عن طريق أوربا . . . . فاجتاز بجيشه جبال البرت وفتح اقليم سبتمانية ، وهي منطقة ساحلية تمتد من البرت غرباً الى مصب نهر الرون شرقاً ، وتتصل بما يعرف اليوم باسم الرفييرا الايطالية وهي تطل عـلى البحر الابيض جنوبي فرنسا ، وعرفت بهذا الاسم لاشتمالها على سبعة أقسام ادارية ، كذلك عرفت هـذه المنطقة باسم جوثيا نسبة إلى القوط ، إذ كانت من بقايا مملكة القوط الغربيين ، وكان يتحكم فيها يومئذ جماعة من نبلاء القوط وعاصمتها أربونة (٢) .

استولى السمح على اربونة بعـد حصار دام شهراً تقريباً وغنم المسلمون الكثير الكثير من الاموال والتحف التي يرجع اغلبها الى كنوز رجال الدين

---

١ ـ تاريخ غزوات العرب ، شكيب ارسلان ص ٧١

٢ ـ المسلمون في أوربا د. ابراهيم علي طرخان ص ١٤١ ـ ١٤٢



«(أُخذت هذه الخريطة من كتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس)»

للدكتور السيد عبد العزيز سالم

الذين فروا بها مــن الاندلس عقب الفتح الاسلامي لها ، فقد حملوها معهم وأودعوها المؤسسات الدينية في هذه المدينة وغيرها ، وساعد سقوط هذه المدينة في أيدي المسلمين انها كانت مفتوحة مــن جهة البحر مما يسر للعرب وصول الامدادات والنجدات . . . . ونظراً لاهميتها الجغرافية فقد عمل السمح على

تحصينها وشحنها بالميرة ، ووضع الحاميات في المدن المجاورة لها (١) ، واتخذها قاعدة لعملياته الحربية في غالة ، ولايزال يوجد في هذه المدينة شارع ينسب الى السمح يعرف باسم شارع السمح .

تابع السمح زحفه متتبعاً مجرى نهر الرون واتجه غرباً وفتح جميع ماصادفه من المدن والحصون وأرغم اهلها عـلى دفع الجزيـة مثل بيزية وماجلون ، وهـذه الاخيرة عرفت باسم ثغر المسلمين . . . ثم فتح قرقشونه وتابع زحفه حتى وصل الى طولوشة عاصمة اكويتانيا ، غير انها قاومت الحصار الذي فرضه السمح حولها رغم استعماله المنجنيقات ، وظلت المدينة تقاوم حتى وصل دوق اكويتانيا أودو عـلى رأس جيش ضخم . . . فاشتد القتال بين الطرفين ، وكان السمح يجول بين جنوده ويشدد أزرهم (٢) ويقرأ قوله تعالى :

« إن ينصركم الله فلا غالب لكم . »

وكانت معركة رهيبة استشهد فيها عدد كبير مـن المسلمين ، على رأسهم السمح بن مالك الخولاني ، الذي أصيب بطعنة بالغة قضت عليه يوم عرفـة سنة ١٠٢ هـ ٧٢١ م .

جاء في كتاب فجر الاندلس للدكتور حسين مؤنس :

« تذكر المراجع العربية ان الهزيمة وقعت عند طرسونة والاصح ان يقال عند طرسكونة على مقربة من طولوشة عند مصب نهر الرون ، وقـد ذهب الى هذا الرأي المؤرخ سافدرا معتمداً على ماذكره ايذيدور الباجي من ان السمح استشهد عند طولوشة في موقعة حامية بينه وبين دوق اكويتانيا ، ويؤكد صاحب مدونة مواسياك هذا الرأي ايضاً » .

---

١ ـ تاريخ غزوات العرب ، شكيب ارسلان ص ٨٥ ـ ٨٨

٢ ـ المسلمون في أوربا ، د. ابراهيم علي طرخان ص ١٤٣

كان لمقتل السمح اثر كبير على الجند ، فدبت الفوضى ، ووهنت المزيمة حتى استطاع أحد امراء الجيش وهو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ان يجمع شتات فلول الجيش ويتراجع بهم الى أربونة . . . كانت هذه المعركة أول انكسار للعرب في اوربا ، فلو احتلوا طولوشة لأمكنهم التحكم في وادي نهر الجارون وفي الحدود الشمالية لمقاطعة غسقونيا ، ولتابعوا سيرهم لتحقيق هدفهم في ربط الشرق بالغرب براً .

تولى عبد الرحمن الغافقي شؤون ولايـــة الاندلس أشهراً قلائل حيث استبدل بـــه عامل افريقيا عنبسة بن سحيم الكلبي سنة ١٠٣ هـ ٧٢١ م أيام الخليفة هشام بن عبد الملك (١) .

كان عنبسة من طراز السمح ، تقياً ، ورعاً ، إدارياً صلباً ، وعسكرياً مجاهداً ، امينا على الولاية ، حريصاً على المسلمين وقـــد ظهر ذلك من أعماله وجهوده الادارية والعسكرية .

نظم الخراج ، فتضاعف بحسن تدبيره وتنظيمه . وقسم الاراضي بين المسلمين بدون تجاوز على الاراضي التي لها ملاك من أهل البلاد الاصليين فكان يستوفي العشر من الذين خضعوا لدولة العرب من أنفسهم ، ويستوفي الخمس ممن لم يخضعوا إلا بالسيف ، وأنجز مابدأ بـــه سلفه السمح مـــن بناء جسر قرطبة العظيم (٢) .

طاف عنبسة في المقاطعات ينظر في مظالم الناس ، ويوزع العـــدل والانصاف بدون تمييز بين الاديان . . . . فقضى مدة السنوات الأولى من ولايته في تنظيم أمور الاندلس بعد الاضطراب الذي حصل بسبب الخلافات العصبية بين العرب أنفسهم وبين العرب والبربر . . . فما إن استقرت الاحـــوال

---

١ ـ الاعلام : خير الدين الزركلي ج ٥ ص ٢٦٩

٨ ـ الاعلام خير الدين الزركلي ج٥ ص ٢٦٩

وهـــدأت الخوطر حتى جهز جيشاً عظيماً لغزو غـــالة والثأر لمقتل السمح بن مالك الخولاني .

سار عنبسة بجيشه متجهاً نحو نهر الرون حيث لم يتبع الطريق الذي سلكه السمح ، بل سار من برشلونة بمحاذاة الساحل حتى قرقشونة فحاصرها وشدد عليها الحصار حتى أرغم اهلها على التسليم والصلح فقبلوا شروطه ، وصالحوه على نصف أعمالها ، وعلى جميع مافي المدينة من أسرى المسلمين واسلابهم وان يدفعوا الجزية ، ويلتزموا بأحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه (١) وأخذ بعض الرهائن من اهلها وأرسلهم إلى برشلونة .

واصل عنبسة سيره باتجاه نيم فاستولى عليها وأخذ ايضاً بعض الرهائن وارسلهم الى برشلونة ، ثم تابع طريقه مع مجرى نهر الرون الى الشمال فاجتاح أوز وفيين ونواحي فلانسي ، واغار على منطقة دوفيني وعاصمتها غرنوبل حتى وصل إلى مدينة ليون التي يسميها العرب حصن لودون . . . دخل منطقة بورجونيا دون مقاومة واحتل مدينة ماسون وشالون التي تقع على نهر الساؤون وقد وجد الطريق امامه خالية فسار مسرعاً دون ان يلقى مقاومة تذكر واستولى على أتون ونهبها وحرقها ثم اتجه نحو ديجون وبيز حتى لانجر ، وعاد ثانية الى أتون (٢) وقد بعث سراياه الى جهات نيفير بالقرب من نهر اللوار ثم الى كونتية برجنديا التي عرفت فيما بعد باسم فرانش كونتي ، ولاتزال توجد فيها إلى يومنا هذا آثار عربية (٣) .

لم يقف جيش عنبسة ولم يلق مقاومة تذكر الا بالقرب مـــن مدينة سانس على بعد ثلاثين كيلو متراً جنوبي باريز ، وهي عاصمة اقليم بوند وتقع على

---

٢ ـ تاريخ غزوات العرب ،شكيب أرسلان ص ١١٢

١ ـ فجر الاندلس ، د حسين مؤنس ص ٢٤٧

٢ ـ المسلمون في العصور الوسطى د. ابراهيم طرخان ص ١٤٦

نهر السين . . . وهناك واجه عنبسة المقاومة الاساسية حيث تصدى له ايبون اسقف سانس واستعد له من قبل ، فحصن المدينة وحشد مواطنيه ، فهبوا معه لحماية مدينتهم ، ونجحوا في وقف الزحف العربي بعد ان اخترق قلب بلاد الغال حيث غزوا حوض نهر الرون بأسره .

يشك المؤرخون العرب بأن اسقف سانس هو الذي كان السبب في رجوع عنبسة وايقاف غزوه ، ويبدو ان عنبسة أدرك بعد هـذا التقدم الظافر الذي جعله يقترب من باريز ، انه توغل كثيراً في بلاد الغال ، حيث ابتعد عن خط تموينه قرطبة بنحو ألـف ميل ، اضافة إلى سماعه في ذلك الوقت بانبعاث العصبية في الاندلس ووقوع خلافات بين العرب والبربر ثانية ، حيث عمت الفوضى بسبب تنازع عماله الضعفاء على الحكم فيها ، فحالت دون وصول الامدادات والنجدات للجيش الفاتح (١) . . . فكان لابد من رجوعه إلى مقر ولايته حفاظاً على استقرار أمور المسلمين . . . ولولم توجد مثل تلك الاحوال القاهرة في ذلك الوقت لما انصرف عن فتوحاته الموفقة في بلاد الغال بعد أن حاز النصر العظيم .

وفي طريق العودة لم يكن عنبسة حذراً ، فداهمته جموع كبيرة مـن الافرنج ، فالتحم معها في معركة ضارية أصيب فيها بجراح بالغة توفي على أثرها في شعبان سنة ١٠٧ هـ ٧٢٥ م ، فعادت فلول الجيش العربي بقيادة عذرة بن عبد الله الفهري الى اربونة . وقد اختلفت روايات المؤرخين حول مقتل عنبسة او وفاته : ـ

ـ يذكر ابن الاثير ان عنبسة توفي في شعبان سنة سبع ومائة ، وكانت ولايته أربع سنين وأربعة أشهر ، ولما مات ارسل والي افريقيا بشر بن صفوان ، يحيى

---

١ ـ الاسلام في الغرب جان بول رو مترجم ص ٤٧

ابن سلمة الكلبي والياً على الاندلس بدلأمنه وذلك في ذي القعدة ١٠٧ هـ(١)

- يقول ابن خلدون ان استشهاد عنبسة كان في اراضي الفرنجة سنة ١٠٧ هـ. (٢)

- ابن عذارى يقول ان مقتل عنبسة كان في اراضي فرنجة غازياً سنة ١٠٧ هـ

- يقول رينو حيث لم يشر الى المراجع التي استند عليها في ذلك : -

« وقد قتل عنبسة في احدى غزواته سنة ٧٢٥ م ، واضطر خليفته عذرة الى قيادة الجيش في طريق العودة الى الحدود ، ولم تلبث الحرب ان استعرت من جديد في عنف ، ولما كانت أمداد كبيرة قد أقبلت من الاندلس فقد نهض قادة المسلمين ، وشجعتهم المقاومة القليلة التي صادفوها، واخذوا يرسلون الحملات في كل وجه ، ويقول مؤرخ عربي : إن رياح الإسلام أخذت تهب على النصرانية من كل ناحية ، فاقتحم المسلمون سبتمانية مرة أخرى وعادوا الى حوض الرون وغزوا بلاد الالبيين وليفلية ونهبوهانهباً ذريعاً وأتت النيران على ماأغفلته سيوف العرب ، حتى لقد استنكر الكثيرون من الفاتحين أنفسهم هذا الاسراف في أعمال العنف » (٣) .

ويعلق الدكتور حسين مؤنس في كتابه فجر الاندلس على هذا القول :

« ولسنا نستطيع تحقيق ذلك على وجهه الصحيح ، وان كنا نقبل ماتذكره الروايات اللاتينية عن الاعمال التي وقعت أثناء ولاية عذرة لان عبد الرحمن الغافقي حينما تولى وجد المسلمين في حالة طيبة في غالة ، ولوكان أمرهم

---

١ - الكامل لابن الاثير المجلد ٤ ص ١٩٧

٢ - تاريخ غزوات العرب ، شكيب ارسلان ص ٨٤

٣ - فجر الاندلس د . حسين مؤنس ص ٢٥٥

وقف عندما انتهت اليه أعمال عنبسة وهو الرجوع الى الاندلس ، ولما استطاع عبد الرحمن الغافقي أن يقوم بالعمل الكبير الذي قام به » .

والمعروف أن عـذرة واصل جهاد سلفه في بلاد الغال حيث اقتحم سبتمانية وحوض الرون .

وبعد هـــذا العرض السريع لاعمال بعض رجال الفتوح لابد من ذكر الملاحظات التالية :

أولاً :

إن حملة عنبسة تميزت بالحذق والمهارة ، كما يقول المؤرخ ازيدور الباجي ، أكثر مما تميزت بالبطش والقوة (١) . . . وقد قيل ان عنبسه كان يكره العيث في بلاد العدو ، إلا أنه كان يداري جنده ويحذر من أن يتهم بفتور الحمية الاسلامية .

ثانياً :

ان حملة عنبسة قد بينت الخطر الحقيقي لامراء الدوقيات في غالة وجعلتهم يفكرون في الموقعة الحاسمة مع العرب التي تمت فيما بعد مع عبد الرحمن الغافقي في بلاط الشهداء .

ثالثاً :

إن حملة عنبسة لم تكن في الحقيقة غير غارة بعيدة المدى ، ولو كان لدى عنبسة نية الفتح الثابت لأتم الاستيلاء على ما غلب عليه من المدائن ولأقام الحاميات في بعضها على عادة العرب في فتوحهم ، وربما كانت نيته من أول الامر ان يقوم بحملة تشبه حملة عقبة بن نافع الكبرى ، غارة بعيدة المدى تشق البلاد شقاً وتطلع المسلمين على احوالها وتمهد لما بعدها .

ولو استقر عنبسة في ليون مثلاً او في أحد مراكز غالة الوسطى لكان في

---

١ ـ تاريخ غزوات العرب شكيب ارسلان ص ٩٧

امكاننا ان نقرر انه فتح جنوبي غالة ووسطها ، أما وقد عاد ادراجه بعد ان سار نحو الف ميل شمالي قرطبة فلا نستطيع القول الا أن حملته الرائعة تلك لم تكن اكثر من غارة سريعة طويلة اتت بغنائم كثيرة ووفيرة ونشرت في نواحي غالة كلها رعباً شاملا ، ومهما يكن من الامر فإن عنبسة ينفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر ، فخر الوصول برايات الإسلام الى قلب أوربا الغربية ، ولم يدرك هذا الشأو بعد ذلك فاتح إسلامي آخر (١) .

رابعاً :

كان البربر الفضل الاكبر في الحملات التي قادها السمح بن مالك الخولاني ومن بعده عنبسة بن سحيم الكلبي ، فقد كانت هذه الجماعات ترد الى الاندلس وقلوبها متعلقة بالجهاد والفتح وما يتعلق بها من مغانم واسلاب ومكاسب . . . وكانوا يتجمعون في الاندلس فلا يستطيع الولاة تركهم دون عمل يتسكعون في العاصمة وماحولها . . . فكانوا ينهضون معهم للغزو . . . وكلما زاد نشاط الفتح ازداد هؤلاء البربر ضراوة في الحـــرب وطمعاً في المغانم ، وربما استبد طمع بعضهم في الاسلاب فكان ذلك من اسباب فشل بعض الحملات كما تراها في وقعة بلاط الشهداء .

خامساً :

تذكر روايات مؤرخي الفرنجة اخباراً كثيرة عـــن اعمال العرب في غالة خـــلال الفترة مابين موت عنبسة وقـــدوم عبد الرحمن الغافقي بكثير من المبالغات عما تسمية مساءات العرب اومظالمهم التي انزلوها بأهل المنطقة ، إذ ليس من الانصاف ان يقال ان العرب لم يفعلوا في غالة غير تخريب

---

١ ـ فجر الاندلس د . حسين مؤنس ص ٢٤٨

الكنائس وحرق الاديرة . . . والثابت المعروف عنهم انهم لم يخربوا كنيسة او يحرقوا ديرا ، وإذا قارنا المسلمين بالشعوب التي كانت تسود غالة في ذلك الحين من فرنجة وقوط غربيين وقوط شرقيين وبرغنديين ومن اليهم لتبينا ان المسلمين كانوا اعظمهم حضارة وابعدهم عن النهب والتخريب . ومهما بحثنا في حوليات ذلك العصر فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث في غالة خلال النصف الاول من القرن الثامن الميلادي رجالا نستطيع ان نقارنهم بالسمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي او عبد الرحمن الغافقي (١) .

ان النصوص التاريخية لاتذكر ان المسلمين هم الذين قاموا بأعمال التخريب ولكنها تقول ان « الوند ، اوالوندال ، او الجندال » هم الذين كانوا يخربون ، فجاء مؤرخو الكنيسة فقالوا ان المراد بهذه الالفاظ هم المسلمون . . . وتابعهم رينو وغيره من المؤرخين المحدثين في ذلك ، وهو تعسف لامعنى له وخاصة ان هذه التسميات اطلقت فيما بعد على المجريين الذين اغاروا على هـــذه النواحي وخربوها ايام قارله وبيبين وشارلمان . . . وقد عادرينو فتشكك في ان المسلمين هم الذين قاموا بهذ التخريب ، بل ان الفرنجة انفسهم بقيادة عاهلهم الاكبر شارل مارتل ، نهبوا الكنائس واستولوا عـــلى كنوزها وخربوها فيما بعد في وقعة تور (٢) .

سادساً :

يقول المؤرخون ان الذي ساعد على نجاح المظاهرة العسكرية العربية في أواسط بلاد الغال تحالف الدوق اودو حاكم مقاطعة أقطانية « اكويتانيا » مع

١ ـ فجر الاندلس د . حسين مؤنس ص ٢٥٩

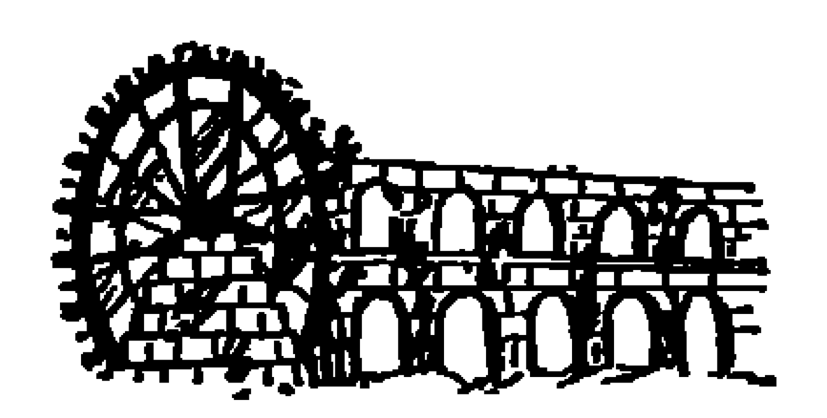
٢ ـ المسلمون في أوربا في العصور الوسطى د ابراهيم علي طرخان ص ١٤٨

العرب ، ويقولون ان احـد قادة البربر ويدعى عثمان بن ابي نعسة المعروف بـ « مونوسة » (١) وقد كان صهراً للدوق اودو ، وبما ان الدوق لم يكن على علاقة طيبة مع شارل مارتل ملك الفرنجة لان هذا الاخير كان ذا مطامع بأملاك الدوق أودو ، اضافة الى ان معظم الاشراف الاقطاعيين في غالة كانوا يخافونه ويكرهونه ، وفي حالة حرب دائمة معه . . . الامـــر الذي دفع دوق اودو الى مصادقة المسلمين ومصاهرة احد مواطنيهم .

ان وجود ابن ابي نعسة في الجيش العربي كان السبب في انصراف المسلمين عـــن بلاد الدوق اودو ، وربما كان هذا الاتفاق هو السبب فيما وفق اليه المسلمون من انتصارات فاقت كل ما كان منتظراً من حملة عنبسة . وفي ذات الوقت لولا هذا الاتفاق لكان العرب في ذلك الحين من القدرة بحيث يتمكنون من التوغل في اراضي مقاطعة اكويتانيا والاستيلاء على معاقلها . (٢)

محمد كمال لطفي ـ حماة

المركز الثقافي العربي



١ ـ سطرت الراوية الاوروبية حول مونوسة أوهاماً ، ولايوجد أساس قوي لاعتبار صحة مثل هذه القصة « التاريخ الاندلسي د . عبد الرحمن الحجي ص ١٩٢ »

٢ ـ د . حسين ـ فجر الاندلس ص ٢٥٣

ابن عساكر وتاريخ دمشق

إعداد : عبد الإله نبهان

بلغ ابن عساكر في كتابه « تاريخ مدينة دمشق » الذروة في فن تاريخ المدن فيما روته لنا قصة الحضارة العربية على كثرة ماألف المؤرخون والاخباريون في هذا الفن الحبيب .

« الدكتور شاكر الفحام »

يتسم التراث التاريخي للامة العربية بضخامته واتساع مداه وغزارة مادته وغنى مكتبته وكثافة مؤلفيه واصالتهم ، وإن كل مانشر حتى الآن من كتب التاريخ العربي في مختلف اتجاهات لايعدو جزءاً مما ألف في هذا الميدان . وإذا كانت كل الامم تهتم بتاريخها وتسجيل أحداثها فإن الامة العربية تأتي في طليعة الامم التي تأثل لديها هذا الفن وتأصل ، وتفرع وتشعب مما دفع بالدكتور شاكر مصطفى إلى القول : (١)

« مامن أمة في الارض قبل العصور الحديثة كتبت في التاريخ وألفت فيه المؤلفات الضخمة جدّ الضخامة وفرعت الفروع العديدة وسجلت دقائق ماعاشت من الاحداث مثل ما كان في العهد العربي الإسلامي . . . فقد تميزت

١ ـ التاريخ العربي والمؤرخون ١ / ٦ ـ ٧

الحضارة العربية الاسلامية بالنزعة التاريخية الواضحة التي تجلت في ظهور حوالي خمسة آلاف مؤرخ على الاقل فيها ، ومايزيد على عشرة الى اثني عشر ألف كتاب تاريخ – في اقل تقدير – لديها » .

وإذا كانت الامة العربية قديماً قد عنيت بالتاريخ فإن عنايتها به حديثاً تبرز على المستويين الفردي والجماعي ، الفردي المتجلي في جهود الافراد من المؤرخين والباحثين والمحققين ، والجماعي الذي تقوم به الجامعات والجمعيات التاريخية من جهة ، والمؤتمرات التي ترعاها الدول العربية من ناحية أخرى .

وفي إطار هذا لاهتمام احتفل القطر العربي السوري هذا العام لمدة ثلاثة ايام اعتباراً من ٢٦ /٥ حتى ٢٨ /٥/ ١٣٩٩ هـ الموافق ٢٣ /٤/ حتى ٢٥ /٤/ ١٩٧٩ م بذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادة مؤرخ الشام الكبير « ابن عساكر » الذي سنقف معه وقفة عاجلة ، وقفة تحية وتقدير لاسترجاع ماغبر من شذاه ورَوْحه وريحانـــه .

لعل إلمامة بالجزع ثانيةً ... يدب منها نسيم البرء في عللي

ابن عساكر في سطور (١)

هو ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي الحافظ من اصحاب الحديث (٢) ولد بدمشق سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م (٣) أيام طغتكين (٤) وبدأ تلقي العلم من صغره ، ولم يلبث ان أخذ يتردد على كبار

---

١ ـ كان اعتمادنا الاساسي على ماكتبه الدكتور صلاح الدين المنجد في تقديمه لتاريخ ابن عساكر ـ المجلدة الاولى ـ ولن نشير إليه مرةأخرى .

٢ ـ خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ـ ١ / ٢٧٤

٣ ـ الاعلام للزركلي

٤ ـ هو أبـو سعيد سيف الإسلام ظهير الدين معتمد الدولة طغتكين مـن بني بوري أتابكة دمشق .

معجم الأنساب والاسرات الحاكمة ٣٤٠

الشيوخ في دمشق يقرأ ويستمع ، قرأ على سبيع بن قيراط ، واستمع إلى أبي القاسم النسيب وابي الفرج الصوري وقوام بن زياد وأبي طاهر الحنائي ، وأخذ عن جده النحو والعربية . وأخذ يستكتب شيوخ بغداد وخراسان ولما يبلغ الحلم

وبعد وفاة أبيه عزم على الرحلة في طلب الحديث فاتجه الى العراق سنة ٥٢٠ هـ شأن المحدثين في ترحالهم طلباً للمزيد من العلم وتلقي الاسانيد العالية .

وأقام الحافظ في بغداد سنة واحدة ، عاد بعدها إلى دمشق ، ولم يلبث ان عاد الى بغداد يريد الحج عن طريقها . وفي مكة والمدينة ومنى سمع الحافظ ممن لقيه من العلماء ، وعاد بعد ذلك إلى العراق بعد ان حدّث بمكة .

وأقام الحافظ ابن عساكر في العراق خمس سنين يستمع الدرس في المدرسة النظامية ببغداد ، ويطوف في العراق فمن الكوفة الى الرحبة إلى الجزيرة الى ماردين . . . يستمع ويحدث ، حتى إذا آن أوان الرحيل شد راحلته ويمم شطر مدينة دمشق سنة ٥٢٥ هـ ليتابع الاستفادة والافادة .

وفي سنة ٥٢٩ هـ يترك الحافظ دمشق قاصداً خراسان ليأخذ عن علماء العجم ومحدثيهم وهم مَنْ هم في علو كعبهم وغزارة روايتهم وقد نص الحافظ نفسه على الغرض من هذه الرحلة فقال :

« والى الامام محمد الفراوي كانت رحلتي الثانية . لأنه كان المقصود بالرحلة في تلك الناحية لما اجتمع فيه علو الإسناد ووفور العلم وصحة الاعتقاد ولين الجانب والاقبال بكليته على الطالب فأقمتُ في صحبته سنة كاملة ، وغنمت من مسموعاته فوائد حسنة ، وكان مكرماً لموردي عليه ، عارفاً بحق قصدي إليه ومرض مدة مقامي ، وكنت أقرأ عليه في حالة مرضه ، ثم عوفي وفارقته متوجهاً إلى هراة . فجاءنا نعيه إلى هراة . وكان موته سنة ثلاثين وخمسمائة (١) .

١ ـ تبيين كذب المفتري ص ٣٢٥ نقلاً عن مقدمة المنجد .

وأخذ الامام الحافظ يتجول في خراسان يأخذ عـــن علمائها وأدبائها وفقهائها ومحدثيها . وقد وضع الدكتور صلاح الدين المنجد اعتماداً على معجم الادباء والوافي بالوفيات وطبقات الشافعية الكبرى الثبت التالي الذي يبين أشهر المدن التي زارها ابن عساكر :

أ	ح	س	ن
ابهر	حلوان	سرخس	نوقان
ابيورد	خ	سمنان	نيسابور
أرجيش	خرباذقان	ط	ه
أسداباد	خسروجرد	طابران	هراة
أصبهان	خوى	طوس	همذان
ب	د	غ	ي
بسطام	دامغان	غشت	اليهودية
بوشنج	ر		
بيهق	الري	م	
ت	ز	مرغاب	
تبريز	زنجان	مرند	
توث	زودراورد	مشكان	
ج		مروالشاهجان	
جي		ميهنه	

وعاد الحافظ إلى بغداد سنة ٥٣٣ ولقي بها السمعاني (١) ، وكان قد فارقه في

---

١ ـ السمعاني (٥٠٦ ـ ٥٦٢ ه = ١١١٣ ـ ١١٦٧ م) عبد الكريم بن محمد السمعاني ، أبو سعد ، مؤرخ رحالة من حفاظ الحديث ، مولده ووفاته بمرو . رحـل الى أقاصي البلاد ولقي العلماء والمحدثين أخذ عنهم وأخذوا عنه . والسمعاني نسبة إلى بطن من تميم . أشهر كتبه (الانساب) عن الاعلام ٤/٥٥ ط ٤

خراسان . ثم قفل عائداً الى دمشق حيث عقد مجلس التحديث سنة ٥٣٣ هـ .

ومن سنة ٥٣٣ إلى سنة ٥٧١ انصرف الحافظ إلى التصنيف إلى جانب قيامه بالتدريس . وكانت مرحلة خصبة مثمرة رفد فيها الحافظ المكتبة العربية بتراث زاخر لاتزال تعتز به ، ولايزال الباحثون ينكبون عليه ويستمدون منه ويعتمدون عليه في شتى مجالات الثقافة الإسلامية . وفي هذه المرحلة علا نجم الحافظ ابن عساكر وطار صيته في الافاق وقصده العلماء وطلبة العلم وارتفع شأنه لدى نور الدين ومن بعده لدى السلطان صلاح الدين .

وشاء الله ان يسترد أمانته ويأخذ وديعته ، وعادت نفس الحافظ الى ربها راضية مرضية ، وكان ذلك بين المشائين ليلة الاحد حادي عشر رجب سنة إحدى وسبعين [وخمسمائة] ودفن بمقبرة باب الصغير ، وصلى عليه الملك الناصر صلاح الدين في ميدان الحصا ، (١) ورثاه عدد من الفضلاء منهم فتيان بن علي الاسدي (٢) الذي اورد العماد الاصفهاني له قصيدة تامة في رثاء الحافظ منها هذه الابيات :

علماء البـــلاد حلّت حُباهـا — لـك يا مَن عم الـورى بالحباء
ماعسى أن نقول فيك وقد فا — تـت أياديـــك جملة الاحصاء
أنت أعلى من ان تحـدّ بوصف — بلغتـــه بلاغـــة البلغـــاء
أنــت اولى بـأن ترثيك حتى — يبعث الخلـق ، ألسنُ الشعراء
فعليك السلام مالاح وجه الصبح -م- — ـــن تحـــت طرّة سوداء
وسقى التربة التي غيبـت فيها — كلّ جـــونٍ وديمـــة هطـلاء

---

١ - هو الحي المعروف حالياً بالميدان في دمشق .

من تعليقات د . شكري فيصل على الخريدة .

٢ - الخريدة ١ / ٢٨٠

ولعل خير وصف للإمام الحافظ ماوصف بـه نفسه ، واوجز فيه سيرة حياته قال :

يامعشر الاخوان لوظفرت يدي ... بمساعد ومؤيد وملاطف

لشرحت ماحاولت شرحاً بيناً ... وشفعت سالف ذاك بالمستأنف

تالله أو فى حلقة للحالف ... مايبغض العلماء غير مخارف

يامن تـوعـدني لفرط جهالة ... اكفف وعيدك لي فلست بخائف

لوكنت تعرفني لما خـوّفتني ... فذر الوعيد فلست لي بالعارف

مالنتُ قط لغامزٍ أوحاقد ... كلا ، ولا لاينت حتف الحاتف

فأنا الشجي في حلق كل منافق ... وأنا القذى فى عين كل مخالف

وأنا الذي سافرت في طلب الهدى ... سفرين بين فـدافد وتنائف

وأنا الذي طوفت غـير مدينة ... من أصبهان إلى حدود الطائف

والشرق قد عاينت أكثر مدْنهِ ... بعد العراق وشامنا المتعارف

وجمعت فى الاسفار كل نفيسةٍ ... ولقيت كل مخالـف ومؤالف

وسمعت سنة أحمد مـن بعدما ... أنفقت فيها تالدي مع طارفى

ورويتها بأمانـة وصيانـة ... ونزاهـة تنفي سفاهة قارف

والأبيات تشير بوضوح الى غنى جوانب الحافظ ابن عساكر ، وتعدد مناحي نشاطه . وإن المقام لايتسع في هذه العجالة للإلمام بجوانب الحافظ وسنكتفي بالتعريج على الناحية التاريخية .

مؤلفاته في التاريخ :

بلغت مؤلفات الحافـظ ١٤٣ مؤلفاً حسب إحصاء الاستاذ مطاع طرابيشي (١) وسنقف عند مؤلفاته التاريخية ذكراً وتعداداً اعتماداً على

١ ـ انظر كتاب ابن عساكر ص ٢٤٤

قائمة الاستاذ الطرابيشي وعلى تعداد الدكتور شاكر مصطفى : (١)

١ ـ تاريخ دمشق

٢ ـ فضل البيت المقدس اوفضل القدس

٣ ـ فضل مكة

٤ ـ فضل المدينة

٥ ـ فضل عسقلان

٦ ـ فضل الخليل (٢)

٧ ـ المعجم المشتمل على ذكر اسماء شيوخ الأئمة النبل (٣)

٨ ـ المعجم لمن سمع منه أواجاز له

٩ ـ معجم النساء (٤)

١٠ ـ شيوخ ابن البناء

١١ ـ شيوخ الحلواني

١٢ ـ كتاب البلاد والقرى التي حدث فيها ابن عساكر (٥)

١٣ ـ معجم أسماء القرى والامصار التي سمع بها

وله ايضا معجم لشيوخ البخاري ومسلم ومعجم للصحابة .

هذه جملة مؤلفاته التاريخية ، وسنقف عند كتابة العظيم تاريخ مدينة دمشق.

---

١ ـ التاريخ العربي والمؤرخون ٢ / ٢٤٣

٢ لم يذكره الاستاذ الطرابيشي

٣ ـ ذكره الدكتور شاكر مصطفى باسم (معجم الشيوخ ومعجم الشيوخ النبل) أي جعله معجمين .

٤ ـ ذكره الاستاذ الطرابيشي (معجم النسوان) وباسم (من سمع منه من النسوان)

٥ ـ ذكره الاستاذ الطرابيشي باسم (معجم القرى والامصار التي سمع بها) وذكر ان اسم هذا الكتاب اورد في سير النبلاء « اسماء الاماكن التي سمع فيها + معجم القرى والامصار

تاريخ مدينة دمشق :

يعد تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر من اهم المراجع التاريخية وأوسعها وأشملها ، ولعله أكبر تاريخ وضع بالعربية حتى الآن . ويغلب على ظن القدماء والمحدثين أن ابن عساكر بدأ عمله في هذا التاريخ في مرحلة مبكرة من عمره فالحافظ المنذري علامة مصر ومحدثها يقول وقد ذكر تاريخ ابن عساكر :

ماأظن هذا الرجل - يعني ابن عساكر - الاعزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه ، وشرع في الجمع من من ذلك الوقت » والا فالعمر يقصر عن ان يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبه (١) .

كما أن الدكتور شاكر مصطفى ينص على أن ابن عساكر كان منذ أيام الدراسة يداري مشروعاً في خاطره لتاريخ دمشق يضاهي به عمل الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، وقد شرع بــه ثم توقف ، ثم سمع الاتابك (٢) نور الدين بن زنكي مهتم بهذا المؤلف وبإنجازه فأنجزه وكان من ذلك تاريخ دمشق (٣) .

والاسم الكامل لهذا التاريخ هو :

« تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الاماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها »

---

١ ـ عن مقال الشيخ محمد احمد دهمان . كتاب ابن عساكر ٢٠٧

٢ ـ يتألف هذا اللقب من لفظين هما « أتا » بمعني أب ، و « بك » بمعنى أمير . واصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملك شاه بن ألب ارسلان كانوا يطلقون لفظ (اطابك) على كبير أمرائهم ، يولونه الوصاية من بعدهم على سلطان او امير قاصر صغير ، ثم اطلق هــذا اللقب في ايام المماليك بمصر على مقدم العساكر او القائد العام على اعتبار انه ابو العساكر والامراء جميعاً وكان يسمى « اتابك العسكر »

انظر كشاف الاصطلاحات في الاعلاق الخطيرة الجزء الثالث القسم الثاني ٨٧٧

٣ ـ التاريخ العربي والمؤرخون ٢٤١

وقد يكون العنوان أضيق مما اشتمل عليه الكتاب ، لأن هذا التاريخ في حقيقته ليس تاريخاً لدمشق فحسب بل إنه كما يقول الاستاذ عبد المعين الملوحي : (١) تاريخ الامة العربية ، ولذلك نرى الدكتور شاكر مصطفى يدون الملاحظة التالية :

« وقد تتسع حلقة دمشق في خاطرة لتشمل الشام احياناً فيترجم لمن كان في صيدا أو حلب او بعلبك او الرقة او الرملة » (٢)

وقد امتد الكتاب على مدى خمسمائة جزء وسبعون جزءاً كما ذكر ياقوت او إلى ثمانمائة جزء في ثمانين مجلدة (٣) . وعلى كل حال فإن العاملين الآن في تحقيق تاريخ دمشق يقدرون له إذا تم تحقيقه وإخراجه أن يصدر في حوالي مائة مجلد من القطع الكبير .

صرف الحافظ في جمع مادة كتابه مالايقل عن ثلاثين سنة ، (٤) واستمد مادته الغزيرة من مصادر ثلاثة :

١ ـ السماع من الشيوخ

٢ ـ المكاتبة معهم

٣ ـ الكتب المخطوطة « مؤلفات السابقين »

ونهج في تصنيفه من منهج المحدثين ، فهو يذكر كل خبر بسنده وقد يكرر الخبر إذا ورد بسند جديد أو مختلف ولو قليلا عن السند السابق . ورتب تراجم الكتاب على حروف الهجاء إلا أنه بدأ بمن اسمه احمد تيمناً باسم الرسول الاعظم ﷺ .

---

١ ـ كتاب (ابن عساكر) ٢٢٥

٢ التاريخ العربي والمؤرخون ٢٤١

٣ ـ معجم الادباء ١٣ / ٧٦

٤ ـ التاريخ العربي والمؤرخون ٢ / ٢٤١ وانظر مقدمة المنجد

وخصص المجلدة الاولى الحديث عن مدينة دمشق وخططها وفضائلها وفتوح الشام بشكل عام .

ونظراً لضخامة الكتاب وحاجته إلى العمل الشاق المضني في تحقيقه وإخراجه فإنه لم ير النور منه سوى أجزاء ، لقد طبعت منه المجلدة الاولى سنة ١٩٥١ والقسم الاول من المجلدة الثانية سنة ١٩٥٤ . وفي سنة ١٩٦٣ صدرت المجلدة العاشرة ، وفي سنة ١٩٧٨ صدر قسم من حرف العين « العين مع الألف » (١) ولا يزال الاساتذة المحققون يوالون عملهم الشاق في تحقيق هذا الكتاب الذي يعد مصدراً أساسياً من مصادر تاريخ الحضارة الإسلامية لذلك نجد الدكتور شكري فيصل يقول : (٢)

« اننا حين نعرض الكتاب نجد أن المؤلف لايقدم لنا تاريخاً دمشقياً ولا تاريخاً شامياً فحسب ، وانما يقـــدم تاريخاً حضارياً لهذه البلاد كلها التي انتشر فيها الاسلام وسادت العربية وانساحت فيها مهاجرة العرب المسلمين بين أقصى الشرق فيما وراء النهر وبين اطراف المحيط » .

إن إحياء هذا الكتاب ونشره على نطاق واسع يجب ان يقدم على أي عمل تاريخي آخر ، وإذا كانت الاصوات في هذه الايام ترتفع في كل جانب من جوانب الوطن العربي تطلب إعادة كتابة التاريخ على أسس جديدة (٣) فإن على أصحاب هذه الدعوات أن يعلموا أنه لاارتفاع لبناء ولاديمومة له إذا

---

١ ـ المجلدة الاولى والقسم الاول من المجلدة الثانية نشرهما مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد

ـ المجلدة العاشرة نشرها المجمع بتحقيق الشيخ محمد احمد دهمان

ـ قسم العين مـع الالف وقـد نشره المجمع في مايقرب مـن ألف صفحة بتحقيق الدكتور شكري فيصل .

٢ ـ عن كتاب « ابن عساكر » ٢٣٦

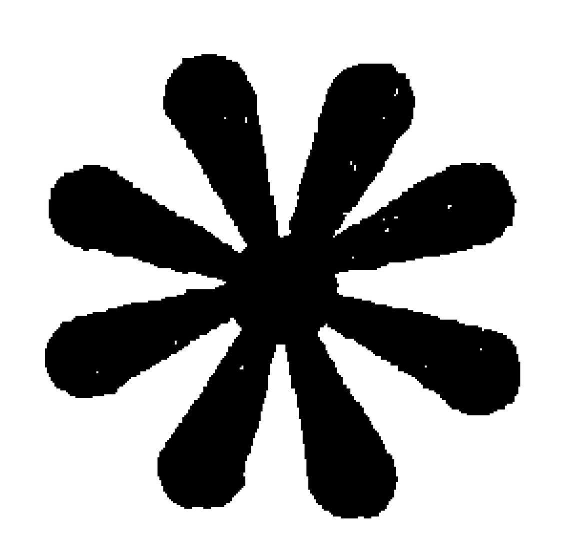
٣ ـ اجرت المعرفة التي تصدر عن وزارة الثقافة بـدمشق استفتاء حـول « كيف نكتب تاريخنا القومي » ثم جمعت الاجابات وطبعت في كتاب مستقل صدر عن وزارة الثقافة

لم يبن على أساس وطيد ، وإن الأساس الذي يجب أن نبتدىء به لكتابة تاريخنا هو أولاً نشر التراث التاريخي ، ويجب أن ينظر إلى ضرورة إحياء التراث التاريخي نظرة جدية ، لان الامر ليس أمر إيجاد عمل للمطابع ومعامل الورق ، بل ان القضية أخطر من ذلك وقد لخصها الدكتور مصطفى زيادة بقوله :

« ان احياء الكتب القديمة ليس للتقوى والزلفى فحسب بل لبناء حاضر الثقافة في امم الشرق على اسس منه » (١)

هذه عجالة أعددناها عن تاريخ دمشق ومؤلفه الحافظ ابن عساكر الجدير بأن تكتب عنه المطولات وان يسجل اسمه بأحرف من نور في سجل الخالدين .

عبد الاله نبهان
حمص ـ الجمعية التاريخية



---

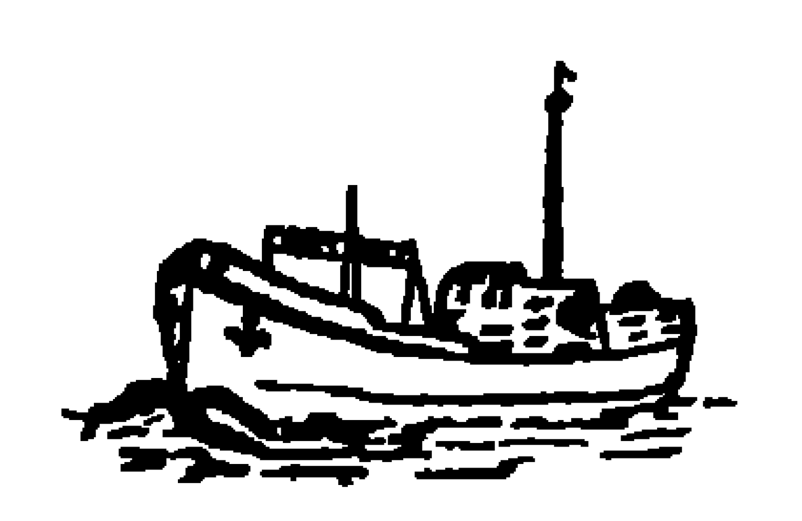
١ ـ عن كتاب ابن عساكر ٢٢٠

مراجع اعداد البحث

- خريدة القصر - قسم شعراء الشام د للعماد الاصبهاني - تحقيق الدكتور شكري فيصل
- معجم الادباء - ياقوت الحموي - طبعة أحمد فريد الرفاعي
- الاعلاق الخطيرة - ابن شداد - تحقيق يحيى عبارة - وزارة الثقافة
- التاريخ العربي والمؤرخون الدكتور شاكر مصطفى - دار العلم للملايين
- الاعلام . خير الدين الزركلي
- ابن عساكر في ذكرى تسعمائة سنة على وفاته

وزارة التعليم العالي بدمشق

- تاريخ مدينة دمشق . مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق



عرض الكتب

التاريخ العربي القديم

تأليف جماعة من الأساتذة المختصين
ترجمه واستكمله : د. فؤاد حسنين علي
راجع الترجمة المرحوم : د. زكي محمد حسن

عرض وتلخيص
الاستاذ خالد السباعي

تمهيد : في يناير / ١٩٢٧ ظهر بالالمانية كتاب « التاريخ العربي القديم» يبحث في تاريخ بلاد العرب السعيدة قبل الاسلام ، مشتملاً على خمسة فصول كتبها عدد من الاساتذة المختصين في الجزيرة العربية آثاراً وتاريخاً ، ولغة ، وأدباً

كتب الفصل الاول الدكتور : ديتلف نيلسن بعنوان : تاريخ العلم ونظرة حول المادة .

وكتب الفصل الثاني الدكتور : فرتز هومل بعنوان : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية .

وكتب الفصل الثالث : نيكولوس رودكاناكين بعنوان : الحياة العامة للدول العربية الجنوبية .

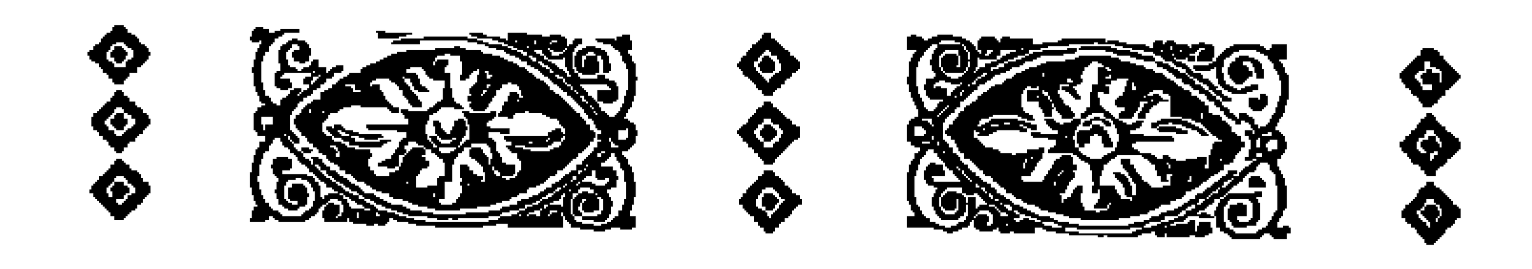
وكتب الفصل الرابع الدكتور ادولف جرومان بعنوان الناحية الاثرية لبلاد العرب الجنوبية

وكتب الفصل الخامس الدكتور : ديتلف نيلسن بعنوان : الديانة العربية القديمة .

ثم استكمل المترجم الدكتور : فؤاد حسنين علي ، بعض فصول الكتاب بما استجد من معلومات منذصدوره عام / ١٩٥٨ / أغنى بها فصوله .

في عرضنا للكتاب سنكتفي بتلخيص الفصل الاول منه ، وذلك لما يتضمنه من معلومات قلما تتوفر في أي كتاب آخر .

في هذا الفصل بحث الدكتور « ديتلف نيلسن » في تأريخ علم البحث والتنقيب عن الآثار والنقوش في بلاد العرب الجنوبية ، فتحدث عن البعثات العلمية الأوروبية التي اقتحمت هــذه البلاد ، في الفترة الممتدة من /١٧٦٠/ حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى / ١٩١٤ - ١٩١٨ / وقد حاول « نيلسن » جهده ان يكون المصور الامين ، فنقل الينا اخبار هذه البعوث والنتائج التي جاءت بها ، ومدى الفائدة التي عادت على العلم منها ، واستغرق منه ذلك / ٥٠ / صفحة ثم استكمل المترجم بـ /٨/ صفحات تأريخ عمليات البحث والتنقيب في بلاد العرب الجنوبية منذ صدور الكتاب عام ١٩٢٧ وحتى ترجمته عام ١٩٥٢ . ونحن هنا - كما كان المؤلف والمترجم في تأريخهما لبعثات التنقيب ، أمينين - سنحاول في تلخيصنا ان نقتفي اثرهما في الامانة بذكر تأريخ جميع تلك البعثات والرحلات التي وردت عندهما ، كما يجدر التنويه انترقيم البعثات من اجل تنظيم التلخيص،



بلاد العرب الجنوبية

البعثة الاولى : في منتصف القرن الثامن عشر اتصل مستشرق دانياركي وهو « كريستنس ف . هافن » العالم في جامعة جو تنجن الالمانية بنبيل دانمركي هو « الجراف برنشتورف » وحدثه عن الفوائد التي تعود على العلم من وراء ارسال بعثة علمية الى بلادالعرب الجنوبية ، فاقتنع «الجراف» بوجاهة الفكرة ، ففاتح«فريدرك الخامس» ـ ملك الدانمرك في ذلك الوقت ـ في أمر هذا المشروع ، فأجابه الى طلبه ، واصدر أمره بوجوب تأليف البعثة ، وكانت على الوجه الآتي:

١ ـ كريستنسن هافين ـ لعلوم الاستشراق ٢ ـ بيترفورسكول ـ العلوم الطبيعية ٣ ـ كارستن ينبور ـ الضابط ٤ ـ كريستنسن كارل كرامر الطبيب ٥ ـ جورج فلهلم بور نفيند ـ الرسام .

وفي / ٤ / يناير / . تركت البعثة « كوبهنا جن » فوصلت بلاد اليمن في أواخر /١٧٦٢ / ولم يأت شهر أيار /١٧٦٢/ الاوتوفي « المستشرق » ضحية حمى وتوفي في « مخا » . ثم لحقه « عالم الطبيعيات » فيتموز / ١٧٦٣ / بمدينة « يريم » ثم واصلت البعثة السير الى « صنعاء » فاحتفى الامام باستقبالها . وفي جزيرة « سقطرة »شيعت البعثة الرسام وخادمه . في آب / ١٧٦٣ / وفي « بومباي » مرض « الطبيب » ودفن هناك في شباط / ١٧٦٤/ . ولم يبق من البعثة الا« نيبور » فنفذ الخطة التي رسمت للبعثة . ولم تطأ قدماه كوبنهاجن « الا في عام / ١٧٦٧ والجدير بالذكر ان بعثة « نيبور » بلغت اماكن لم تطأها قدم أوربي من قبل اومن بعد ، ولقد لفت نظر من جاء بعده الى تلك الخرائب وما تشتمل عليه من نقوش « حميرية » باشارته اليها في خريطته .

وكذلك يظهر أن « نيبور » أول عالم اوربي ، رأى نقشاً عربياً جنوبياً وذلك لانه لما مرض في « مخا » زاره هولاندي اعتنق الاسلام واطلعه على نقش دوّن في ابجدية غير معروفة فقال «نيبور » لاأشك ابداً في ان الانسان ليجد في الجهات الجبلية باليمن ، خاصة فيما بين « تعز - صنعاء - تهامة » نقوشاً في اللغة الحميرية».

وعن طريق هذه البعثة ، عرف العلماء هذه الكنوز ، التي تنتظرهم ، والتي تتصل بالاثار القديمة لبلاد العرب الجنوبية ، لذلك كانت بعثة « نيبور » فاتحة البحث واللهاث وراء الاثار العربية .

الثانية :

في صيف /١٨١٠/ نجد الدكتور « و . ي ستزن » يحاول البحث عن النقوش التي تحدث عنها «نيبور » وماكاد يترك « صنعاء » ويتجه الى الجنوب حتى عثر على النقوش التي اشار اليها «نيبور» واستطاع أن ينسخ بالقرب من المدينة الحميرية «ضمار» النقوش العربية الجنوبية الاولى ثم واصل سيره ماراً « بعدن » حتى بلغ «مخا » فاعتقد القوم انه ساحر ، لما وجدوا معه ثمابين ثم اختفي داخل البلاد نهائياً .

ثم جاء رحالة آخر وهو « ارنود » وقد علم من سكان «مأرب» عن مخلفات « ستزن » من رسوم واوراق وكتب ممهورة بامضائه الى جانب بعض الرسائل والنقوش .

ولم يمر حادث اختفاء « ستزن »دون ان يترك أثراً في نفوس المغامرين الاوربيين في الاحجام عن السفر الى بلاد العرب زهاء ثلاثين عاماً .

الثالثة :

وفي صيف عام «١٨٣٦» استطاع كل من « هلتون » و « كروتندن » الوصول

الى « صنعاء » بطريق كان السير فيها شاقاً لجفافها وشدة حرارتها ، مما أدى لمرض « هلتون » ووفاته . ونجح « كروتندن » فيما بعده في نشر النتائج التي وصلت اليها بعثته ، ومن بينها ، خمسة نقوش قصيرة سبائية وجدها في صنعاء

الرابعة :

نظراً لاهتمام الانكليز بالشواطيء اكتشف الفتنت « ولستند » عام ١٨٣٤ «حصن الغراب » الواقع على الشاطيء شرق « بال حاف » ، كما وجد فوق الصخر الاسود الذي بني عليه الحصن ، بعض النقوش ، من بينها نقش اشتمل على عشرة اسطر عرف باسم « نقش حصن الغراب » ويعود الى عام/ ٦٤٠/ . ويعد أول نقش طويل كامل واضح عثر عليه . وفي العام التالي انتهز « ولستد » رسو السفينة في خليج قبة العين فقام برحلة متجهاً الى الشمال لمسيرة يومين في الصحارى ، فعثر على بقايا مدينة يطلق عيلها اليوم (نقب الهجر) ، اما الاسم الاصلي فهو (ميفعة) وقد ورد ذلك في نقش بحائط نقله الانجليزي ، واسمه نقش نقب الهجر

الخامسة :

في عام ١٨٣٢ قام المبشر (ولف) برحلة من مخا إلى صنعاء وعاد بخفي حنين وكذلك كان نصيب عالم النبات (بوتا) الذي قـــام برحلته ١٨٣٨ الى الجهات الغربية الجبلية .

وبعد هاتين الرحلتين ادرك العلماء ان مالديهم من النقوش يصلح لان يكون أساساً لدراسة اللغة العربية الجنوبية ، فاضطلع العلماء الالمان بهذه المهمة وظهر (جزنيوس)و (روديجر) .

السادسة :

في عام ١٨٤٣ سار الالماني « ادولف فون فريده من ميناء مكلا متجهاً باتجاه

الشمال الغربي حيث «حضرموت» . فعثر بعدها في سهل ميفعة الشرقي بوادي « اوبنه » على بقايا حائط قديم وعليه نقش حضرمي من خمسة سطور يعرف باسم نقش «اوبنه » .

السابعة :

وفي عام ١٨٤٣ ايضاً رحل الصيدلي « توماس يوسف ارنود » كطبيب للسفارة التركية الى صنعاء . وهناك هرب من رفاقه ، ووضع نفسه تحت حماية احد افراد قافلة متجهة من صنعاء الى مأرب واستطاع ارنود بتصريح خاص من أمير المدينة ان يدخل مأرب وخلفها تاريخها الغني المجيد ، وما كاد ارنود يدخل مدينة مأرب حتى سارع ورسم تخطيطاً يبين السد ، كما نسخ عدداً من النقوش ولان الامير وضع ارنود تحت حمايته ، استطاع ان يفحص خرائب مأرب القديمة وهي عبارة عن طبقة أرضية من بقايا سور المدينة المحيط بها ، وكذلك معبد (المقة) (١) الواقع خارج المدينة ، الذي يطلق عليه العرب اسم (حرم بلقيس)

---

١ ـ المقه ، اسم الاله القمر السبائي ص ٢١٦ وهو سين الحضرمي وعم القتباني و(ود) المعيني وكلها أسماء لاله القمر ص ١٨٩ ـ (عن كتاب التاريخ العربي القديم وديتلف نيلسون) واليه يشار دائماً أما الاسماء العادية للقمر كاله قمري ، والتي نجدها عند مختلف الشعوب السامية فهي (ورخ)و(سين)و(شهر) فهذه الاسماء غالباً مانجدها في مختلف النقوش سواء أكانت في جنوب بلاد العرب او بلاد الحبشة او في شمال البلاد العربية . لكن الشيء الاهم هو ان كل الاساطير التي لدينا بمحتوياتها الدينية المختلفة ترجع كلها الى القمر ص ٢٠٧

وكما ان الشمس هي الام العظمى للآلهة كذلك القمر هو الاب السماوي ص ٢٠٨ (ومن عدد عظيم من الاسماء والالقاب يتضح لنا ان هذا الاله كان ينظر اليه كالجد الاكبر القبيلة و الشعب ، وبني آدم . من هذه الاسماء نجد لفظ (أب) وكذلك (عم) وقد اصبح ذلك اللفظ في العربية المتأخرة قاصراً على (العم) . لكن قديماً كان يدل على نفس المعنى الذي يدل عليه لفظ (أب) بمعنى الجد الاكبر والاصل . وبهذا المعنى يلعب هذا اللفظ الدور الهام في وصف ذلك الاله بكونه الرحمن الرحيم بالبشر وحاميهم ص ٢٠٨

وفي اثناء عودته الى صنعاء ، انتهز استراحة القافلة بمكان قريب من خربة غنية بالخرائب ، سار اليها ليلا ، برفقة دليله ، فاستطاع ان ينسخ بعض النقوش التي تتحدث عن بناء العاصمة السبأية الاولى صرواح ، وقد قاسى ارنود الاهوال في الطريق من صنعاء الى شاطيء تهامة الا ان وصفه للرحلة والنقوش السبائية التي يبلغ عددها ٥٦ نقشاً وصلت الى القنصل الفرنسي (فرسنل) وكان هذا القنصل من المعنيين بمثل هذه الدراسات ، خاصة اللهجات العربية الجنوبية ، وكانت ترجمته لمثل هذه النقوش في ذلك الوقت ، مسألة صعبة ، ومع ذلك ارسلها (فرسنل) الى المجلة الآسيوية عام ١٨٤٥ وقد استخدمت الحروف العربية الجنوبية للمرة الاولى ومن بعض ملاحظاته ، تبين لنا انه كان على حـــق في شروحه ، كما كان على شيء من الخبرة في النقوش العربية الجنوبية . وقـد قام (ارنست اوسيندر) ببعض البحوث حول نقوش (ارنود) وشرحها كاملة قبل وفاته ١٨٦٤

الثامنة :

اذا استثنينا نقوش ارنود فمعظم النقوش التي وصلت أوربا كانت على يـد الانكليز ، ولذا بدأت فرنسا تهتم بالامر ، فقررت اكاديمية الفنون الجميلة ارسال المستشرق يوسف هلفي في بعثة إلى بلاد اليمن ، استطاع هلفي ان يتصل هناك باليهود اليمنيين ، كما تبين له ، انه من السهل على اليهودي ان يتجول بين افراد القبائل العربية المستقلة ، كما تقتضي الشهامة العربية ، عدم الاعتداء على اليهودي الاعزل حفاظاً على الكرامة البدوية ، لذلك استغل هلفي هذه التقاليد ، وتزيا بزي يهودي فقير ، حضر من القدس الى اليمن عام ١٨٧٠ ، وأخذ يتنقل في مختلف الجهات التي كان من العسير على غيره بلوغها .

ومن صنعاء بدأ رحلته مخترقاً الجوف الى نجران وهناك وقف امام خرائبها

ثم تركها متجهاً جنوباً ماراً بمأرب و صرواح عائداً الى صنعاء .

لكنه عاد يحمل الكثير من المواد العلمية الى فرنسا ، وقدم للأكاديمية ، مالايقل عن ٦٨٦ نقشاً لم يعرف العالم منها من قبل إلا ١٥ نقشاً جمعها من ٣٧ مكاناً ، ونشرها هليفي عام ١٨٧٢، مع ترجمة لها تتفق والمستوى العلمي لعصره وبعدها نشر هليفي بحثاً حول لغة النقوش .

والقيمة العلمية الكبرى لهـذه الرحلة ، ليست في كمية نقوشها ، وانما للمعلومات الجديدة التي جاءت بها . فمنها عرفنا أنه كان هناك حضارة راقية رفيعة لشعب ضرب في المدينة بحظ وافر .

في الجوف العربي الجنوبي وشمال شرقي صنعاء اكتشف « هليفي » آثار تلك الحضارة الرفيعة التي مدنها فـــوق مرتفعات حصينة ، تبين من النقوش فيما بعد أنها مدن « معينية » قديمة بينما النقوش التي عرفت من قبل كلها في اللغة السبائية ، وقليل منها في اللهجة الحضرمية ففي خرائب المدن المعينية عرف « هليفي » العالم على معابد هي على جانب عظيم من البهاء ، وعثر على مرتفع يظهر أنه كان مكاناً مقدساً ، نسخ منه / ١٥٤ / نقشاً دينياً يتصل بالحياة الدينية العامة ، ومنها نعرف أن المدينة الحالية « براقش » سميت قديماً « يطيل » وهي من المراكز الثقافية المعينية . ووجد أيضاً مدينة تعرف اليوم « السوداء » أعتقد قديماً انها كانت صناعية بالرغم من انها اليوم خرائب ، واكبر مدينة لم تصلنا الاخرائبها ، هي عاصمة دولة معين « قرناو » واليوم « معين » حيث تقع على مرتفع طوله / ٢٨٠ / م وعرضه / ٢٤٠ / م يحيط به سور عظيم ، وجـــد عليه « هليفي » وعلى غيره / ٨٠ / نقشاً .

في تلك الفترة أصبحت اليمن منذ عام ١٨٧٠ أيالة تركية ، حتى الحرب

العالمية الاولى . وكثيراً ما كان الموظفون الاتراك يشترون بعض النقوش التي كان العرب يجلبونها الى صنعاء ، ولذا اصبح المتحف التركي يضم /٥٠/ قطعة معظمها سبأية .

وكان من نتيجة رحلة «هليفي» ومشتريات الاتراك ، أن زاد الاهتمام بآثار البلاد العربية الجنوبية لذلك قام الكثيرون يقلدونها ويبيعونها للمتاحف الاوربية إلا أن العلماء اهتدوا إلى هذا التزوير ، عن طريق جمل متقطعة ، أو كلمات مكتوبة على مادة جيدة ، وقد أفادت من حيث أنها كانت تقليداً لاجزاء اصلية

التاسعة :

وفي عام ١٨٨٠ أقـــدم العالم المستشرق النمساوي استاذ اللغة العربية « ادوارد جلازر» على رحلة من قبل الاكاديمية الباريسية الى مصر ، ليتزود باللغة والعادات والتقاليد العربية .

وبينما كان « جلازر » في طريقه إلى اليمن ، اقترح مستشرقو « فيينا » ارسال المستشرق الشاب أخصائي اللغة العربية « سيجفر لينجر » عـــام ١٨٨٢ إلى اليمن عن طريق سورية ، فجدة ، فقنفذه ، فالحديدة وفي طريقه الى صنعاء مخترقاً بلاد حمير القديمة ، عثر على نقش حميري كبير واهتدى إلى الخرائب الحميرية ، التي اشار اليها « نيبور » وفي صنعاء استطاع نسخ نقشين ، ولم يسمح له الاتراك بالتقدم داخل البلاد فأعادوه الى الحديدة .

لكن « لينجر » لم يفقد الرغبة في المغامرة فتوجه إلى عدن ، وتوصل الى نقوش لايعرف من أي الجهات وصلت لعدن . من بينها نقش هام جداً من الناحية اللغوية ، فهو في اللهجة الحضرمية ومن عدن تنكر في زي احد الاعراب ليصل الى الخرائب داخل البلاد ، فكشف دليله أمـــر حيلته ، فقتله بعد

مسيرة أيام قلائل من عدن ومن حسن الحظ ان لنجر كان قد أرسل من قبل هذه النقوش والتي يبلغ عددها ٢٢ نقشاً الى «فيينا» ونشرت بعد وفاته .

العاشرة

وفي نفس العام الذي قتل فيه « لينجر » وصل جلازر الى صنعاء فاحتجزه الاتراك محتجين بمصير لينجر لكن جلازر اقنع كبار الموظفين بأهمية مهمته فاستطاع أن يقوم مابين ١٨٨٢ – ١٨٨٤ بثلاث رحلات في شمال بلاد اليمن .

الرحلة الاولى : كانت برافقته لحملة تركية حربية لفتح مدينة سودة التي كانت تناصب الحكومة العداء ، حيث نجح « جلازر » تحت حمايتهم في القاء نظرة عامة على البلاد .

الرحلة الثانية : قرر القيام برحلة في رفقة بعض اليمنيين الى شيام - كوكبان - رهجة عمران ، وجميعها بالقرب من همدان . وهناك فحص خرائبها ونسخ نقوشها ، ثم واتته فرصة ثمينة بدخول منازل قبائل «حاشد » و «بكيل» فاستغلها بمعونة الحاكم التركي الذي اكتسب ود القبيلتين الاختين المتنازعتين اللتين كثيراً ما جاء ذكرهما في النقوش القديمة .

الرحلة الثالثة : في يناير ١٧٧٤ بدأ رحلته مع بعض شيوخ « ارحب » ثم أرسل نتائج رحلاته الثلاث الى الاكاديمية الفرنسية ، وهذه النتائج تلخص في أربعة أحجار فيها نقوش سبائية ، و ٢٨٠ نسخة لكتابات شاهدها .

الحادية عشرة :

في عام ١٨٨٥ يعاود « جلازر » السفر إلى بلاد العرب الجنوبية ، ولكنه يخص المنطقة الواقعة بين صنعاء و عدن بعنايته ، لانه يرمي إلى زيارة الخرائب - التي اشار اليها نيبور - الواقعة بالقرب من «ضمر » و «يريم » ، اتجه شمالاً شرقياً الى

رداع » . وحصل على ٣٧ نقشاً أصلياً معظمها في اللغة المعينية ومن اقليم «جوف » اضيفت. هذه المجموعة ايضاً الى مجموعات المتحف البريطاني ، وتعتبر اكبر مجموعة معينية وصلت إلى أوربا بعد مجموعة « هليفي » وقد عاد « جلازر من رحلته هذه ، ومعه اكثر من ١٥٠ نسخة من النقوش الجنوبية .

الثانية عشرة :

وفيمابين ١٨٨٧ – ١٨٨٨ قام جلازر أيضاً برحلة أخرى قاصداً مأرب العاصمة القديمة لسبأ وهي واقعة في وادي ضنة شرق صنعاء . وقد وفق جلازر اذ قضي ستة أسابيع وسط خرائب مأرب ومعالمها التاريخية .

ففي مأرب استطاع ان يرسم جلازر تخطيطاً لاثار القنوات القديمة وسدودها العظيمة التي كانت مصدر خصوبة لمملكة سبأ وسبباً قوياً من أسباب حضارتها ونسخ الكتابات التي كانت على السدود كا قاس محيط المعبد لاله القمر وقد ظل هذا المعبد قروناً عديدة صامداً امام قـــوة الصحراء ، يحمل في بنيانه دلائل الحضارة والرقي .

كانت نتيجة الرحلة مايقرب من ٤٠ نقشاً سبائياً ، عدا القطع الأثرية والمقود والخواتم ، وجميعها محفوظة « ببرلين » وقد أحضر أيضاًمايقرب من ٤٠٠ نسخة لكتابات عربية جنوبية ، لم يقم أحد حتى اليوم بنشرها ، ثم قضى جلازر عواماً صرفها في الابحاث العلمية ، ودراسة تلك النقوش .

الثالثة عشرة

وبين عام ١٨٩٢ – ١٨٩٤ عاود جلازر الكرة بمساعدة « اكاديمية براغ » إلا ان الظروف السياسية في بلاد اليمن ، كانت غير مواتية ولاتشجع على التوغل داخل البلاد لان القبائل كانت ثائرة على الاتراك ولذلك علم جلازر بعض البدو طريقة طبع النقوش على الورق ثم أرسلهم من صنعاء الى الجهات المختلفة وكانت لهذه المحاولة نتائج باهرة فقد كان يعطي مبلغاً مغرياً من المال عن كل نقش

يطبعونه . فأخذوا يبحثون عـــن الخرائب التي لم يصلها اوربي من قبل ، واستطاع جلازر عن طريقهم الحصول على الكثير من النقوش المعينية من اقليم «الجوف» منها ما كان قد احضره سابقاً «هليفي» بشكل غير واضح كما حصل جلازر على نقش صرواح العظيم الذي يشتمل على اكثر من ١٠٠٠ كلمة وعلى مايقرب ١٠٠ نقش ظهر انها ترجع الى الدولة القتبانية .

فمن طريق رحلة الصيدلي الفرنسي « ارنود » والمستشرق هليفي ظهرت دولتان بفضل النقوش « السبائية » و « المعينية » ، كنا نعرفها مـــن النصوص الكلاسيكية ، والتي بدورها تحدثنا عن أربع دول عربية جنوبية (للمعينيين والسبائيين ، والحضرميين ، والقتبانيين) . ولكن النقوش لاتحدثنا الاعن ثلاث لهجات لثلاث دول اما الدولة « القتبانية » الاخيرة ، فلم يرد ذكرها اوذكر ملكها الا في نقش واحد ومنه عرفنا بوجود دولة بهذا الاسم ، ولم نعرف شيئاً عـــن لغتها أو أدبها وثقافاتها او موقعها . حتى ظهرت وثيقة منحوتة في الحجر تتحدث عـن سكان تلك الدولة . والفضل في الحصول تلك الوثيقة ، يرجع الى البدو الذين احضروها الى « جلازر » والنقوش المائة تتحدث عن الحياة السياسية والتاريخية والدينية ، وجـــدت في اماكن عديدة في الدولة القتبانية ، وبذلك أزيح الستار عنها من الناحيتين التاريخية والثقافية .

أما القيمة العلمية لرحلات « جلازر » يكفي ان توصف بأنها فتحت عهداً جديداً لمعلومات عن بلاد العرب السعيدة ، كما أغنتنا في معرفة تاريخ الشرق القديم . اما السر في نجاحه فيرجع الى اعداده العلمي ، فقد امتاز من غيره انه درس العادات والتقاليد واللغة العربية ، ثم انه كان يحدد هدفه قبل البدء في الرحلة وجلازر قضى عشرة اعـــوام بين العرب ، فاكتسب صداقتهم ، كما

كان محبباً لهم ، والا لما استطاع ان يحصل على ماحصل عليه .

وبرحلات جلازر تكاد الابحاث حول بلاد العرب الجنوبية تبلغ نهايتها فيما يتصل بالنقوش والكتابات ، ولذلك نستطيع ان نلخص هـــذه المجهودات العلمية للرحلات في اعمال ثلاثة رجال هم « نيبور ـ هليفي ـ جلازر » .

الرابعة عشرة

ونظراً للنتائج الباهرة لرحلات جلازر أعدت اكاديمية فيينا تحت اشراف كل من « د . هـ . ملر » و « ك . لندبرج » بعثة علمية الى بلاد العرب عام ١٨٩٨ ، وحين وصلت ميناء عدن بدأت الصعوبات امامها ، لان البعثة لم تحصل على اذن خاص من الحكومة البريطانية ، بالتوغل داخل البلاد . لذا أبحرت إلى « بال حاف » بحضرموت ، وهناك زارت البعثة الخرائـــب الواقعـــة بالقرب من شبوه عن طريق « عزان ـ انصاب ـ وحبان » . ولم تستطع البعثة إلا طبع النقش الموجود في نقب الهجر بالقرب من عزان التي سبق ان زارها « لستد » ١٨٣٤ وطبع نقش « اوبنه » و « حصن الغراب » .

وفي عام ١٨٩٩ توجهت السفينة الى جزيرة سقطرة لدراسة لهجتهم ، كما درست فيما بعد اللغات الحديثة في الصومال ومهرة وسقطرة وشخوري، ونشرت ابحاثاً فيها فيما بعد .

جهود متفرقة

وفي الاعوام الاخيرة ، ساهم أمثال (فان دن برج) و (ا. دفلرز) و (ج . و . بري) وآخرون في زيادة معلوماتنا عن بلاد العرب الجنوبية ، وذلك لان الساحل الجنوبي العربي واقليم حضرموت الغني بالآثار والنقوش ، يقع تحت النفوذ البريطاني ، ومن الصعب الحصول على تلك النقوش عن طريق الرحلات . ولما نشبت الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ دب الكسل لدى

العلماء عن الاهتمام ببلاد العرب الجنوبية ، لكن (أولف هوير) المبشر الدانمركي في عدن اغلق أبواب مدرسته ، وعاد الى بلاده ومعه طبعات لبعض النقوش العربية الجنوبية ، كما تمكن زوج ابنته الماجور الانجليزي (يعقوب) من ارسال مجموعة من الآثار الى دلهي .

الدراسة العلمية للآثار .

ان دراسة بلاد العرب الجنوبية . قبل الحرب العالمية الاولى ، كانت قد خطت خطوات واسعة بفضل (جرنيوس وأوسيندر وبرتوريوس و ا د . هـ ملر) والأخير نشر كثيراً من النقوش ، كما عني بالقواعد وحاول ترتيب النقوش ترتيباً زمنياً ، ووجه اهتماماً كبيراً لدراسة المصادر العربية الشمالية الاسلامية التي عنيت ببلاد العرب الجنوبية .

وقد اهتم بمثل هذه الدراسات القنصل الالماني في القسطنطينية الدكتور (ي . هـ مورتمان) ويشاركه (مارك ليدزبرسكي) في جوتنجن في دراسة كثير من النقوش ومعالجتها علاجاً علمياً دقيقاً . وأخيراً نجد الدكتور (فريتزهومل) يضع في ميونيخ كتاباً في قواعد اللغة العربية الجنوبية مع ثبت بالمراجع والنصوص ومعجم لها .

ومن حسن الحظ ان الدكتور (جلازر) منذ عودته من رحلاته حتى وفاته ١٩٠٨ وجد أمامه فسحة من الوقت مكنته من العناية بالنقوش ، ودراسة مشاكلها ، لوضع تاريخ لبلاد العرب الجنوبية .

كذلك الحال مع استاذ جامعة برلين (مارتن هرتمان) ، فإنه بعد ان سبق ونشر النصوص ، توجه لدراستها وكتابة بعض البحوث حول الحياتين الرسمية والاجتماعية في بلاد العرب الجنوبية معتمداً على الاثار ، وكذلك فعل

زميله في الجامعة (هو جو فنكر) درس بعض النصوص العربية الجنوبية ، ونشرها فخدم بذلك تاريخ الشرق الأدنى وثقافته وعقائده .

والآن لابد ان يتساءل القارىء ماالفوائد التي عادت على العالم من تلك الرحلات ؟ وعم تحدثنا هذه الاثار ؟ .

إن تلك الاثار كلهاقد دونت بلغة واحدة وتحدثنا عن عظمة غابرة لبلاد تمكن أبناؤها أن يقيموا مدنية رفيعة وقصة هذه المدنية كغيرها من القصص تنمو وتزدهر مادامت عوامل النمو متوفرة ، أما إذا زالت الاسباب انعدمت النتائج . فالمدنيه العربية الجنوبية ظلت قوية حتى افلتت الطرق التجارية من يــد العرب الجنوبيين فذبلت وقضي عليها . وكما ان حــل رموز اللغة (الهيرو غليفية) فتح صفحة جديدة في تاريخ العالم كذلك حل رموز المسمارية الاشورية البابلية اضاف فصلاً جديداً على فصول سجل العالم . وهكذ الحال مع بلاد العرب الجنوبية فقد كشفت هذه الآثار عــن حضارة عربية قديمه لاتقل عن أُختيها المصرية او البابليه الاشورية .

ملاحظة : ثم يكمل المؤلف (نيلسن) بحثه تحت العناوين التاليه :

الكتابة

فقد كشف حل رموز تلك النقوش للعلماء الغربيين ان لغتها لم تدون في اشارات تعبر عن افكار اومقاطع ، كاللغة السامية الاشورية وانما . جاءت بأبجدية تعبر عن تسعه وعشرين صوتاً ، وهي تقابل الابجدية العربية الشمالية وان الكتابة من نوع الكتابة السامية العربية ، أعني كتابه حروف فقط تقرأ من اليمين الى اليسار ويلاحظ ان الابجدية العربية الجنوبية اقرب الابجديات السامية الى الحبشة الا أنها مع مرور الزمن ، أخذ يطرأ عليها بعض التحول ، إذ

ان الحروف القديمة مستقيمة عادة ومن السهل التمييز بينها وبين الحديثة المموجة لحد ما فهذه الفوارق هامة جداً لانها تؤرخ هذه النقوش وتميز بينها .

مادة الكتابة :

استخدم الحجر بأنواعه المختلفة مادة للكتابة . أما النقوش فتوجد عادة في المباني محفورة بدقة وجمال . أما كتابات المعابد فقد كانت حروفها كبيرة يمكن قراءتها من مسافات بعيدة ، وقد عثر على الواح مدفونة مكتوبة . ورؤوس التماثيل من الرخام وخواتم واختام وقطع نقود ذهبية وفضية ونحاسية .

اللغـــة :

ثبت أنها لهجة سامية قريبة الى الحبشية ، واللغة العربية الشمالية لغـــة القرآن الكريم . وقد فرق العلماء في اثناء شرحهم وترجمتهم للنقوش بين أربع لهجات تمثل كل منها دولة من الدول التي قامت في بلاد العرب السعيدة . ولم تبلغ بعد دراسة اللغة العربية الجنوبية مرحلة الكمال . وحاول « فريتز هـــومل » سد النقص فوضع كتاباً في القواعد السبائية ، ولاتزال تحتاج الى اخراج معجم لغوي للغة الجنوبية ، خاصة وأن هذه النقوش تقرب من الألفين .

المحتويات :

تعبر الآثار التي وصلتنا عن مواضيع مختلفة ، الا أن أغلبها يتحدث عن العبادات وكتابات المعابـــد التي تتصل بتقديم القرابين ، وهي تكاد تكون ذات صيغة واحدة مكررة في نقوش كثيرة وغالباً مايكون النص كالآتي :

« فلان بن فلان قـــدم للآله « عثتر » (١) مثـــلا أو

١ ـ عثتر ، تدل على آلهة من آلهة الطبيعة أي الزهرة . ص ١٧٨. وهي (عشترت) عند الكنعانيين .

« ود » (١) أو « شمس » (٢) ماباتي - مذابح ، هدايا الخ . . . شكراً للآلهة الذين استجابوا دعاءه ، وبعد ذكر سبب تقديم القربان نجد غالباً التاريخ يذكر باسم الملك الحاكم ، و يختتم النص بدعاء موجه للآلهة » .

والنصوص لاتفصل الحديث عـــن الدين لكنها تكثر من ذكر أسماء الآلهة ، والاعلام المستمدة من اسماء الالهة كلها ولاشك تعيننا على فهم الدين ونوع الالهة والعبادات .

الحبشة

ليس الساميون الذين خلفوا لنا في بلاد الحبشة آثاراً وآداباً هم العنصر الاصلي فيها بـــل هم هاجروا إليها من بلاد العرب ، وذلك لان لغتهم عبارة عن لهجة عربية جنوبية ، أما اللغة والخط والثقافة فسبائية منذ البداية ، وذلك لان بعض المهاجرين من بلاد العرب الجنوبية ، نزحوا إلى البلاد فيما يظن في قرون بعيدة قبل الميلاد وأسسوا مستعمرات ، ووضعوا الاساس لدولة الحبشة التي اخضعت فيما بعد في القرن السادس الميلادي بلاد العرب الجنوبية لسلطانها .

---

١ - ود : صنم كان يعبد في وادي القرى بدومة الجندل . قال الكلبي : فحدثني مالك بن حارثة الاجداري أنه رآه يعني « ودا » قال : وكان أبي يبعثني باللبن اليه فيقول اسقه الهك قال : فأشربه قال ثم رأيت خالد بن الوليد بعد كسره فجعله جذاذاً . وكانت العرب تسمي « عبدود » « كتاب الاصنام ,لابن الكلبي ص ٥٢ »
لها دلالة معنوية اصبحت آلهة ومعناها « حب » ويقصد به الحب الالهي ص ٢٠٩ وقد ورد معناه في نقش سبائي « اله القمر » وفي نقش معيني أنه وصف « النامي » كأنه اله القمر ، وفي الثمودية كتحية وكاله وجد في النصوص اللحيانية ، ففي النقش اللحياني رقم «٤٩» نجد « عبدود » أي كاهن « ود » وقبيل ظهور الاسلام ورد ذلك اسم الاله ضمن اسماء اعلام كما ذكر في القرآن الكريم « سورة ٧١ آية ٢٢ » وقد حكى القرآن عنه بأنه صنم جاهلي قديم وجد قبل زمن الطوفان ص ٢٠٩ .

٢ - شمس . صنم قديم قال صاحب التاج ان ابن الكلبي ذكره « وليس له ذكر في كتاب الاصنام فلعل ابن الكلبي اشار اليه في كتاب اخر » وقد سمت العرب « عبد شمس » وهو بطن من قريش ، قيل سموا بذلك الصنم واول من تسمي به سبأ بن يشجب
« احمد زكي محقق كتاب الاصنام لابن الكلبي »

ففي ربيع عام ١٩٠٦ وصلت بعثة المانية برئاسة « انوليتمان و د ـ كرنكو » الحبشة لدراسة خرائب « اكسوم » ، نشرت نتيجة أعمالها في أربعة مجلدات وتشتمل على ٥١ لوحاً و٨٧٣ صورة للنصوص . فآثار الحبشة لاتبلغ في الكثرة تلك التي وجدت ببلاد العرب الجنوبية ، فقد جاءنا من الحبشة ١١ نقشاً طويلاً و ٤ نقوش قصيرة ، وجميعها وثائق تاريخية هامة وهي تشمل عصراً يبلغ نحو ١٥٠٠ عاماً وتكشف اللثام عن حضارة كانت مجهولة تماماً .

واقدم هذه النقوش جاءت في اللغة السبائية والخط السبائي ، وترجع إلى منتصف الالــف الاول قبل الميلاد . وفي حائط كنيسة قائمة على قمة جبل « الانبابنتليون » وجد حجر يتحدث عن مكان سبائي مقدس ذكر فيه الالهة السبائية « ذات بعدن » (١) كما وجد جزء من نقش سبائي لتقديس الاله العربي الجنوبي « عثتر »

وقد وجدت وثيقة هامة تتصل بالملك عزانا وهي على لوح الجرانيت الاسود ترجع إلى القرن الرابع الميلادي وتذكر في اللغة القومية آلهة الاكسوميين ، في

١ ـ ذات بعدن ، آلهة سبأية وضعت كصفة او للتعبير عن شكل خاص . ففي العربية نجد مثلاً ضمير الاشارة « ذو » للمذكر و «ذات» للمؤنث،وبعض اسماء ـ فمثلاً : « ذو عقل » أي سيد اوصاحب عقل اي عاقل . ومثل هذا التعبير نجده مع اسماء الآلهة مثلاً «ذو خلاص » و « ذو شرى » « ذو قبض »و« ذات انواط » و « ذات حميم » و « ذات بعدن »جميعها مستعملة في معاني وصفية ، وهيمستعملة كألقاب وليست اسماء ص ١٩٠ واسماء الشمس في بلاد العرب الجنوبية غالباً ماتبدأ بلفظ (ذات) كما يرجع ان آلهة الشمس كانت تسمى عند المعينيين (نكرح) وهو اسم غريب غامض وعند السبائين نجد من اسمائها (ذات بعدن) و (ذات غضرن) (ذات برن) وفي النقوش القتبانية نجدها تسمي (ذات صنتم) و (ذات صخرن) و (ذات رحبن) . ص ٢١٧

ذلك الوقت مثل اله الحروب القومي « محرم » (١) وهـــو اللقب الملكي الوحيد و « عثتر » و « بحير » . (٢) و « مدر » والى الملك « عزانا » يعـود ادخال المسيحية الى « اكسوم » في القرن الرابع الميلادي ويؤيد هـــذا الرأي ، ان لهذا الملك نقوداً وثنية ، وأخرى مسيحية جاءتنا بعضها

بلاد العرب الشمالية

إذا ما تتبعنا سير الثقافة السامية الجنوبية واتجاهها نحو الشمال استولت علينا الدهشة ، وذلك لاننا إلى وقت قريب لم نكن لنعثر على شاهد ما في الصقع الشرقي لشبه جزيرة العرب يشير إلى بقايا تلك الحضارة الذهبية الغابرة وهذه الحقيقة أي عدم العثور على شيء من بقايا الحضارة السامية الجنوبية السائدة صادقة سواء في « عُمان » المشهورة بالخصوبة او شمال شرق بلاد العرب . أما الاثار التي وجدت خارج بلاد العرب الجنوبية فمعظمها في الجهات الصحراوية القاحلة والجبلية الحجرية في شمال غرب بلاد العرب حيث تكشف لنا القناع عن الحالات المختلفة التي مر بها الطريق التجاري العربي المار « بمكة » و « المدينة » والذي يمتد حتى يبلغ « دمشق ». واكثر هذه الاثار وجدت في المدن التي فقدت كثيراً من اهميتها اعني « العلا » و « الحجر » (مدائن صالح) و « بطراءة » و «بصرى» و فيها الكثير مـــن الخرائب التي ترجع الى ماقبل الميلاد ممـــا يؤيد انها كانت مركزاً تجارياً هاماً . وقد عثر العلماء على كثير من الاثار في قلب الجزيرة

---

١ - محرم : عند الساميين الجنوبيين كانوا ينظرون الى آلهتهم كأشخاص لها ماللافراد من خصائص ومميزات مثل (محرم) بمعنى (القديس) ص ١٨١ وقد جاء ذكره أيضاً عند القتبانيين (حرم أن) أي المقدس ص ١٩١

٢ - بحير : آلهة من الهة الطبيعة ويعني (أرض) وهو من الاسماء النادرة وكذلك (مدر) ص ١٨٨

« نجد » والجانب الغربي لبادية الشام وفي شبه جزيرة سيناء ويظن ان هـــذه الكتابات انتشرت الى قلب الجزيرة عن طريق القواعد التجارية .

والفضل في الحصول على كثير من النقوش العربية الشمالية ، يرجع الى امثال « دوتي - وهوبر - وأتينج » الذين قامـــوا برحلات شاقة في شمال غرب بلاد العرب ، في الفترة الممتدة مـن / ١٨٧٦ - ١٨٨٤ / وقد بلغ ثلاثتهم « هايل » في شمال قلب الجزيرة .

وعندما اقيم خط حديد « مكة » استطاع امثال « جوسن وسافيناك » الوصول الى خرائب « الحجر » و « العلا » و«تيماء » كما نجـح « برينو - وموصل ودلمان » وآخرون في الكشف عن « بطرا » وماجاورها . اما الاشياء الاثرية التي عثر عليها في سورية ، فيرجع الفضل فيها الى رحلات امثال « فوجيه - ودنجتون » عام ١٨٦١ - ١٨٦٢ وقـــد أتمت مابدأه هـــذان العالمان ، فيما بعد ، بعثتان فرنسيتان وأخريان امريكتيان .

وإذا ماقارنا هـــذه الاثار ، بتلك التي وجدت في جنوب بلاد العرب او الحبشة ، ادركنا أننا في شمال بلاد العرب أمام مجموعة متنوعة من الاثار .

كانت الثقافة العربية الجنوبية قاصرة على اقليم ضيق غـــاص بالسكان ، والقبائل العربية الجنوبية أجمعت أمرها على ان تتحد بـــدول لها لغاتها وكتاباتها ودياناتها الرسمية والخاصـة ، وهي ثقافة سامية جنوبية خالصة بعيدة عن المؤثرات الاجنبية بفضل الصحاري الواسعة الممتدة حولها . وعلى النقيض منها كانت الاثار العربية الشمالية منتشرة في جهات بعضها قفر ، والبعض الاخر آهل بالسكان حيث ان تلك الاماكن لم تكن خاضعة لحكومة مركزية واحدة . بل كانت ملكاً مشاعاً بين القبائل ، ويزيد في اهمية هذه الاثار ان قلب الجزيرة لم يعرف الوحدة السياسية قبل الاسلام . ويلاحظ ان الثقافة

السامية الشمالية ، لم تقتصر على وطنها الاصلي ، بل تسربت الى قلب الجزيرة عن طريق العمارة اوالكتابة او الدين والمعبودات الدخيلة .

لكن سهول شمال بلاد العرب بما فيها الشام كانت منذ زمن بعيد مرتعاً بعيداً للبدو وماشيتهم . وذلك بفضل التقاء تلك السهول ، وهذه البوادي بطراف البلادوان تكن سامية الاانها كانت تحيا حياة نصف بدوية ، فهناك تجد الفلاحين والتجار والجنود المرتزقة الذين كانوا يعملون في خدمة الدول الاجنبية بحماية حدود املاكها ، بفضل هؤلاء الجنود وأولئك التجار الذين كانوا على اتصال مستمر بعرب قلب الجزيرة ، تزاوجت الحضارة السامية الشمالية بأختها في قلب الجزيرة وذلك قبل الميلاد .أما هذه الثقافة الساميةالشمالية فهي الثقافة الارامية .

ففي الوثائق الاربع القديمة التي عثر عليها في «تيماء» بين المدينة وبطرة نقرأ مثلاً كيف أنه قامت هناك مستعمرة آرامية تجارية حوالي القرن الخامس قبل الميلاد . كما أن كثيراً من النقوش النبطية يرجع تاريخها الى ماقبل الميلاد وبعده ، والتي عثر عليها في شمال غرب بلاد العرب ، وفي شبه جزيرة سيناء وحوران ناطقة بالعرب والعروبة ، إلا ان العرب هنا كانوا تجاراً يتكلمون الارامية ويكتبون بها .

وتنقسم الوثائق العربية الشمالية الى أربعة أقسام :

١ ـ الكتابات المعينية الشمالية التي وجدت في « العلا »

٢ ـ الكتابات اللحيانية

٣ ـ الكتابات الثمودية

٤ ـ الكتابات الصفوية .

الكتابات الشمالية المعينية :

اما مركز الثقافة العربية قبل الاسلام فيظهر مما جاءنا من آثار أنه كان يقع في الجنوب ، وذلك ليس لاسباب جغرافية فحسب بل تجارية واقتصادية ففي الجنوب نجد بضائع هندية متنوعة ، كلها كانت تحمل على ظهور القوافل العربيه الجنوبية الى الشمال مخترقـــة مكة والمدينة والعلا الى بطرة حيث توردها لشعوب البحر الابيض المتوسط . ولحـراسة تلك القوافل انشئت مستعمرات معينية في « العلا » شمال « المدينة » .

في ذلك المكان اكتشف اوبتنج ٢٥ نقشاً و ٥٠ مخربشة تنسب للمستعمرة المعينية المعروفة باسم « معين مصران » التي جاء ذكرها في النقوش العربية الجنوبية .

ومنها نستدل ان المعينيين الشماليين كانوا يستخدمون الكتابة والديانة المعينية التي استخدموها في وطنهم الاصلي ، فعند المعينيين الشماليين نجـــد نفس الثالوث « عثتر » و « ود » و « نكرح » (١) كما ان ود يرد ذكره عند الشماليين ككبير للالهه شأنه في ذلك شأنه في الجنوب . وتبين للعلماء ان تدوين تلك النقوش المعينية الشمالية لن يكون أحدث من منتصف الالف الاول قبل الميلاد . ويستنتج من اسماء الملوك أنها عمرت في الشمال حوالي قرنين من الزمن .

الكتابات اللحيانية :

في (العلا) وجد مايقرب من ٤٠٠ نقش يعرف باسم (اللحياني) وترجع هذه النقوش الى شعب او قبيلة يعرف باسم لحيان كما وجـــد تمثالان حجريان وقد يمثلان ملكين لحيانيين وقد اهتم رجال الكتابات السامية الجنوبية بدراسة

---

١ ـ نكرح : هي آلهة الشمس عند المعينيين ومعناها لازال حتى الآن غامضاً وموضع الحدس والتخمين ونحن نعرف اسماء آلهة الساميين الجنوبيين مـن النقوش ولانعرف مدلولاتها ص ١٨٤

هـذه الاجزاء مـن النقوش والخربشات العربية الشمالية لدراسة العصر الجاهلي الشمالي ، لأن ماروي لنا في المصادر العربية لايشفي ولاينفع والكتابة اللحيانية كتابة محلية حروفها سامية جنوبية وهي قريبة جداً الى الكتابة العربية الجنوبية والحبشية اما اللغة فلهجة غربية شمالية وهي ايضاً ساميةجنوبية والدين ، كما يتبين من أسماء الافراد ، سامي جنوبي أيضاً مثل ود وسميع (١) وعثتر ومناة (٢) ونسر (٣) أما كبير الالهه فيظهر انه المسمى ذو غبت (٤) وبعض العلماء يرى أن تلك النقوش اللحيانية ترجع الى القرن الخامس او السادس قبل الميلاد .

الكتابات الثمودية :

في قلب الجزيرة وشمالها الغربي لايكاد يخلو حجر من نقش تذكاري ،وقد نسخ من هذه النقوش حتى مطلع القرن العشرين حوالى ٢٠٠٠ نقش ،ومما يؤسف أن لهأن مانعرفه عن هذه النقوش العربية الجاهلية ضئيل جداً ، وبعض العلماء أطلق عليها لفظ « ثمودي » لأن القرآن الكريم كثيراً مايذكر الثموديين « الأعراف ، آية (٧٣) التوبة (٧٠) هود (٦١ - ٦٨ - ٩٥) » كوثنيين .

وهذه النقوش تشتمل على كثير من الاسماء والمعبودات الوثنيه ، كما وجد

---

١ - سميع : ومن مجموعة الاسماء الواردة في القرآن الكريم وفي النقوش العربية القديمة التي تصف الله بأنه حبيب البشر وانه هو الذي يريد لهم الخير ، وانه قريب وصديق نجد لفظ (ود) ولفظ (ود) يدلنا حقيقة على هـذه المعاني وكذلك الحال مـع الاسماء الاخرى الواردة في القرانمثل (سميع و (حليم) ص ٢٤٢

٢ - مناة : كان اقدم الاصنام « مناة » وكانت العرب تسمي « عبد مناة» و « زيد مناة » وكانت قريش وجميع العرب تعظمها

« كتاب الاصنام - ابن الكلبي ص ١٤ - ١٥ »

٣ - نسر : صنم كان بموضع من ارض سبأ يقال له بلخع تعبده « حمير » ومن والاها فـلم يزل يعبدونه حتي هودهم « ذو نواس » كتاب الاصنام - ابن الكلبي ص ٥٧ - ٥٨»

٤ - ذو غبت : اسم اله لحياني من الاسماء التي لايزال معناها غامضاً

بينها نقش كتب في لغتين النبطية والثمودية ، ويرجع تاريخه الى ٢٦٧ م ، لكن يستدل من كتابة النقش انها ترجع إلى ماقبل الميلاد .والشيء الجدير بالذكر أن هذه النصوص ، تؤيد ان شمال بلاد العرب كانت له كتابة جاهلية خاصة ، وثقافة وثنية خاصة ، وذلك لأن الكتابة ظهر أنها مشتقة من العربية الجنوبية وليست من نوع الكتابة العربية الشمالية المتأخرة التي دون بها القرآن الكريم فالكتابه الاخيرةمشتقه منالا بجدية السامية الشمالية من الآرامية .

واكثر أسماء الالهه وروداً اسم « إله - آل »(١) و الهه - الات ورضى(٢) والاسمان الاولان لايردان كما هو الحال في النقوش العربية الجنوبية والحبشية واللحيانية في اسماء الاعلام فقط ،بل في النصوص أيضاً ولهما دور كبير اذ ان المعبود إله ، آل، اصبح ينادى غالباً بلفظ « ال » أي الله بينما نجد ذكره نادراً عند الشعوب السامية الجنوبية حيث طغت علية في الطقوس معبودات أخرى .

ملاحظة : (لقد أشرنا في بداية المقال الى ان المؤلف نيلسن كتب ايضاً الفصل الخامس وتحدث فيه عن الديانة العربية الجنوبية بمقـــدار ٧٠ صفحة

---

١ - آل - اله - الهة - الات : يقول « نيلسن » ان الاسم المشترك لكل القاب اله القمر هو « ال » و « اله » بمعنى « الله » او ال . . . لكن نلاحظ في جميع اللغات السامية ان لفظ « ال » او « اله » في عهد تعدد الالهة يقابــل تماماً لفظ (الات) او الهة ليس فقط كبدل لكل « اله » او « الهة » لكن كثيراً ماجاء كاسم علم كاسم خاص لاله وجاء في النقوش العربية الجنوبية من مدينة حرام ذكر ال كالهة

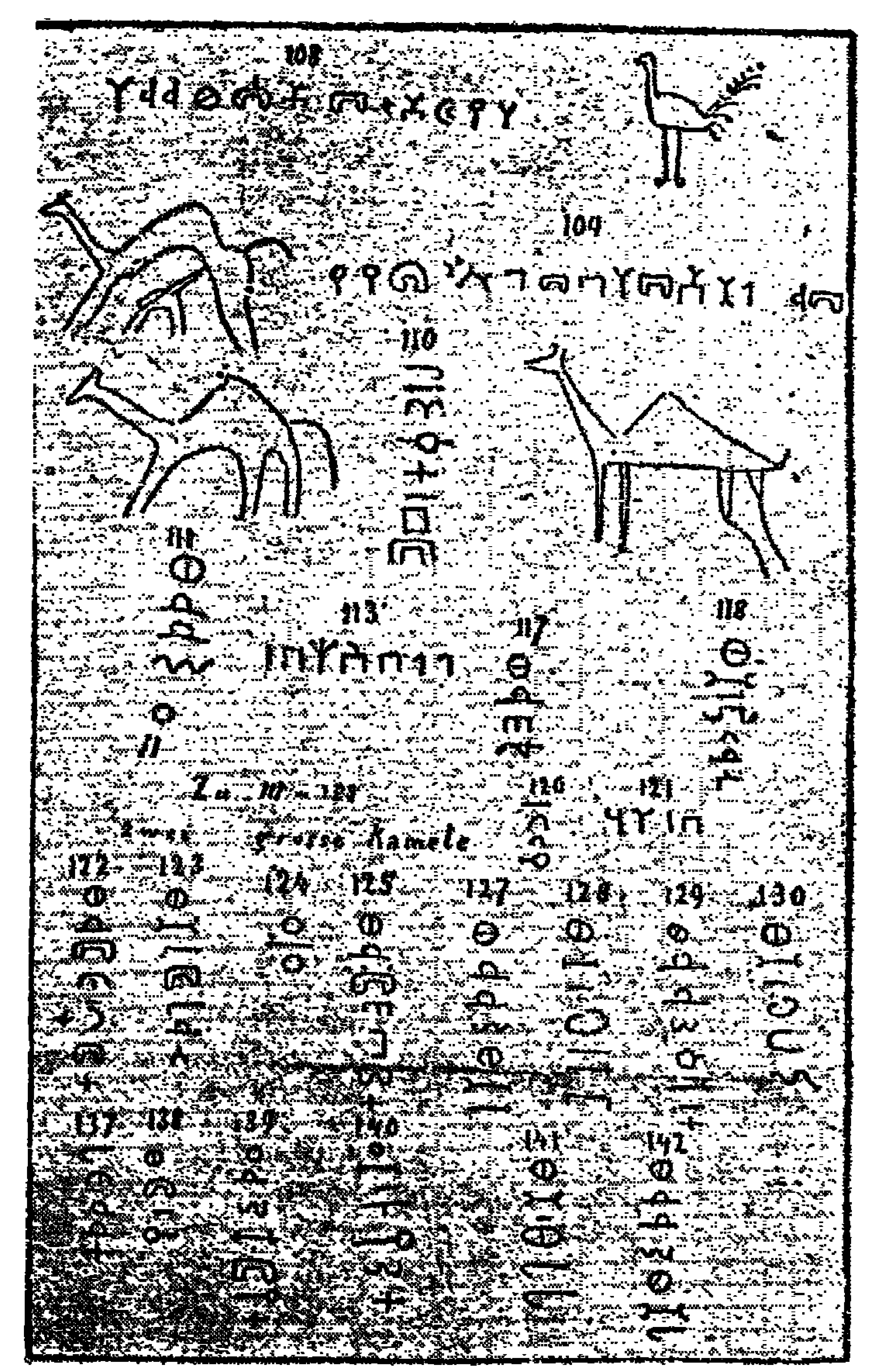
٢ - رضى : وقد كانت العرب تسمي باسماء يعبدونها منها عبد ياليل عبد غنم عبد كلال عبد رضى . ويذكر بعض الرواة ان رضى كان بيتاً لبني ربيعة فهدمه المستوغر ، وقال المستوغر في كسره رضى في الاسلام

ولقد شددت عـلى رضاء شدة فتركتها تـلا تنازع أسحما

كتاب الاصنام لابن الكلبي ص ٣٠

لها دلالة معنوية اصبحت ومعناها رحمة

الاسم العربي الشمالي للمشتري هو رضى ص ١٩٢



خربشة ثمودية من بلاد العرب الشمالية عن أ. ليتمان حول الكتابات الثمودية ١٩٠٤ اللوح ٣ منشورات جمعية الشرق الادنى العام التاسع المجلد ١

تعرض فيها لاسماء هذه الالهه بالتفصيل) .

الكتابات الصفوية :

مجموعه أخرى من النقوش تقدر بحوالي ٣ الاف نقش عثر عليها فوق جبال الصفا جنوب شرق دمشق ، وهي قريبه جداً من حيث الخط واللغة

وأسماء الآلهة للمخربشات الثمودية . منهامايرجع الى ٢٠٦ م و ١٢٤ م و ١٠٦م . وفيها نقرأ اسماء المعبودات مثل : آله (ه ال ه و آلت) و « رضى » الى جانب اسماء معبودات سامية شمالية ونستطيع القول إن تلك المنطقة تقف على الحدود الفاصلة بين ثقافتين سامية جنوبية وأخرى سامية شمالية .

فالصفويون هم الوحيدون الذين نعرف شيئاً عنهم ، قبل ان يمتزجوا في الشعوب السامية الشمالية . فقد عرفناهم عن طريق هذه النقوش ، وهم مازالوا محتفظين بالخط السامي الجنوبي واللغة والعقائد السامية الجنوبية أيضاً . وذلك لانهم كما يتبين من اثارهم لم يتركوا حياة البداوة نهائياً ، بل كانوا يحيون حياة تجمع بين البداوة والحضارة وبالتدريج امتزجوا مع القبائل الشمالية المستقرة فبدأت تدخل المفردات والتراكيب السامية الشمالية الى هذه الوثائق الصفوية . ففي العصر الذي دونت فيــه النقوش الصفوية كانت الثقافة الهلينية جامحة قوية ، فقـد عثر العلماء مثلاً على نقوش تذكارية ترجع إلى القرن الرابع الميلادى في اللغـة اليونانية جــاء فيها ذكر للآلهة الصفوية التي اطلــق عليها اليونان (اثينا) كما اطلق على كبير آلهة الصفويين اسم (زويس صنا ئنوس) ومن بين النقوش العربية الشمالية التي ترجع الى ماقبل الاسلام ، ماكانت لغتها تتفق واللغة العربية الادبية التي نعرفها ، ومن الجدير بالملاحظة أنها ليست مدونة بالخط السامي الجنوبي ، بل دونت بالكتابة الارامية السامية الشمالية التي تطورت عنها فيما بعد الكتابة العربية الادبية في التدوين . وأهم هذه النقوش « نقش النمارا » الذي عثر عليه « رينيه ديسو » جنوب شرق دمشق على جبل الصفا ، وهو نقش على قبر الملك « امرؤ القيس بن عمرو ملك جميع العرب » وقد توفي كما يدل النقش عام ٣٢٨ ويختتم هذا النقش بنص يفيدنا في تاريخ الاديان وهو :

ب ال س ع د ذ و ل ده ومعنى هــذه العبارة : بالاله سعد الذي ولده « أي امرؤ القيس » ، والى القرن السادس الميلادي يرجع نقشان عربيان

مؤرخان أحدهما في ثلاث لغات وهـــو « نقش زبد » جنوب شرق حلب وكتب باليونانية والسريانية والعربية ويرجع الى ٥١٢ م .

والنقش الثاني هو « نقش حران » ودون بلغتين اليونانية والعربية ويرجع تاريخه الى ٥٦٨ م . وقد اكتشفت نقوش سبائية جديدة ، غير التي تعرف باسم الخربشات السينائية النبطية . وقد أثارت اهتماماً عظيماً .

ففي عام ١٩٠٥ عثر « فلندرز بتري » بوادي « مغارا » في الجانب الغربي من شبه جزيرة سيناء ، فيما يقرب من منتصف الطريق بين السويس ورأس محمد على مجموعة من الرسوم البدائية ، و١١ نقشاً في ابجدية جديدة ، هي خليط من « الهيروغليفية » المصرية ، واشارات اخرى اجنبية . هذه النقوش الفريدة التي فهم بعضها ، ويظهر فيها لفـــظ « ب ع ل ت » أي « بعلة » أي « سيدة » وضعت مسألة أصل نشأة الابجديـــة الساميـــة بشكليها الشمالية والجنوبية تحت ضوء جديد للبحث والدرس فتبين ان الابجدية السامية الشمالية والجنوبية نشأتا في الألف الاول قبل الميلاد وترجعان الى ابجدية واحدة كانت معروفة في الألف السابق على انقسامهاو ان هذه الابجدية الام تشير الى الاصل المصري كما أن هذه النصوص السينائية التي ترجع الى الفترة الممتدة فيمابين ١٨٠٠ ـ ١٥٠٠ ق . م هي الحلقة المفقودة في تطور ابجديتنا .

استكمال (من قبل المترجم)

ـ لقد وقف « نيلسن » بحديثه عن آخر أعمال البحث والتنقيب التي قام بها العلماء الغربيون في بلاد العرب الجنوبية عند اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى ، و اذا كان من نتيجتها ان أوقفت البعوث الى الدراسات السامية .

ـ ففي عام ١٩٢٨ وصلت بعثة الى بلاد اليمن من العالمين « ريجنز » و « فون

فيسان » احتفل الامام بها ، وطلب منها الاشراف على اعمال الحفر التي كان يقوم بها في قرية « حقه » شمال صنعاء .

ـ وفي عام ١٩٣٦ . أرسلت جامعة « القاهرة » بعثة أثرية إلى بلاد اليمن وصرفت ستة شهور زارت « حضرموت » و « ناعط » قرب صنعاء . ونشر الدكتور « خليل يحيى نامي »عضو البعثة ما أحضرته البعثة من نقوش .

ـ وفي عام ١٩٣٦ أيضاً زار اليمن سوري يدعي « نزار مؤيد العظم » واقام في « صرواح » و « مأرب » وكتب عن رحلته رسالة نشرها في القاهرة عام ١٩٣٨ . اما نقوشه فقد درسها « ج . ريكمنز » .

ـ وفي عـــام ١٩٣٧ نجد ثـلاث رحالات هـن « ج . كاتون تمسون » و« آ. جاردنر» و « ف . شترك » يفدن إلى حضرموت ووادي « عمد » مقابل « حريضة » فكفشن عن معبد « لاله القمر » وعدد من النقوش وقد نشرت نتيجة رحلتهن عام ١٩٤٤ .

ـ كما قام بعض المغامرين برحلات إلى بلاد العرب السعيدة ، اقتصر نشاطها على نقل النقوش والكتابات وأشهرهم (فيلبي) حيث بدأ من (جدة) ماراً (بخرمة) (فعسير) (فنجران ا إلى (شبوة) ويريم في حضرموت ونشر نتائج رحلته بكتاب عام ١٩٣٩ .

ـ ثم نجد رحلات سياسية المظهر كالتي قام بها (هارولد) و (انجرامز) أفادتنا من الناحية الجغرافية عن اقليم حضرموت .

ـ وفي عام ١٩٣٨ نجد الصاغ (ا. هاملتون) يقوم بزيارة الى (شبوه. عاصمة حضرموت .

ـ وفي عام ١٩٤٥-١٩٤٦ قام (تزيجر) بعدة رحلات إلى بلاد العرب السعيدة كتب عنها في الصحيفة الجغرافية .

ـ وفي عام ١٩٤٥ غزت ارتال من الجراد بلاد اليمن ، فاستغاث الامام بمصر فأرسلت جامعة القاهرة (محمد توفيق) فانتهز وجوده فقام بزيارة الى الجوف وصور خرائبه ، ونشر جزءاً منها عام ١٩٥١ وانفرد الدكتور خليل يحيى نامي بنشر بعض النقوش التي جاء بها .

ـ وفي عام ١٩٤٧ زار الدكتور « أحمد فخري » اليمن عدة مرات ، وزار ثلاث مناطق أثرية . صرواح ـ مأرب ـ الجوف . واحضر صوراً ونقوشاً لـ ١٣٠ نقشاًلم تنشر من قبل .

رأينا من العرض السابق المجهودات التي بذلتها بعض الدول الاوروبية والعربية في سبيل الكشف عـــن آثار بلاد العرب الجنوبية ودراستها . والآن مامدى مساهمة الولايات المتحدة الامريكية في هذا النشاط العلمي . ؟

ـ في عام ١٩٤٧ حلقت طائرة أمريكية تحمل عدداً من اعيان اليمن وبعض الامريكيين فوق خرائب اليمن وفيمابين عامي ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢ نظمت مؤسسة دار الانسان الامريكية حملتين علميتين برئاسة الاثري « وندل فيلبس » الحملة الاولى اهتمت بعدن و الثانية باليمن . وقد توصلت البعثة إلى نتائج قيمة سواء في اليمن اوعدن وقامت بدراسة مستفيضة حول طرق الري قديماً في مملكة قتبان كما كشفت عن معابد (تمنع) العاصمةالقديمة لـ (قتبان) ومنها علمنا ان آخر مرة خربت فيها (تمنع) كان حوالي ٢٥ ق . م وكشفت أيضاً البعثة في مأرب عـــن خرائب ترجع الى القرن السابع قبل الميلاد . مثل معبد « اله القمر » و « سد مأرب » وبعض النقوش السبائية . وقامت بحفائر في « ظفار » والبليد «وخور روري » . والفضل في ازدياد ثروتنا العلمية عن بلاد العرب الجنوبية يرجع ولاشك في الاعوام الاخيرة إلى هاتين الحملتين

ـ وفي عام ١٩٥١ تحرك في السعوديةركب مكون من« ريكنز » وابن اخيه

و لنبنز » بزعامه « فيلبي » من جدة ماراً بالطائف و أبها إلى نجران . ومن هناك على طريق الربع الخالي الى (الرياض) فقطعوا بسيارتهم ٥ كم الاف في أرض مجهولة . وعادوا ومعهم من الاثار نحو ١٢ ألف كتابة قد نسخت من بينها ٩ الاف كتابة ثمودية و٣ الاف نقش سبائي . وفي عين مار عثرت البعثة على نقش (لابرهة الحبشي) يرجع إلى عام ٥٤٧ م ونقش آخر الى عام ٥١٨ م وهو لذي نواس . كما وجدت عدداً كبيراً من النقوش العربية و الاسلامية .

ولكن يجب ان نقرر ونحن « الكلام للمترجم » نختتم كتابة هذا الفصل الخاص بأعمال الكشف والتنقيب التي تمت في بلاد العرب اخيراً ان بلاد العرب بعامة في حاجة ماسة الى اعمال البحوث العلمية لتجلو الكثير من تاريخها وحضارتها وثقافتها وعقائدها بل وحتى لغاتها وذلك لان تاريخ هذه البلاد مازال غامضاً حتى اليوم ، وهو في حاجة ماسة الى الكشف عنه .

عرض خالد السباعي

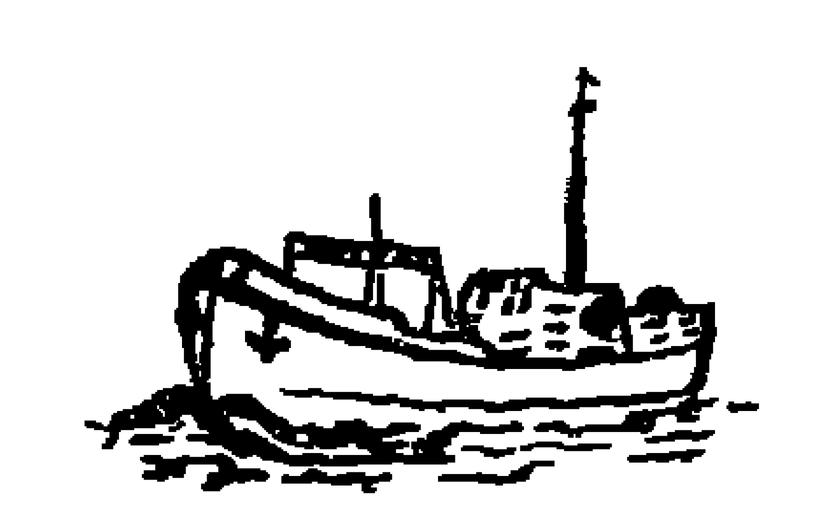
١ - المعينيون : يرجع تاريخهم إلى ١١٢٠ ق . م — ٦٣٠ ق . م

٢ - الحضرميون : يرجع تاريخهم إلى ١٠٢٠ ق . م — ٢٩٠ م

٣ - القتبانيو : يرجع تاريخهم إلى ٨٦٥ ق . م — ٥٤٠ م

٤ - السبئيون : يرجع تاريخهم إلى ٨٠٠ ق . م — ٦٢٨ م

اندمجت قتبان في سبأ . حيث سلم (باذان) المندوب السامي الفارسي الرابع (سبأ) الى النبي محمد ﷺ .



جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢	١٥	مهيئة	مهيأة
٢٤	٧	ويتبني	تويمني
٤٨	٨	همت	هممت
٥٦	١١	للسور جرة	للسور على جرة
٦١	٥	لم يمهله	لم يمهله ليحقق
٧٤	١٥	عليا	عليها
١١٣	٨	الفاطمون	الفاطميون على
١٢١	٧	طرائف	طرائق
١٢٦	٢٤	صفن	صفين
١٢٧	١٣	وتحته	تحته
١٢٨	٧	مضف	نصف
١٣٩	٧	أمير فيها	أمير من فيها
١٦٠	١٤	فأخبره	فأخبر
١٧٠	١٩	أزال	أزل
١٧٢	٤	باب	إلى باب
١٨٦	١	ولما	لما
١٩٧	١١	ثم سمع	ثم سمع أن
٢٠١	٨	وفاته	ولادته
٢٠٤	٣	بنبل	بنبيل
٢٠٩	١١	علياً	كلها

ملاحظة : اقتصرنا في هذا الجدول على ذكر ما هو ضروري ، اما سائر الأخطاء المطبعية الطفيفة والمدركة لأول وهلة فلم نذكرها .

